سورة الحج

١ـ سميت هذه السورة سورة الحج في زمن النبيﷺ.

أخرج أبو داود، والترمذي عن عقبة بن عامر قال: «**قلت: يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم**».

وأخرج أبو داود، وابن ماجه عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان.

وليس لهذه السورة اسم غير هذا.

ووجه تسميتها سورةُ الحج أن الله ذكر فيها كيف أمر إبراهيم ـعليه السلامـ بالدعوة إلى حج البيت الحرام، وذكر ما شرع للناس يومئذ من النسك؛ تنويهاً بالحج وما فيه من فضائل ومنافع، وتقريعاً للذين يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام، وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق، وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة، وفي سورة آل عمران. ١٧/١٧٩

٢ـ واختلف في هذه السورة هل هي مكية أو مدنية، أو كثير منها مكي وكثير منها مدني. ١٧/١٨٠

٣ـ وقال الجمهور هذه السورة بعضها مكي وبعضها مدني وهي مختلطة، أي لا يعرف المكي بعينه، والمدني بعينه، قال ابن عطية: «وهو الأصح». ١٧/١٨٠

٤ـ وأقول: ليس هذا القول مثل ما يكثر أن يقولوه في بضع آيات من عدة سور: إنها نزلت في غير البلد الذي نزل فيه أكثر السورة المستثنى منها، بل أرادوا

أن كثيراً منها مكي ، وأن مثله أو يقاربه مدني ، وأنه لا يتعين ما هو مكي منها وما هو مدني؛ ولذلك عبروا بقولهم : هي مختلطة. ١٧/ ١٨٠

٥ـ **ويشبه أن يكون أولها نزل بمكة؛** فإن افتتاحها بـ:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ جارٍ على سنن فواتح السور المكية.

وفي أساليب نظم كثير من آياتها ما يلائم أسلوب القرآن النازل بمكة.

ومع هذا فليس الافتتاح بـ:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ بمعين أن تكون مكية ، وإنما قال ابن عباس : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يراد به المشركون؛ ولذا فيجوز أن يوجه الخطاب به إلى المشركين في المدينة في أول مدة حلول النبي ﷺ بها؛ فإن قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يناسب أنه نزل بالمدينة حيث صد المشركون النبي والمؤمنين عن البقاء معهم بمكة.

وكذلك قوله : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فإنه صريح في أنه نزل في شأن الهجرة. ١٧/ ١٨٠ـ١٨١

٦ـ **ومن أغراض هذه السورة:** خطابُ الناسِ بأمرهم أن يتقوا الله ، ويخشوا يومَ الجزاءِ وأهوالَه.

والاستدلالُ على نفي الشرك ، وخطابُ المشركين بأن يُقلعوا عن المكابرة في الاعتراف بانفراد الله ـتعالى ـ بالإلهية وعن المجادلة في ذلك؛ اتباعاً لوساوس الشياطين ، وأن الشياطينَ لا تغني عنهم شيئاً ، ولا ينصرونهم في الدنيا وفي الآخرة.

وتفظيعُ جدالِ المشركين في الوحدانية بأنهم لا يستندون إلى علم وأنهم

يُعرضون عن الحُجة؛ ليضلوا الناس.

وأنهم يرتابون في البعث وهو ثابتٌ لا رِيْبَةَ فيه، وكيف يرتابون فيه بِعِلَّةِ استحالةِ الإحياءِ بعد الإماتة؟ ولا ينظرون أن اللهَ أوجد الإنسانَ من تراب، ثم من نطفة، ثم طوَّره أطواراً.

وأن اللهَ ينزلُ الماءَ على الأرض الهامدةِ، فتحيا، وتُخْرِجُ من أصناف النبات؛ فالله هو القادرُ على كلِّ ذلك؛ فهو يحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير.

وأن مجادلتَهم بإنكار البعث صادرةٌ عن جهالة وتكبر عن الامتثال لقول الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

وَوَصْفُ المشركين بأنهم في تردد من أمرهم في اتباع دين الإسلام.

والتعريضُ بالمشركين بتكبُّرِهم عن سُنَّةِ إبراهيمَ -عليه السلام- الذي ينتمون إليه، ويحسبون أنهم حماةُ دينهِ، وأمناءُ بيته، وهم يخالفونه في أصل الدين.

وتذكيرٌ لهم بما مَنَّ اللهُ عليهم في مشروعية الحج من المنافع؛ فكفروا نِعْمَتَه.

وتنظيرُهم في تلقي دعوةِ الإسلام بالأمم البائدة الذين تلقَّوا دعوة الرسل بالإعراض والكفر؛ فحل بهم العذاب.

وأنه يوشك أن يَحِلَّ بهؤلاء مِثْلُهُ؛ فلا يَغُرَّهم تأخيرُ العذاب؛ فإنه إملاءٌ مِنَ اللهِ لهم كما أملى للأمم مِنْ قَبْلِهِمْ، وفي ذلك تأنيسٌ للرسول -عليه الصلاة والسلام- والذين آمنوا، وبشارة لهم بعاقبة النصر على الذين فَتَنوهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حقٍّ.

وأن اختلافَ الأممِ بين أهل هدىً وأهل ضلالٍ أمرٌ به افترقَ الناسِ إلى مللٍ كثيرة.

وأن يومَ القيامةِ هو يومُ الفصلِ بينهم لمشاهدة جزاءِ أهلِ الهدى وجزاءِ أهلِ الضلال.

وأن المهتدين والضالين خصمان اختصموا في أمر الله؛ فكان لكلٍّ فريقٍ جزاؤه.

وسَلّى اللهُ رسولَه ـعليه الصلاة والسلامـ والمؤمنين بأن الشيطانَ يُفْسِدُ في قلوب أهل الضلالة آثارَ دعوةِ الرسلِ، ولكنَّ اللهَ يُحكم دينَه، ويبطل ما يلقي الشيطان؛ فلذلك ترى الكافرين يُعْرِضُون، وينكرون آياتِ القرآن.

وفيها التنويهُ بالقرآن والمتلقين له بخشية وصبر، ووصفُ الكفارِ بكراهيتهم القرآن، وبغضِ المُرْسَلِ به، والثناءُ على المؤمنين، وأن اللهَ يَسَّرَ لهم اتباعَ الحنيفيةِ وسماهم المسلمين.

والإذنُ للمسلمين بالقتال، وضمانُ النصرِ، والتمكينُ في الأرض لهم.

وخُتِمَتِ السورةُ بتذكير الناسِ بِنِعَمِ اللهِ عليهم، وأن اللهَ اصطفى خَلْقاً مِنَ الملائكة ومِنَ الناس؛ فأقبل على المؤمنين بالإرشاد إلى ما يقربهم إلى الله زلفى، وأن الله هو مولاهم وناصرُهم. ١٧/١٨٣ـ١٨٥

٧ـ **فأما المجوس** فهم أهل دين يثبت إلهين: إلهاً للخير، وإلهاً للشر، وهم أهل فارس.

ثم هي تتشعب شعباً تأوي إلى هذين الأصلين.

وأقدم النحل المجوسية أسسها (كيومرث) الذي هو أول ملك بفارس في أزمنة قديمة يظن أنها قبل زمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولذلك يلقب ـأيضاًـ بلقب (جل شاه) تفسيره: ملك الأرض.

غير أن ذلك ليس مضبوطاً بوجه علمي، وكان عصر (كيومرث) يلقب (زروان) أي الأزل، فكان أصل المجوسية هم أهل الديانة المسماة: الزروانية وهي تثبت إلهين هما (يزدان) و (أهرمن).

قالوا: كان يزدان منفرداً بالوجود الأزلي، وأنه كان نورانياً، وأنه بقي كذلك تسعة آلاف وتسعين سنة، ثم حدث له خاطر في نفسه: أنه لو حدث له منازع كيف يكون الأمر؛ فنشأ من هذا الخاطر موجود جديد ظلماني سمي (أَهْرُمَنْ) وهو إله الظلمة مطبوعاً على الشر والضر، وإلى هذا أشار أبو العلاء المعري بقوله في لزومياته:

قال أناسٌ باطلٌ زَعْمُهُمْ ... فراقبوا الله ولا تزعمن
فَكَّر يزدانُ على غِرَّةٍ ... فصيغ من تفكيره أَهْرُمَنْ

فحدث بين (أهرمن) وبين (يزدان) خلاف ومحاربة إلى الأبد، ثم نشأت على هذا الدين نحل خُصَّت بألقاب، وهي متقاربة التعاليم أشهرها نحلة (زرادشت) الذي ظهر في القرن السادس قبل ميلاد المسيح، وبه اشتهرت المجوسية.

وقد سمي إله الخير (أهورا مزدا) أو (أرمزد) أو (هرمز).

وسمي إله الشر (أهرمن) وجعل إله الخير نوراً، وإله الشر ظلمة، ثم دعا الناس إلى عبادة النار على أنها مظهر إله الخير وهو النور، ووسع شريعة المجوسية، ووضع لها كتاباً سماه (زندافستا).

ومن أصول شريعته تجنب عبادة التماثيل.

ثم ظهرت في المجوس نحلة (المانوية) وهي المنسوبة إلى (ماني) الذي ظهر في زمن سابور بن أردشير ملك الفرس بين سنة ٢٣٨ وسنة ٢٧١م.

وظهرت في المجوس نحلة (المزدكية) وهي منسوبة إلى (مزدك) الذي ظهر في زمن قباذ بين سنة ٤٨٧ وسنة ٥٢٣م، وهي نحلة قريبة من (المانوية)، وهي آخر نحلة ظهرت في تطور المجوسية قبل الفتح الإسلامي لبلاد الفرس.

وللمجوسية شبه في الأصل بالإشراك إلا أنها تخالفه بمنع عبادة الأحجار، وبأن لها كتاباً، فأشبهوا بذلك أهل الكتاب؛ ولذلك قال النبيﷺ فيهم: «**سنوا بهم سنة أهل الكتاب**».

أي في الاكتفاء بأخذ الجزية منهم دون الإكراه على الإسلام كما يكره المشركون على الدخول في الإسلام. ١٧/٢٢٣ـ٢٢٤

٨ـ **والتفث**: كلمة وقعت في القرآن، وتردد المفسرون في المراد منها، واضطرب علماء اللغة في معناها لعلهم لم يعثروا عليها في كلام العرب المحتج به.

قال الزجاج: إن أهل اللغة لا يعلمون التفث إلا من التفسير، أي من أقوال المفسرين، فعن ابن عمر وابن عباس: التفث: مناسك الحج وأفعاله كلها، قال ابن العربي: «لو صح عنهما لكان حجة الإحاطة باللغة».

قلت: رواه الطبري عنهما بأسانيد مقبولة، ونسبه الجصاص إلى سعيد، وقال نفطويه وقطرب: التفث: هو الوسخ والدرن، ورواه ابن وهب عن مالك ابن أنس، واختاره أبو بكر بن العربي، وأنشد قطرب لأمية بن أبي الصلت:

حفوا رؤوسهم لم يحلقوا تفثاً ... ولم يسلوا لهم قملاً وصئبانا

ويحتمل أن البيت مصنوع؛ لأن أئمة اللغة قالوا: لم يجئ في معنى التفث شعر يحتج به.

قال نفطويه: سألت أعرابياً: ما معنى قوله: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾، فقال: ما أفسر القرآن، ولكن نقول للرجل ما أتفثك، أي ما أدرنك.

وعن أبي عبيده: التفث: قص الأظفار، والأخذ من الشارب، وكل ما يحرم على المحرم، ومثله قوله عكرمة ومجاهد، وربما زاد مجاهد مع ذلك: رمي الجمار.

وعن صاحب العين والفراء والزجاج: التفث الرمي، والذبح، والحلق، وقص الأظفار والشارب وشعر الإبط.

وهو قول الحسن، ونسب إلى مالك بن أنس ـأيضاًـ.

وعندي: أن فعل ﴿لِيَقْضُوا﴾ ينادي على أن التفث عمل من أعمال الحج وليس وسخاً ولا ظفراً ولا شعراً، ويؤيده ما روي عن ابن عمر وابن عباس آنفاً، وأن موقع (ثم) في عطف جملة الأمر على ما قبلها ينادي على معنى التراخي الرتبي، فيقتضي أن المعطوف بـ: (ثم) أهم مما ذكر قبلها؛ فإن أعمال الحج هي المهم في الإتيان إلى مكة؛ فلا جرم أن التفث هو مناسك الحج، وهذا الذي درج عليه الحريري في قوله في المقامة المكية: «فلما قضيت بعون الله التفث، واستبحت الطيب والرفث ـ صادف موسم الخيف معمعان الصيف». ١٧/٢٤٨ـ٢٤٩

٩ـ **الشعائر**: جمع شعيرة: المعلم الواضح مشتقة من الشعور.

وشعائر الله: لَقَبٌ لمناسك الحج، جمع شعيرة بمعنى: مشعرة بصيغة اسم الفاعل أي معلمة بما عَيَّنَهُ الله.

فمضمون جملة: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ الخ، أخص من مضمون جملة: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ وذكر الأخص بعد الأعم للاهتمام، أو بمعنى مشعر بها؛ فتكون شعيرة فعيلة بمعنى مفعولة؛ لأنها تُجْعَل؛ ليشعر بها الرائي.

وتقدم ذكرها في قوله ـتعالى ـ: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ في سورة البقرة، فكل ما أمر الله به بزيارته، أو بفعل يوقع فيه فهو من شعائر الله، أي مما أشعر الله الناس وقرره، وشَهَره، وهي معالم الحج: الكعبة، والصفا والمروة، وعرفة، والمشعر الحرام، ونحوها من معالم الحج.

وتطلق الشعيرة ـأيضاًـ على بدنة الهدي، قال ـتعالى ـ: ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ لأنهم يجعلون فيها شعاراً، والشعار العلامة بأن يطعنوا في جلد جانبها الأيمن طعناً حتى يسيل منه الدم فتكون علامة على أنها نُذِرَتْ للهدي؛ فهي فعيلة بمعنى مفعولة مصوغة من أشعر على غير قياس. ٢٥٦/١٧

١٠ـ **والقانع**: المتصف بالقنوع، وهو التذلل، يقال: قَنَعَ من باب سأل، قُنُوعاً ـ بضم القاف ـ إذا سأل بتذلل.

وأما القناعة ففعلها من باب تَعِبَ، ويستوي الفعل المضارع مع اختلاف الموجب، ومن أحسن ما جُمِع من النظائر ما أنشده الخفاجي:

العَبْدُ حُرٌّ إن قَنِع والحر عبد إن قَنَع
فاقنَع ولا تقنَع فما شيء يشين سوى الطمع

وللزمخشري في مقاماته: «يا أبا القاسم اقنع من القناعة لا من القُنوع، تستغن عن كل معطاء ومنوع».

وفي الموطأ في كتاب الصيد: «قال مالك: والقانع هو الفقير».

والمعترّ: اسم فاعل من اعتر إذا تعرض للعطاء، أي دون سؤال، بل بالتعريض وهو أن يحضر موضع العطاء، يقال: اعتر، إذا تعرض.

وفي الموطأ في كتاب الصيد: قال مالك: «وسمعت أن المعتر هو الزائر، أي فتكون من عرا إذا زار».

والمراد زيارة التعرض للعطاء.

وهذا التفسير أحسن، ويرجحه أنه عطف (المعتر) على (القانع) فدل العطف على المغايرة، ولو كانا في معنى واحد لما عطف عليه كما لم يعطف في قوله: ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾. ١٧/٢٦٥-٢٦٦

١١- وقد عرض غير مرة سؤال عما إذا كانت الهدايا أوفر من حاجة أهل الموسم قطعاً أو ظناً قريباً من القطع كما شوهد ذلك في مواسم الحج، فما يبقى منها حياً يباع وينفق ثمنه في سد خَلَّة المحاويج أجدى من نحره أو ذبحه حين لا يرغب فيه أحد.

ولو كانت اللحوم التي فات أن قطّعت، وكانت فاضلة عن حاجة المحاويج يعمل تصبيرها بما يمنع عنها التعفن فينتفع بها في خلال العام أجدى للمحاويج.

وقد تَرَدَّدَتْ في الجواب عن ذلك أنظارُ المتصدين للإفتاء من فقهاء هذا العصر، وكادوا أن تتفق كلماتُ مَنْ صدرت منهم فتاوى على أن تصبيرها منافٍ للتعبد بهديها.

أما أنا فالذي أراه أن المصير إلى كلا الحالين من البيع والتصبير لما فضل عن حاجة الناس في أيام الحج؛ لينتفع بها المحتاجون في عامهم - أوفق بمقصد الشارع؛ تجنباً لإضاعة ما فضل منها؛ رعياً لمقصد الشريعة من نفع المحتاج، وحفظ الأموال مع عدم تعطيل النحر والذبح للقدر المحتاج إليه منها المشار إليه بقوله -تعالى-:

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ جمعاً بين المقاصد الشرعية.

وتَعْرِضُ صورة أخرى وهي توزيع المقادير الكافية للانتفاع بها على أيام النحر الثلاثة بحيث لا يتعجل بنحر جميع الهدايا في اليوم الأول؛ طلباً لفضيلة المبادرة؛ فإن التقوى التي تصل إلى الله من تلك الهدايا هي تسليمها للنفع بها.

وهذا قياس على أصل حفظ الأموال كما فرضوه في بيع الفرس الحُبْس إذا أصابه ما يفضي به إلى الهلاك أو عدم النفع، وفي المعاوضة لربع الحبس إذا خرب. ١٧/٢٦٨ـ٢٦٩

١٢ـ **وحكم الهدايا مركب من تعبد وتعليل،** ومعنى التعليل فيه أقوى، وعلته انتفاع المسلمين، ومسلكُ العلةِ الإيماءُ الذي في قوله ـتعالىـ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾.

واعلم أن توهم التقرب بتلطيخ دماء القرابين وانتفاع المتقرب إليه بتلك الدماءـ عقيدة وثنية قديمة؛ فربما كانوا يطرحون ما يتقربون به من لحم وطعام؛ فلا يدعون أحداً يأكله، وكان اليونان يشوون لحوم القرابين على النار حتى تصير رماداً ويتوهمون أن رائحة الشواء تسر الآلهةَ المُتَقَرَّبَ إليها بالقرابين.

وكان المصريون يلقون الطعام للتماسيح التي في النيل؛ لأنها مقدسة. ١٧/٢٦٩

١٣ـ **والصوامع**: جمع صومعة بوزن فَوْعلة، وهي بناء مستطيل مرتفع يصعد إليه بدرج وبأعلاه بيت، كان الرهبان يتخذونه للعبادة؛ ليكونوا بعداء عن مشاغلة الناس إياهم، وكانوا يوقدون به مصابيح للإعانة على السهر للعبادة؛

ولإضاءة الطريق للمارين؛ من أجل ذلك سميت الصومعة المنارة، قال امرؤ القيس:

تضيءُ الظلامَ بالعشي كأنها منارة مُمْسى راهبٍ متبتل

والبِيَعُ: جمع بِيْعة ـ بكسر الباء وسكون التحتية ـ مكان عبادة النصارى، ولا يعرف أصل اشتقاقها، ولعلها معربة عن لغة أخرى.

والصلوات: جمع صلاة وهي هنا مراد بها كنائسُ اليهود معربة عن كلمة (صلوثا) ـبالمثلثة في آخره بعدها ألفـ فلما عربت جعلوا مكان المثلثة مثناة فوقية وجمعوها كذلك.

وعن مجاهد، والجحدري، وأبي العالية، وأبي رجاء أنهم قرأوها هنا ﴿وَصَلَوَاث﴾ بمثلثة في آخره.

وقال ابن عطيه: قرأ عكرمة، ومجاهد ﴿صلويثا﴾ ـبكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الألف بعد الثاءـ (أي المثلثة كما قال القرطبي).

وهذه المادة قد فاتت أهل اللغة، وهي غفلة عجيبة.

والمساجد: اسم لمحل السجود من كل موضع عبادة ليس من الأنواع الثلاثة المذكورة قبله وقت نزول هذه الآية؛ فتكون الآية نزلت في ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة حين بنوا مسجد قباء، ومسجد المدينة. ١٧/ ٢٧٧ـ٢٧٨

١٤ـ **والمراد بالمعروف**: ما هو مقرر من شؤون الدين: إما بكونه معروفاً للأمة كلها: وهو ما يعلم من الدين بالضرورة فيستوي في العلم بكونه من الدين سائر الأمة، وإما بكونه معروفاً لطائفة منهم وهو دقائق الأحكام، فيأمر به الذين من

شأنهم أن يعلموه وهم العلماء على تفوت مراتب العلم ومرتب[1] علمائه.

والمنكر: ما شأنه أن ينكر في الدين، أي أن لا يُرضى بأنه من الدين، وذلك كل عمل يدخل في أمور الأمة والشريعة وهو مخالف لها؛ فعلم أن المقصود بالمنكر الأعمال التي يراد إدخالها في شريعة المسلمين وهي مخالفة لها، فلا يدخل في ذلك ما يفعله الناس في شؤون عاداتهم مما هو في منطقة المباح، ولا ما يفعلون في شؤون دينهم مما هو من نوع الديانات كالأعمال المندرجة تحت كليات دينية، والأعمال المشروعة بطريق القياس وقواعد الشريعة من مجالات الاجتهاد والتفقه في الدين.

والنهي عن المنكر آيل إلى الأمر بالمعروف وكذلك الأمر بالمعروف آيل إلى النهي عن المنكر، وإنما جمعت الآية بينهما باعتبار أول ما تتوجه إليه نفوس الناس عن مشاهدة الأعمال، ولتكون معروفة دليلاً على إنكار المنكر، وبالعكس؛ إذ بضدها تتمايز الأشياء، ولم يزل من طرق النظر والحجاج الاستدلال بالنقائض والعكوس. ٢٨١/١٧

١٥ـ **والإملاء**: ترك المتلبس بالعصيان دون تعجيل عقوبته، وتأخيرها إلى وقت متأخر حتى يحسب أنه قد نجا، ثم يؤخذ بالعقوبة. ٢٨٤/١٧

١٦ـ **والتمني**: كلمة مشهورة، وحقيقتها: طلب الشيء العسير حصوله.

والأُمْنِيَّة: الشيء المتمنى، وإنما يتمنى الرسل والأنبياء أن يكون قومهم كلهم صالحين مهتدين. ٢٩٧/١٧ـ٢٩٨

---

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: ومراتب. (م)

١٧ـ **ومعنى إلقاء الشيطان في أمنية النبي والرسول** إلقاء ما يضادها، كمن يمكر فيلقي السم في الدسم؛ فإلقاء الشيطان بوسوسته: أن يأمر الناس بالتكذيب والعصيان، ويلقي في قلوب أئمة الكفر مطاعن يبثونها في قومهم، ويروج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكر البرهان.

والله ـتعالىـ يعيد الإرشاد ويكرر الهدي على لسان النبي، ويفضح وساوس الشيطان وسوء فعله بالبيان الواضح. ١٧/٢٩٨ـ٢٩٩

١٨ـ **وقد فسر كثير من المفسرين ﴿ تَمَنَّى ﴾ بمعنى قرأ،** وتبعهم أصحاب كتب اللغة وذكروا بيتاً نسبوه إلى حسان بن ثابت، وذكروا قصة بروايات ضعيفة سنذكرها.

وأيَّاماً كان فالقول فيه هو والقول في تفسير التمني بالمعنى المشهور سواء، أي إذا قرأ على الناس ما أنزل إليه؛ ليهتدوا به ألقى الشيطان في أمنيته، أي في قراءته، أي وسوس لهم في نفوسهم ما يناقضه وينافيه بوسوسته للناس التكذيب والإعراض عن التدبر؛ فَشَبَّهَ تسويلَ الشيطان بوسوسته للكافرين عدم امتثال النبي بإلقاء شيء في شيء؛ لِخَلْطه وإفساده.

وعندي في صحة إطلاق لفظ الأُمْنِيَّة على القراءة شك عظيم؛ فإنه وإن كان قد ورد تمنّى بمعنى قرأ في بيت نسب إلى حسان بن ثابت إن صحت رواية البيت عن حسان على اختلاف في مصراعه الأخير:

تمنـــى كتـــاب الله أول ليلـــه   تمـــني داود الزبـــور علـــى مهـــل

فلا أظن أن القراءة يقال لها أمنية.

ويجوز أن يكون المعنى أن النبي إذا تمنى هَدْي قومه، أو حرص على ذلك فلقي منهم العناد، وتمنى حصول هداهم بكل وسيلة ألقى الشيطان في نفس النبي خاطر اليأس من هداهم عسى أن يقصر النبي من حرصه أو أن يضجره.

وهي خواطر تلوح في النفس، ولكن العصمة تعترضها؛ فلا يلبث ذلك الخاطر أن ينقشع ويرسخ في نفس الرسول ما كُلّف به من الدأب على الدعوة، والحرص على الرشد؛ فيكون معنى الآية على هذا الوجه مُلَوِّحاً إلى قوله ـتعالىـ: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾.

و﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ للترتيب الرتبي؛ لأن إحكام الآيات وتقريرها أهم من نسخ ما يلقي الشيطان؛ إذ بالإحكام يتضح الهدى، ويزداد ما يلقيه الشيطان نسخاً.

وجملة: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ معترضة.

ومعنى هذه الآية: أن الأنبياء والرسل يرجون اهتداء قومهم ما استطاعوا فيبلغونهم ما ينزل إليهم من الله، ويعظونهم، ويدعونهم بالحجة والمجادلة الحسنة حتى يظنوا أن أمنيتهم قد نجحت، ويقترب القوم من الإيمان، كما حكى الله عن المشركين قولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾.

فيأتي الشيطان، فلا يزال يوسوس في نفوس الكفار، فينكصون على أعقابهم،

وتلك الوساوس ضروبٌ شتى من تذكيرهم بحب آلهتهم، ومن تخويفهم بسوء عاقبة نبذ دينهم، ونحو ذلك من ضروب الضلالات التي حكيت عنهم في تفاصيل القرآن، فيتمسك أهل الضلالة بدينهم، ويصدون عن دعوة رسلهم، وذلك هو الصبر الذي في قوله: ﴿لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ وقوله: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾.

وكلما أفسد الشيطان دعوة الرسل أمر الله رُسُلَه فعاودوا الإرشاد وكرروه وهو سبب تكرر مواعظ متماثلة في القرآن؛ فبتلك المعاودة ينسخ ما ألقاه الشيطان، وتثبت الآيات السالفة.

فالنسخ: الإزالة، **والإحكام**: التثبيت، وفي كلتا الجملتين حذف مضاف، أي ينسخ آثار ما يلقي الشيطان، ويحكم آثار آياته. ١٧/٢٩٩ـ٣٠١

١٩ـ وبما تلقيتَ في تفسير هذه الآية من الانتظام البين الواضح المستقل بدلالته والمستغني بنهله عن علالته، والسالم من التكلفات والاحتياج إلى ضميمة القصص ـ ترى أن الآية بمعزل عما ألصقه بها الملصقون والضعفاء في علوم السنة، وتلقَّاه منهم فريق من المفسرين، حباً في غرائب النوادر دون تأمل ولا تمحيص من أن الآية نزلت في قصة تتعلق بسورة النجم؛ فلم يكتفوا بما أفسدوا من معنى هذه الآية حتى تجاوزوا بهذا الإلصاق إلى إفساد معاني سورة النجم؛ فذكروا في ذلك روايات عن سعيد بن جبير، وابن شهاب، ومحمد بن كعب القرطبي، وأبي العالية، والضحاك.

وأقربها رواية عن ابن شهاب وابن جبير والضحاك قالوا: إن النبي ﷺ جلس

في نادٍ من أندية قريش كثيرٍ أهله من مسلمين وكافرين، فقرأ عليهم سورة النجم فلما بلغ قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ ألقى الشيطان بين السامعين عقب ذلك قوله: «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى» ففرح المشركون بأن ذكر آلهتهم بخير.

وكان في آخر تلك السورة سجدة من سجود التلاوة؛ فلما سجد في آخر السورة سجد كل من حضر من المسلمين والمشركين، وتسامع الناس بأن قريشاً أسلموا حتى شاع ذلك ببلاد الحبشة؛ فرجع من مهاجرة الحبشة نفر منهم عثمان ابن عفان إلى المدينة، وأن النبيﷺ لم يشعر بأن الشيطان ألقى في القوم؛ فأعلمه جبريل ـ عليه السلام ـ فاغتم لذلك فنزل قوله ـتعالىـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية تسلية له.

وهي قصة يجدها السامع ضغثاً على إبالة[1] ولا يلقي إليها النِّحرير باله.

وما رويت إلا بأسانيد واهية، ومنتهاها إلى ذكر قصة، وليس في أحد أسانيدها سماع صحابي لشيء في مجلس النبيﷺ وسندها إلى ابن عباس سند مطعون.

على أن ابن عباس يوم نزلت سورة النجم كان لا يحضر مجالس النبيﷺ وهي أخبار آحاد تعارض أصول الدين؛ لأنها تخالف أصل عصمة الرسولﷺ لا التباس عليه في تلقي الوحي؛ ويكفي تكذيباً لها قوله ـتعالىـ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ

١ـ هذا مثل معروف عند العرب، ومعناه: بلية على أخرى كانت قبلها.

يقولون: «ضِغْثٌ على إبَّالة».

ومعنى الإبالة: الحزمة من الحطب، ويروى: إبَالة مخففاً، ويروى: إببالة.

ومعنى الضغث: قبضة من حشيش مختلطةُ الرطب باليابس. (م)

الْهَوَى ﴾ وفي معرفة المَلَكِ؛ فلو رووها الثقات لوجب رفضها، وتأويلها؛ فكيف وهي ضعيفة واهية، وكيف يروج على ذي مُسْكَةٍ من عقل أن يجتمع في كلام واحد تسفيه المشركين في عبادتهم الأصنام بقوله ـتعالىـ: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ﴾ إلى قوله: ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾.

فيقع في خلال ذلك مدحها بأنها (الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى)؟

وهل هذا إلا كلام يلعن بعضه بعضاً؟!

وقد اتفق الحاكون أن النبيﷺ قرأ سورة النجم كلها حتى خاتمتها: ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾.

لأنهم إنما سجدوا حين سجد المسلمون؛ فدل على أنهم سمعوا السورة كلها.

وما بين آية: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ﴾ وبين آخر السورة آيات كثيرة في إبطال الأصنام وغيرها من معبودات المشركين، وتزييف كثير لعقائد المشركين؛ فكيف يصح أن المشركين سجدوا من أجل الثناء على آلهتهم؛ فإن لم تكن تلك الأخبار مكذوبة من أصلها فإن تأويلها: أن بعض المشركين وجدوا ذكر اللات والعزى فرصة للدَّخَل لاختلاق كلمات في مدحهن، وهي هذه الكلمات، وروجوها بين الناس؛ تأنيساً لأوليائهم من المشركين، وإلقاءً للريب في قلوب ضعفاء الإيمان. ١٧/٣٠٣ـ٣٠٥

٢٠ـ والخطاب بـ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ للمشركين؛ لأنهم المقصود بالرد والزجر وبقرينة قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ على قراءة الجمهور ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بتاء الخطاب.

فالمراد بـ: ﴿ النَّاسُ ﴾ هنا المشركون على ما هو المصطلح الغالب في القرآن.

ويجوز أن يكون المراد بـ: ﴿النَّاسُ﴾ جميع الناس من مسلمين ومشركين.

وفي افتتاح السورة بـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وتنهيتها بمثل ذلك شَبَهٌ برد العجز على الصدر.

ومما يزيده حسناً أن يكون العجز جامعاً لما في الصدر وما بعده، حتى يكون كالنتيجة للاستدلال، والخلاصة للخطبة، والحوصلة للدرس. ١٧/٣٣٧-٣٣٨

٢١- وفسر صاحب الكشاف المثل هنا بالصفة الغريبة؛ تشبيهاً لها ببعض الأمثال السائرة، وهو تفسير بما لا نظير له ولا استعمال يعضده؛ اقتصاداً منه في الغوص عن المعنى لا ضعفاً عن استخراج حقيقة المثل فيها، وهو جذيعها[1] المحكك، وعذيقها المرجب، ولكن أحسبه صادف منه وقت سرعة في التفسير أو شغلا بأمر خطير، وكم ترك الأول للأخير. ١٧/٣٤٠

١- هكذا في الأصل، والذي في لسان العرب ١/٤١٢، و١١/١٠٦-١٠٧: «أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب».

وهذه الكلمة قالها الحباب بن المنذر، ومعناها: أنني قد جربتني الأمور، ولي رأي وعلم يشتفى بهما. (م)

سورة المؤمنون

١ـ ويقال (سورة المؤمنون).

فالأول: على اعتبار إضافة السورة إلى المؤمنين؛ لافتتاحها بالإخبار عنهم بأنهم أفلحوا.

ووردت تسميتها بمثل هذا فيما رواه النسائي: «**عن عبدالله بن السائب قال: حضرت رسول الله يوم الفتح، فصلى في قِبل الكعبة، فخلع نعليه، فوضعهما عن يساره، فافتتح سورة المؤمنين، فلما جاء ذكر موسى أو عيسى أخذته سَعْلة فركع**».

والثاني: على حكاية لفظ ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ الواقع أولها في قوله ـتعالىـ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فجعل ذلك اللفظ تعريفاً للسورة.

وقد وردت تسمية هذه السورة (سورة المؤمنين) في السُّنة، روى أبو داود: عن عبد الله بن السائب قال: «صلى بنا رسول الله الصبح بمكة، فاستفتح سورة المؤمنين حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر موسى وعيسى أخذت النبي سَعْلة، فحذف، فركع».

ومما جرى على الألسنة أن يسموها سورة (قد أفلح).

ووقع ذلك في كتاب الجامع من العتبية في سماع ابن القاسم، قال ابن القاسم: «أخرج لنا مالك مصحفاً لجده، فتحدثنا أنه كتبه على عهد عثمان بن عفان وغاشيته من كسوة الكعبة فوجدنا..» إلى أن قال: «وفي قد أفلح كلها الثلاث لله» أي خلافاً لقراءة: ﴿سَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ ويسمونها ـأيضاًـ سورة الفلاح.

وهي مكية بالاتفاق، ولا اعتداد بتوقف من توقف في ذلك بأن الآية التي ذكرت فيها الزكاة وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ تُعيِّن أنها مدنية؛ لأن الزكاة فرضت في المدينة؛ فالزكاة المذكورة فيها هي الصدقة لا زكاة النُّصب المعيّنة في الأموال، وإطلاق الزكاة على الصدقة مشهور في القرآن، قال -تعالى-: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

وهي من سورة مكية بالاتفاق، وقال ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً (٥٤) وكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾.

ولم تكن زكاة النصب مشروعة في زمن إسماعيل.

وهي السورة السادسة والسبعون في عداد نزول سور القرآن نزلت بعد سورة (الطُّور) وقبل سورة (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ).

وآياتها مائة وسبع عشرة في عدِّ الجمهور، وعدَّها أهل الكوفة مائة وثمان عشرة، فالجمهور عدوا ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ آية، وأهل الكوفة عدوا ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ﴾ آية وما بعدها آية أخرى، كما يؤخذ من كلام أبي بكر ابن العربي في العارضة في الحديث الذي سنذكره عقب تفسير قوله -تعالى-: ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ٦/١٨

٢- أغراض السورة: هذه السورةُ تدورُ آيُهَا حولَ مِحْورِ تحقيقِ الوحدانية، وإبطالِ الشرك، ونقضِ قواعده، والتنويهِ بالإيمان وشرائعه.

فكان افتتاحُها بالبشارة للمؤمنين بالفلاح العظيم على ما تحلوا به من أصول الفضائلِ الروحية والعملية التي بها تزكيةُ النفس، واستقامةِ السلوكِ.

وأُعْقِبَ ذلك بوصف خَلْقِ الإنسانِ أصلِهِ ونسلِهِ الدالِ على تفرد الله ـتعالىـ بالإلهية؛ لِتَفَرُّدِهِ بخلق الإنسان، ونشأتِه؛ لِيَبْتَدِئَ الناظرُ بالاعتبار في تكوين ذاته، ثم بعدَمه بعد الحياة، ودلالةِ ذلك الخلق على إثبات البعث بعد الممات، وأن اللهَ لم يَخْلَقُ الخلقَ سُدَىً ولعباً.

وانْتُقِلَ إلى الاعتبار بخلق السماوات، ودلالته على حكمة الله ـتعالىـ.

وإلى الاعتبارِ والامتنانِ بمصنوعات الله ـتعالىـ التي أصلُها الماءُ الذي به حياة ما في هذا العالم من الحيوان والنبات، وما في ذلك من دقائقِ الصنع، وما في الأنعامِ من المنافع ومنها الحَمْلُ.

ومن تسخير المنافع للناس، وما أوتيه الإنسانُ من آلاتِ الفكرِ والنظرِ.

وَوَرَدَ ذِكْرُ الحَمْلِ على الفُلْك؛ فكان منه تَخَلُّصٌ إلى بعثةِ نوحٍ، وحدثِ الطوفان.

وانْتُقِلَ إلى التذكير ببعثة الرسل للهدى والإرشادِ إلى التوحيدِ والعملِ الصالحِ، وما تلقاها به أقوامُهم من الإعراض والطعنِ والتفرقِ، وما كان من عقاب المكذبين، وتلك أمثالٌ لموعظةِ المعرضين عن دعوة محمد ﷺ فَأُعْقِبَ ذلك بالثناء على الذين آمنوا واتقوا.

وبتنبيه المشركين على أن حالَهم مماثلٌ لأحوال الأمم الغابرة وكلمتهم واحدة؛ فهم عُرْضَةٌ لأن يَحُلَّ بهم ما حل بالأمم الماضية المكذبة.

وقد أراهم اللهُ مخائلَ العذابِ لعلهم يقلعون عن العناد، فأصروا على إشراكهم بما ألقى الشيطان في عقولهم.

وذُكِّروا بأنهم يُقِرُّون إذا سئلوا بأن الله مُفْرَدٌ بالربوبية، ولا يَجْرون على مقتضى

إقرارهم أنهم سيندمون على الكفر عندما يحضرهم الموتُ وفي يوم القيامة.

وبأنهم عرفوا الرسولَ، وخبروا صدقَه وأمانتَه ونُصْحَهُ المجردَ عن طلبِ المنفعة لنفسه إلا ثواب الله؛ فلا عذر لهم بحال في إشراكهم وتكذيبهم الرسالة، ولكنهم متبعون أهواءهم معرضون عن الحق.

وما تخلل ذلك من جوامع الكلم.

وخُتِمَتْ بأمر النبيﷺ أن يغضَّ عن سوء معاملتهم، ويدفعها بالتي هي أحسن، ويسأل المغفرة للمؤمنين، وذلك هو الفلاح الذي ابتدئت به السورة. ١٨/٦ـ٧

٣ـ **والرعي:** مراقبة شيء بحفظه من التلاشي، وبإصلاح ما يفسد منه؛ فمنه رعي الماشية، ومنه رعي الناس، ومنه أطلقت المراعاة على ما يستحقه ذو الأخلاق الحميدة من حسن المعاملة، والقائم بالرعي راع.

فرعي الأمانة: حفظها، ولما كان الحفظ مقصوداً لأجل صاحبها كان ردها إليه أولى من حفظها.

ورعي العهد مجاز، أي ملاحظته عند كل مناسبة. ١٨/١٧

٤ـ ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ ﴾.

وإنشاء الجنات من صنع الله ـتعالىـ أول إنبات الجنات في الأرض ومن بعد ذلك أنبتت الجنات بغرس البشر، وذلك ـ أيضاً ـ من صنع الله بما أودع في العقول من معرفة الغرس، والزرع، والسقي، وتفجير المياه واجتلابها من بُعْد؛ فكل هذا الإنشاء من الله ـتعالىـ.

والجنة: المكان ذو الشجر، وأكثر إطلاقه على ما كان فيه نخل وكرم.

وقد تقدم عند قوله -تعالى-: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ الآية في سورة البقرة.

وما ذكر هنا من أصناف الشجر الثلاثة هو أكرم الشجر، وأنفعه ثمراً وهو النخيل، والأعناب، والزيتون، وتقدم الكلام على النخيل والأعناب والزيتون في سورة الأنعام، وفي سورة النحل.

والفواكه: جمع فاكهة، وهي الطعام الذي يُتَفَكَّه بأكله، أي يتلذذ بطعمه من غير قصد القوت؛ فإن قُصد به القوت قيل له طعام.

فمن الأطعمة ما هو فاكهة وطعام كالتمر، والعنب؛ لأنه يؤكل رطباً ويابساً، ومنها ما هو فاكهة وليس بطعام كاللوز والكمثرى، ومنها ما هو طعام غير فاكهة كالزيتون، ولذلك أَخَّر ذكر شجرة الزيتون عن ذكر أخويها؛ لأنه أريد الامتنان بما في ثمرتهما من التفكه والقوت؛ فتكون مِنَّةً بالحاجيِّ والتحسيني. ٣٣/١٨

٥- **فيظهر أن المعنى أن الله خلق أول شجر الزيتون في طور سيناء**، وذلك أن الأجناس والأنواع الموجودة على الكرة الأرضية لابد لها من مواطن كان فيها ابتداء وجودها قبل وجودها في غيرها؛ لأن بعض الأمكنة تكون أسعد لنشأة بعض الموجودات من بعض آخر؛ لمناسبة بين طبيعة المكان وطبيعة الشيء الموجود فيه من حرارة أو برودة أو اعتدال، وكذلك فصول السنة كالربيع لبعض الحيوان والشتاء لبعض آخر، والصيف لبعض غيرها؛ فالله -تعالى- يوجد الموجودات في الأحوال المناسبة لها؛ فالحيوان والنبات كله جار على هذا القانون.

ثم إن البشر إذا نَقَلوا حيواناً أو نباتاً من أرض إلى أرض، أو أرادوا الانتفاع به في فصل غير فصله، ورأوا عدم صلاحية المكان أو الزمان المنقول إليهما يحتالون

له بما يكمل نقصه من تدفئة في شدة برد، أو تبريد بسبح في الماء في شدة الحر؛ حتى لا يتعطل تناسل ذلك المنقول إلى غير مكانه؛ فكما أن بعض الحيوان أو النبات لا يعيش طويلاً في بعض المناطق الملائمة لطباعه كالغزال في بلاد الثلوج فكذلك قد يكون بعض الأماكن من المنطقة الملائمة للحيوان أو النبات أصلح به من بعض جهات تلك المنطقة؛ فلعل جَوَّ طورِ سَيناءَ لتوسطه بين المناطق المتطرفة حراً وبرداً، ولتوسط ارتفاعه بين النجود والسهول ـ يكون أسعدَ بطبع فصيلة الزيتون كما قال ـتعالى ـ: ﴿زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾.

فالله ـتعالى ـ هيأ لتكوينها حين أراد تكوينها ذلك المكان، كما هيأ لتكوين آدم طينة خاصة فقال: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ ثم يكون الزيتون قد نقل من أول مكان ظهر فيه إلى أمكنة أخرى نقله إليها ساكنوها؛ للانتفاع به، فنجح في بعضها، ولم ينجح في بعض.

وقد ثبت في التوراة أن شجرة الزيتون كانت موجودة قبل الطوفان وبعده؛ ففي الإصحاح الثامن من سفر التكوين: أن نوحاً أرسل حمامةً تبحث عن مكان غيضت عنه مياه الطوفان؛ فرجعت الحمامة عند المساء تحمل في منقارها ورقة زيتون خضراء، فعلم نوح أن الماء أخذ يغيض عن الأرض.

ومعلوم أن ابتداء غيض الماء إنما ينكشف عن أعالي الجبال أول الأمر؛ فلعل ورقة الزيتون التي حملتها الحمامة كانت من شجرة في طور سيناء.

وأيّاً ما كان فقد عرف نوح ورقةَ الزيتون، فدل على أنهم كانوا يعرفون هذه الشجرة قبل الطوفان، ولكن لم يرد ذكر استعمال زيت الزيتون في طعام في التاريخ القديم إلا في عهد موسى ـعليه السلام ـ أيام كان بنو إسرائيل حول طور

سيناء؛ فقد استعمل الزيت؛ لإنارة خيمة الاجتماع بوحي الله لموسى[١] وسكب موسى دهن المسحة على رأس هارون أخيه حين أقامه كاهناً لبني إسرائيل[٢].

ويجوز أن يكون معنى ﴿تَخْرُجُ﴾ تظهر وتعرف؛ فيكون أول اهتداء الناس إلى منافع هذه الشجرة وانتقالهم إياها كان من الزيتون الذي بطور سيناء.

وهذا كما نسمي الديك الرومي في بلدنا بالديك الهندي؛ لأن الناس عرفوه من بلاد الهند، وكما تسمى بعض السيوف في بلاد العرب بالمشرفية؛ لأنها عرفت من مشارف الشام، وبعض الرماح الخطية؛ لأنها ترد إلى بلاد العرب من مرفأ يقال له: الخط، وبعض السيوف بالمهند؛ لأنه يجلب من الهند، وقد كان الزيت يجلب إلى بلاد العرب من الشام ومن فلسطين.

وأيًّا ما كان فليس القصد من ذكر أنها تخرج من طور سيناء إلا التنبيه على أنه منبتها الأصلي، وإلا فإن الامتنان بها لم يكن موجهاً يومئذ لسكان طور سيناء.

وما كان هذا التنبيه إلا للتنويه بشرف منبتها، وكرم الموطن الذي ظهرت فيه.

ولم تزل شجرة الزيتون مشهورة بالبركة بين الناس، ورأيت في لسان العرب عن الأصمعي عن عبد الملك بن صالح: «أن كل زيتونة بفلسطين فهي من غرس أمم يقال لهم اليونانيون» .اهـ

والظاهر أنه يعني به زيتون زمانهم الذي أخلفوا به أشجاراً قديمة بادت.

وفي أساطير اليونان (ميثولوجيا) أن منيرفا ونبتون (الرَّبَّيْن في اعتقاد اليونان) تنازعا في تعيين أحدهما؛ ليضع اسماً لمدينة بناها (ككرابيس) فحكمت الأرباب

١ـ الإصحاح ٢٥ من سفر الخروج.

٢ـ الإصحاح ٩ من سفر الخروج.

بينهما بأن هذا الشرف لا يناله إلا من يصنع أنفع الأشياء؛ فأما (نبتون) فأوجد فرساً بحرياً عظيم القوة، وأما (مينيرفا) فصنعت شجرة الزيتون بثمرتها؛ فحكم الأرباب لها بأنها أحق؛ فلذلك وضعوا للمدينة اسم (اثينا) الذي هو اسم منيرفا.

وزعموا أن (هيركول) لما رجع من بعض غزواته جاء معه بأغصان من الزيتون، فغرسها في جبل (أولمبوس) وهو مسكن آلهتهم في زعمهم.

فقد كان زيت الزيتون مستعملاً عند اليونان من عهد (هوميروس) إذ ذكر في الإلياذة[1] أن (أخيل) سكب زيتاً على شلو (فطر قليوس) وشلو (هكتور).

وكان الزيت نادراً في معظم بلاد العرب؛ إذ كان يجلب إلى بلاد العرب من الشام. ١٨/٣٥ـ٣٧

٦ـ وجملة ﴿هَيْهَاتَ﴾ بيان لجملة ﴿يَعِدُكُمْ﴾ فلذلك فصلت، ولم تعطف.

و﴿هَيْهَاتَ﴾ كلمة مبنية على فتح الآخر، وعلى كسره ـأيضاًـ.

وقرأها الجمهور بالفتح، وقرأها أبو جعفر بالكسر.

وتدل على البعد، وأكثر ما تستعمل مكررة مرتين كما في هذه الآية أو ثلاثاً كما جاء في شعر لحميد الأرقط وجرير يأتيان.

واختلف فيها أهي فعل أم اسم؟

فجمهور النحاة ذهبوا إلى أن ﴿هَيْهَاتَ﴾ اسم فعل للماضي من البعد؛ فمعنى هيهات كذا: بَعُدَ؛ فيكون ما يلي ﴿هَيْهَاتَ﴾ فاعلاً.

وقيل هي اسم للبعد، أي فهي مصدر جامد وهو الذي اختاره الزجاج في

---

١ ـ الإلياذة: قصيدة طويلة جداً، تشتمل على حكايات وأساطير، وتُنسب للشاعر اليوناني الضرير هوميروس، ويُنسب إليه ـأيضاًـ الأودسَّة، وهي قريبة من الإلياذة. (م)

تفسيره.

قال الراغب: وقال البعض: غلط الزجاج في تفسيره واستهواه اللام في قوله ـتعالىـ: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾.

وقيل: هيهات ظرف غير متصرف، وهو قول المبرد، ونسبه في لسان العرب إلى أبي علي الفارسي، قال: «قال ابن جني: كان أبو علي يقول في هيهات: أنا أفتي مرة بكونها اسماً سمي به الفعل مثل صه ومه، وأفتي مرة بكونها ظرفاً على قدر ما يحضرني في الحال».

وفيها لغات كثيرة، وأفصحها أنها بهاءين وتاء مفتوحة فتحةَ بناءٍ، وأن تاءها تثبت في الوقف، وقيل: يوقف عليها هاءً، وأنها لا تنون تنوين تنكير.

وقد ورد ما بعد ﴿ هَيْهَاتَ ﴾ مجروراً باللام كما في هذه الآية، وورد مرفوعاً كما في قول جرير:

فهيهات هيهات العقيقُ وأهلُه ... وهيهات خلٌّ بالعقيق نحاوله

وورد مجروراً بـ: (من) في قول حميد الأرقط:

هيهات من مصبحها هيهات ... هيهات حجر من صنيبعات

فالذي يتضح في استعمال ﴿ هَيْهَاتَ ﴾ أن الأصل فيما بعدها أن يكون مرفوعاً على تأويل ﴿ هَيْهَاتَ ﴾ بمعنى فعل ماض من البعد كما في بيت جرير.

وأن الأفصح أن يكون ما بعدها مجروراً باللام؛ فيكون على الاستغناء عن فاعل اسم الفعل للعلم به مما يسبق ﴿ هَيْهَاتَ ﴾ من الكلام؛ لأنها لا تقع غالباً إلا بعد كلام، وتجعل اللام للتبيين، أي إيضاح المراد من الفاعل، فيحصل بذلك إجمال، ثم تفصيل يفيد تقوية الخبر.

وهذه اللام ترجع إلى لام التعليل، وإذا ورد ما بعدها مجروراً بـ:(من) فـ:(من) بمعنى (عن) أي بَعُدَ عنه، أو بُعْدَاً عنه.

على أنه يجوز أن تُؤَوَّل ﴿هَيْهَاتَ﴾ مرة بالفعل وهو الغالب، ومرة بالمصدر؛ فتكون اسم مصدر مبنياً جامداً غير مشتق، ويكون الإخبار بها كالإخبار بالمصدر، وهو الوجه الذي سلكه الزجاج في تفسير هذه الآية، ويشير كلام الزمخشري إلى اختياره. ١٨/٥٤ـ٥٥

٧ـ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧)﴾.

تكرير الأمر بالقول وإن كان المقول مختلفاً دون أن تعطف جملة ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾ لأنها وقعت في سياق التعداد؛ فناسب أن يعاد الأمر بالقول دون الاستغناء بحرف العطف.

والمقصود وقوع هذه الأسئلة متتابعة؛ دفعاً لهم بالحجة، ولذلك لم تعد في السؤالين الثاني والثالث جملة ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ اكتفاءً بالافتتاح بها.

وقرأ الجمهور ﴿سَيَقُوْلُوْنَ لله﴾ بلام جارة لاسم الجلالة على أنه حكاية لجوابهم المتوقع بمعناه لا بلفظه؛ لأنهم لما سئلوا بـ﴿مَنْ﴾ التي هي للاستفهام عن تعيين ذات المستفهم عنه كان مقتضى الاستعمال أن يكون الجواب بذكر اسم ذات المسؤول عنه؛ فكان العدول عن ذلك إلى الجواب عن كون السماوات السبع والعرش مملوكة لله عدولاً إلى جانب المعنى دون اللفظ؛ مراعاة لكون المستفهم عنه لوحظ بوصف الربوبيةِ، والربوبيةُ تقتضي الملك، ونظير هذا الاستعمال ما

أنشده القرطبي وصاحب المطلع[١]:

إذا قيل: مَنْ رَبُّ المزالف والقرى ... وربُّ الجيادِ الجُرْدِ قلت: لخالد

ولم أقف على من سبقهما بذكر هذا البيت، ولعلهما أخذاه من تفسير الزجاج، ولم يعزواه إلى قائل، ولعل قائله حذا به حذو استعمال الآية.

وأقول: إن الأجدر أن نبين وجه صوغ الآية بهذا الأسلوب؛ فأرى أن ذلك لقصد التعريض بأنهم يحترزون عن أن يقولوا: رب السماوات السبع الله؛ لأنهم أثبتوا مع الله أرباباً في السماوات؛ إذ عبدوا الملائكة، فهم عدلوا عما فيه نفي الربوبية عن معبوداتهم، واقتصروا على الإقرار بأن السماوات ملك لله؛ لأن ذلك لا يبطل أوهام شركهم من أصلها؛ ألا ترى أنهم يقولون في التلبية في الحج (لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك).

ففي حكاية جوابهم بهذا اللفظ تَوَرُّك عليهم؛ ولذلك ذيل حكاية جوابهم بالإنكار عليهم انتفاء اتقائهم الله -تعالى-.

وقرأه أبو عمرو ويعقوب ﴿سَيَقُولُونَ اللَّه﴾ بدون لام الجر وهو كذلك في مصحف البصرة وبذلك كان اسم الجلالة مرفوعاً على أنه خبر ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾ والمعنى واحد.

ولم يؤت مع هذا الاستفهام بشرط ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ونحوه كما جاء في سابقه؛ لأن انفراد الله -تعالى- بالربوية[٢] في السماوات والعرش لا يشك فيه

---

١ ـ (المطلع) تفسير للقرآن اسمه (مطلع المعاني ومنبع المباني) لحسام الدين محمد بن عثمان العليا بادي السمرقندي كان حيّاً سنة ٦٢٨هـ.

٢ ـ هكذا في الأصل، والصواب: الربوبية. (م)

المشركون؛ لأنهم لم يزعموا إلهية أصنامهم في السماوات والعوالم العلوية.

وخص وعظهم عَقِبَ جوابهم بالحث على تقوى الله؛ لأنه لما تبين من الآية التي قبلها أنهم لا يسعهم إلا الاعتراف بأن الله مالك الأرض ومن فيها، وعقبت تلك الآية بحظهم على التذكر؛ ليظهر لهم أنهم عباد الله لا عباد الأصنام.

وتبين من هذه الآية أنه رب السماوات وهي أعظم من الأرض، وأنهم لا يسعهم إلا الاعتراف بذلك ناسب حثَّهم على تقواه؛ لأنه يستحق الطاعة له وحده، وأن يطيعوا رسوله؛ فإن التقوى تتضمن طاعة ما جاء به الرسول ﷺ.

وحذف مفعول ﴿تَتَّقُونَ﴾ لتنزيل الفعل منزلة القاصر؛ لأنه دال على معنى خاص وهو التقوى الشاملة لامتثال المأمورات واجتناب المنهيات. ١٨/١٠٩-١١١

سورة النور

١ـ **سميت هذه السورة (سورة النور)** من عهد النبيﷺ ، روي عن مجاهد قال رسول الله : «**علموا نساءكم سورة النور**».

ولم أقف على إسناده، وعن حارثة بن مضر: «كتب إلينا عمر بن الخطاب أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور».

وهذه تسميتها في المصاحف وكتب التفسير والسنة، ولا يعرف لها اسم آخر، ووجه التسمية أن فيها آية: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾.

وهي مدنية باتفاق أهل العلم، ولا يعرف مخالف في ذلك، وقد وقع في نسخ تفسير القرطبي عند قوله ـتعالىـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ الآيةَ، في المسألة الرابعة كلمة (وهي مكية) يعني الآية؛ فنسب الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي، وتبعه الآلوسي ـ إلى القرطبي أن تلك الآية مكية مع أن سبب نزولها الذي ذكره القرطبي صريح في أنها نزلت بالمدينة؛ كيف وقد قال القرطبي في أول هذه السورة: «مدنية بالإجماع»؟

ولعل تحريفاً طرأ على النسخ من تفسير القرطبي، وأن صواب الكلمة «وهي محكمة» أي غير منسوخ حكمها؛ فقد وقعت هذه العبارة في تفسير ابن عطية قال «وهي محكمة».

قال ابن عباس: «تركها الناس». ١٣٩/١٨

٢ـ **وقد عدت هذه السورة المائة في ترتيب نزول سور القرآن** عند جابر بن زيد عن ابن عباس قال: «نزلت بعد سورة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ وقبل سورة الحج»

أي عند القائلين بأن سورة الحج مدنية.

وآيها اثنتان وستون في عد المدينة ومكة، وأربع وستون في عد البقية. ١٤٠/١٨

٣ـ **شملت من الأغراض كثيراً** من أحكامِ معاشرةِ الرجالِ للنساء، ومن آدابِ الخُلْطَةِ والزيارةِ.

وأولُ ما نزلت بسببه قضيةُ التزوجِ بامرأة اشتهرت بالزنى، وصُدِّر ذلك ببيان حدِّ الزنى، وعقابِ الذين يقذفون المحصناتِ، وحُكْمِ اللِّعَانِ، والتعرضِ إلى براءة عائشة ـرضي الله عنهاـ مما أرجفه عليها أهل النفاق، وعقابِهم، والذين شاركوهم في التحدثِ به.

والزجرُ عن حبِّ إشاعةِ الفواحشِ بين المؤمنين والمؤمنات، والأمرُ بالصفح عن الأذى مع الإشارة إلى قضية مِسْطَحِ بنِ أُثاثة.

وأحكامُ الاستئذانِ في الدخول إلى بيوت الناس المسكونةِ، ودخول البيوت غير المسكونة، وآدابُ المسلمين والمسلمات في المخالطة، وإفشاء السلام.

والتحريضُ على تزويج العبيد والإماء، والتحريضُ على مكاتبتهم، أي إعتاقهم على عوضٍ يدفعونه لمالكيهم.

وتحريمُ البغاءِ الذي كان شائعاً في الجاهلية، والأمرُ بالعفاف.

وذمُّ أحوال أهل النفاق، والإشارةُ إلى سوء طويتهم مع النبيﷺ.

والتحذيرُ مِنَ الوقوع في حبائل الشيطان.

وضَرْبُ المثلِ لهدي الإيمان، وضلالِ الكفر.

والتنويهُ ببيوتِ العبادة والقائمين فيها.

وتخلَّل ذلك وصفُ عظمةِ الله ـتعالىـ وبدائعِ مصنوعاته، وما فيها من منن

على الناس.

وقد أردف ذلك بوصف ما أعده الله للمؤمنين، وأن الله عَلِمَ بما يضمره كلُّ أحدٍ، وأن المرجعَ إليه، والجزاءَ بيده. ١٨/١٤٠ـ١٤١

٤ـ ولما سمع النبيﷺ قول سعد بن عبادة عند نزول آية القذف السالفة قال: «**أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني**».

يعني أنها غيرةٌ غيرُ معتدلة الآثار؛ لأنه جعل من آثارها أن يقتل من يجده مع امرأته، والله ورسوله لما يأذنا بذلك؛ فإن الله ورسوله أغيرُ من سعد، ولم يجعلا للزوج الذي يرى زوجته تزني أن يقتل الزاني، ولا المرأة. ١٨/١٦٣

٥ـ وأما قوله: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ فَوَجْهُ ذِكْرِ ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ مع أن القول لا يكون بغير الأفواه ـ أنه أريد التمهيد لقوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾.

أي هو قول غير موافق لما في العلم، ولكنه عن مجرد تصور؛ لأن أدلة العلم قائمة بنقيض مدلول هذا القول، فصار الكلام مجرد ألفاظ تجري على الأفواه.

وفي هذا من الأدب الأخلاقي أن المرء لا يقول بلسانه إلا ما يعلمه، ويتحققه، وإلا فهو أحد رجلين: **أَفِنُ الرأي** يقول الشيء قبل أن يتبين له الأمر؛ فيوشك أن يقول الكذب، فيحسبه الناس كذاباً، وفي الحديث: بـ«**حسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع**».

أو رجلٍ مُمَوِّهٍ مُراءٍ يقول ما يعتقد خلافه، قال ـتعالىـ: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ وقال: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾. ١٨/١٧٨

٦ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي

الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(١٩) ﴾.

ومن أدب هذه الآية أن شأن المؤمن أن لا يحب لإخوانه المؤمنين إلا ما يحب لنفسه؛ فكما أنه لا يحب أن يشيع عن نفسه خَبَرَ سوءٍ كذلك عليه أن لا يحب إشاعة السوء عن إخوانه المؤمنين.

ولشيوع أخبار الفواحش بين المؤمنين بالصدق أو الكذب مفسدة أخلاقية؛ فإن مما يزع الناس عن المفاسد تهيبهم وقوعها، وتجهمهم، وكراهتهم سوء سمعتها؛ وذلك مما يصرف تفكيرهم عن تذكرها بَلْهَ الإقدام عليها رويداً رويداً حتى تنسى، وتنمحي صورها من النفوس؛ فإذا انتشر بين الأمة الحديث بوقوع شيء من الفواحش تَذَكَّرَتْهَا الخواطر، وخفَّ وقعُ خبرها على الأسماع؛ فدب بذلك إلى النفوس التهاونُ بوقوعها، وخفةُ وقعها على الأسماع؛ فلا تلبث النفوس الخبيثة أن تقدم على اقترافها، وبمقدار تكرر وقوعها، وتكرر الحديث عنها تصير متداولة.

هذا إلى ما في إشاعة الفاحشة من لحاق الأذى والضر بالناس ضُرًّا متفاوتَ المقدار على تفاوت الأخبار في الصدق والكذب. ١٨/١٨٥

٧ـ و﴿ **الأَيَامَى** ﴾: جمع أَيِّم ـبفتح الهمزة وتشديد الياء المكسورةـ بوزن فَيْعِل وهي المرأة التي لا زوج لها كانت ثيباً أم بكراً.

والشائع إطلاق الأيم على التي كانت ذات زوج ثم خلت عنه بفراق أو موته.

وأما إطلاقه على البكر التي لا زوج لها فغير شائع، فيحمل على أنه مجاز كثر استعماله.

والأيم في الأصل من أوصاف النساء قاله أبو عمرو والكسائي.

ولذلك لم تقترن به هاء التأنيث؛ فلا يقال: امرأة أيِّمة.

وإطلاق الأيم على الرجل الخلي عن امرأة إما لمشاكلة، أو تشبيه.

وبعض أئمة اللغة كأبي عبيد والنَّضْر بن شميل يجعل الأيم مشتركاً للمرأة والرجل، وعليه درج في الكشاف والقاموس. ٢١٥/١٨

٨- و﴿ **الأَيَامَى** ﴾: صيغة عموم؛ لأنه جمع معرف باللام، فتشمل البغايا.

أمر أولياؤهن بتزويجهن؛ فكان هذا العموم ناسخاً لقوله -تعالى-: ﴿وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فقد قال جمهور الفقهاء: إن هذه ناسخة للآية التي تقدمت، وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد، ونقل القول بأن التي قبلها محكمة عن غير معين، وزوج أبو بكر امرأة من رجل زنى بها لما شكاه أبوها. ٢١٦/١٨

٩- والمقصود: الأيامى الحرائر، خَصَّصه قوله بعده: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾.

وظاهر وصف العبيد والإماء بالصالحين أن المراد اتصافهم بالصلاح الديني، أي الأتقياء.

والمعنى: لا يحملكم تحقق صلاحهم على إهمال إنكاحهم؛ لأنكم آمنون من وقوعهم في الزنى، بل عليكم أن تزوجوهم؛ رفقاً بهم، ودفعاً لمشقة العنت عنهم.

فيفيد أنهم إن لم يكونوا صالحين كان تزويجهم آكد أمراً.

وهذا من دلالة الفحوى؛ فيشمل غير الصالحين غيرَ الأَعفّاء والعفائف من المماليك المسلمين، ويشمل المماليك غير المسلمين.

وبهذا التفسير تنقشع الحيرة التي عرضت للمفسرين في التقييد بهذا الوصف.

وقيل: أريد بالصالحين الصلاح للتزوج بمعنى اللياقة لشؤون الزوج، أي إذا كانوا مظنة القيام بحقوق الزوجية. ٢١٦/١٨

١٠ـ ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

فالكلام تمثيل لهيئة إرشاد الله المؤمنين بهيئة المصباح الذي حفت به وسائل قوة الإشراق؛ فهو نور الله لا محالة.

وإنما أوثر تشبيهه بالمصباح الموصوف بما معه من الصفات دون أن يشبه نورُه بطلوع الشمس بعد ظلمة الليل؛ لقصد إكمال مشابهة الهيئة المشبه بها بأنها حالة ظهور نور يبدو في خلال ظلمة، فتنقشع به تلك الظلمة في مساحة يراد تنويرها، ودون أن يشبه بهيئة بزوغ القمر في خلال ظلمة الأفق؛ لقصد إكمال المشابهة، لأن القمر يبدو ويغيب في بعض الليلة بخلاف المصباح الموصوف.

وبعد هذا فلأن المقصودَ ذِكرُ ما حَفَّ بالمصباح من الأدوات؛ ليتسنى كمالُ التمثيل بقبوله تفريقَ التشبيهات ـكما سيأتيـ وذلك لا يتأتى في القمر.

والمثل: تشبيه حال بحال، وقد تقدم في أوائل سورة البقرة فمعنى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾: شبيه هديه حال مشكاة.. إلى آخره؛ فلا حاجة إلى تقدير: كنور مشكاة؛ لأن المشبه به هو المشكاة، وما يتبعها. ٢٣٤/١٨ـ٢٣٥

١١ـ **والمشكاة:** المعروف من كلام أهل اللغة أنها فرجة في الجدار، مثل الكُوَّة، لكنها غير نافذة؛ فإن كانت نافذة فهي الكوة.

ولا يوجد في كلام الموثوق عنهم من أهل العربية غير هذا المعنى، واقتصر عليه الراغب، وصاحب القاموس، والكشاف، واتفقوا على أنها كلمة حبشية أدخلها العرب في كلامهم؛ فعدت في الألفاظ الواقعة في القرآن بغير لغة العرب، ووقع ذلك في صحيح البخاري فيما فسره من مفردات سورة النور. ١٨/٢٣٥

١٢- **والمصباح:** اسم للإناء الذي يوقد فيه بالزيت للإنارة، وهي من صيغ أسماء الآلات مثل المفتاح، وهو مشتق من اسم الصبح، أي ابتداء ضوء النهار؛ فالمصباح آلة الإصباح أي الإضاءة.

وإذا كان المشكاة اسماً للقصيبة التي توضع في جوف القنديل كان المصباح مراداً به الفتيلة التي توضع في تلك القصيبة. ١٨/٢٣٦

١٣- **والزجاج:** صنف من الطين المطيِّن من عجين رمل مخصوص يوجد في طبقة الأرض، وليس هو رمل الشطوط.

وهذا العجين اسمه في اصطلاح الكيمياء (سليكا) يخلط بأجزاء من رماد نبت يسمى في الكيمياء (صودا) ويسمى عند العرب الغاسول، وهو الذي يتخذون منه الصابون، ويضاف إليهما جزء من الكلس (الجير) ومن (البوتاس) أو من (أكسيد الرصاص) فيصير ذلك الطين رقيقاً ويدخل للنار فيصهر في أتون خاص به شديد الحرارة حتى يتميع، وتختلط أجزاؤه، ثم يخرج من الأتون قطعاً بقدر ما يريد الصانع أن يصنع منه، وهو حينئذ رخو يشبه الحلواء؛ فيكون حينئذ قابلاً للامتداد وللانتفاخ إذا نفخ فيه بقصبة من حديد يضعها الصانع في فمه، وهي متصلة بقطعة الطين المصهورة، فينفخ فيها، فإذا داخلها هواء النَّفَس تمددت، وتشكلت بشكل كما يتفق، فيتصرف فيه الصانع بتشكيله بالشكل الذي يبتغيه؛

فيجعل منه أواني مختلفة الأشكال من كؤوس، وباطيات، وقنينات كبيرة وصغيرة، وقوارير للخمر، وآنية لزيت المصابيح تَفْضُل ما عداها بأنها لا تحجب ضوء السراج، وتزيده إشعاعاً.

وقد كان الزُّجاج معروفاً عند القدماء من الفينيقيين وعند القبط من نحو القرن الثلاثين قبل المسيح ثم عرفه العرب وهم يمسونه[1] الزجاج والقوارير.

قال بشار:

ارفق بعمرو إذا حركت نسبته فإنه عربي من قوارير

وقد عرفه العبرانيون في عهد سليمان، واتخذ منه سليمان بلاطاً في ساحة صرحه كما ورد في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾.

وقد عرفه اليونان قديماً ومن أقوال الحكيم (ديوجينوس اليوناني): «تيجان الملوك كالزجاج يسرع إليها العطب».

وسمى العرب الزجاج بلُّوراً بوزن سنور وبوزن تنور.

واشتهر بصناعته أهل الشام، قال الزمخشري في الكشاف: ﴿فِيْ زُجَاجَةٍ﴾ أراد قنديلاً من زجاج شامي أزهر.

واشتهر بدقة صنعه في القرن الثالث المسيحي أهل البندقية، ولوَّنوه، وزيّنوه بالذهب، وما زالت البندقية إلى الآن مصدر دقائق صنع الزجاج على اختلاف أشكاله وألوانه يتنافس فيه أهل الأذواق.

وكذلك بلاد (بوهيميا) من أرض (المجر) لجودة التراب الذي يصنع منه في بلادهم.

---

١ ـ هكذا في الأصل، والصواب: يسمونه. (م)

ومن أصلح ما انتفع فيه الزجاج اتخاذُ أطباقٍ منه توضع على الكُوى النافذة، والشبابيك؛ لتمنع الرياح، وبرد الشتاء، والمطر عن سكان البيوت، ولا يحجب عن سكانها الضوء.

وكان ابتكار استعمال هذه الأطباق في القرن الثالث من التاريخ المسيحي، ولكن تأخر الانتفاع به في ذلك مع الاضطرار إليه؛ لعسر استعماله وسرعة تصدعه في النقل، ووفرة ثمنه؛ ولذلك اتُّخِذ في النوافذ أول الأمر في البلاد التي يصنع فيها؛ فبقى زماناً طويلاً خاصاً بمنازل الملوك والأثرياء. ١٨/٢٣٧ـ٢٣٨

١٤ـ **والكوكب:** النجم، **والدُّرِّي** ـبضم الدال وتشديد التحتيةـ في قراءة الجمهور: واحد الدراري وهي الكواكب الساطعة النور مثل الزهرة، والمشتري منسوبة إلى الدر في صفاء اللون وبياضه، والياء فيه ياء النسبة، وهي نسبة المشابهة. ١٨/٢٣٨

١٥ـ **والمعنى:** أنه نور مكرر مضاعف.

وقد أشرت آنفاً إلى أن هذا التمثيل قابل لتفريق التشبيه في جميع أجزاء ركني التمثيل بأن يكون كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة مشابهاً لجزء من الهيئة المشبه بها، وذلك أعلى التمثيل.

فالمشكاة يشبهها ما في الإرشاد الإلهي من انضباط اليقين، وإحاطة الدلالة بالمدلولات دون تردد ولا انثلام، وحفظ المصباح من الانطفاء مع ما يحيط بالقرآن من حفظه من الله بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾.

ومعاني هداية إرشاد الإسلام تشبه المصباح في التبصير والإيضاح، وتبيين الحقائق من ذلك الإرشاد.

وسلامته من أن يَطْرُقَه الشك واللبس، يشبه الزجاجة في تجلية حال ما تحتوي عليه كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾.

والوحي الذي أبلغ الله به حقائق الديانة من القرآن والسنة يشبه الشجرة المباركة التي تعطي ثمرة يستخرج منها دلائل الإرشاد.

وسماحة الإسلام، وانتفاء الحرج عنه يشبه توسط الشجرة بين طرفي الأفق؛ فهو وسط بين الشدة المحرجة وبين اللين المفرط.

ودوام ذلك الإرشاد وتجدده يشبه الإيقاد.

وتعليم النبيﷺ أمته ببيان القرآن، وتشريع الأحكام يشبه الزيت الصافي الذي حصلت به البصيرة، وهو مع ذلك بين قريب التناول يكاد لا يحتاج إلى إلحاح المعلم.

وانتصاب النبي -عليه الصلاة والسلام- للتعليم يشبه مَسَّ النار للسراج.

وهذا يومئ إلى استمرار هذا الإرشاد.

كما أن قوله: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾: يومئ إلى الحاجة إلى اجتهاد علماء الدين في استخراج إرشاده على مرور الأزمنة، لأن استخراج الزيت من ثمر الشجرة يتوقف على اعتصار الثمرة وهو الاستنباط. ١٨/٢٤٣-٢٤٤

١٦- **وقد كان المسلمون واثقين بالأمن،** ولكن الله قدم على وعدهم بالأمن أن وعدهم بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين والشريعة فيهم؛ تنبيهاً لهم بأنَّ سنة الله أنه لا تأمن أمةٌ بأسَ غيرها حتى تكون قويةً مكينةً مهيمنةً على أصقاعها؛ ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمناً إيماءٌ إلى التهيؤ لتحصيل أسبابه، مع ضمان التوفيق لهم، والنجاح إن هم أخذوا في ذلك، وأن

ملاك ذلك هو طاعة الله والرسولﷺ ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾.

وإذا حل الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات؛ فأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة؛ فالأسباب هي الإيمان وعمل الصالحات. ١٨/٢٨٢ـ٢٨٣

١٧ـ **فالصالحات**: جمع صالحة، وهي الخصلة والفعلة ذات الصلاح، أي التي شهد الشرع بأنها صالحة، وقد تقدم في أول البقرة.

واستغراق ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ استغراق عرفي، أي عمل معظم الصالحات، ومهماتها، ومراجعها مما يعود إلى تحقيق كليات الشريعة وجري حالة مجتمع الأمة على مسلك الاستقامة، وذلك يحصل بالاستقامة في الخويصة، وبحسن التصرف في العلاقة المدنية بين الأمة على حسب ما أمر به الدين أفراد الأمة كل فيما هو من عمل أمثاله الخليفة فمن دونه، وذلك في غالب أحوال تصرفاتهم، ولا التفات إلى الفلتات المناقضة؛ فإنها معفو عنها إذا لم يسترسل عليها، وإذا ما وقع السعي في تداركها.

والاستقامة في الخويصة هي موجب هذا الوعد، وهي الإيمان وقواعد الإسلام، والاستقامة في المعاملة هي التي بها تيسير سبب الموعود به.

وقد بين الله ـتعالىـ أصول انتظام أمور الأمة في تضاعيف كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ مثل قوله ـتعالىـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ وقوله في سياق الذم: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ

أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾.

وبين الرسول ـعليه الصلاة والسلامـ تصرفات ولاة الأمور في شؤون الرعية، ومع أهل الذمة، ومع الأعداء في الغزو، والصلح، والمهادنة، والمعاهدة، وبَيَّنَ أصول المعاملات بين الناس.

فمتى اهتم ولاة الأمور وعموم الأمة باتباع ما وَضَّح لهم الشرع تحقق وعد الله إياهم بهذا الوعد الجليل. ١٨/٢٨٣ـ٢٨٤

١٨ـ **وهذه التكاليف التي جعلها الله قواماً لصلاح أمور الأمة،** ووعد عليها بإعطاء الخلافة والتمكين والأمن ـ صارت بترتيب تلك الموعدة عليها أسباباً لها، وكانت الموعدة كالمسبب عليها؛ فشابهت من هذه الحالة خطاب الوضع، وجعل الإيمان عمودها، وشرطاً للخروج من عهدة التكليف بها، وتوثيقاً لحصول آثارها بأن جعله جالب رضاه وعنايته؛ فبه يتيسر للأمة تناول أسباب النجاح، وبه يحف اللطف الإلهي بالأمة في أطوار مزاولتها واستجلابها، بحيث يدفع عنهم العراقيل والموانع، وربما حف بهم اللطف والعناية عند تقصيرهم في القيام بها، وعند تخليطهم الصلاح بالفساد؛ فرفق بهم ولم يعجل لهم الشر، وتلوَّم لهم في إنزال العقوبة.

وقد أشار إلى هذا قوله ـتعالىـ: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾.

يريد بذلك كله المسلمين، وقد مضى الكلام على ذلك في سورة الأنبياء كقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ في سورة الحج.

فلو أن قوماً غير مسلمين عملوا في سيرتهم، وشؤون رعيتهم بمثل ما أمر الله به المسلمين من الصالحات بحيث لم يعوزهم إلا الإيمان بالله ورسوله لاجتنبوا من سيرتهم صوراً تشبه الحقائق التي يجتنيها المسلمون؛ لأن تلك الأعمال صارت أسباباً وسنناً تترتب عليها آثارها التي جعلها الله سنناً وقوانين عمرانية سوى أنهم لسوء معاملتهم ربهم بجحوده، أو بالإشراك به، أو بعدم تصديق رسوله يكونون بمنأى عن كفالته، وتأييده إياهم، ودفع العوادي عنهم، بل يكلهم إلى أعمالهم وجهودهم على حسب المعتاد، ألا ترى أن القادة الأروبيين بعد أن اقتبسوا من الإسلام قوانينه ونظامه بما مارسوه من شؤون المسلمين في خلال الحروب الصليبية ثم بما اكتسبوه من ممارسة كتب التاريخ الإسلامي، والفقه الإسلامي، والسيرة النبوية قد نظموا ممالكهم على قواعد العدل، والإحسان، والمواساة، وكراهة البغي والعدوان؛ فعظمت دولهم واستقامت أمورهم.

ولا عجب في ذلك فقد سلط الله الآشوريين وهم مشركون على بني إسرائيل؛ لفسادهم فقال: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ وقد تقدم في سورة الإسراء. ١٨/٢٨٤-٢٨٥

١٩- وجملة: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: مسوقة مساق التذييل للتحذير من التوسع في الرخصة، أو جعلها ذريعة لما لا يحمد شرعاً؛ فوصف ﴿السَّمِيعُ﴾ تذكير بأنه يسمع ما تحدثهن به أنفسهن من المقاصد، ووصف ﴿الْعَلِيمُ﴾ تذكير بأنه يعلم أحوال وضعهن الثياب وتبرجهن ونحوها. ١٨/٢٩٩

سورة الفرقان

١ـ **سميت هذه السورة سورة الفرقان** في عهد النبيﷺ وبمسمع منه؛ ففي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال: «سمعت هشام بن حكيم ابن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله؛ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله؛ فكدت أساوره في الصلاة؛ فتصبرت حتى سلم فَلَبَّبْتُه بردائه، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها..» الحديث.

ولا يعرف لهذه السورة اسم غير هذا، والمؤدبون من أهل تونس يسمونها (تبارك الفرقان) كما يسمون (سورة الملك) تبارك، وتبارك الملك.

ووجه تسميتها (سورة الفرقان) لوقوع لفظ الفرقان فيها ثلاث مرات في أولها، ووسطها، وآخرها.

وهي مكية عند الجمهور، وروي عن ابن عباس أنه استثنى منها ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي قوله ـتعالىـ: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

والصحيح عنه أن هذه الآيات الثلاث مكية كما في صحيح البخاري في تفسير سورة الفرقان: «عن القاسم بن أبي بزة أنه سأل سعيد بن جبير: هل لمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة؟ فقرأت عليه: ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ فقال سعيد: قرأتها على ابن عباس كما قرأتها علي؟ فقال: هذه مكية نسختها آية مدنية التي في سورة النساء يريد قوله ـتعالىـ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً

مُتَعَمِّداً﴾ الآية.

وعن الضحاك: أنها مدنية إلا الآيات الثلاث من أولها إلى قوله: ﴿وَلا نُشُوراً﴾.

وأسلوب السورة وأغراضها شاهدة بأنها مكية.

وهي السورة الثانية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يس، وقبل سورة فاطر، **وعدد آياتها** سبع وسبعون باتفاق أهل العدد. ١٨/٣١٣ـ٣١٤

٢ـ واشتملت هذه السورة على الابتداءِ بتحميدِ الله ـتعالى ـ وإنشاءِ الثناء عليه، ووصفِه بصفات الإلهية والوحدانية فيها.

وأُدْمِجَ في ذلك التنويهُ بالقرآن، وجلالِ مُنَزِّلِه، وما فيه من الهدى، وتعريضٌ بالامتنان على الناس بهديه وإرشاده إلى اتقاء المهالك، والتنويهُ بشأن النبيﷺ.

وأقيمت هذه السورة على **ثلاث دعائم: الأولى:** إثبات أنَّ القرآنَ منزلٌ من عند الله، والتنويهُ بالرسولِ المُنَزَّلِ عليه ﷺ ودلائلُ صِدْقه، ورِفْعَةُ شأنه عن أن تكونَ له حظوظُ الدنيا، وأنه على طريقة غيرِه من الرسل، ومن ذلك تلقى قومُه دعوتَه بالتكذيب.

الدعامة الثانية: إثباتُ البعثِ والجزاء، والإنذارُ بالجزاء في الآخرة، والتبشيرُ بالثوابِ فيها للصالحين، وإنذارُ المشركين بسوءِ حظهم يومئذ، وتكونُ لهم الندامةُ على تكذيبهم الرسولَ، وعلى إشراكهم، واتباعِ أئمة كفرهم.

الدعامة الثالثة: الاستدلالُ على وحدانية الله، وتفردُه بالخلق، وتنزيهُه عن أن يكون له ولدٌ أو شريكٌ، وإبطالُ إلهيةِ الأصنامِ، وإبطالُ ما زعموه من بُنُوَّةِ الملائكة لله ـتعالى ـ.

وافتُتِحَتْ في آيات كلِّ دَعامةٍ من هذه الثلاث بجملة ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي ﴾ الخ.

قال الطيبي: «مدارُ هذه السورة على كونه ﷺ مبعوثاً إلى الناس كافةً ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم؛ ولهذا جَعل براعةَ استهلالِها ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾».

وذَكَرَ بدائعَ مِنْ صنعه ـ تعالى ـ جمعاً بين الاستدلال والتذكير.

وأَعْقَبَ ذلك بتثبيت الرسول ﷺ على دعوته، ومقاومته الكافرين.

وضَرَبَ الأمثالَ للحالين ببعثة الرسل السابقين، وما لقوا من أقوامهم مثل قوم موسى وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط.

والتوكلُ على الله، والثناءُ على المؤمنين به، ومدحُ خصالِهم ومزايا أخلاقِهم، والإشارةُ إلى عذاب قريب يَحُلُّ بالمكذبين. ١٨/٣١٤ـ٣١٥

٣ـ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) ﴾.

افتتاح بديع لندرة أمثاله في كلام بلغاء العرب؛ لأن غالب فواتحهم أن تكون بالأسماء مجردة، أو مقترنةً بحرف غير منفصل، مثل قول طرفة:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد

أو بأفعال المضارعة ونحوها كقول امرئ القيس: «قفا نبك» البيت، أو بحروف التأكيد أو الاستفهام أو التنبيه مثل (إن) و (قد) والهمزة و (هل).

ومن قبيل هذا الافتتاح قول الحارث بن حلزة:

آذنتنا ببينها أسماء

وقوله النابغة:

كتمتك ليلاً بالجمومين ساهراً ... وهمين هماً مستكناً وظاهرا

وبهذه الندرة يكون في طالع هذه السورة براعة المطلع؛ لأن الندرة من العِزَّةِ،

والعِزَّةُ من محاسن الألفاظ، وضدها الابتذال. ١٨/٣١٥ـ٣١٦

٤ـ **والعض:** الشد بالأسنان على الشيء؛ ليؤلمه أو ليمسكه.

وحقه التعدية بنفسه إلا أنه كَثُرَتْ تعديتُه بـ:(على) لإفادة التمكن من المعضوض إذا قصدوا عضاً شديداً كما في هذه الآية.

والعض على اليد: كناية عن الندامة؛ لأنهم تعارفوا في بعض أغراض الكلام أن يصحبوها بحركات بالجسد مثل التشذر، وهو رفع اليد عند كلام الغضب قال لبيد:

غُلْب تشذّر بالدخول كأنهم ... جِنُّ البديِّ رواسياً أقدامها

ومثل وضع اليد على الفم عند التعجب، قال ـتعالىـ: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾.

ومنه في الندم قرع السن بالأصبع، وعض السبابة، وعض اليد.

ويقال: حَرَّق أسنانه، وحرَّق الأُرَّم ـبوزن رُكَّعـ: الأضراس أو أطراف الأصابع، وفي الغيظ عض الأنامل قال ـتعالىـ: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمْ الأَنَامِلَ مِنْ الغَيْظِ﴾ في سورة آل عمران.

وكانت كنايات بناء على ما يلازمها في العرف من معان نفسية، وأصل نشأتها عن تهيج القوة العصبية من جراء غضب أو تلهف. ١٩/١٢

٥ـ **وفَرَّع على وصفه بـ﴿الرَّحْمَنُ﴾ قوله: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾** للدلالة على أن في رحمته من العظمة والشمول ما لا تفي فيه العبارة؛ فيعدل عن زيادة التوصيف إلى الحوالة على عليمٍ بتصاريف رحمته، مجربٍ لها مُتَلَقٍّ أحاديثها ممن علمها وجربها.

وتنكير ﴿ خَبِيْراً ﴾ للدلالة على العموم؛ فلا يظن خبيراً مُعَيَّناً؛ لأن النكرة إذا تعلق بها فعل الأمر اقتضت عموماً بدليل أي خبير سألته أعلمك.

وهذا يجري مجرى المثل، ولعله من مبتكرات القرآن نظير قول العرب: «على الخبير سقطت» يقولها العارف بالشيء إذا سئل عنه.

والمثلان وإن تساويا في عدد الحروف المنطوق بها فالمثل القرآني أفصح لسلامته من ثقل تلاقي القاف والطاء والتاء في (سقطت).

وهو -أيضاً- أشرف؛ لسلامته من معنى السقوط، وهو أبلغ معنىً لما فيه من عموم كل خبير، بخلاف قولهم: على الخبير سقطت؛ لأنها إنما يقولها الواحد المعيَّن، وقريب من معنى: ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيْرًا ﴾ قول النابغة:

هلا سألت بني ذبيان ما حسبي إذا الدخان تغشى الأشمط البرما

إلى قوله:

يخبرك ذو عرضهم عني وعالمهم وليس جاهل شيء مثل من علما

٦١/١٩

٦- ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾.

واعلم أن هذه الصلات التي أجريت على ﴿ عِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ جاءت على أربعة أقسام.

قسم هو من التحلي بالكمالات الدينية: وهي التي ابتدئ بها من قوله -تعالى-: ﴿ الَّذِيْنَ يَمْشُوْنَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ إلى قوله: ﴿ سَلاَمًا ﴾.

وقسم هو من التخلي عن ضلالات أهل الشرك: وهو الذي من قوله:

﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾.

وقسم هو من الاستقامة على شرائع الإسلام: وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ﴾ إلى قوله: ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ الخ.

وقسم من تطلب الزيادة من صلاح الحال في هذه الحياة: وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ إلى قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾. ٦٨ـ٦٧/١٩

٧ـ **والهَوْن:** اللين والرفق، ووقع هنا صفة لمصدر المشي محذوف تقديره (مشياً) فهو منصوب على النيابة عن المفعول المطلق.

والمشي الهون: هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام، وخفق النعال؛ فهو مخالف لمشي المتجبرين المعجبين بنفوسهم وقوّتهم.

وهذا الهون ناشئ عن التواضع لله ـتعالىـ والتخلق بآداب النفس العالية، وزوال بطر أهل الجاهلية؛ فكانت هذه المِشْية من خلال الذين آمنوا على الضد من مشي أهل الجاهلية.

وعن عمر بن الخطاب أنه رأى غلاماً يتبختر في مشيته فقال له: «إن البخترة مشية تكره إلا في سبيل الله».

وقد مدح الله ـتعالىـ أقواماً بقوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾ فاقصد في مشيتك.

وحكى الله ـتعالىـ عن لقمان لابنه: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾.

والتخلق بهذا الخلق مظهر من مظاهر التخلق بالرحمة المناسب لعباد الرحمن؛

لأن الرحمة ضد الشدة؛ فالهَوْن يناسب ماهيتها، وفيه سلامة من صدم المارين. ٦٨/١٩

٨ـ وقُرن وصفهم بالتواضع في سمتهم وهو المشي على الأرض هوناً بوصف آخر يناسب التواضع، وكراهية التطاول، وهو متاركة الذين يجهلون عليهم في الخطاب بالأذى والشتم.

وهؤلاء الجاهلون يومئذ هم المشركون؛ إذ كانوا يتعرضون للمسلمين بالأذى والشتم؛ فعلَّمهم الله متاركة السفهاء؛ فالجهل هنا ضد الحلم، وذلك أشهر إطلاقاته عند العرب قبل الإسلام، وذلك معلوم في كثير من الشعر والنثر.٦٩/١٩

٩ـ **قال ابن عطية:** وأريت في بعض التواريخ أن إبراهيم بن المهدي وكان من المائلين على علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال يوماً بحضرة المأمون[1] وعنده جماعة: «كنت أرى علي بن أبي طالب في النوم، فكنت أقول له: من أنت؟ فكان يقول: علي بن أبي طالب، فكنت أجيء معه إلى قنطرة، فيذهب، فيتقدمني في عبورها، فكنت أقول: إنما تَدَّعي هذا الأمر بامرأة، ونحن أحق به منك، فما رأيت له في الجواب بلاغةً كما يذكر عنه.

قال المأمون: وبماذا جاوبك؟ قال: فكان يقول لي: سلاماً.

قال الراوي: فكأن إبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية، أو ذهبت عنه في ذلك الوقت، فنبه المأمون على الآية مَنْ حضره، وقال: هو والله يا عم علي بن أبي طالب، وقد جاوبك بأبلغ جواب؛ فخزي إبراهيم واستحيا». ١٩/٦٩ـ٧٠

١ـ لأن المأمون كان متشيعاً للعلويين.

١٠ـ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً (٦٦)﴾.

دعاؤهم هذا أمارة على شدة مخافتهم الذنوب؛ فهم يسعون في مرضاة ربهم؛ لينجوا من العذاب، فالمراد بصرف العذاب: إنجاؤهم منه بتيسير العمل الصالح، وتوفيره، واجتناب السيئات. ٧٠/١٩

سورة الشعراء

١ـ اشتهرت عند السلف بسورة الشعراء؛ لأنها تفردت من بين سور القرآن بذكر كلمة الشعراء، وكذلك جاءت تسميتها في كتب السنة، وتسمى ـأيضاًـ سورة طسم.

وفي أحكام ابن العربي أنها تسمى ـأيضاًـ الجامعة، ونسبه ابن كثير والسيوطي في الإتقان إلى تفسير مالك المروي عنه[١].

ولم يظهر وجه وصفها بهذا الوصف، ولعلها أول سورة جمعت ذكر الرسل أصحاب الشرائع المعلومة إلى الرسالة المحمدية. ١٩/٨٩

٢ـ وهي مكية، فقيل جميعها مكي، وهو المروي عن ابن الزبير، ورواية عن ابن عباس ونسبه ابن عطية إلى الجمهور، وروي عن ابن عباس أن قوله ـتعالىـ: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ﴾ إلى آخر السورة نزل بالمدينة؛ لذكر شعراء رسول الله ﷺ حسان بن ثابت وابن رواحة وكعب بن مالك، وهم المعني بقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية.

ولعل هذه الآية هي التي أقدمت هؤلاء على القول بأن تلك الآيات مدنية.

وعن الداني قال: نزلت ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ﴾ في شاعرين تهاجيا في الجاهلية. ١٩/٨٩

٣ـ وأقول: كان شعراء بمكة يهجون النبي ﷺ منهم النضر بن الحارث، والعوراء بنت حرب زوج أبي لهب ونحوهما، وهم المراد بآيات ﴿وَالشُّعَرَاءُ

---

١ ـ تفسير مالك بن أنس، ذكره عياض في المدارك، وذكره الداودي في طبقات المفسرين.

يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ ﴾.

وكان شعراء المدينة قد أسلموا قبل الهجرة وكان في مكة شعراء مسلمون من الذين هاجروا إلى الحبشة ٨٩/١٩

٤ـ وهي السورة السابعة والأربعون في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الواقعة، وقبل سورة النمل. ٩٠/١٩

٥ـ وقد جعل أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة عدد آيها مائتين وستاً وعشرين، وجعله أهل الشام وأهل الكوفة مائتين وسبعاً وعشرين. ٩٠/١٩

٦ـ **الأغراض التي اشتملت عليها:** أولها التنويهُ بالقرآن، والتعريضُ بعجزهم عن معارضته، وتسليةُ النبيﷺ على ما يلاقيه من إِعْراضِ قومه عن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن.

وفي ضِمْنِهِ تهديدُهم على تَعَرُّضهم لغضب الله ـتعالى ـ وضربُ المثل لهم بما حَلَّ بالأمم المكذبةِ رُسُلَها، والمُعْرِضَةِ عن آيات الله.

وأَحْسِبُ أنها نزلت إِثْرَ طلبِ المشركين أن يأتِيَهم الرسولُ بخوارقَ؛ فافتتحت بتسلية النبيﷺ وتثبيتٍ له، ورباطةٍ لجأشه بأن ما يلاقيه من قومه هو سنةُ الرسل من قبله مع أقوامهم مثل موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب؛ ولذلك خَتَم كلَّ استدلال جيء به على المشركين المكذبين بتذييل واحد هو قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ تسجيلاً عليهم بأن آيات الوحدانية، وصدقَ الرسلِ عديدةٌ كافيةٌ لمن يتطلب الحق.

ولكن أكثرَ المشركين لا يؤمنون، وأن اللهَ عزيزٌ قادرٌ على أن يُنْزِلَ بهم العذاب، وأنه رحيم برسله؛ فَناصِرُهم على أعدائهم.

قال في الكشاف: «كلُّ قصةٍ من القصص المذكورة في هذه السورة كتنزيل برأسه. وفيها من الاعتبار ما في غيرها؛ فكانت كلُّ واحدةٍ منها تُدْلي بحقٍّ في أن تختم بما اخْتُتِمت به صاحبتُها، ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وكلما زاد ترديدُه كان أمكنَ له في القلب، وأرسخَ في الفهم، وأبعدَ من النسيان، ولأن هذه القصصَ طُرِقَتْ بها آذانٌ وَقَرَتْ عن الإنصات للحق؛ فَكُوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير؛ لعل ذلك يفتح أذناً، أو يفتق ذهناً» اهـ.

ثم التنويهُ بالقرآن، وشهادةُ أهل الكتاب له، والردُّ على مطاعنهم في القرآن وجعلِه عضين، وأنه منزهٌ عن أن يكون شعراً ومن أقوال الشياطين، وأمر الرسولﷺ بإنذار عشيرته، وأن الرسول ما عليه إلا البلاغ، وما تخلل ذلك من دلائل. ١٩/٩٠ـ٩١

٧ـ **والخُلُق في اصطلاح الحكماء:** مَلَكَةٌ أي كيفية راسخة في النفس، أي متمكنة من الفكر تصدر بها عن النفس أفعال صاحبها بدون تأمل.

فَخُلُقُ المرء: مجموع غرائز ـأي طبائع نفسيةـ مؤتلفة من انطباع فكري: إما جِبِلِّي في أصل خلقته، وإما كَسْبِيٌّ ناشئٌ عن تمرُّن الفكر عليه، وتقلده إياه؛ لاستحسانه إياه عن تجربةِ نَفْعِهِ، أو عن تقليد ما يشاهده من بواعث محبة ما شاهد.

وينبغي أن يسمى اختياراً من قول أو عمل لذاته، أو لكونه من سيرة من يحبه ويقتدي به، ويسمى تقليداً، ومحاولته تسمى تخلقاً، قال سالم بن وابصة:

عليك بالقصيد[1] فيما أنت فاعله ... إن التخلُّقَ يأتي دونه الخُلُقُ

فإذا استقر وتمكن من النفس صار سجية له يجري أعماله على ما تمليه عليه،

---

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: «بالقصد» لأجل استقامة الوزن والمعنى. (م)

وتأمره به نفسه بحيث لا يستطيع ترك العمل بمقتضاها، ولو رام حمل نفسه على عدم العمل بما تمليه سجيته لاستصغر نفسه وإرادته، وحقر رأيه.

وقد يتغير الخُلُقُ تغيراً تدريجياً بسبب تجربة انجرار مضرة من داعيه، أو بسبب خوف عاقبة سيئة من جرائه بتحذير من هو قدوة عنده؛ لاعتقاد نصحه، أو لخوف عقابه، وأول ذلك هو المواعظ الدينية. ١٧٢/١٩

٨ـ **ومثلت حال الشعراء بحال الهائمين في أودية كثيرة مختلفة؛** لأن الشعراء يقولون في فنون من الشعر من هجاء واعتداء على أعراض الناس، ومن نسيب وتشبيب بالنساء، ومدح من يمدحونه؛ رغبة في إعطائه وإن كان لا يستحق المدح، وذم من يمنعهم وإن كان من أهل الفضل، وربما ذموا من كانوا يمدحونه، ومدحوا من سبق لهم ذمه. ٢٠٩/١٩

٩ـ **وشفع مذمتهم هذه بمذمة الكذب** فقال: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ والعرب يتمادحون بالصدق، ويعيرون بالكذب، والشاعر يقول ما لا يعتقد، وما يخالف الواقع حتى قيل: أحسن الشعر أكذبه.

والكذب مذموم في الدين الإسلامي؛ فإن كان الشعر كذباً لا قرينة على مراد صاحبه فهو قبيح، وإن كان عليه قرينة كان كذباً معتذراً عنه؛ فكان غير محمود.

وفي هذا إبداء للبون الشاسع بين حال الشعراء وحال النبيﷺ الذي كان لا يقول إلا حقاً، ولا يصانع ولا يأتي بما يضلل الأفهام.

ومن اللطائف أن الفرزدق أنشد عند سليمان بن عبد الملك قوله:

فبتن بجانبيَّ مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

فقال سليمان: قد وجب عليك الحد، فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني

الحد بقوله: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾.

وروي أن النعمان بن عدي بن نضلة كان عاملاً لعمر بن الخطاب فقال شعراً:

مـن مبلـغ الحسـناء أن حليلهـا بميسـان يسـقى في زجـاج وحنـتم[1]

إلى أن قال:

لعـل أمـير المـؤمنين يسـوءه تنادمنـا بالجوسـق[2] **المتهـدم**

فبلغ ذلك عمر، فأرسل إليه بالقدوم عليه وقال له: أي والله إني ليسوءني ذلك وقد وجب عليك الحد.

فقال: يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئاً مما قلت، وإنما كان فضلة من القول وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾.

فقال له عمر: «أما عذرك فقد درأ عنك الحد، ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قُلْتَ ما قُلْتَ». ١٩/١٠٩ـ٢١٠

١٠ـ وقد كُني باتباع الغاوين إياهم عن كونهم غاوين، وأفيد بتفظيع تمثيلهم بالإبل الهائمة تشويه حالتهم، وأن ذلك من أجل الشعر كما يؤذن به إناطة الخبر بالمشتق، **فاقتضى ذلك أن الشعر منظور إليه في الدين بعين الغض منه،** واستثناء ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الخ... من عموم الشعراء، أي من حكم ذمهم.

---

١ ـ هكذا ورد البيت في الأصل، وكأن فيه نقصَ حرف في الشطر الأول؛ فيكون من بحر الكامل، ويكون الشطر الثاني من الطويل، ولعل الصواب (فمن مبلغ الحسناء....).

ويُروى البيت: ألا هل أتى الحسناء...

فيكون الشطران من بحر الطويل. (م)

٢ ـ الجوسق: القصر، كان أهل البطالة والخلاعة يأوون إلى القصور المتروكة.

وبهذا الاستثناء تعين أن المذمومين هم شعراء المشركين الذين شغلهم الشعر عن سماع القرآن، والدخول في الإسلام.

ومعنى: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ أي كان إقبالهم على القرآن والعبادة أكثر من إقبالهم على الشعر.

﴿وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾: وهم من أسلموا من الشعراء وقالوا: الشعر في هجاء المشركين والانتصار للنبيﷺ مثل الذين أسلموا وهاجروا إلى الحبشة؛ فقد قالوا شعراً كثيراً في ذم المشركين، وكذلك من أسلموا من الأنصار كعبدالله ابن رواحة، وحسان بن ثابت، ومن أسلم من بعد من العرب مثل لبيد، وكعب ابن زهير، وسحيم عبد بني الحسحاس.

وليس ذكر المؤمنين من الشعراء بمقتضي كون بعضِ السورة مدنياً كما تقدم في الكلام على ذلك أول السورة. ١٩/ ٢١٠ـ٢١١

١١ـ وقد دلت الآية على أن للشعر حالتين: حالةً مذمومةً، وحالةً مأذونةً، فتعين أن ذمه ليس لكونه شعراً، ولكن لما حَفَّ به من معانٍ وأحوال اقتضت المذمة؛ فانفتح بالآية للشعر بابَ قبولٍ ومدحٍ؛ فحق على أهل النظر ضبط الأحوال التي تأوي إلى جانب قبوله أو إلى جانب مدحه، والتي تأوي إلى جانب رفضه.

وقد أومأ إلى الحالة الممدوحة قوله: ﴿وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾، وإلى الحالة المأذونة قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وكيف وقد أثنى النبيﷺ على بعض الشعر مما فيه محامد الخصال واستنصتَ أصحابه لشعر كعب بن زهير مما فيه دقة صفات الرواحل الفارهة، على أنه أذن

لحسان في مهاجاة المشركين ، وقال له : «**كلامك أشد عليهم من وقع النبل..**» .

وقال له : «**قل ومعك روح القدس**» .

وسيأتي شيء من هذا عند قوله ـتعالىـ : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ في سورة يس.

وأجاز عليه كما أجاز كعب بن زهير؛ فخلع عليه بردته ، فتلك حالة مقبولة؛ لأنه جاء مؤمناً.

وقال أبو هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «**أصدق كلمة ، أو أشعر كلمة قالتها العرب كلمة لبيد :**

ألا كل شيء ما خلا الله باطل»

وكان يستنشد شعر أمية بن أبي الصلت ، لما فيه من الحكمة وقال : «**كاد أمية أن يسلم**» .

وأمر حساناً بهجاء المشركين وقال له : «**قل ومعك روح القدس**» .

وقال لكعب بن مالك : «**لَكَلامُك أشدُّ عليهم من وقع النبل**» .

روى أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن بسنده إلى خريم بن أوس بن حارثة أنه قال : هاجرت إلى رسول الله بالمدينة مُنْصَرَفَهُ من تبوك ، فسمعت العباس قال : يا رسول الله إني أريد أن امتدحك ، فقال : «**قل لا يفضض الله فاك**» .

فقال العباس :

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق

الأبيات السبعة ، فقال النبي ﷺ : «**لا يفضض الله فاك**» .

وروى الترمذي عن أنس أن النبيﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبدالله ابن

رواحة يمشي بين يديه يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله — اليوم نضربكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله — ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة في حرم الله وبين يدي رسول الله تقول الشعر فقال له النبيﷺ: «**خل عنه يا عمر؛ فإنه أسرع فيهم من نضح النبل**».

وعن الزهري أن كعب بن مالك قال: يا رسول الله ما تقول في الشعر؟

قال: «**إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل**».

ولعلي بن أبي طالب شعر كثير، وكثير منه غير صحيح النسبة إليه.

وقد بين القرطبي في تفسيره في هذه السورة وفي سورة النور القول في التفرقة بين حالي الشعر، وكذلك الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في أول كتاب دلائل الإعجاز.

ووجب أن يكون النظر في معاني الشعر وحال الشاعر، ولم يزل العلماء يعنون بشعر العرب ومن بعدهم، وفي ذلك الشعر تحبيب لفصاحة العربية وبلاغتها، وهو آيل إلى غرض شرعي من إدراك بلاغة القرآن. ١٩/٢١١-٢١٢

سورة النمل

١ـ **أشهر أسمائها (سورة النمل)** وكذلك سميت في صحيح البخاري، وجامع الترمذي.

وتسمى ـأيضاًـ سورة سليمان، وهذان الاسمان اقتصر عليهما في الإتقان وغيره.

وذكر أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن أنها **تسمى (سورة الهدهد).**

ووجه الأسماء الثلاثة أن لفظ النمل، ولفظ الهدهد لم يذكرا في سورة من القرآن غيرها، وأما تسميتها سورة سليمان فلأن ما ذكر فيها من ملك سليمان مفصلاً لم يذكر مثلُه في غيرها.

وهذه السورة مكية بالاتفاق كما حكاه ابن عطية، والقرطبي، والسيوطي، وغير واحد.

وذكر الخفاجي أن بعضهم ذهب إلى مكية بعض آياتها ـكذا، ولعله سهوٌ صوابُه مدنية بعض آياتهاـ ولم أقف على هذا لغير الخفاجي.

وهي السورة الثامنة والأربعون في عداد نزول السور، نزلت بعد الشعراء وقبل القصص، كذا روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير.

وقد عدت آياتها في عدد أهل المدينة ومكة خمساً وتسعين، وعند أهل الشام والبصرة والكوفة أربعاً وتسعين. ١٩/٢١٥

٢ـ **أول أغراض هذه السورة** افتتاحُها بما يشير إلى إعجاز القرآن ببلاغة نظمه، وعلوِّ معانيه بما يشير إليه الحرفانِ المقطعان في أولها.

والتنويهُ بشأنِ القرآن، وأنه هدىً لمن ييسر اللهُ الاهتداءَ به دون مَنْ جحدوا أنه من عند الله.

والتحدي بعلم ما فيه من أخبار الأنبياء.

والاعتبارُ بِمُلْكِ أعظمِ مُلْكٍ أوتيه نبيٌّ، وهو مُلْكُ داودَ، وملكُ سليمانَ -عليهما السلام- وما بلغه مِنَ العلمِ بأحوال الطير، وما بلغ إليه ملكُه مِنْ عظمةِ الحضارة.

وأشهرُ أمةٍ في العرب أوتيت قوة، وهي أمةُ ثمودَ، والإشارةُ إلى مُلْكٍ عظيم من العرب وهو ملكُ سبأ.

وفي ذلك إيماء إلى أن نبوة محمدﷺ رسالة تقارنها سياسةُ الأمةِ، ثم يعقبها ملكُ، وهو خلافَةُ النبيِّﷺ.

وأن الشريعةَ المحمديةَ سيقامُ بها مُلْكٌ للأمة عتيدٌ كما أقيم لبني إسرائيل ملك سليمان.

ومحاجةُ المشركين في بطلان دينهم، وتزييفُ آلهتِهِمْ، وإبطالُ أخبارِ كهانهم وعرافيهم وسدنةِ آلهتهم، وإثباتُ البعثِ وما يتقدمه من أهوال القيامة وأشراطِها.

وأن القرآنَ مهيمنٌ على الكتب السابقة، ثم موادعةُ المشركين، وإنباؤهم بأن شأنَ الرسولِ الاستمرارُ على إبلاغ القرآنِ، وإنذارِهم بأن آياتِ الصدق سيشاهدونها، والله مطلعٌ على أعمالهم. ٢١٥/١٩-٢١٦

٣- **وعِلْمُ منطقِ الطيرِ أوتيه سليمان** من طريق الوحي بأن أطلعه الله على ما في تقاطيع وتخاليف صفير الطيور أو نعيقها من دلالة على ما في إدراكها، وإراداتها.

وفائدة هذا العلم أن الله جعله سبيلاً له يهتدي به إلى تعرف أحوال عالمية يسبق الطير إلى إدراكها بما أودع فيه من القوى الكثيرة.

وللطير دلالة في تخاطب أجناسها ، واستدعاء أصنافها والإنباء بما حولها ما فيه عون على تدبير ملكه وسياسة أمته، مثل استخدام نوع الهدهد في إبلاغ الأخبار، وردها، ونحو ذلك.

ووراء ذلك كله انشراح الصدر بالحكمة والمعرفة للكثير من طبائع الموجودات وخصائصها، ودلالة أصوات الطير على ما في ضمائرها: بعضها مشهور كدلالة بعض أصواته على نداء الذكور لإناثها، ودلالة بعضها على اضطراب الخوف حين يمسكه ممسك أو يهاجمه كاسر، ووراء ذلك دلالات فيها تفصيل؛ فكل كيفية من تلك الدلالات الإجمالية تنطوي على تقاطيع خفية من كيفيات صوتية يخالف بعضها بعضاً فيها دلالات على أحوال فيها تفضيل[1] لما أجملته الأحوال المجملة؛ فتلك التقاطيع لا يهتدي إليها الناس، ولا يطلع عليها إلا خالقها.

وهذا قريب من دلالة مخارج الحروف وصفاتها في لغة من اللغات وفكها، وإدغامها، واختلاف حركاتها على معان لا يهتدي إليها من يعرف تلك اللغة معرفة ضعيفة، ولم يتقن دقائقها، مثل أن يسمع ضللت وظللت؛ فالله ـ تعالى ـ اطلع سليمان بوحي على مختلف التقاطيع الصوتية التي في صفير الطير، وأعلمه بأحوال نفوس الطير عندما تصفر بتلك التقاطيع، وقد كان الناس في حيرة من ذلك كما قال المعري:

أَبَكَـتْ تلكـمُ الحمامـةُ أم غنَّـ ـت علـى غُصْـنِ دَوْحِهـا الميَّـادِ

---

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: تفصيل. (م)

وقال صاحبنا الشاعر البليغ الشيخ عبدالعزيز المسعودي من أبيات في هذا المعنى:

فمـــن كـــان مســـروراً يـــراه تغنيـــاً   ومـــن كـــان محزونـــاً يقـــول ينـــوح

والاقتصار على منطق الطير إيجاز؛ لأنه إذا علم منطق الطير وهي أبعد الحيوان عن الركون إلى الإنسان وأسرعها نفوراً منه ـ علم أن منطق ما هو أكثر اختلاطاً بالإنسان حاصل له بالأحرى كما يدل عليه قوله ـتعالىـ فيما يأتي قريباً: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا ﴾.

فتدل هذه الآية على أنه علم منطق كل صنف من أصناف الحيوان.

وهذا العلم سماه العرب علم الحُكْل ـ بضم الحاء المهملة وسكون الكاف ـ قال الحجاج وقيل ابنه رؤبة:

لـــو أنـــني أوتيـــت علـــم الحُكْـــل   عِلْـــم ســـليمان كـــلام النمـــل

أو أنـــني عمـــرت عمـــر الحســـل   أو عمـــر نـــوح زمـــن الفطحـــل

كنت رهين هرم أو قتل

١٩/٢٣٦ـ٢٣٨

٤ـ **والهدهد:** نوع من الطير وهو ما يقرقر، وفي رائحته نتن، وفوق رأسه قزعة سوداء، وهو أسود البراثن، أصفر الأجفان، يقتات الحبوب والدود، يرى الماء من بعد، ويحس به في باطن الأرض؛ فإذا رفرف على موضع علم أن به ماءً، وهذا سبب اتخاذه في جند سليمان.

قال الجاحظ: يزعمون أنه هو الذي كان يدل سليمان على مواضع الماء في قعور الأرضين إذا أراد استنباط شيء منها. ١٩/٢٤٥

٥ـ **وأما عقوبة الحيوان** فإنما تكون عند تجاوزه المعتاد في أحواله ، قال القرافي في تنقيح الفصول في آخر فصوله : سئل الشيخ عز الدين بن عبدالسلام عن قتل الهر الموذي هل يجوز؟ فكتب وأنا حاضر : إذا خرجت أذيتُه عن عادة القطط وتكرر ذلك منه قتل. اهـ

قال القرافي : فاحترز بالقيد الأول عما هو في طبع الهر من أكل اللحم إذا ترك؛ فإذا أكله لم يقتل؛ لأنه طبعه ، واحترز بالقيد الثاني عن أن يكون ذلك منه على وجه القلة ، فإن ذلك لا يوجب قتله.

قال القرافي : وقال أبو حنيفة إذا آذت الهرة ، وقصد قتلها لا تعذب ، ولا تخنق بل تذبح بموسى حادة لقوله ﷺ : « **إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة** » . اهـ

وقال الشيخ ابن أبي زيد في الرسالة : ولا بأس ـإن شاء اللهـ بقتل النمل إذا آذت ولم يقدر على تركها.

فقول سليمان : ﴿ لأعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ شريعة منسوخة.

أما العقاب الخفيف للحيوان؛ لتربيته ، وتأديبه كضرب الخيل؛ لتعليم السير ونحو ذلك ـ فهو مأذون فيه؛ لمصلحة السير ، وكذلك السبق بين الخيل مع ما فيه من إتعابها؛ لمصلحة السير عليها في الجيوش. **١٩/٢٤٦ـ٢٤٧**

٦ـ **وجعل الحاجز بين البحرين** من بديع الحكمة ، وهو حاجز معنوي حاصل من دفع كلا الماءين : أحدهما الآخر عن الاختلاط به ، بسبب تفاوت الثقل النسبي لاختلاف الأجزاء المركب منها الماء المالح والماء العذب؛ فالحاجز حاجز من طبعهما ، وليس جسماً آخر فاصلاً بينهما. **٢٠/١٣**

٧ـ وليس في كلام المفسرين شفاء لبيان اختصاص هذه الآية بأن الرائي يحسب الجبال جامدة، ولا بيان وجه تشبيه سيرها بسير السحاب، ولا توجيه التذييل بقوله ـ تعالى ـ: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

فلذلك كان لهذه الآية وضعٌ دقيقٌ، ومعنى بالتأمل خليق؛ فوضعها أنها وقعت موقع الجملة المعترضة بين المجمل وبيانه من قوله: ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ بأن يكون من تخلل دليل على دقيق صنع الله ـ تعالى ـ في أثناء الإنذار والوعيد إدماجاً وجمعاً بين استدعاء للنظر، وبين الزواجر والنذر، كما صُنِع في جملة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ الآية.

أو هي معطوفة على جملة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ الآية، وجملة: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ معترضة بينهما لمناسبة ما في الجملة المعطوف عليها من الإيماء إلى تمثيل الحياة بعد الموت.

ولكن هذا استدعاء لأهل العلم والحكمة؛ لتتوجه أنظارهم إلى ما في الكون من دقائق الحكمة وبديع الصنعة.

وهذا من العلم الذي أُوْدع في القرآن؛ ليكون معجزة من الجانب العلمي يدركها أهل العلم، كما كان معجزة للبلغاء من جانبه النظمي كما قدمناه في الجهة الثانية من المقدمة العاشرة.

فإن الناس كانوا يحسبون أن الشمس تدور حول الأرض؛ فينشأ من دورانها نظام الليل والنهار، ويحسبون الأرض ساكنة.

واهتدى بعض علماء اليونان أن الأرض هي التي تدور حول الشمس في كل

يوم وليلة دورة تتكون منها ظلمة نصف الكرة الأرضية تقريباً وضياء النصف الآخر، وذلك ما يعبر عنه بالليل والنهار، ولكنها كانت نظرية مرموقة بالنقد، وإنما كان الدال عليها قاعدة أن الجرم الأصغر أولى بالتحرك حول الجرم الأكبر المرتبط بسيره وهي علة إقناعية؛ لأن الحركة مختلفة المدارات؛ فلا مانع من أن يكون المتحرك الأصغر حول الأكبر في رأي العين، وضبط الحساب.

وما تحققت هذه النظرية إلا في القرن السابع عشر بواسطة الرياضي (غاليلي) الإيطالي.

والقرآن يدمج في ضمن دلائله الجمة، وعَقِبَ دليلِ تكوينِ النور والظلمة ـ دليلاً رُمِزَ إليه رمزاً؛ فلم يتناولْه المفسرون، أو تسمع لهم ركزاً.

وإنما ناط دلالة تحرك الأرض بتحرك الجبال منها؛ لأن الجبال هي الأجزاء الناتئة من الكرة الأرضية؛ فظهور تحرك ظلالها متناقصة قبل الزوال إلى منتهى نقصها، ثم آخذة في الزيادة بعد الزوال.

ومشاهدةُ تحركِ تلك الظلال تحركاً يحاكي دبيب النمل أشد وضوحاً للراصد، وكذلك ظهور تحرك قممها أمام قرص الشمس في الصباح والمساء أظهر مع كون الشمس ثابتة في مقرها بحسب أرصاد البروج والأنواء.

ولهذا الاعتبار غير أسلوب الاستدلال الذي في قوله ـتعالى ـ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ فجعل هنا بطريق الخطاب: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ﴾.

والخطاب للنبيﷺ تعليماً له لمعنى يُدْرِكُ هو كنهه؛ ولذلك خُصَّ الخطاب به، ولم يعمّم كما عمّم قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ في هذا الخطاب، وادخاراً لعلماء أمته الذين يأتون في وقت ظهور هذه الحقيقة الدقيقة.

فالنبيﷺ أطلعه الله على هذا السر العجيب في نظام الأرض كما أطلع إبراهيم -عليه السلام- على كيفية إحياء الموتى اختص الله رسوله ﷺ بعلم ذلك في وقته وائتمنه على علمه بهذا السر العجيب في قرآنه، ولم يأمره بتبليغه؛ إذ لا يتعلق بعلمه للناس مصلحة حينئذ حتى إذا كشف العلم عنه من نقابه وجد أهل القرآن ذلك حقاً في كتابه، فاستلّوا سيف الحجة به؛ وكان في قُرَابه.

وهذا التأويل للآية هو الذي يساعد قوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ﴾ المقتضي أن الرائي يراها في هيئة الساكنة، وقوله: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ إذ هذا التأويل بمعنى الجامدة هو الذي يناسب حالة الجبال؛ إذ لا تكون الجبال ذائبة. ٢٠/٤٨-٥٠

سورة القصص

١ـ **سُمِّيت سورةَ القصص** ولا يعرف لها اسمُ آخر، ووجه التسمية بذلك وقوع لفظ (القصص) فيها عند قوله ـتعالىـ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾.

فالقصص الذي أضيفت إليه السورة هو قصص موسى الذي قصه على شعيب ـعليهما السلامـ فيما لقيه في مصر قبل خروجه منها.

فلما حكي في السورة ما قصه موسى كانت هاته السورة ذات قصص لحكاية قصص، فكان القصص متوغلاً فيها، وجاء لفظ القصص في سورة يوسف ولكن سورة يوسف نزلت بعد هذه السورة.

وهي مكية في قول جمهور التابعين، وفيها آية: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.

قيل: نزلت على النبيﷺ في الجحفة في طريقه إلى المدينة للهجرة تسلية له على مفارقة بلده.

وهذا لا يناكد أنها مكية؛ لأن المراد بالمكي ما نزل قبل حلول النبيﷺ بالمدينة كما أن المراد بالمدني ما نزل بعد ذلك ولو كان نزوله بمكة.

وعن مقاتل وابن عباس أن قوله ـتعالىـ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ نزل بالمدينة.

وهي السورة التاسعة والأربعون في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة النمل، وقبل سورة الإسراء؛ فكانت هذه الطواسين الثلاث متتابعة في النزول كما

هو ترتيبها في المصحف، وهي متماثلة في افتتاح ثلاثتها بذكر موسى -عليه السلام- ولعل ذلك الذي حمل كتاب المصحف على جعلها متلاحقة.

وهي ثمان وثمانون آية باتفاق العادين. ٦١/٢٠

٢- **اشتملت هذه السورة** على التنويهِ بشأنِ القرآنِ، والتعريضِ بأن بلغاءَ المشركين عاجزون عن الإتيان بسورةٍ مثلِهِ، وعلى تفصيل ما أُجْمِلَ في سورة الشعراء من قول فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ فَفَصَّلت سورةُ القصصِ كيف كانت تربيةُ موسى في آل فرعون.

وبُيِّن فيها سببُ زوالِ مُلْكِ فرعونَ.

وفيها تفصيلُ مَا أُجْمِلَ في سورة النمل من قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ فَفَصَّلت سورةُ القصصِ كيف سارَ موسى وأهلُه، وأين آنس النارَ، وَوَصْفَ المكان الذي نودي فيه بالوحي إلى أن ذَكَرَتْ دعوةَ موسى فرعونَ؛ فكانت هذه السورةُ أَوْعَبَ لأحوال نشأةِ موسى إلى وقت إبلاغه الدعوةَ، ثم أَجْمَلَتْ ما بعد ذلك؛ لأن تفصيلَه في سورة الأعراف وفي سورة الشعراء.

والمقصودُ من التفصيل ما يتضمنه مِنْ زيادةِ المواعظِ والعبر.

وإذْ قد كان سَوْقُ تلك القصةِ إنما هو للعبرة والموعظة؛ ليعلم المشركون سُنَّةَ اللهِ في بعثة الرسل ومعاملته الأممَ المكذبةَ لرسلها، وتحدِّي المشركين بعلم النبيﷺ بذلك، وهو أميٌّ لم يقرأْ ولم يكتبْ، ولا خالط أهل الكتاب - ذَيَّلَ اللهُ ذلك بتنبيه المشركين إليه، وتحذيرَهم من سوء عاقبة الشرك، وأنذرهم إنذاراً بليغاً.

وفَنَّد قولَهم: ﴿لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من الخوارق كقلب العصا حيةً، ثم انتقاضَهم في قولهم؛ إذ كذبوا موسى -أيضاً-.

وتحداهم بإعجاز القرآن وهديه مع هدي التوراة.

وأبطلَ معاذيرَهم، ثم أنذرهم بما حل بالأمم المكذبة رسل الله.

وساقَ لهم أدلة على وحدانية الله -تعالى- وفيها كلُّها نعمٌ عليهم، وذكَّرهم بما سيحُلُّ بهم يوم الجزاء.

وأنحى عليهم في اعتزازهم على المسلمين بقوتهم ونَعْمتهم ومالهم بأن ذلك متاعُ الدنيا، وأن ما ادخر للمسلمين عند الله خيرٌ وأبقى.

وأَعْقَبَهُ بضربِ المثل لهم بحال قارونَ في قوم موسى، وتخلَّص من ذلك إلى التذكيرِ بأن أمثال أولئك لا يَحْظَوْن بنعيم الآخرة، وأن العاقبةَ للمتقين.

وتخلل ذلك إيماءٌ إلى اقتراب مهاجرةِ المسلمين إلى المدينة، وإيماء إلى أن الله مُظْهِرُهم على المشركين بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ الآية.

وخَتَم الكلامَ بتسلية الرسولﷺ وتثبيته وَوَعْدِه بأنه يجعل بلَدَه في قبضته، ويمكِّنَه من نواصي الضالين.

وَيَقْرُبُ عندي أن يكون المسلمون ودُّوا أن تُفَصَّل لهم قصةُ رسالةِ موسى -عليه السلام- فكان المقصودُ انتفاعَهم بما في تفاصيلها من معرفةٍ نافعة لهم؛ تنظيراً لحالهم وحال أعدائهم؛ فالمقصودُ ابتداءً هُمُ المسلمون ولذلك قال -تعالى- في أولها: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي للمؤمنين. ٢٠/٦٢-٦٣

٣ـ **فحصل تأكيد لمعنى تمكن الإفساد من فرعون؛** ذلك أن فعله هذا اشتمل على مفاسد عظيمة.

المفسدة الأولى: التكبر والتجبر؛ فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمة من احتقار الناس، والاستخفاف بحقوقهم، وسوء معاشرتهم، وبث عداوته فيهم، وسوء ظنه بهم، وأن لا يرقب فيهم موجباتِ فَضْلٍ سوى ما يرضي شهوته وغضبه، فإذا انضم إلى ذلك أنه ولي أمرهم، وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضيةً سوءَ رعايته لهم، والاجتراء على دحض حقوقهم، وأن يرمقهم بعين الاحتقار؛ فلا يعبأ بجلب الصالح لهم ودفع الضر عنهم، وأن يبتزَّ منافعهم لنفسه، ويُسَخِّرَ مَنِ استطاع منهم لخدمة أغراضه، وأن لا يلين لهم في سياسة، فيعاملهم بالغلظة، وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته.

فهذه الصفة هي أم المفاسد، وجماعها؛ ولذلك قدمت على ما يذكر بعدها، ثم أعقبت بأنه كان من المفسدين.

المفسدة الثانية: أنه جعل أهل المملكة شيعاً، وفرقهم أقساماً وجعل منهم شيعاً مقربين منه، ويفهم منه أنه جعل بعضهم بضد ذلك، وذلك فساد في الأمة؛ لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض، فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاولة على الفرق الأخرى، وتكدح الفرق الأخرى؛ لتزحزح المحظوظين عن حظوتهم بإلقاء النميمة والوشايات الكاذبة؛ فيحلوا محل الآخرين.

وهكذا يذهب الزمان في مكائد بعضهم لبعض؛ فيكون بعضهم لبعض فتنة،

وشأن الملك الصالح أن يجعل الرعية منه كلها بمنزلة واحدة بمنزلة الأبناء من الأب يحب لهم الخير، ويقوِّمهم بالعدل واللين، لا ميزة لفرقة على فرقة، ويكون اقتراب أفراد الأمة منه بمقدار المزايا النفسية والعقلية.

المفسدة الثالثة: أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته، فيجعلها محقرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى، ولا عدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى، في حين أن لها من الحق في الأرض ما لغيرها؛ لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها، ونشأوا فيها.

والمراد بالطائفة: بنو إسرائيل وقد كانوا قطنوا في أرض مصر برضى ملكها في زمن يوسف وأعطوا أرض (جاسان) وعمروها، وتكاثروا فيها، ومضى عليهم فيها أربعمائة سنة؛ فكان لهم من الحق في أرض المملكة ما لسائر سكانها؛ فلم يكن من العدل جعلهم بمنزلة دون منازل غيرهم.

وقد أشار إلى هذا المعنى قوله ـتعالىـ: ﴿طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ إذ جعلها من أهل الأرض الذين جعلهم فرعون شيعاً.

وأشار بقوله: ﴿طَائِفَةً﴾ إلى أنه استضعف فريقاً كاملاً، فأفاد ذلك أن الاستضعاف ليس جارياً على أشخاص معينين لأسباب تقتضي استضعافهم ككونهم ساعين بالفساد، أو ليسوا أهلاً للاعتداد بهم؛ لانحطاط في أخلاقهم وأعمالهم، بل جرى استضعافه على اعتبار العنصرية والقبلية، وذلك فساد؛ لأنه يقرن الفاضل بالمفضول.

من أجل ذلك الاستضعاف المنوط بالعنصرية أجرى شدته على أفراد تلك الطائفة دون تمييز بين مستحق وغيره، ولم يراع غير النوعية من ذكورة وأنوثة

وهي:

المفسدة الرابعة: أنه يُذَبِّح أبناءهم أي يأمر بذبحهم؛ فإسناد الذبح إليه مجاز عقلي.

والمراد بالأبناء: الذكور من الأطفال، وقد تقدم ذكر ذلك في سورة البقرة، وقَصْدُه من ذلك أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

المفسدة الخامسة: أنه يستحيي النساء، أي يستبقي حياة الإناث من الأطفال؛ فأطلق عليهن اسم النساء باعتبار المآل إيماءً إلى أنه يستحييهن؛ ليصرن نساء؛ فتصلحن لما تصلح له النساء وهو أن يصرن بغايا؛ إذ ليس لهن أزواج.

وإذ كان احتقارهن بصد قومه عن التزوج بهن فلم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة.

وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء؛ إذ كل ذلك اعتداء على الحق.

وقد تقدم آنفاً موقع جملة: ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ ﴾. ٢٠/٦٩ـ٧٠

٤ـ قال ـتعالى ـ: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فجمع في آية واحدة خبرين، وأمرين، ونهيين، وبشارتين.

فالخبران هما: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوْسَى ﴾ وقوله: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ لأنه يُشْعِر أنها ستخاف عليه.

والأمران هما: ﴿ أَرْضِعِيْهِ ﴾ و ﴿ أَلْقِيْهِ ﴾.

والنهيان: ﴿وَلاَ تَخَافِي﴾ و ﴿لاَ تَحْزَنِي﴾.

والبشارتان: ﴿إِنَّا رَادُوْهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوْهُ مِنَ الْمُرْسَلِيْن﴾.

والخوف: توقع أمر مكروه، **والحزن:** حالة نفسية تنشأ من حادث مكروه للنفس كفوات أمر محبوب، أو فقد حبيب، أو بعده، أو نحو ذلك.

والمعنى: لا تخافي عليه الهلاك من الإلقاء في اليم، ولا تحزني على فراقه.

والنهي عن الخوف وعن الحزن نهي عن سببيهما، وهما توقع المكروه، والتفكر في وحشة الفراق.

وجملة: ﴿إِنَّا رَادُوْهُ إِلَيْكِ﴾ في موقع العلة للنهيين؛ لأن ضمان رده إليها يقتضي أنه لا يهلك، وأنها لا تشتاق إليه بطول المغيب.

وأما قوله: ﴿وَجَاعِلُوْهُ مِنَ الْمُرْسَلِيْن﴾ فإدخال للمسرة عليها. **٢٠/٧٤ـ٧٥**

٥ـ وقرة العين: كناية عن السرور وهي كناية ناشئة عن ضدها، وهو سخنة العين التي هي أثر البكاء اللازم للأسف والحزن؛ فلما كني عن الحزن بسخنة العين في قولهم في الدعاء بالسوء: أسخن الله عينه، وقول الراجز:

أوه أديم عرضه وأسخن ... بعينه بعد هجوع الأعين

أتبعوا ذلك بأن كنوا عن السرور بضد هذه الكناية فقالوا: قرة عين، وأقر الله عينه؛ فحكى القرآن ما في لغة امرأة فرعون من دلالة على معنى المسرة الحاصلة للنفس ببليغ ما كنى به العرب عن ذلك وهو قرة عين.

ومن لطائفه في الآية أن المسرة المعنية هي مسرة حاصلة من مرأى محاسن الطفل كما قال ـتعالى ـ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾. **٢٠/٧٨**

٦ـ ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾.

تقدم نظير قوله: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ ﴾ في سورة طه.

وقوله: ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ فإنما تأكيد حرف كي بمرادفه وهو لام التعليل؛ للتنصيص من أول وهلة على أنه معطوف على الفعل المثبت، لا على الفعل المنفي.

وضمير: ﴿ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ عائد إلى الناس المفهوم من المقام، أو إلى رعية فرعون، ومن الناس بنو إسرائيل.

والاستدراكُ ناشئٌ عن نصب الدليل لها على أن وعد الله حق، أي فعلمت ذلك وحدها وأكثر القوم لا يعلمون ذلك؛ لأنهم بين مشركين وبين مؤمنين تقادم العهد على إيمانهم، وخلت أقوامُهم من علماء يلقنونهم معانيَ الدين؛ فأصبح إيمانهم قريباً من الكفر.

وموضع العبرة من هذه القصة أنها تتضمن أموراً ذات شأن؛ ذكرى للمؤمنين، وموعظة للمشركين.

فأول ذلك وأعظمه: إظهار أن ما علمه الله وقدَّره هو كائن لا محالة كما دل عليه قوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَحْذَرُونَ ﴾ وإن الحذر لا ينجي من القدر.

وثانيه: إظهار أن العلو الحق لله تعالى وللمؤمنين، وأن علوَّ فرعونَ لم يغن عنه شيئاً في دفع عواقب الجبروت والفساد؛ ليكون ذلك عبرةً لجبابرة المشركين من أهل مكة.

وثالثه: أن تمهيد القصة بعلو فرعون وفساد أعماله مشيرٌ إلى أن ذلك هو سبب

الانتقام منه، والأخذ بناصر المستضعفين؛ ليحذر الجبابرة سوء عاقبة ظلمهم، وليرجو الصابرون على الظلم أن تكون العاقبة لهم.

ورابعه: الإشارة إلى حكمة: ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في جانب بني إسرائيل ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ في جانب فرعون، إذ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل، وتدبير قطع نسلهم.

وخامسه: أن إصابة قوم فرعون بغتة من قبل من أَمَّلوا منه النفع أشد عبرة للمعتبر، وأوقع حسرة على المستبصر، وأدل على أن انتقام الله يكون أعظم من انتقام العدو كما قال: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ مع قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾.

وسادسه: أنه لا يجوز بحكم التعقل أن تُستأصل أمة كاملة؛ لتوَقُّعِ مُفْسِدٍ فيها؛ لعدم التوازن بين المفسدتين، ولأن الإحاطة بأفراد أمة كاملة متعذرة؛ فلا يكون المتوقع فساده إلا في الجانب المغفول عنه من الأفراد؛ فتحصل مفسدتان هما أخذ البريء، وانفلات المجرم.

وسابعه: تعليم أن الله بالغُ أمره بتهيئه الأسباب المفضية إليه، ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي ولما قَدَّر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة، ولأنجى موسى وبني إسرائيل إنجاءً أسرعَ.

ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال ابتداءً من إلقاء موسى في اليم إلى أن رده إلى أمه؛ فتكون في ذلك عبرةٌ للمشركين الذين ﴿قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وليتسموا من بوارق ظهور النبي محمد ﷺ وانتقال أحوال دعوته في

مدارج القوة أن ما وعدهم به واقع بأَخَرَةٍ.

وثامنه: العبرة بأن وجود الصالحين من بين المفسدين؛ فإن وجود امرأة فرعون كان سبباً في صد فرعون عن قتل الطفل مع أنه تحقق أنه إسرائيلي، فقالت امرأته: ﴿لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ كما قدمنا تفسيره.

وتاسعه: ما في قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ من الإيماء إلى تذكير المؤمنين بأن نصرهم حاصل بعد حين، ووعيد المشركين بأن وعيدهم لا مفر لهم منه.

وعاشره: ما في قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ من الإشارة إلى أن المرء يؤتى من جهله النظر في أدلة العقل.

ولما في هذه القصة من العبر اكتفى مصعب بن الزبير بطالعها عن الخطبة التي حقه أن يخطب بها في الناس حين حلوله بالعراق من قبل أخيه عبدالله بن الزبير مكتفياً بالإشارة مع التلاوة؛ فقال: ﴿طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ (وأشار إلى جهة الشام يريد عبدالملك بن مروان) وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ (وأشار بيده نحو الحجاز، يعني أخاه عبدالله بن الزبير وأنصاره) وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا (وأشار إلى العراق يعني الحجاج) مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾. **٨٥/٢٠**ـ٨٧

٧ـ **وحين الغفلة:** هو الوقت الذي يغفل فيه أهل المدينة عما يجري فيها، وهو

وقت استراحة الناس، وتفرقهم، وخلو الطريق منهم قيل: كان ذلك في وقت القيلولة، وكان موسى مجتازاً بالمدينة وحده، قيل: ليلحق بفرعون؛ إذ كان فرعون قد مر بتلك المدينة.

والمقصود من ذكر هذا الوقت الإشارة إلى أن قَتْلَهُ القبطيَّ لم يشعر به أحد؛ تمهيداً لقوله بعد: ﴿ قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ ﴾ الآيات، ومقدمةً لذكر خروجه من أرض مصر. ٢٠/٨٨

٨ـ **ومعنى كون: ﴿هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ :** يجوز أن يكون المراد بهذين الوصفين أن موسى كان يعلم أنه من بني إسرائيل بإخبار قصة التقاطه من اليم، وأن تكون أمه قد أفضت إليه بخبرها وخبره كما تقدم؛ فنشأ موسى على عداوة القبط، وعلى إضمار المحبة لبني إسرائيل.

وأما وكْزُه القبطيَّ فلم يكن إلا انتصاراً للحق على جميع التقادير؛ ولذلك لما تكررت الخصومة بين ذاك الإسرائيلي وبين قبطي آخر وأراد موسى أن يبطش بالقبطي لم يقل له القبطي: إن تريد إلا أن تنصر قومك وإنما قال: ﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ ﴾.

قيل: كان القبطي من عملة مخبز فرعون فأراد أن يحمل حطباً إلى الفرن، فدعا إسرائيلياً؛ ليحمله، فأبى، فأراد أن يجبره على حمله، وأن يضعه على ظهره، فاختصما، وتضاربا ضرباً شديداً، وهو المعبر عنه بالتقاتل على طريق الاستعارة.

والاستغاثة: طلب الغوث وهو التخليص من شدة، أو العون على دفع مشقة.

وإنما يكون الطلب بالنداء فَذِكْرُ الاستغاثةِ يؤذن بأن الإسرائيلي كان مغلوباً، وأن القبطي اشتد عليه، وكان ظالماً؛ إذ لا يُجْبَرُ أحدٌ على عمل يعمله.

والوكز: الضرب باليد بجمع أصابعها كصورة عقد ثلاثة وسبعين، ويسمى الجُمْع بضم الجيم وسكون الميم.

و﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ : جملة تقال بمعنى مات لا تُغَيَّر؛ ففاعل (قضى) محذوف أبداً على معنى قضى عليه قاضٍ وهو الموت، ويجوز أن يكون عائداً إلى الله -تعالى- المفهوم من المقام؛ إذ لا يقضي بالموت غيره كقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾.

وقيل: ضمير (فقضى) عائد إلى موسى، وليس هذا بالبين، فالمعنى: فوكزه موسى فمات القبطي.

وكان هذا قتلُ خطأ صادف الوكزُ مقاتلَ القبطي، ولم يرد موسى قتله.

ووقع في سفر الخروج من التوراة في الإصحاح الثاني أن موسى لما رأى المصريَّ يضرب العبرانيَّ التفت هنا وهناك، ورأى أن ليس أحد فقتل المصري، وطمره في الرمل.

وجملة: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ : مستأنفةٌ استئنافاً بيانياً كأن سائلاً سأل: ماذا كان من أمر موسى حين فوجئ بموت القبطي.

وحكاية ذلك للتنبيه على أن موسى لم يخطر بباله حينئذ إلا النظر في العاقبة الدينية، وقوله هو كلامه في نفسه.

والإشارة بهذا إلى الضربة الشديدة التي تسبب عليها الموت، أو إلى الموت المشاهد من ضربته، أو إلى الغضب الذي تسبب عليه موت القبطي.

والمعنى: أن الشيطان أوقد غضبه حتى بالغ في شدة الوكز، وإنما قال موسى ذلك؛ لأن قتل النفس مستقبح في الشرائع البشرية؛ فإن حفظ النفس المعصومة

من أصول الأديان كلها، وكان موسى يعلم دين آبائه لعله بما تلقاه من أمه المرأة الصالحة في مدة رضاعه وفي مدة زيارته إياها.

وجملة: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾: تعليل لكون شدة غضبه من عمل الشيطان؛ إذ لولا الخاطر الشيطاني لاقتصر على زجر القبطي، أو كفه عن الذي من شيعته؛ فلما كان الشيطان عدواً للإنسان وكانت له مسالك إلى النفوس استدل موسى بفعله المؤدي إلى قتل نفس أنه فعل ناشئ عن وسوسة الشيطان، ولولاها لكان عمله جارياً على الأحوال المأذونة.

وفي هذا دليل على أن الأصل في النفس الإنسانية هو الخير، وأنه الفطرة، وأن الانحراف عنها يحتاج إلى سبب غير فطري، وهو تخلل نزغ الشيطان في النفس. ٢٠/٨٩ـ٩٠

٩ـ **ولا التفات في هذا إلى جواز صدور الذنب من النبي**؛ لأنه لم يكن يومئذ نبياً، ولا مسألة صدور الذنب من النبي قبل النبوة؛ لأن تلك مفروضة فيما تقرر حكمه من الذنوب بحسب شرع ذلك النبي أو شرع نبي هو متبعه مثل عيسى ـعليه السلامـ قبل نبوءته، لوجود شريعة التوراة، وهو من أتباعها. ٢٠/٩١

١٠ـ **ومدين:** قوم من ذرية مدين بن إبراهيم، وقد مضى الكلام عليهم عند قوله ـتعالىـ: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ في سورة الأعراف.

وأرض مدين واقعة على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر وكان موسى قد سلك إليها عند خروجه من بلد (رعمسيس) أو (منفيس) طريقاً غربية جنوبية؛ فسلك برية تمر به على أرض العمالقة وأرض الأدوميين، ثم بلاد النبط إلى أرض مدين، تلك مسافة ثمانمائة وخمسين ميلاً تقريباً.

وإذ قد كان موسى في سيره ذلك راجلاً فتلك المسافة تستدعي من المدة نحواً من خمسة وأربعين يوماً، وكان يبيت في البرية لا محالة، وكان رجلاً جلداً، وقد ألهمه الله سواء السبيل؛ فلم يضل في سيره. ٩٨/٢٠

١١ـ **واسم المرأتين (ليا) و(صفورة)** وفي سفر الخروج: أن أباهما كاهن مدين، وسماه في ذلك السفر أول مرة رعويل، ثم أعاد الكلام عليه فسماه يثرون، ووصفه بحمي موسى؛ فالمسمى واحد.

وقال ابن العبري في تاريخه: يثرون بن رعويل له سبع بنات خرج للسقي منهما اثنتان؛ فيكون شعيب هو المسمى عند اليهود يثرون.

والتعبير عن النبي بالكاهن اصطلاح؛ لأن الكاهن يخبر عن الغيب، ولأنه يطلق على القائم بأمور الدين عند اليهود.

وللجزم بأنه شعيب الرسول جعل علماؤنا ما صدر منه في هذه القصة شرعاً سابقاً؛ ففرعوا عليه مسائل مبنية على أصل: أن شرع من قبلنا من الرسل الإلهيين شرع لنا ما لم يرد ناسخ، ومنها مباشرة المرأة الأعمال والسعي في طرق المعيشة، ووجوب استحيائها، وولاية الأب في النكاح، وجعل العمل البدني مهراً، وجمع النكاح والإجارة في عقد واحد، ومشروعية الإجارة.

وقد استوفى الكلام عليها القرطبي، وفي أدلة الشريعة الإسلامية غُنْيَةٌ عن الاستنباط مما في هذه الآية إلا أن بعض هذه الأحكام لا يوجد دليله في القرآن؛ ففي هذه الآية دليل لها من الكتاب عند القائلين بأن شرع من قبلنا شرع لنا.

وفي إذنه لابنتيه بالسقي دليل على جواز معالجة المرأة أمور مالها، وظهورها في مجامع الناس؛ إذ كانت تستر ما يجب ستره؛ فإن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكاه

شرعنا ولم يأت من شرعنا ما ينسخه.

وأما تحاشي الناس من نحو ذلك فهو من المروءة، والناس مختلفون فيما تقتضيه المروءة، والعاداتُ متباينةٌ فيه، وأحوالُ الأممِ فيه مختلفةٌ وخاصة ما بين أخلاق البدو والحضر من الاختلاف. ١٠١/٢٠

١٢- **وفيه جواز عرض الرجل مولاته على من يتزوجها**؛ رغبة في صلاحه.

وجعل لموسى اختيار إحداهما؛ لأنه قد عرفها وكانت التي اختارها موسى (صفورة) وهي الصغرى كما جاء في رواية أبي ذر عن النبيﷺ.

وإنما اختارها دون أختها؛ لأنها التي عرف أخلاقها باستحيائها، وكلامها؛ فكان ذلك ترجيحاً لها عنده.

وكان هذا التخيير قبل انعقاد النكاح؛ فليس فيه جهل المعقود عليها. ١٠٦/٢٠

١٣- ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾.

التعبير عنهم باسم الإشارة هنا للتنبيه على أنهم أحرياء بما سيذكر بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف التي ذكرت قبل اسم الإشارة مثل ما تقدم في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ في سورة البقرة.

وعد الله لهم سبع خصال من خصال أهل الكمال: **إحداها**: أخروية، وهي: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ أي أنهم يؤتون أجرين على إيمانهم، أي يضاعف لهم الثواب؛ لأجل أنهم آمنوا بكتابهم من قبل، ثم آمنوا بالقرآن؛ فعبر عن مضاعفة الأجر ضعفين بالمرتين؛ تشبيهاً للمضاعفة بتكرير الإيتاء، وإنما هو إيتاء

واحد.

وفائدة هذا المجاز: إظهار العناية حتى كأن المثيب يعطي، ثم يكرر عطاءه؛ ففي: ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ تمثيلة.

وفي الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدركني فآمن بي واتبعني وصدقني فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله -تعالى- وحق سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذاها، فأحسن غذاءها، ثم أدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها؛ فله أجران**».

رواه الشعبي، وقال لعطاء الخراساني: خذه بغير شيء؛ فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة.

والثانية: الصبر، والصبر من أعظم خصال البر، وأجمعها للمبرات، وأعونها على الزيادة.

والمراد بالصبر صبرهم على أذى أهل ملتهم، أو صبرهم على أذى قريش، وهذا يتحقق في مثل الوفد الحبشي.

ولعلهم المراد من هذه الآية ولذلك أتبع بقوله: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ وقوله: ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ﴾.

والخصلة الثالثة: درؤهم السيئة بالحسنة، وهي من أعظم خصال الخير وأدعاها إلى حسن المعاشرة قال -تعالى-: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾.

فيحصل بذلك فائدة دفع مضرة المسيء عن النفس، وإسداء الخير إلى نفس

أخرى، فهم لم يردوا جلافة أبي جهل بمثلها، ولكن بالإعراض مع كلمة حسنة وهي: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

وأما الإنفاق فلعلهم كانوا ينفقون على فقراء المسلمين بمكة، وهو **الخصلة الرابعة**، ولا يخفى مكانها من البر.

والخصلة الخامسة: الإعراض عن اللغو، وهو الكلام العبث الذي لا فائدة فيه، وهذا الخلق من مظاهر الحكمة؛ إذ لا ينبغي للعاقل أن يشغل سمعه ولبه بما لا جدوى له، وبالأولى يتنزه عن أن يصدر منه ذلك.

والخصلة السادسة: الكلام الفصل، وهو قولهم: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

وهذا من أحسن ما يجاب السفهاء، وهو أقرب لإصلاحهم، وأسلم من تزايد سفههم.

ولقد أنطقهم الله بحكمة جعلها مستأهلة لأن تنظم في سلك الإعجاز؛ فألهمهم تلك الكلمات، ثم شَرَّفها بأن حكيت في نسج القرآن، كما ألهم عمر قوله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ الآية.

ومعنى: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أن أعمالنا مستحقة لنا، كناية عن ملازمتهم إياها.

وأما قولهم: ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ فهو تتميم على حد ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

والمقصود من السلام: أنه سلام المتاركة المُكَنَّى بها عن الموادعة أن لا نعود لمخاطبتكم، قال الحسن: كلمة: السلام عليكم، تحية بين المؤمنين، وعلامة

الاحتمال من الجاهلين.

ولعل القرآن غَيَّر مقالتهم بالتقديم والتأخير؛ لتكون مشتملة على الخصوصية المناسبة للإعجاز؛ لأن تأخير الكلام الذي فيه المتاركة إلى آخر الخطاب أولى؛ ليكون فيه براعة المقطع.

وحذف القرآن قولهم: لم نأل أنفسنا رشداً؛ للاستغناء عنه بقولهم: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾.

السابعة: ما أفصح عنه قولهم: ﴿لاَ نَبْتَغِيْ الجَاهِلِيْنَ﴾ من أن ذلك خلقهم أنهم يتطلبون العلم ومكارم الأخلاق.

والجملة تعليل للمتاركة، أي لأنَّا لا نحب مخالطةَ أهل الجهالة بالله، وبدين الحق وأهلِ خُلُقِ الجهل الذي هو ضد الحلم؛ فاستعمل الجهل في معنييه المشترك فيها، ولعله تعريض بكنية أبي جهل الذي بَذَا عليهم بلسانه.

والظاهر أن هذه الكلمة يقولونها بين أنفسهم، ولم يجهروا بها لأبي جهل وأصحابه بقرينة قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ وقوله: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ وبذلك يكون القول المحكي قولين: قول وجهوه لأبي جهل وصحبه، وقول دار بين أهل الوفد. ١٤٤/٢٠ـ١٤٦

١٤ـ **فقوله: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾**: استئناف ابتدائي لذكر قصة ضربت مثلاً لحال بعض كفار مكة وهم سادتهم مثل الوليد بن المغيرة وأبي جهل ابن هشام ولها مزيد تعلق بجملة: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ﴾.

ولهذه القصة اتصال بانتهاء قصة جند فرعون المنتهية عند قوله ـتعالىـ: ﴿وَمَا

كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ الآية.

و﴿ قَارُوْنَ ﴾: اسم معرب أصله في العبرانية (قُورَح) -بضم القاف مشبعة وفتح الراء- وقع في تعريبه تغيير بعض حروفه للتخفيف، وأجري وزنه على متعارف الأوزان العربية مثل طالوت، وجالوت؛ فليست حروفه حروف اشتقاق من مادة قرن.

و(قورح) هذا ابن عم موسى - عليه السلام - دنيا، فهو قورح بن يصهار ابن قهات بن لاوي بن يعقوب.

وموسى هو ابن عمرم المسمى عمران في العربية ابن قاهت؛ فيكون يصاهر أخا عمرم.

وورد في الإصحاح السادس عشر من سفر العدد أن (قورح) هذا تألب مع بعض زعماء بني إسرائيل مائتين وخمسين رجلاً منهم على موسى وهارون -عليهما السلام- حين جعل الله الكهانة في بني هارون من سبط (لاوي) فحسدهم قورح؛ إذ كان ابن عمهم، وقال لموسى وهارون: ما بالكما ترتفعان على جماعة الرب؛ إن الجماعة مقدسة، والرب معها؛ فغضب الله على قورح وأتباعه، وخسف بهم الأرض، وذهبت أموال (قورح) كلها، وكان ذلك حين كان بنو إسرائيل على أبواب (أريحا) قبل فتحها.

وذكر المفسرون أن فرعون كان جعل (قورح) رئيساً على بني إسرائيل في مصر، وأنه جمع ثروة عظيمة.

وما حكاه القرآن يبين سبب نشوء الحسد في نفسه لموسى؛ لأن موسى لما جاء بالرسالة، وخرج ببني إسرائيل زال تأمر(قارون) على قومه؛ فحقد على موسى.

وقد أكثر القصاص من وصف بذخة قارون وعظمته ما ليس في القرآن، وما لهم به من برهان، وتلقفه المفسرون حاشا ابن عطية. ٢٠/١٧٤ـ١٧٥

١٥ـ **وكلمة ﴿وَيْكَأَنَّ﴾:** عند الأخفش وقطرب مركبة من ثلاثة كلمات: (ويْ) وكاف الخطاب و(أن).

فأما (وي) فهي اسم فعل بمعنى: أعجب، وأما الكاف فهي لتوجيه الخطاب؛ تنبيهاً عليه مثل الكاف اللاحقة لأسماء الإشارة، وأما (أن) فهي (أن) المفتوحة الهمزة أخت (إن) المكسورة الهمزة فما بعدها في تأويل مصدر هو المتعجب منه، فيقدر لها حرفُ جَرٍّ مُلْتَزَمٌ حذفُه لكثرة استعماله، وكان حذفه مع (أن) جائزاً فصار في هذا التركيب واجباً، وهذا الحرف هو اللام أو (من) فالتقدير: أعجب يا هذا من بسط الله الرزق لمن يشاء.

وكل كلمة من هذه الكلمات الثلاث تستعمل بدون الأخرى فيقال: وي بمعنى أعجب، ويقال (ويك) بمعناه ـأيضاًـ قال عنترة:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنترُ أَقْدِمِ

ويقال: ويكأن، كما في هذه الآية، وقول سعيد بن زيد أو نبيه بن الحجاج السهمي:

ويكأن من يكن له نشب يُحْـ ... ـبَبْ ومن يفتقرْ يَعِشْ عيشَ ضرِّ

فخفف (أن) وكتبوها متصلة؛ لأنها جرت على الألسن كذلك في كثير الكلام، فلم يتحققوا أصل تركيبها.

وكان القياس أن تكتب (ويك) مفصولة عن (أن) وقد وجدوها مكتوبة مفصولة في بيت سعيد بن زيد.

وذهب الخليل، ويونس، وسيبويه، والجوهري، والزمخشري إلى أنها مركبة من كلمتين (وي) و(كأن) التي للتشبيه.

والمعنى: التعجب من الأمر، وأنه يشبه أن يكون كذا، والتشبيه مستعمل في الظن واليقين، والمعنى: أما تعجب كأن الله يبسط الرزق

وذهب أبو عمرو بن العلاء، والكسائي، والليث، وثعلب ونسبه في الكشاف إلى الكوفيين (وأبو عمرو بصري) أنها مركبة من أربع كلمات كلمة (ويل) وكاف الخطاب وفعل (اعلم) و(أن) وأصله: ويلك اعلم أنه كذا، فحذف لام الويل وحذف فعل (اعلم) فصار (وَيْكَأَنَّه).

وكتابتها متصلة على هذا الوجه متعينة؛ لأنها صارت رمزا لمجموع كلماته؛ فكانت مثل النحت.

ولاختلاف هذه التقادير اختلفوا في الوقف فالجمهور يقفون على (ويكأنه) بتمامه، والبعض يقف على (وي) والبعض يقف على (ويك).

ومعنى الآية على الأقوال كلها أن الذين كانوا يتمنون منزلة قارون ندموا على تمنيهم لما رأوا سوء عاقبته، وامتلكهم العجب من تلك القصة ومن خفي تصرفات الله ـتعالى ـ في خلقه وعلموا وجوب الرضى بما قدر للناس من الرزق؛ فخاطب بعضهم بعضاً بذلك وأعلنوه. ٢٠/١٨٧ـ١٨٨

١٦ـ ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

ومعنى جَعْلها لهم أنها مُحْضَرَةٌ لأجلهم ليس لهم غيرها.

وأما من عداهم فلهم أحوال ذات مراتب أفصحت عنها آيات أخرى،

وأخبار نبوية؛ فإن أحكام الدين لا يقتصر في استنباطها على لوك كلمة واحدة.

وعن الفضيل بن عياض أنه قرأ هذه الآية ثم قال: «ذهبت الأماني ههنا».

أي أماني الذين يزعمون أنه لا يضر مع الإيمان شيء، وأن المؤمنين كلّهم ناجون من العقاب، وهذا قول المرجئة قال قائلهم:

كن مسلماً ومن الذنوب فلا تخف ... حاشا المهيمن أن يرى تنكيدا

لو شاء أن يصليك نار جهنم ... ما كان ألهم قلبك التوحيدا

١٩٠_١٨٩/٢٠

سورة العنكبوت

١ ـ اشتهرت هذه السورة بسورة العنكبوت من عهد رسول الله ﷺ لما رواه عكرمة قال: كان المشركون إذا سمعوا تسمية سورة البقرة وسورة العنكبوت يستهزئون بهما، أي بهذه الإضافة فنزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾.

يعني المستهزئين بهذا ومثله، وقد تقدم الإلماع إلى ذلك عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ في سورة البقرة.

ووجه إطلاق هذا الاسم على هذه السورة أنها اختصت بذكر مثل العنكبوت في قوله ـ تعالى ـ فيها: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ﴾.

وهي مكية كلها في قول الجمهور، ومدنية كلها في أحد قولي ابن عباس وقتادة، وقيل: بعضها مدني. **١٩٩/٢٠**

٢ ـ وقيل: هذه السورة آخر ما نزل بمكة وهو يناكد بظاهره جعلهم هذه السورة نازلةً قبل سورةِ المطففين، وسورةُ المطففين آخرُ السور المكية.

ويمكن الجمع بأن ابتداء نزول سورة العنكبوت قبل ابتداء نزول سورة المطففين، ثم نزلت سورة المطففين كلها في المدة التي كانت تنزل فيها سورة العنكبوت، ثم تَمَّ بعد ذلك جميع هذه السورة.

وهذه السورة هي السورة الخامسة والثمانون في ترتيب نزول سور القرآن نزلت بعد سورة الروم، وقبل سورة المطففين، وسيأتي عند ذكر سورة الروم ما يقتضي أن العنكبوت نزلت في أواخر سنة إحدى قبل الهجرة، فتكون من

أخريات السور المكية بحيث لم ينزل بعدها بمكة إلا سورة المطففين.

وآياتها تسع وستون باتفاق أصحاب العدد من أهل الأمصار. **٢٠/٢٠٠**

٣ـ **أغراض هذه السورة**: افتتاحُ هذه السورةِ بالحروف المقطَّعة يؤذن بأن من أغراضها تَحَدِّيَ المشركين بالإتيان بمثل سورة منه ـكما بينا في سورة البقرةـ وجدالَ المشركين في أن القرآن نَزَل من عند الله هو الأصل فيما حدث بين المسلمين والمشركين من الأحداث المُعَبَّرِ عنها بالفتنة في قوله هنا: ﴿أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾.

فَتَعَيَّنَ أن أولَ أغراضِ هذه السورةِ تثبيتُ المسلمين الذين فتنهم المشركون، وصدُّوهم عن الإسلام، أو عن الهجرة مع من هاجروا.

وَوَعْدُ اللهِ بنصر المؤمنين، وخَذْلُ أهلِ الشرك وأنصارهم وملقنيهم من أهل الكتاب.

والأمرُ بمجافاة المشركين، والابتعادُ منهم ولو كانوا أقربَ القرابة.

ووجوبُ صبرِ المؤمنين على أذى المشركين، وأن لهم في سعةِ الأرضِ ما ينجيهم من أذى أهل الشرك.

ومجادلةُ أهلِ الكتاب بالتي هي أحسن ما عدا الظالمين منهم للمسلمين.

وأَمْرُ النبيِّ ﷺ بالثبات على إبلاغِ القرآنِ وشرائعِ الإسلام.

والتأسيْ في ذلك بأحوالِ الأممِ التي جاءتها الرسلُ، وأن محمداً ﷺ جاء بمثل ما جاؤوا به.

وما تخلل أخبار مَنْ ذُكر فيها من الرسل من العبر.

والاستدلالُ على أن القرآنَ منزلٌ من عند الله بدليل أُمِّيَةِ مَنْ أُنْزِلَ عليه ﷺ.

وتذكيرُ المشركين بنعم الله عليهم؛ ليقلعوا عن عبادةِ ما سواه.

وإلزامُهم بإثباتِ وحدانيته بأنهم يعترفون بأنه خالقُ مَنْ في السماوات ومَنْ في الأرض.

والاستدلالُ على البعثِ بالنظر في بدء الخلق، وهو أعجبُ من إعادته.

وإثباتُ الجزاء على الأعمال.

وتوعُّدُ المشركين بالعذاب الذي يأتيهم بغتةً وهم يتهكمون باستعجاله.

وضَرْبُ المثل لاتخاذ المشركين أولياء من دون الله بِمَثَلٍ وهي بيت العنكبوت. ٢٠/٢٠٠-٢٠١

٤- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وإنما أمر بالسير في الأرض؛ لأن السير يدني إلى الرائي مشاهداتٍ جمةً من مختلف الأرضين بجبالها وأنهارها ومحويَّاتها، ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها؛ فيرى كثيراً من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها؛ فإذا شاهد ذلك جال نظر فكره في تكوينها بعد العدم جولاناً لم يكن يخطر له ببال حينما كان يشاهد أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه؛ لأنه لما نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده قبل حدوث التفكير في عقله اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائباً عن بصره جالت في نفسه فكرة الاستدلال؛ فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل؛ فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة.

وجيء في جانب بدء الخلق بالفعل الماضي، لأن السائر ليس له من قرار في طريقه، فندر أن يشهد حدوث بدء مخلوقات، ولكنه يشهد مخلوقات مبدوءة من

قَبْل؛ فيفطن إلى أن الذي أوجدها إنما أوجدها بعد أن لم تكن، وأنه قادر على إيجاد أمثالها؛ فهو بالأحرى قادر على إعادتها بعد عدمها.

والاستدلال بالأفعال التي مضت أَمْكَنُ، لأن للشيء المتقرر تحققاً محسوساً.

وجيء في هذا الاستدلال بفعل النظر؛ لأن إدراك ما خلقه الله حاصل بطريق البصر، وهو بفعل النظر أولى وأشهر؛ لينتقل منه إلى إدراك أنه ينشئ النشأة الآخرة. **٢٣٠/٢٠**

٥ـ **وقطع السبيل:** قطع الطريق، أي التصدي للمارين فيه بأخذ أموالهم، أو قتل أنفسهم، أو إكراههم على الفاحشة.

وكان قوم لوط يقعدون بالطرق؛ ليأخذوا من المارة من يختارونه؛ فقطع السبيل فساد في ذاته، وهو أفسد في هذا المقصد.

وأما إتيان المنكر في ناديهم فإنهم جعلوا ناديهم للحديث في ذكر هذه الفاحشة، والاستعداد لها، ومقدماتها كالتغازل برمي الحصى اقتراعاً بينهم على من يرمونه، والتظاهر بتزيين الفاحشة زيادة في فسادها وقبحها؛ لأنه مُعِيْنٌ على نبذ التستر منها، ومعين على شيوعها في الناس. **٢٠/٢٤٠ـ٢٤١**

٦ـ وفي قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ﴾ تشديد في الإنكار عليهم في أنهم الذين سنوا هذه الفاحشة السيئة للناس، وكانت لا تخطر لأحد ببال.

وإن كثيراً من المفاسد تكون الناس في غفلة عن ارتكابها؛ لعدم الاعتياد بها حتى إذا أقدم أحد على فعلها، وشوهد ذلك منه تنبهت الأذهان إليها، وتعلقت الشهوات بها. **٢٤١/٢٠**

٧ـ **وأمره بإقامة الصلاة؛** لأن الصلاة عمل عظيم، وهذا الأمر يشمل الأمة؛

فقد تكرر الأمر بإقامة الصلاة في آيات كثيرة.

وعلَّلَ الأمر بإقامة الصلاة بالإشارة إلى ما فيها من الصلاح النفساني فقال: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

فموقع (إِنَّ) هنا موقع فاء التعليل ولا شك أن هذا التعليل مُوَجَّه إلى الأمة؛ لأن النبي ﷺ معصوم من الفحشاء والمنكر؛ فاقتصر على تعليل الأمر بإقامة الصلاة دون تعليل الأمر بتلاوة القرآن؛ لما في هذا الصلاح الذي جعله الله في الصلاة من سر إلهي لا يهتدي إليه الناس إلا بإرشاد منه ـ تعالى ـ فأخبر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والمقصود أنها تنهى المصلي.

وإذ قد كانت حقيقة النهي غير قائمة بالصلاة تَعَيَّنَ أن فعل ﴿تَنْهَى﴾ مستعمل في معنى مجازي بعلاقة، أو مشابهة.

والمقصود، أن الصلاة تيسر للمصلي ترك الفحشاء والمنكر.

وليس المعنى أن الصلاة صارفة المصلي عن أن يرتكب الفحشاء والمنكر؛ فإن المُشَاهَدَ يخالفه؛ إذ كم من مصلٍّ يقيم صلاته، ويقترف بعض الفحشاء والمنكر.

كما أنه ليس يصح أن يكون المراد أنها تصرف المصلي عن الفحشاء والمنكر ما دام متلبساً بأداء الصلاة؛ لقلة جدوى هذا المعنى؛ فإن أكثر الأعمال يصرف المشتغل به عن الاشتغال بغيره.

وإذ كانت الآية مسوقة للتنويه بالصلاة وبيان مزيتها في الدين تَعَيَّنَ أن يكون المراد أن الصلاة تحذر من الفحشاء والمنكر تحذيراً هو من خصائصها.

وللمفسرين طرائق في تعليل ذلك منها: ما قاله بعضهم: إن المراد به ما للصلاة من ثواب عند الله؛ فإن ذلك غرض آخر وليس منصباً إلى ترك الفحشاء

والمنكر، ولكنه من وسائل توفير الحسنات لعلها أن تغمر السيئات؛ فيتعين لتفسير هذه الآية تفسيراً مقبولاً أن نعتبر حكمها عاماً في كل صلاة؛ فلا يختص بصلوات الأبرار، وبذلك تسقط عدة وجوه مما فسروا به الآية.

قال ابن عطية: «وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات صَلُحَتْ بذلك نفسه، وخامرها ارتقاب الله -تعالى- فاطَّرد ذلك في أقواله وأفعاله، وانتهى عن الفحشاء والمنكر». اهـ

وفيه اعتبار قيود في الصلاة لا تناسب التعميم، وإن كانت من شأن الصلاة التي يحق أن يلقنها المسلمون في ابتداء تلقينهم قواعد الإسلام.

والوجه عندي في معنى الآية: أن يحمل فعل ﴿تَنْهَى﴾ على المجاز الأقرب إلى الحقيقة، وهو تشبيه ما تشتمل عليه الصلاة بالنهي، وتشبيه الصلاة في اشتمالها عليه بالناهي، ووجه الشبه أن الصلاة تشتمل على مذكرات بالله من أقوال وأفعال من شأنها أن تكون للمصلي كالواعظ المذكر بالله -تعالى- إذ ينهى سامعه عن ارتكاب ما لا يرضي الله.

وهذا كما يقال: صديقك مرآة ترى فيها عيوبك؛ ففي الصلاة من الأقوال تكبير لله، وتحميده، وتسبيحه، والتوجه إليه بالدعاء والاستغفار، وقراءة فاتحة الكتاب المشتملة على التحميد، والثناء على الله، والاعتراف بالعبودية له، وطلب الإعانة والهداية منه، واجتناب ما يغضبه وما هو ضلال، وكلها تذكر بالتعرض إلى مرضاة الله، والإقلاع عن عصيانه، وما يفضي إلى غضبه؛ فذلك صَدٌّ عن الفحشاء والمنكر.

وفي الصلاة أفعال هي خضوع وتذلل لله -تعالى- من قيام وركوع وسجود،

وذلك يذكر بلزوم اجتلاب مرضاته، والتباعد عن سخطه، وكل ذلك مما يصد عن الفحشاء والمنكر.

وفي الصلاة أعمال قلبية من نية واستعداد للوقوف بين يدي الله، وذلك يذكر بأن المعبود جدير بأن تمتثل أوامره، وتجتنب نواهيه.

فكانت الصلاة بمجموعها كالواعظ الناهي عن الفحشاء والمنكر؛ فإن الله قال: ﴿تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ ولم يقل تَصُدُّ وتَحُوْلُ، ونحو ذلك مما يقتضي صرف المصلي عن الفحشاء والمنكر.

ثم الناس في الانتهاء متفاوتون، وهذا المعنى من النهي عن الفحشاء والمنكر هو من حكمة جعل الصلوات موزعة على أوقات من النهار والليل؛ ليتجدد التذكير، وتتعاقب المواعظ.

وبمقدار تكرر ذلك تزداد خواطر التقوى في النفوس، وتتباعد النفس من العصيان حتى تصير التقوى ملكة لها.

ووراء ذلك خاصيةٌ إلهية جعلها الله في الصلاة يكون بها تيسير الانتهاء عن الفحشاء والمنكر.

روى أحمد، وابن حبان، والبيهقي عن أبي هريرة قال: «**جاء رجل إلى النبيﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق، فقال: سينهاه ما تقول**» أي صلاته بالليل.

واعلم أن التعريف في قوله: ﴿الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ تعريف الجنس؛ فكلما تذكر المصلي عند صلاته عظمة ربه، ووجوب طاعته، وذكر ما قد يفعله من الفحشاء والمنكر ـ كانت صلاته حينئذ قد نهته عن بعض أفراد الفحشاء والمنكر.

٢٠/٢٥٨ـ٢٦٠

٨ـ **ووجه الوصاية بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب** أن أهل الكتاب مؤمنون بالله غير مشركين به؛ فهم متأهلون لقبول الحجة غير مظنون بهم المكابرة، ولأن آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة؛ فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحجة دون إغلاظ؛ حذراً من تنفيرهم، بخلاف المشركين؛ فقد ظهر من تصلبهم، وصَلَفهم، وجلافتهم ما أيأس من إقناعهم بالحجة النظرية، وعَيَّن أن يعاملوا بالغلظة، وأن يبالغ في تهجين دينهم، وتفظيع طريقتهم؛ لأن ذلك أقرب نجوعا لهم.

وهكذا ينبغي أن يكون الحال في ابتداء مجادلة أهل الكتاب، وبقدر ما يسمح به رجاء الاهتداء من طريق اللين؛ فإن هم قابلوا الحسنى بضدها انتقل الحكم إلى الاستثناء الذي في قوله: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾.

و﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾: هم الذين كابروا وأظهروا العداء للنبيﷺ وللمسلمين، وأبوا أن يتلقوا الدعوة؛ فهؤلاء ظلموا النبيﷺ والمسلمين حسداً، وبغضاً على أن جاء الإسلام بنسخ شريعتهم، وجعلوا يكيدون للنبيﷺ ونشأ منهم المنافقون، وكل هذا ظلم واعتداء.

وقد كان اليهود قبل هجرة المسلمين إلى المدينة مسالمين الإسلام، وكانوا يقولون: إن محمداً رسول الأميين كما قال ابن صياد لما قال له النبيﷺ «أتشهد أني رسول الله؟ فقال: أشهد أنك رسول الأميين».

فلما جاء المدينة دعاهم في أول يوم قدم فيه، وهو اليوم الذي أسلم فيه عبدالله ابن سلام؛ فأخذوا من يومئذ يتنكرون للإسلام. ٢١/٦ـ٧

سورة الروم

١ـ **هذه السورة تسمى سورة الروم** في عهد النبيﷺ وأصحابه كما في حديث الترمذي عن ابن عباس ونيار بن مكرم الأسلمي، وسيأتي قريباً في تفسير الآية الأولى من السورة.

ووجه ذلك أنه ورد فيها ذكر اسم الروم، ولم يرد في غيرها من القرآن.

وهي مكية كلها بالاتفاق حكاه ابن عطية والقرطبي، ولم يذكرها صاحب الإتقان في السور المختلف في مكيتها ولا في بعض آيها. ٢١/٣٩

٢ـ **وهي السورة الرابعة والثمانون في تعداد نزول السور،** نزلت بعد سورة الانشقاق، وقبل سورة العنكبوت.

وقد روي عن قتادة، وغيره أن غَلَبَ الروم على الفرس كان في عام بيعة الرضوان؛ ولذلك استفاضت الروايات، وكان بعد قتل أبي بن خلف يوم أحد.

واتفقت الروايات على أن غلب الروم للفرس وقع بعد مضي سبع سنين من غلب الفرس على الروم الذي نزلت عنده هذه السورة.

ومن قال: إن ذلك كان بعد تسع سنين بتقديم التاء المثناة فقد حُمِل على التصحيف كما رواه القرطبي عن القشيري يقتضي أن نزول سورة الروم كان في سنة إحدى عشرة قبل الهجرة؛ لأن بيعة الرضوان كانت في سنة ست بعد الهجرة.

وعن أبي سعيد الخذري[1] أن انتصار الروم على فارس يوافق يومه يوم بدر.

وعدد آيها في عد أهل المدينة، وأهل مكة تسع وخمسون، وفي عدد أهل

١ـ هكذا في الأصل، والصواب: الخدري. (م)

الشام والبصرة والكوفة ستون.

وسبب نزولها ما رواه الترمذي عن ابن عباس والواحدي وغير واحد: أنه لما تحارب الفرس والروم الحرب التي سنذكرها عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿غُلِبَتْ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ وتغلَّب الفرسُ على الروم كان المشركون من أهل مكة فرحين بغلب الفرس على الروم؛ لأن الفرس كانوا مشركين ولم يكونوا أهل كتاب؛ فكان حالهم أقرب إلى حال قريش، ولأن عرب الحجاز والعراق كانوا من أنصار الفرس، وكان عرب الشام من أنصار الروم؛ فأظهرت قريش التطاول على المسلمين بذلك؛ فأنزل الله هذه السورة؛ مقتاً لهم، وإبطالاً لتطاولهم بأن الله سينصر الروم على الفرس بعد سنين؛ فلذلك لما نزلت الآيات الأولى من هذه السورة خرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة: ﴿الم(١) غُلِبَتْ الرُّومُ(٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وراهن أبوبكر المشركين على ذلك كما سيأتي. ٢١/٣٩ـ٤٠

٣ـ **أول أغراض هذه السورة** سبب نزولها على ما سَرَّ المشركين من تغلُّب الفرس على الروم؛ فَقَمَعَ اللهُ ـ تعالى ـ تطاولَ المشركين به، وتحدَّاهم بأن العاقبةَ للروم في الغُلْب على الفرس بعد سنين قليلة.

ثم تَطَرَّق من ذلك إلى تجهيل المشركين بأنهم لا تغوص أفهامُهم في الاعتبار بالأحداث، ولا في أسباب نهوضٍ وانحدار الأمم من الجانب الرباني، ومن ذلك إهمالُهم النظرَ في الحياة الثانية، ولم يتعظوا بهلاك الأمم السالفة المماثلة لهم في الإشراك بالله، وانْتَقَل من ذلك إلى ذكر البعث.

واسْتَدَلَّ لذلك ولوحدانيته ـ تعالى ـ بدلائلَ من آياتِ الله في تكوين نظام العالم

ونظامِ حياة الإنسان.

ثم حضَّ النبيَّ ﷺ والمسلمين على التمسك بهذا الدين، وأثنى عليه.

ونَظَرَ بين الفضائل التي يدعو إليها الإسلام وبين حال المشركين ورذائلهم، وضربَ أمثالاً لإحياء مُخْتَلَفِ الأمواتِ بعد زوال الحياة عنها، ولإحياء الأمم بعد يأسِ الناس منها، وأمثالاً لحدوث القوة بعد الضعف وبعكس ذلك.

وختمَ ذلك بالعود إلى إثبات، البعث ثم بتثبيت النبي ﷺ وَوَعْدِه بالنصر.

ومن أَعْظم ما اشتملت عليه التصريحُ بأن الإسلامَ دينٌ فطر اللهُ الناس عليه، وأن مَنْ ابتغى غيرَه ديناً فقد حاول تبديل ما خلق الله، وأنى له ذلك. ٢١/٤٠ـ٤١

٤ـ **والروم:** اسم غلب في كلام العرب على أمة مختلطة من اليونان والصقالبة، ومن الرومانيين الذين أصلهم من اللاطينيين سكان بلاد إيطاليا نزحوا إلى أطراف شرق أوربا.

تَقَوَّمت هذه الأمة المسماة الروم على هذا المزيج، فجاءت منها مملكة تحتل قطعة من أوربا، وقطعة من آسيا الصغرى وهي بلاد الأناضول.

وقد أطلق العرب على مجموع هذه الأمة اسم الروم؛ تفرقة بينهم وبين الرومان اللاطينيين.

وسموا الروم ـأيضاًـ ببني الأصفر كما جاء في حديث أبي سفيان عن كتاب النبي ﷺ المبعوث إلى هرقل سلطان الروم وهو في حمص من بلاد الشام؛ إذ قال أبو سفيان لأصحابه: «لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة؛ إنه يخافه ملك بني الأصفر».

وسبب اتصال الأمة الرومانية بالأمة اليونانية، وتكوُّن أمة الروم من الخليطينـ هو أن اليونان كان لهم استيلاءٌ على صقلية وبعض بلاد إيطاليا، وكانوا بذلك في

اتصالات وحروب سجال مع الرومان، ربما عظمت واتسعت مملكة الرومان تدريجاً بسبب الفتوحات، وتسربت سلطتهم إلى إفريقيا، وأداني آسيا الصغرى بفتوحات (يوليوس قيصر) لمصر وشمال أفريقيا، وبلاد اليونان وبتوالي الفتوحات للقياصرة من بعده، فصارت تبلغ من رومة إلى أرمينيا والعراق.

ودخلت فيها بلاد اليونان، ومدائن رودس وساقس وكاريا والصقابلة الذين على نهر الطونة، ولحق بها البيزنطينيون المنسبون إلى مدينة بيزنطة الواقعة في موقع استانبول على البسفور.

وهم أصناف من اليونان والإسبرطيين، وكانوا أهل تجارة عظيمة في أوائل القرن الرابع قبل المسيح ثم ألَّفوا اتحاداً بينهم وبين أهل رودس وساقس، وكانت بيزنطة من جملة مملكة إسكندر المقدوني، وبعد موته واقتسام قواده المملكة من بعده صارت بيزنطة دولة مستقلة، وانضوت تحت سلطة رومة؛ فحكمها قياصرة الرومان إلى أن صار قسطنطين قيصراً لرومة، وانفرد بالسلطة في حدود سنة ٣٢٢ مسيحية، وجمع شتات المملكة، فجعل للملكة[1] عاصمتين: عاصمة غربية رومة، وعاصمة شرقية اختطها مدينة عظيمة على بقايا مدينة بيزنطة وسماها (قسطنطينية) وانصرفت همته إلى سكناها، فنالت شهرة تفوق (رومة).

وبعد موته سنة ٣٣٧ قسمت المملكة بين أولاده، وكان القسم الشرقي الذي هو بلاد الروم وعاصمته القسطنطينية لابنه (قسطنطينيوس) فمنذ ذلك الحين صارت مملكة القسطنطينية هي مملكة الروم، وبقيت مملكة رومة مملكة الرومان.

وزاد انفصال المملكتين في سنة ٣٩٥ حين قسم (طيودسيوس) بلدان السلطنة

١ـ هكذا في الأصل، والصواب: للمملكة. (م)

الرومانية بين ولديه، فجعلها قسمين مملكة شرقية ومملكة غربية؛ فاشتهرت المملكة الشرقية باسم بلاد الروم وعاصمتها (القسطنطينية).

ويعرف الروم عند الإفرنج بالبيزنطينيين، نسبة إلى بيزنطة اسم مدينة يونانية قديمة واقعة على شاطئ البوسفور الذي هو قسم من موقع المدينة التي حدثت بعدها -كما تقدم آنفاً-.

وقد صارت ذات تجارة عظيمة في القرن الخامس قبل المسيح، وسمي ميناها بالقرن الذهبي.

وفي أواخر القرن الرابع قبل المسيح خلعت طاعة أثينا، وفي أواسط القرن الرابع بعد المسيح جُعل قسطنطين سلطان مدينة القسطنطينية.

وهذا الغُلْبُ الذي ذكر في هذه الآية هو انهزام الروم في الحرب التي جرت بينهم وبين الفرس سنة ٦١٥ مسيحية، وذلك أن (خسرو) ابن (هرمز) ملك الفرس غزا الروم في بلاد الشام وفلسطين وهي من البلاد الواقعة تحت حكم هرقل قيصر الروم؛ فنازل إنطاكية، ثم دمشق، وكانت الهزيمة العظيمة على الروم في أطراف بلاد الشام المحادةِ بلادَ العربِ بين بُصرى وأذرعات، وذلك هو المراد في هذه الآية بـ﴿ أَدْنَى الأَرْضِ ﴾ أي أدنى بلاد الروم إلى بلاد العرب.

فالتعريف في ﴿ الأَرْضِ ﴾ للعهد، أي أرض الروم المتحدث عنهم، أو اللام عوض عن المضاف إليه، أي في أدنى أرضهم، أو أدنى أرض الله.

وحُذِف متعلق ﴿ أَدْنَى ﴾ لظهور أن تقديره: من أرضكم، أي أقرب بلاد الروم من أرض العرب؛ فإن بلاد الشام تابعة يومئذ للروم، وهي أقرب مملكة الروم من بلاد العرب.

وكانت هذه الهزيمة هزيمة كبرى للروم. ٢١/٤٢ـ٤٣

٥ـ **وفائدةُ ذكرِ ﴿مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ :** التنبيه على عظم تلك الهزيمة عليهم، وأنها بحيث لا يظن نصر لهم بعدها؛ فابتهج بذلك المشركون؛ فالوعد بأنهم سيغلبون بعد ذلك الانهزام في أمد غير طويل تَحدٍّ تحدَّى به القرآنُ المشركين، ودليل على أن الله قدَّر لهم الغلب على الفرس؛ تقديراً خارقاً للعادة معجزة لنبيه ﷺ وكرامة للمسلمين.

ولفظ ﴿بِضْعَ﴾ بكسر الموحدة كناية عن عدد قليل لا يتجاوز العشرة، وقد تقدم في قوله ـتعالى ـ: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ في سورة يوسف، وهذا أَجَلٌ لرد الكرة لهم على الفرس.

وحكمة إبهام عدد السنين أنه مقتضى حال كلام العظيم الحكيم أن يقتصر على المقصود إجمالاً، وأن لا يتنازل إلى التفصيل؛ لأن ذلك التفصيل يتنزل منزلة الحشو عند أهل العقول الراجحة، وليكون للمسلمين رجاءٌ في مدة أقرب مما ظهر؛ ففي ذلك تفريج عليهم.

وهذه الآية من معجزات القرآن الراجعة إلى الجهة الرابعة في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير. ٢١/٤٤

٦ـ روى الترمذي بأسانيد حسنة وصحيحة أن المشركين كانوا يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم؛ لأنهم وإياهم أهل أوثان وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب مثلهم، فكانت فارس يوم نزلت ﴿الم غُلِبَتْ الرُّومُ﴾ قاهرين للروم؛ فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله : «**أما أنهم سيغلبون**».

ونزلت هذه الآية، فخرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة: ﴿الم غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.

فقال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين؛ أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى وذلك قبل تحريم الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فَسَمِّ بيننا وبينك وسطاً ننتهي إليه، فسمى أبو بكر لهم ست سنين؛ فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، فمضت الست السنين قبل أن يظهر الروم، فأخذ المشركون رهن أبي بكر.

وقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «**ألا أخفضت يا أبا بكر، ألا جعلته إلى دون العشر؛ فإن البضع ما بين الثلاث إلى التسع**».

وعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين، وأسلم عند ذلك ناس كثير.

وذكر المفسرون أن الذي راهن أبا بكر هو أبي بن خلف، وأنهم جعلوا الرهان خمس قلائص.

وفي رواية أنهم بعد أن جعلوا الأجل ستة أعوام غيروه، فجعلوه تسعة أعوام، وازدادوا في عدد القلائص، وأن أبا بكر لما أراد الهجرة مع النبي ﷺ تعلق به أبي بن خلف وقال له: أعطني كفيلاً بالخطر إن غلبت، فكفل به ابنه عبدالرحمن، وكان عبد الرحمن أيامئذ مشركاً باقياً بمكة، وأنه لما أراد أبي ابن خلف الخروج إلى أحد طلبه عبدالرحمن بكفيل، فأعطاه كفيلاً، ثم مات أبي بمكة من جرح جرحه النبي ﷺ فلما غلب الروم بعد سبع سنين أخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبي بن خلف.

وقد كان تغلب الروم على الفرس في سنة ست وورد الخبر إلى المسلمين.

وفي حديث الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: «لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين».

والمعروف أن ذلك كان يوم الحديبية، وقد تقدم في أول السورة أن المدة بين انهزام الروم وانهزام الفرس سبع سنين بتقديم السين، وأن ما وقع في بعض الروايات أنها تسع هو تصحيف.

وقد كان غلب الروم على الفرس في سلطنة هرقل قيصر الروم، وبإثره جاء هرقل إلى بلاد الشام، ونزل حمص، ولقي أبا سفيان بن حرب في رهط من أهل مكة جاءوا تجاراً إلى الشام.

واعلم أن هذه الرواية في مخاطرة أبي بكر وأبي بن خلف وتقرير النبيﷺ إياها احتج بها أبو حنيفة على جواز العقود الربوية مع أهل الحرب.

وأما الجمهور فهذا يرونه منسوخاً بما ورد من النهي عن القمار نهياً مطلقاً لم يقيد بغير أهل الحرب.

وتحقيق المسألة أن المراهنة التي جرت بين أبي بكر وأبي بن خلف جرت على الإباحة الأصلية؛ إذ لم يكن شرع بمكة أيامئذ؛ فلا دليل فيها على إباحة المراهنة، وأن تحريم المراهنة بعد ذلك تشريعٌ أُنُفٌ وليس من النسخ في شيء. ٢١/٤٥ـ٤٦

٧ـ ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾.

تقديم المجرور في قوله: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ﴾ لإبطال تطاول المشركين الذين بَهَجَهُم غلب الفرس على الروم؛ لأنهم عبدة أصنام مثلهم؛ لاستلزامه الاعتقاد بأن ذلك الغلب من نَصْرِ الأصنامِ عُبَّادَها؛ فبين لهم بطلان ذلك، وأن التصرف لله وحده

في الحالين للحكمة التي بيناها آنفاً كما دل عليه التذييل بقوله: ﴿ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴾.

فيه أدب عظيم للمسلمين، لكي لا يعللوا الحوادث بغير أسبابها، وينتحلوا لها عللاً توافق الأهواء كما كانت تفعله الدجاجلة من الكهان وأضرابهم.

وهذا المعنى كان النبيﷺ يعلنه في خطبه؛ فقد كسفت الشمس يوم مات إبراهيم ابن النبي فقال الناس: كسفت لموت إبراهيم فخطب النبيﷺ فقال في خطبته: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته**».

وكان من صناعة الدجل أن يتلقن أصحاب الدجل الحوادث المقارنة لبعض الأحوال؛ فيزعموا أنها كانت لذلك مع أنها تنفع أقواماً وتضر بآخرين؛ ولهذا كان التأييد بنصر الروم في هذه الآية موعوداً به من قبل؛ ليعلم الناس كلهم أنه مُتَحَدًّىً به قبل وقوعه لا مُدَّعَىً به بعد وقوعه، ولهذا قال ـتعالىـ بعد الوعود: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾.٢١/٤٦ـ٤٧

٨ـ **والروضة:** كل أرض ذات أشجار، وماء، وأزهار في البادية، أو في الجنان.

ومن أمثال العرب: «أحسن من بيضة في روضة» يريدون بيضة النعامة.

وقد جمع محاسن الروضة قول الأعشى:

ما روضة من رياض الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمسَ منها كوكبٌ[1] شرق ... مؤزر بعميم النبت مكتهل

٢١/٦٤

١ـ أراد بالكوكب النور؛ تشبيهاً له بكوكب نجوم السماء في البياض والاستدارة.

٩- **وإخراج الحي من الميت يظهر في أحوال كثيرة منها:** إنشاء الأجنة من النطف، وإنشاء الفراخ من البيض؛ وإخراج الميت من الحي يظهر في العكس وقد تقدم في سورة آل عمران.

وفي الآية إيماءٌ إلى أن الله يخرج من غلاة المشركين أفاضل من المؤمنين مثل إخراج خالد بن الوليد من أبيه الوليد بن المغيرة، وإخراج هند بنت عتبة ابن ربيعة من أبيها أحد أئمة الكفر.

وقد قالت للنبيﷺ: «ما كان أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك، واليوم ما أهلُ خباءٍ أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك» فقال لها النبيﷺ: **«وأيضاً»** (أي ستزيدين حباً لنا بسبب نور الإسلام).

وإخراج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط من أبيها، ولما كلمت أم كلثوم بنت عقبة رسول اللهﷺ في شأن إسلامها وهجرتها إلى المدينة حين جاء أخواها يرومان ردها إلى مكة حسب شروط الهدنة فقالت: يا رسول الله أنا امرأة، وحال النساء إلى الضعف؛ فأخشى أن يفتنوني في ديني ولا صبر لي، فقرأ النبيﷺ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ﴾ ونزلت آية الامتحان؛ فلم يَرُدَّها رسول اللهﷺ إليهما، وكانت أول النساء المهاجرات إلى المدينة بعد صلح الحديبية. ٦٨/٢١

١٠- **وأما اختلاف ألوان البشر** فهو آية -أيضاً- لأن البشر منحدر من أصل واحد وهو آدم، وله لون واحد لا محالة، ولعله البياض المشوب بحمرة؛ فلما تعدد نسله جاءت الألوان المختلفة في بشراتهم وذلك الاختلاف معلول لعدة علل أهمها المواطن المختلفة بالحرارة والبرودة، ومنها التوالد من أبوين مختلفي اللون مثل المتولد من أم سوداء وأب أبيض، ومنها العلل والأمراض التي تؤثر تلويناً في

الجلد، ومنها اختلاف الأغذية.

ولذلك لم يكن اختلاف ألوان البشر دليلاً على اختلاف النوع بل هو نوع واحد؛ فللبشر ألوان كثيرة أصلاها البياض والسواد، وقد أشار إلى هذا أبو علي ابن سينا في أرجوزته في الطب بقوله:

بالنزج حرّ غَيَّر الأجساد حتى كسا بياضها سوادا
والصقلب اكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

٤٧/٢١

١١ـ **وكان أصل اللون البياض؛** لأنه غير محتاج إلى علة، ولأن التشريح أثبت أن ألوان لحوم البشر التي تحت الطبقة الجلدية متحدة اللون.

ومن البياض والسواد انشقت ألوان قبائل البشر؛ فجاء منها اللون الأصفر واللون الأسمر واللون الأحمر.

ومن العلماء وهو (كوقيي)[1] جعل أصول ألوان البشر ثلاثة: الأبيض والأسود والأصفر، وهو لون أهل الصين.

ومنهم من زاد الأحمر، وهو لون سكان قارة أمريكا الأصليين المدعوين هنودَ أمريكا. ٢١/٧٤ـ٧٥

١٢ـ **وحالة النوم حالة عجيبة من أحوال الإنسان والحيوان؛** إذ جعل الله له في نظام أعصاب دماغه قانوناً يسترد به قوة مجموعه العصبي بعد أن يعتريه فشل الإعياء من إعمال عقله وجسده؛ فيعتريه شِبْهُ موتٍ يخدر إدراكه، ولا يعطل حركات أعضائه الرئيسية، ولكنه يثبطها حتى يبلغ من الزمن مقداراً كافياً

١ـ كوقيي عالم طبيعي فرنسي ولد سنة ١٧٦٩ وتوفي سنة ١٨٣٢.

لاسترجاع قوته؛ فيفيق من نومته، وتعود إليه حياته كاملة. ٧٦/٢١

١٣ـ **ومعنى فطر الناس على الدين الحنيف**: أن الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم غير مجافية لها، غير نائين عنه ولا منكرين له مثل إثبات الوحدانية لله؛ لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل، والنظر الصحيح حتى لو ترك الإنسانُ وتفكيرَه، ولم يلقن اعتقاداً ضالاً لاهتدى إلى التوحيد بفطرته. ٩٠/٢١

١٤ـ **وإن لم أر من أتقن الإفصاح عن معنى كون الإسلام هو الفطرة فأبينه**: بأن الفطرة هي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، والفطرة التي تخص نوع الإنسان هي ما خلقه الله عليه جسداً وعقلاً، فَمَشْيُ الإنسان برجليه فطرة جسدية، ومحاولته أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة الجسدية، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية، ومحاولة استنتاج أمر من غير سببه خلاف الفطرة العقلية، وهو المسمى في علم الاستدلال بفساد الوضع.

وجَزْمنا بأن ما نبصره من الأشياء هو حقائق ثابتة في الوجود، ونفس الأمر فطرة عقلية، وإنكارُ السوفسطائيةِ ثبوتَ المحسوساتِ في نفسِ الأمرِ خلافُ الفطرةِ العقلية. ٩٠/٢١

١٥ـ فَوَصْفُ الإسلام بأنه فطرة الله معناه أن أصل الاعتقاد فيه جارٍ على مقتضى الفطرة العقلية.

وأما تشريعاته وتفاريعه فهي: إما أمور فطرية ـأيضاًـ أي جارية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به، وإما أن تكون لصلاحه مما لا ينافي فطرته.

وقوانين المعاملات فيه هي راجعة إلى ما تشهد به الفطرة؛ لأن طلب المصالح

من الفطرة، وتفصيل ذلك ليس هذا موضعه، وقد بينته في كتابي المسمى (مقاصد الشريعة الإسلامية). ٢١/٩١

١٦ـ **واعلم أن شواهد الفطرة قد تكون واضحةً بينة، وقد تكون خفية،** كما يقتضيه كلام الشيخ ابن سينا؛ فإذا خفيت المعاني الفطرية، أو التبست بغيرها فالمضطلعون بتمييزها وكشفها هُمُ العلماءُ الحكماء الذين تمرسوا بحقائق الأشياء والتفريق بين متشابهاتها، وسبروا أحوال البشر، وتعرضت أفهامهم زماناً لتصاريف الشريعة، وتوسموا مراميَها، وغاياتها وعصموا أنفسهم بوازع الحق عن أن يميلوا مع الأهواء. ٢١/٩١ـ٩٢

١٧ـ إن المجتمع الإنساني قد مني عصوراً طويلة بأوهام وعوائد ومألوفات أدخلها عليه أهل التضليل؛ فاختلطت عنده بالعلوم الحق، فتقاول الناس عليها، وارتاضوا على قبولها؛ فالتصقت بعقولهم التصاق العنكبوت ببيته؛ فتلك يخاف منها أن تُتَلقَّى بالتسليم على مرور العصور؛ فيعسر إقلاعهم عنها، وإدراكهم ما فيها من تحريف عن الحق؛ فليس لتمييزها إلا أهل الرسوخ أصحاب العلوم الصحيحة الذين ضربوا في الوصول إلى الحقائق كل سبيل، واستوضحوا خطيرها وسليمها؛ فكانوا للسابلة خير دليل.

وكون الإسلام هو الفطرة، وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة صفة اختص بها الإسلام من بين سائر الأديان في تفاريعه.

أما أصوله فاشتركت فيها الأديان الإلهية، وهذا ما أفاده قوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾.

فالإسلام عام خالد مناسب لجميع العصور، وصالح بجميع الأمم، ولا

يستتب ذلك إلا إذا بنيت أحكامه على أصول الفطرة الإنسانية؛ ليكون صالحاً للناس كافة، وللعصور عامة، وقد اقتضى وصف الفطرة أن يكون الإسلام سمحاً يسراً؛ لأن السماحة واليسر مبتغى الفطرة. ٩٢/٢١

سورة لقمان

١ـ **سميت هذه السورة بإضافتها إلى لقمان؛** لأن فيها ذكر لقمان وحكمته، وجملاً من حكمته التي أدب بها ابنه.

وليس لها اسم غير هذا الاسم، وبهذا الاسم عُرِفَتْ بين القراء والمفسرين، ولم أقف على تصريح به فيما يروى عن رسول الله ﷺ بسند مقبول. ٢١/١٣٧

٢ـ وروى البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس: أنزلت سورة لقمان بمكة.

وهي مكية كلها عند ابن عباس في أشهر قوليه، وعليه إطلاق جمهور المفسرين.

وعن ابن عباس من رواية النحاس استثناء ثلاث آيات من قوله ـتعالىـ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وعن قتادة إلا آيتين إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

وفي تفسير الكواشي حكاية قول إنها مكية عدا آية نزلت بالمدينة وهي: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ قائلاً لأن الصلاة والزكاة فرضت بالمدينة.

ورده البيضاوي على تسليم ذلك بأن فرضها بالمدينة لا ينافي تشريعها بمكة على غير إيجاب.

والمحقوق[1] يمنعون أن تكون الصلاة والزكاة فرضتا بالمدينة، فأما الصلاة فلا ريب في أنها فرضت على الجملة بمكة، وأما الزكاة ففرضت بمكة دون تعيين

١ـ هكذا في الأصل، والصواب: المحققون. (م)

أنصباء ومقادير، ثم عينت الأنصباء والمقادير بالمدينة.

ويتحَصَّل من هذا أن القائل بأن آية: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ إلى آخرها نزلت بالمدينة قاله مِنْ قِبَلِ رأيه، وليس له سند يعتمد كما يؤذن به قوله؛ لأن الصلاة والزكاة الخ.

ثم هو يقتضي أن يكون صدر السورة النازل بمكة ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الخ، ثم ألحق به ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. ١٣٧/٢١

٣ـ **وهذه السورة هي السابعة والخمسون** في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة الصافات وقبل سورة سبأ.

وعدت آياتها ثلاثاً وثلاثين في عد أهل المدينة ومكة، وأربعاً وثلاثين في عد أهل الشام والبصرة والكوفة. ١٣٨/٢١

٤ـ **الأغراض التي اشتملت عليها هذه السورةُ** تتصل بسبب نزولها الذي تقدم ذِكْرُه أن المشركين سألوا عن قصة لقمان وابنه، وإذا جمعنا بين هذا وبين ما سيأتي عند قوله ـتعالىـ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ من أن المراد به النَّضْر بن الحارث؛ إذ كان يسافر إلى بلاد الفرس، فيقتني كتب اسْفَنْدِيار ورُسْتُمْ وبَهْرَام، وكان يقرؤها على قريش ويقول: يخبركم محمد عن عاد وثمود، وأحدثكم أنا عن رستم واسفنديار وبهرام؛ فَصُدِّرت هذه السورة بالتنويه بهدي القرآن؛ ليعلم الناس أنه لا يشتمل إلا على ما فيه هدىً وإرشادٌ للخير ومُثُلُ الكمال النفساني؛ فلا التفاتَ فيه إلى أخبارِ الجبابرة وأهل الضلال إلا في مقام التحذير مما هم فيه ومن عواقبه؛ فكان صَدْرُ هذه السورة تمهيداً لقصة لقمان.

وقد تقدم الإلماع إلى هذا في قوله -تعالى- في أول سورة يوسف ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ ، ونَبَّهْتُ عليه في المقدمة السابعة بهذا التفسير.

وانتقل من ذلك إلى تسفيه النَّضر بنِ الحارث وقِصصِهِ الباطلة.

وابتُدِئَ ذكرُ لقمانَ بالتنويه بأن آتاه اللهُ الحكمةَ، وأمره بشكر النعمة، وأطيل الكلام في وصايا لقمانَ وما اشتملت عليه: من التحذير من الإشراك، ومن الأمر ببر الوالدين، ومن مراقبةِ الله؛ لأنه عليمٌ بخفيات الأمور، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبرِ، والتحذيرِ من الكبرِ والعجبِ، والأمرِ بالاتسام بسمات المتواضعين في المشي والكلام.

وسلكت السورةُ أفانينَ ذاتَ مناسباتٍ لما تضمنته وصية لقمان لابنه، وأُدْمج في ذلك تذكير المشركين بدلائل وحدانية الله -تعالى- وبنعمه عليهم، وكيف أعرضوا عن هديه، وتمسكوا بما أَلْفَوا عليه آباءهم.

وذَكَرَتْ مزيةَ دين الإسلام، وتسليةَ الرسول ﷺ بتمسك المسلمين بالعروة الوثقى، وأنه لا يُحْزِنُه كُفْرُ مَنْ كفروا.

وانتظم في هذه السورة الردُّ على المعارضين للقرآن في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ وما بعدها، وخُتِمَتْ بالتحذير من دعوة الشيطان، والتنبيه إلى بطلان ادعاءِ الكهان عِلْم الغيب. ٢١/١٣٨-١٣٩

٥- **واللهو**: ما يقصد منه تشغيل البال، وتقصير طول وقت البطالة دون نفع؛ لأنه إذا كانت في ذلك منفعة لم يكن المقصود منه اللهو بل تلك المنفعة.

و﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ ما كان من الحديث مراداً للهو؛ فإضافة ﴿لَهْوَ﴾ إلى ﴿الْحَدِيثِ﴾ على معنى من التبعيضية على رأي بعض النحاة، وبعضهم لا

يثبت الإضافة على معنى من التبعيضية؛ فيردها إلى معنى اللام.

وتقدم اللهو في قوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ في سورة الأنعام.

والأصح في المراد بقوله: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أنه النضر ابن الحارث؛ فإنه كان يسافر في تجارة إلى بلاد فارس؛ فيتلقى أكاذيب الأخبار عن أبطالهم في الحروب المملوءة أكذوبات، فيقصها على قريش في أسمارهم ويقول: إن كان محمد يحدثكم بأحاديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم واسفنديار وبهرام.

ومن المفرسين[1] من قال: إن النضر كان يشتري من بلاد فارس كتب أخبار ملوكهم، فيحدث بها قريشاً، أي بواسطة من يترجمها لهم.

ويشمل لفظ ﴿النَّاسِ﴾ أهلَ سامره الذين ينصتون لما يقصه عليهم كما يقتضيه قوله -تعالى- إثره: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

وقيل المراد بـ﴿مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ من يقتني القينات المغنيات.

روى الترمذي عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تبيعوا القينات، ولا تشتروهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام**».

في مثل ذلك أنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية.

قال أبو عيسى: «هذا حديث غريب إنما يروى من حديث القاسم عن أبي أمامة وعلي بن يزيد يضعف في الحديث سمعت محمداً يعني البخاري يقول:

١- هكذا في الأصل، والصواب: المفسرين. (م)

علي بن يزيد يضعف» اهـ.

وقال ابن العربي في العارضة: «في سبب نزولها قولان: **أحدهما:** أنها نزلت في النضر بن الحارث.

الثاني: أنها نزلت في رجل من قريش قيل هو ابن خطل اشترى جارية مغنية؛ فشغل الناس بها عن استماع النبيﷺ » اهـ.

وألفاظ الآية أنسب انطباقاً على قصة النضر بن الحارث.

ومعنى: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أنه يفعل ذلك ليلهي قريشاً عن سماع القرآن؛ فإن القرآن سبيل موصل إلى الله -تعالى- أي إلى الدين الذي أراده، فلم يكن قصده مجرد اللهو، بل تجاوزه إلى الصد عن سبيل الله، وهذا زيادة في تفظيع عمله.

وقرأ الجمهور (يضل) بضم الياء، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، أي ليزداد ضلالاً على ضلالة؛ إذ لم يكتف لنفسه بالكفر حتى أخذ يبث ضلاله للناس، وبذلك يكون مآل القراءتين متحد المعنى. ١٤٢/٢١-١٤٣

٦- و(لقمان): اسم رجل حكيم صالح.

وأكثر الروايات في شأنه التي يعضد بعضها -وإن كانت أسانيدها ضعيفة- تقتضي أنه كان من السود، فقيل: هو من بلاد النوبة، وقيل: من الحبشة.

وليس هو لقمان بن عاد الذي قال المثل المشهور: «إحدى خُطيات لقمان».

والذي ذكره أبو المهوش الأسدي، أو يزيد بن عمر يصعق في قوله:

تــراه يُطَــوِّفُ الآفــاق حرصــاً ... ليأكــل رأس لقمــان بــن عــاد

ويعرف ذلك بلقمان صاحب النسور، وهو الذي له ابن اسمه (لقيم)[١].

وبعضهم ذكر أن اسم أبيه باعوراء، فسبق إلى أوهام بعض المؤلفين[٢] أنه المسمى في كتب اليهود بلعام بن باعوراء المذكور خبره في الإصحاحين **٢٢** و**٢٣** من سفر العدد.

ولعل ذلك وَهْمٌ؛ لأن بلعام ذلك رجل من أهل مَدْين كان نبياً في زمن موسى -عليه السلام- فلعل التوهم جاء من اتحاد اسم الأب، أو من ظن أن بلعام يرادف معنى لقمان؛ لأن بلعام من البلع ولقمان من اللقم فيكون العرب سموه بما يرادف اسمه في العبرانية.

وقد اختلف السلف في أن لقمان المذكور في القرآن كان حكيماً أو نبياً.

فالجمهور قالوا: كان حكيماً صالحاً.

واعتمد مالك في الموطأ على الثاني، فذكره في جامع الموطأ مرتين بوصف لقمان الحكيم، وذلك يقتضي أنه اشتهر بذلك بين علماء المدينة.

وذكر ابن عطية: أن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكر، حسن اليقين، أحب الله -تعالى- فأحبه؛ فمنَّ عليه بالحكمة».

ويظهر من الآيات المذكورة في قصته هذه أنه لم يكن نبياً؛ لأنه لم يمتن عليه بوحي ولا بكلام الملائكة.

١- وهو المعني بالبيت الذي أنشده ابن بري:

لقيم بن لقمان من أخته فكان ابن أخت له وابنُها

٢- هو لاروس صاحب دوائر المعارف الفرنسية.

والاقتصار على أنه أوتي الحكمة يومئ إلى أنه ألهم الحكمة، ونطق بها، ولأنه لما ذكر تعليمه لابنه قال ـتعالىـ: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ وذلك مؤذنٌ بأنه تعليم، لا تبليغ تشريع.

وذهب عكرمة والشعبي: أن لقمان نبي، ولفظ الحكمة يسمح بهذا القول؛ لأن الحكمة أطلقت على النبوءة في كثير من القرآن كقوله في داود: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾.

وقد فُسِّرت الحكمة في قوله ـتعالىـ: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ بما يشمل النبوءة.

وإن الحكمة معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه، وأعلاها النبوءة؛ لأنها علم بالحقائق مأمون من أن يكون مخالفاً لما هي عليه في نفس الأمر؛ إذ النبوءة متلقاة من الله الذي لا يعزب عن عمله شيء.

وسيأتي أن إيراد قوله ـتعالىـ: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ في أثناء كلام لقمان يساعد هذا القول.

وذكر أهل التفسير والتاريخ أنه كان في زمن داود.

وبعضهم يقول: إنه كان ابن أخت أيوب، أو ابن خالته؛ فتعين أنه عاش في بلاد إسرائيل.

وذكر بعضهم أنه كان عبداً، فأعتقه سيده.

وذكر ابن كثير عن مجاهد: أن لقمان كان قاضياً في بني إسرائيل في زمان داود ـعليه السلامـ ولا يوجد ذكر ذلك في كتب الإسرائيليين.

قيل: كان راعياً لغنم، وقيل: كان نجاراً، وقيل: خياطاً.

وفي تفسير ابن كثير عن ابن وهب أن لقمان كان عبداً لبني الحسحاس، وبنو الحسحاس من العرب، وكان من عبيدهم سحيم العبد الشاعر المخضرم الذي قتل في مدة عثمان.

وحكمة لقمان مأثورة في أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال، والمقربة للخفيات بأحسن الأمثال.

وقد عُنِي بها أهل التربية وأهل الخير، وذكر القرآن منها ما في هذه السورة، وذكر منها مالك في الموطأ بلاغين في كتاب الجامع، وذكر حكمة له في كتاب جامع العتبية، وذكر منها أحمد بن حنبل في مسنده ولا نعرف كتاباً جمع حكمة لقمان.

وفي تفسير القرطبي قال وهب بن منبه: قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب.

ولعل هذا إن صح عن وهب بن منبه كان مبالغة في الكثرة. **٢١**/١٤٨ـ١٥٠

٧ـ **وكان لقمان معروفاً عند خاصة العرب،** قال ابن إسحاق في السيرة: «قدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجاً أو معتمراً، فتصدى له رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي فقال له رسول الله ﷺ: وما معك؟ قال: مجلة لقمان، فقال له رسول الله ﷺ: اعرضها علي، فعرضها عليه، فقال: «**إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا قرآن أنزله الله**».

قال ابن إسحاق: فقدم المدينة، فلم يلبث أن قتلته الخزرج، وكان قتله قبل يوم بعاث، وكان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قومه يدْعُونه الكامل» اهـ.

وفي الاستيعاب لابن عبدالبر: «أنا شاك في إسلامه كما شك غيري».

وقد تقدم في صدر الكلام على هذه السورة أن قريشاً سألوا رسول اللهﷺ عن لقمان وابنه، وذلك يقتضي أنه كان معروفاً للعرب.

وقد انتهى إليَّ حين كتابة هذا التفسير من حكم لقمان المأثورة ثمان وثلاثون حكمة غير ما ذكر في هذه الآية، وسنذكرها عند الفراغ من تفسير هذه الآيات. ١٥١_١٥٠/٢١

٨ـ **وفائدة ذكر الحال بقوله: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾** الإشارة إلى أن قوله هذا كان لتلبس ابنه بالإشراك، وقد قال جمهور المفسرين: إن ابن لقمان كان مشركاً فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن بالله وحده؛ فإن الوعظ زجر مقترن بتخويف.

قال ـتعالىـ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾.

ويعرف المزجور عنه بمتعلق فعل الموعظة؛ فتعين أن الزجر هنا عن الإشراك بالله.

ولعل ابن لقمان كان يدين بدين قومه من السودان، فلما فتح الله على لقمان بالحكمة والتوحيد أبى ابنه متابعته، فأخذ يعظه حتى دان بالتوحيد، وليس استيطان لقمان بمدينة داود مقتضياً أن تكون عائلته تدين بدين اليهودية.

وأصل النهي عن الشيء أن يكون حين التلبس بالشيء المنهي عنه، أو عند مقاربة التلبس به، والأصل أن لا ينهى عن شيء منتف عن المنهي.

وقد ذكر المفسرون اختلافاً في اسم ابن لقمان؛ فلا داعي إليه.

وقد جمع لقمان في هذه الموعظة أصول الشريعة وهي: الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس. ١٥٤/٢١

٩ـ **والأمر بأن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر يقتضي إيتان[١] الآمر وانتهاءه في نفسه؛** لأن الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر يعلم ما في الأعمال من خير وشر، ومصالح ومفاسد؛ فلا جرم أن يتوقاها في نفسه بالأولوية من أمره الناس ونهيه إياهم.

فهذه كلمة جامعة من الحكمة والتقوى؛ إذ جمع لابنه الإرشاد إلى فعله الخير، وبثه في الناس، وكفه عن الشر، وزجره الناس عن ارتكابه، ثم أعقب ذلك بأن أمره بالصبر على ما يصيبه.

ووجه تعقيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بملازمة الصبر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يَجُرَّان للقائم بهما معاداةً من بعض الناس، أو أذى من بعض؛ فإذا لم يصبر على ما يصيبه من جراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو شك أن يتركهما.

ولما كانت فائدةُ الصبرِ عائدةً على الصابر بالأجر العظيم عُدَّ الصبر هنا في عداد الأعمال القاصرة على صاحبها، ولم يُلْتَفَتْ إلى ما في تحمل أذى الناس من حسن المعاملة معهم حتى يذكر الصبر مع قوله: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لأن ذلك ليس هو المقصود الأول من الأمر بالصبر.

والصبر: هو تحمل ما يحل بالمرء مما يؤلم أو يحزن، وقد تقدم في قوله ـتعالىـ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ في سورة البقرة. ١٦٥/٢١

١٠ـ وهذا وفاء بما وعدت به عند الكلام على قوله ـتعالىـ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ من ذكر ما انتهى إليه تتبعي لما أثر من حكمة لقمان غير ما في

١ـهكذا في الأصل، والصواب: إتيان. (م)

هذه السورة ، وقد ذكر الآلوسي في تفسيره منها ثمانياً وعشرين حكمة وهي : قوله لابنه : أي بني إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها أناس كثير؛ فاجعل سفينتك فيها تقوى الله ـتعالى ـ وحشوها الإيمان ، وشراعها التوكل على الله ـتعالى ـ لعلك أن تنجو ، ولا أراك ناجياً.

وقوله : من كان له من نفسه واعظ كان له من الله ـعز وجل ـ حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله ـتعالى ـ بذلك عزاً ، والذل في طاعة الله ـتعالى ـ أقرب من التعزز بالمعصية.

وقوله : ضَرْبُ الوالدِ لولده كالسماد للزرع.

وقوله : يا بني إياك والدَّينَ؛ فإنه ذل النهار ، وهمُّ الليل.

وقوله : يا بني ارجُ الله ـعز وجل ـ رجاءً لا يُجَرِّيك على معصيته ـتعالى ـ وخف الله ـسبحانه ـ خوفاً لا يؤيسك من رحمته ـتعالى شأنه ـ.

وقوله : من كذب ذهب ماء وجهه ، ومن ساء خلقه كثر غمه ، ونقل الصخور من مواضعها أيسر من إفهام من لا يفهم.

وقوله : يا بني حملت الجندل والحديد ، وكل شيء ثقيل؛ فلم أحمل شيئاً هو أثقل من جار السوء ، وذقت المرار؛ فلم أذق شيئاً هو أمر من الفقر.

يا بني لا ترسل رسولك جاهلاً؛ فإن لم تجد حكيماً فكن رسول نفسك.

يا بني إياك والكذب؛ فإنه شهي كلحم العصفور عما قليل يغلي صاحبه.

يا بني احضر الجنائز ، ولا تحضر العرس؛ فإن الجنائز تذكرك الآخرة ، والعرس يشهيك الدنيا.

يا بني لا تأكل شبعاً على شبع ؛ فإن إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله.

يا بني لا تكن حلواً فَتُبلع، ولا تكن مراً فَتُلْفَظ.

وقوله لابنه: لا يأكل طعامك إلا الأتقياء، وشاور في أمرك العلماء.

وقوله: لا خير لك في أن تتعلم ما لم تعلم ولما تعمل بما قد علمت؛ فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطباً، فحمل حزمة، وذهب يحملها، فعجز عنها، فَضَمَّ إليها أخرى.

وقوله: يا بني إذا أردت أن تواخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك؛ فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره.

وقوله: لتكن كلمتُك طيبةً، وليكن وجهك بسطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء.

وقوله: يا بني أنزل نفسك من صاحبك منزلة من لا حاجة له بك، ولا بد لك منه.

يا بني كن كمن لا يبتغي محمدة الناس، ولا يكسب ذمهم؛ فنفسه منه في عناء، والناس منه في راحة.

وقوله: يا بني امتنع بما يخرج من فيك؛ فإنك ما سكتَّ سالمٌ، وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعك.

وأنا أُقَفِّي عليها ما لم يذكره الآلوسي.

فمن ذلك ما في الموطأ فيما جاء في طلب العلم من كتاب الجامع: مالك أنه بلغه أن لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله يحيي القلوب بنور العلم كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء.

وفيه فيما جاء في الصدق والكذب من كتاب الجامع أنه بلغه أنه قيل للقمان:

ما بلغ بك ما نرى -يريدون الفضل- فقال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني.

وفي جامع المستخرجة للعتبي قال مالك: بلغني أن لقمان قال لابنه: يا بني ليكن أول ما تفيد من الدنيا بعد خليل صالح امرأة صالحة.

وفي أحكام القرآن لابن العربي عن مالك: أن لقمان قال لابنه: يا بني إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون، وهم إلى الآخرة سراعاً يذهبون، وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنت واستقبلت الآخرة، وإن داراً تسير إليها أقرب إليك من دار تخرج عنها.

وقال: ليس غنىً كصحة، ولا نعمة كطيب نفس.

وقال: يا بني لا تجالس الفجار، ولا تماشِهم، اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء، فيصيبك معهم.

وقال: يا بني جالس العلماء وماشِهِمْ عسى أن تنزل عليهم رحمة؛ فتصيبك معهم.

وفي الكشاف: أنه قال لرجل ينظر إليه: إن كنت تراني غليظ الشفتين؛ فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض.

وأن مولاه أمره بذبح شاة، وأن يأتيه بأطيب مضغتين، فأتاه باللسان والقلب، ثم أمره بذبح أخرى وأن ألق منها أخبث مضغتين؛ فألقى اللسان والقلب، فسأله عن ذلك، فقال: هما أطيب ما فيها إذا طابا، وأخبث ما فيها إذا خبثا.

ودخل على داود وهو يسرد الدروع، فأراد أن يسأله عماذا يصنع، فأدركته

الحكمة، فسكت، فلما أتمها داود لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنت، فقال لقمان: الصمت حكمة، وقليل فاعله.

وفي تفسير ابن عطية: قيل للقمان: أي الناس شر؟ فقال: الذي لا يبالي أن يراه الناس سيئاً أو مسيئاً.

وفي تفسير القرطبي: كان لقمان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث داود قطع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أكتفي إذا كفيت؟

وفيه: إن الحاكم بأشد المنازل وكدرها؛ يغشاه المظلوم من كل مكان إن يصب فبالحريِّ أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة.

ومن يكن في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً، ومن يختر الدنيا على الآخرة تَفُتْهُ الدنيا ولا يصب الآخرة.

وفي تفسير البيضاوي: أن داود سأل لقمان: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت في يدي غيري.

وفي درة التنزيل المنسوب لفخر الدين الرازي: قال لقمان لابنه: إن الله رضيني لك، فلم يوصني بك، ولم يرضك لي؛ فأوصاك بي.

وفي الشفاء لعياض: قال لقمان لابنه: إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وفي كتاب آداب النكاح لقاسم بن يأمون التليدي الأخماسي[1]: أن من وصية لقمان: يا بني إنما مثل المرأة الصالحة كمثل الدهن في الرأس يلين العروق، ويُحَسِّن الشعر، ومثلها كمثل التاج على رأس الملك، ومثلها كمثل اللؤلؤ

---

١ ـ بالمكتبة الأحمدية عدد ٢١٢٨ وطبع في فاس سنة ١٣١٧.

والجوهر لا يدري أحد ما قيمته.

ومثل المرأة السوء كمثل السيل لا ينتهي حتى يبلغ منتهاه: إذا تكلمت أسمعت، وإذا مشت أسرعت، وإذا قعدت رفعت، وإذا غضبت أسمعت، وكل داء يبرأ إلا داء امرأة السوء.

يا بني لأَنْ تساكنَ الأسد والأَسْوَد[1] خيرٌ من أن تساكنها؛ تبكي وهي الظالمة، وتحكم وهي الجائرة، وتنطق وهي الجاهلة، وهي أفعى بلدغها.

وفي مجمع البيان للطبرسي: يا بني سافر بسيفك، وخفك، وعمامتك، وخبائك، وسقائك، وخيوطك، ومخرزك، وتزود معك من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك، وكن لأصحابك موافقاً إلا في معصية الله -عز وجل-.

يا بني إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأمورهم، وأكثر التبسم في وجوههم، وكن كريماً على زادك بينهم، فإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوا بك فأعنهم، واستعمل طول الصمت وكثرة الصلاة، وسخاء النفس بما معك من دابة أو ماء أو زاد، وإذا استشهدوك على الحق فاشهد لهم، واجهد رأيك لهم إذا استشاروك، ثم لا تعزم حتى تَثَبَّت وتنظر، ولا تجب في مشورة حتى تقوم فيها وتقعد، وتنام وتأكل، وتصلي، وأنت مستعمل فكرتك وحكمتك في مشورته؛ فإنَّ مَنْ لم يمحضِ النصيحة من استشاره سلبه الله رأيه، وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، فإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم، واسمع لمن هو أكبر منك سناً، وإذا أمروك بأمر وسألوك شيئاً فقل: نعم ولا تقل: لا؛ فإن لا عِيٌّ ولؤم، وإذا تحيرتم في الطريق فأنزلوا، وإذا شككتم في القصد فقفوا وتآمروا، وإذا رأيتم شخصاً

١- يريد ذكَر الحيات.

واحداً فلا تسألوه عن طريقكم، ولا تسترشدوه؛ فإن الشخص الواحد في الفلاة مريب لعله يكون عين اللصوص، أو يكون هو الشيطانَ الذي حيركم.

واحذروا الشخصين -أيضاً- إلا أن تروا ما لا أرى؛ لأن العاقل إذا أبصر بعينه شيئاً عرف الحق منه، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

يا بني إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشيء، صلِّها واسترح منها؛ فإنها دَيْنٌ، وصل في جماعة ولو على رأس زج، وإذا أردتم النزول فعليكم من بقاع الأرض بأحسنها لوناً، وألينها تربة، وأكثرها عشباً.

وإذا نزلت فصل ركعتين قبل أن تجلس، وإذا أردت قضاء حاجتك فأبعد المذهب في الأرض، وإذا ارتحلت فصلِّ ركعتين ثم ودِّع الأرض التي حللت بها، وسلِّم على أهلها؛ فإن لكل بقعة أهلاً من الملائكة، وإن استطعت أن لا تأكل طعاماً حتى تبتدئ، فتتصدق منه فافعل.

وعليك بقراءة كتاب الله -لعله يعني الزبور- ما دمت راكباً، وعليك بالتسبيح ما دمت عاملاً عملاً، وعليك بالدعاء ما دمت خالياً، وإياك والسير في أول الليل إلى آخره، وإياك ورفعَ الصوتِ في مسيرك.

فقد استقصينا ما وجدنا من حكمة لقمان مما يقارب سبعين حكمة. ١٦٩/٢١-١٧٣

١١- **ومعنى حصر مفاتح الغيب في هذه الخمسة**: أنها هي الأمور المغيبة المتعلقة بأحوال الناس في هذا العالم، وأن التعبير عنها بالمفاتح أنها تكون مجهولة للناس؛ فإذا وقعت فكأن وقُوعَها فَتْحٌ لما كان مغلقاً، وأما بقية أحوال الناس فخفاؤها عنهم متفاوت، ويمكن لبعضهم تعيينها مثل تعيين يوم كذا للزفاف،

ويوم كذا للغزو، وهكذا مواقيت العبادات والأعياد، وكذلك مقارنات الأزمنة مثل: يوم كذا مدخل الربيع؛ فلا تجد مغيبات لا قِبَل لأحد بمعرفة وقوعها من أحوال الناس في هذا العالم غير هذه الخمسة.

فأما في العوالم الأخرى وفي الحياة الآخرة فالمغيبات عن علم الناس كثيرة، وليست لها مفاتح علم في هذا العالم. ١٩٨/٢١

سورة السجدة

١ـ **أشهر أسماء هذه السورة هو (سورة السجدة)** وهو أخصر أسمائها، وهو المكتوب في السطر المجعول لاسم السورة من المصاحف المتداولة.

وبهذا الاسم ترجم لها الترمذي في جامعه، وذلك بإضافة كلمة (سورة) إلى كلمة (السجدة).

ولا بد من تقدير كلمة ﴿ أَلَمْ ﴾ محذوفة للاختصار؛ إذ لا يكفي مجرد إضافة سورة إلى السجدة في تعريف هذه السورة؛ فإنه لا تكون سجدة من سجود القرآن إلا في سورة من السور.

وتسمى ـأيضاًـ ﴿أَلَمْ تَنزِيلُ﴾ روى الترمذي عن جابر بن عبدالله أن النبيﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿أَلَمْ(١)تَنزِيلُ﴾ و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾.

وتسمى (ألم تنزيل السجدة) وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة كان النبيﷺ يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر (ألم تنزيل السجدة) و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾.

قال شارحو صحيح البخاري ضبط اللام من كلمة ﴿تَنزِيلُ﴾بضمة على الحكاية، وأما لفظ «السجدة» في هذا الحديث فقال ابن حجر: هو بالنصب، وقال العيني والقسطلاني: بالنصب على أنه عطف بيان، يعني أنه بيان للفظ ﴿أَلَمْ تَنزِيلُ﴾.

وهذا بعيد؛ لأن لفظ السجدة ليس اسماً لهذه السورة إلا بإضافة (سورة) إلى

(السجدة) فالوجه أن يكون لفظ (السجدة) في كلام أبي هريرة مجروراً بإضافة مجموع ﴿ أَلَمْ تَنزِيلُ ﴾ إلى لفظ (السجدة)، وسأبين كيفية هذه الإضافة.

وعنونها البخاري في صحيحه «سورة تنزيل السجدة».

ويجب أن يكون ﴿ تَنزِيلُ ﴾ مضموناً على حكاية لفظ القرآن، فتميزت هذه السورة بوقوع سجدة تلاوة فيها من بين السور المفتتحة بـ﴿ أَلَمْ ﴾ فلذلك فمن سماها (سورة السجدة) عنى تقدير مضاف أي سورة (ألم السجدة). ٢١/٢٠١-٢٠٢

٢- **وتسمى هذه السورة -أيضاً-** (سورة المضاجع) لوقوع لفظ ﴿ الْمَضَاجِعِ ﴾ في قوله -تعالى-: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ ﴾.

وفي تفسير القرطبي عن مسند الدرامي[1] أن خالد بن معدان[2] سماها «المنجية».

قال: «بلغني أن رجلاً يقرؤها ما يقرأ شيئاً غيرها، وكان كثير الخطايا، فنشرت جناحها وقالت: رب اغفر له؛ فإنه كان يكثر من قراءتي؛ فشفعها الرب فيه وقال: اكتبوا له بكل خطيئة حسنة وارفعوا له درجة» اهـ. **٢١/٢٠٣**

٣- وهي مكية في إطلاق أكثر المفسرين، وإحدى روايتين عن ابن عباس، وفي رواية أخرى عنه استثناء ثلاث آيات مدنية وهي: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً ﴾ إلى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

١- الصواب: الدارمي. (م)

٢- خالد بن معدان الكلاعي الحمصي أبو عبدالله من فقهاء التابعين، توفي سنة ثلاث أو أربع أو ثمان ومائة، روى عن جماعة من الصحابة مرسلاً.

قيل: نزلت يوم بدر في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة وسيأتي إبطاله.

وزاد بعضهم آيتين: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ﴾ إلى ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لما روي في سبب نزولها وهو ضعيف.

والذي نعول عليه أن السورة كلها مكية وأن ما خالف ذلك إنْ هو إلا تأويل، أو إلحاق خاص بعام كما أصلنا في المقدمة الخامسة.

نزلت بعد سورة النحل وقبل سورة نوح، وقد عدت الثالثة والسبعين في النزول.

وعدت آياتها عند جمهور العادين ثلاثين، وعدها البصريون سبعاً وعشرين.
٢١/٢٠٣ـ٢٠٤

٤ـ **من أغراض هذه السورة**: أوَّلُها التنويهُ بالقرآن أنه منزلٌ من عند الله، وتوبيخُ المشركين على ادعائهم أنه مفترىً بأنهم لم يسبقْ لهم التشرفُ بنزول كتاب.

والاستدلالُ على إبطال إلهية أصنامهم بإثبات انفراد الله بأنه خالق السماوات والأرض، ومُدَبِّرُ أمورهما.

وذكرُ البعثِ، والاستدلالُ على كيفيةِ بدءِ خَلْق الإنسان ونسلِه، وتنظيرُه بإحياء الأرض، وأُدْمِج في ذلك أن إحياءَ الأرضِ نعمةٌ عليهم كفروا بمسديها.

والإنحاءُ على الذين أنكروه ووعيدُهم.

والثناءُ على المصدقين بآيات الله وَوَعْدُهم، ومقابلةُ إيمانهم بكفر المشركين، ثم إثباتُ رسالةِ رسولٍ عظيمٍ قبل محمد ﷺ هُدِيَ به أمةٌ عظيمة.

والتذكيرُ بما حل بالمكذبين السابقين؛ ليكون ذلك عظةً للحاضرين، وتهديدهم

بالنصر الحاصل للمؤمنين.

وخُتِمَ ذلك بانتظار النصر.

وَأَمْرُ الرسولِ ﷺ بالإعراض عنه؛ تحقيراً لهم، وَوَعْدُه بانتظار نصره عليهم.

ومن مزايا هذه السورةِ وفضائلها ما رواه الترمذي والنسائي وأحمد والدارمي عن جابر بن عبد الله قال: «كان النبي لا ينام حتى يقرأ ﴿الم تَنْزِيْلُ﴾ السجدة و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾». ٢١/٢٠٤ـ٢٠٥

٥ـ ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: أي لا تبلغ نفس من أهل الدنيا معرفة ما أعد الله لهم قال النبيﷺ قال الله ـتعالى ـ: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**».

فدل على أن المراد بـ﴿نَفْسٌ﴾ في هذه الآية أصحاب النفوس البشرية؛ فإن مدركات العقول منتهية إلى ما تدركه الأبصار من المرئيات من الجمال والزينة، وما تدركه الأسماع من محاسن الأقوال، ومحامدها، ومحاسن النغمات، وإلى ما تبلغ إليه المتخيلات من هيئات يركبها الخيال من مجموع ما يعهده من المرئيات والمسموعات مثل الأنهار من عسل أو خمر أو لبن، ومثل القصور والقباب من اللؤلؤ، ومثل الأشجار من زبرجد، والأزهار من ياقوت، وتراب من مسك وعنبر؛ فكل ذلك قليل في جانب ما أعد لهم في الجنة من هذه الموصوفات، ولا تبلغه صفات الواصفين؛ لأن منتهى الصفة محصور فيما تنتهي إليه دلالات اللغات مما يخطر على قلوب البشر؛ فلذلك قال النبيﷺ: «**ولا خطر على قلب بشر**» وهذا كقولهم في تعظيم شيء: هذا لا يعلمه إلا الله. ٢١/٢٢٩ـ٢٣٠

سورة الأحزاب

١ـ **هكذا سميت (سورة الأحزاب)** في المصاحف وكتب التفسير والسنة، وكذلك رويت تسميتها عن ابن عباس وأبي بن كعب بأسانيد مقبولة، ولا يعرف لها اسم غيره، ووجه التسمية أن فيها ذكر أحزاب المشركين من قريش ومن تحزب معهم أرادوا غزو المسلمين في المدينة فرد الله كيدهم وكفى الله المؤمنين القتال.

وهي مدنية بالاتفاق، وسيأتي عن ابن عباس أن آية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ الخ، نزلت في تزويج زينب بنت جحش من زيد بن حارثة في مكة.

وهي التسعون في عداد السور النازلة من القرآن، نزلت بعد سورة الأنفال، وقبل سورة المائدة.

وكان نزولها على قول ابن إسحاق أواخر سنة خمس من الهجرة وهو الذي جرى عليه ابن رشد في البيان والتحصيل.

وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك: أنها كانت سنة أربع وهي سنة غزوة الأحزاب وتسمى غزوة الخندق حين أحاط جماعات من قريش وأحابيشهم[١] وكنانة وغطفان وكانوا عشرة آلاف وكان المسلمون ثلاثة آلاف وعقبتها غزوة قريظة والنضير.

وعدد آيها ثلاث وسبعون باتفاق أصحاب العدد. ٢١/٢٤٥

٢ـ **وكون القرآن قد تلاشى** منه كثير هو أصل من أصول الروافض؛ ليطعنوا به

---

١ ـ أحابيش قريش هم بنو المصطلق، وبنو الهوان اجتمعوا عند جبل بمكة يقال له حُبيش بضم الحاء وسكون الباء فحالفوا قريشاً أنهم يد على غيرهم.

في الخلفاء الثلاثة، والرافضة يزعمون أن القرآن مستودع عند الإمام المنتظر، فهو الذي يأتي بالقرآن وَقْرَ بعير.

وقد استوعب قولهم واستوفى إبطاله أبو بكر بن العربي في كتاب العواصم من القواصم. ٢٤٧/٢١

٣ـ **أغراض هذه السورة:** لكثير من آيات هذه السورة أسبابٌ لنزولها، وأكثرُها نزل للرد على المنافقين أقوالاً قصدوا بها أذى النبيﷺ.

وأهم أغراضها: الردُّ عليهم قولَهم لما تزوج النبيﷺ زينبَ بنتَ جحشٍ بعد أن طلَّقها زيدُ بنُ حارثةَ فقالوا: تزوج محمدٌ امرأةَ ابنِه وهو ينهى الناس عن ذلك؛ فأنزل الله ـتعالىـ إبطال التبني.

وأن الحقَّ في أحكام الله؛ لأنه الخبير بالأعمال، وهو الذي يقول الحق.

وأن ولايةَ النبيﷺ للمؤمنين أقوى ولاية، ولأزواجه حُرْمَةُ الأمهاتِ لهم، وتلك ولايةٌ مِنْ جعْل الله؛ فهي أقوى وأشدُّ من ولايةِ الأرحام.

وتحريضُ المؤمنين على التمسك بما شرع الله لهم؛ لأنه أخَذَ العهدَ بذلك على جميع النبيين.

والاعتبارُ بما أظهره الله من عنايته بنصر المؤمنين على أحزاب أعدائهم من الكفرة والمنافقين في وقعة الأحزاب، ودفعُ كيدِ المنافقين.

والثناءُ على صدق المؤمنين، وثباتِهم في الدفاع عن الدين.

ونعمةُ اللهِ عليهم بأن أعطاهم بلادَ أهلِ الكتاب الذين ظاهروا الأحزاب.

وانْتُقِلَ من ذلك إلى أحكامٍ في معاشرة أزواج النبيﷺ وذكر فضلهن وفضل

آل النبيﷺ وفضائلِ أهل الخير من المسلمين والمسلمات.

وتشريعٌ في عدة المطلقة قبل البناء.

وما يسوغُ لرسول الله ﷺ من الأزواج، وحكمُ حجابِ أمهات المؤمنين، ولُبْسةُ المؤمنات إذا خرجن.

وتهديدُ المنافقين على الإرجاف بالأخبار الكاذبة.

وخُتِمَت السورةُ بالتنويه بالشرائع الإلهية؛ فكان ختامُها من ردِّ العَجُزِ على الصدر؛ لقوله في أولها ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.

وتخلل ذلك مستطرداتٌ من الأمر بالائتساء بالنبيﷺ.

وتحريضُ المؤمنين على ذكر الله، وتنزيهه؛ شكراً له على هديه، وتعظيمُ قَدْرِ النبيﷺ عند الله وفي الملأ الأعلى، والأمرُ بالصلاةِ عليه والسلام.

ووعيدُ المنافقين الذين يأتون بما يؤذي الله ورسوله والمؤمنين.

والتحذيرُ من التورط في ذلك؛ كيلا يقعوا فيما وقع فيه الذين آذوا موسى ـعليه السلامـ. **٢١/٢٤٧ـ٢٤٨**

٤ـ **فإحباط الأعمال**: إبطال الاعتداد بالأعمال المقصود بها القربة، والمظنون بها أنها أعمال صالحة لمانع منع من الاعتداد بها في الدين.

وقد صار لفظ الحبط والحبوط من الألفاظ الشرعية الاصطلاحية بين علماء الفقه والكلام، فأطلق على عدم الاعتداد بالأعمال الصالحة بسبب الردة، أي الرجوع إلى الكفر، أو بسبب زيادة السيئات على الحسنات بحيث يستحق صاحب الأعمال العذاب بسبب زيادة سيئاته على حسناته بحسب ما قدر الله

لذلك، وهو أعلم به. ٢١/٢٩٩

٥ـ **وأما حفظ الفروج** فلأن شهوة الفرج شهوة جبلية، وهي في الرجل أشد، وقد أثنى الله على الأنبياء بذلك، فقال في يحيى: ﴿وَحَصُوراً﴾.

وقال في مريم: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ وهذا الحفظ له حدود سنَّتْهَا الشريعةُ، فالمراد: حفظ الفروج على أن تستعمل فيما نُهِي عنه شرعاً، وليس المراد: حفظها عن الاستعمال أصلاً وهو الرهبنة؛ فإن الرهبنةَ مدحوضةٌ في الإسلام بأدلة متواترة المعنى. **٢٢/٢٢**

٦ـ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

وهذا مبدأ المقصود من الانتقال إلى حكم إبطال التبني، ودَحْضِ ما بناه المنافقون على أساسه الباطل؛ بناءً على كفر المنافقين الذين غمزوا مغامز في قضية تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة فقالوا: تزوج حليلة ابنه، وقد نهى عن تزوج حلائل الأبناء؛ ولذلك ختمت هذه القصة وتوابعها بالثناء على المؤمنين بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وبالإعراض عن المشركين والمنافقين، وعن أذاهم. **٢٢/٢٩**

٧ـ **واعلم أن المأثور الصحيح في هذه الحادثة:** أن زيد بن حارثة بقيت عنده زينب سنين؛ فلم تلد له، فكان إذا جرى بينه وبينها ما يجري بين الزوجين تارة من خلاف أدلت عليه بسؤددها، وغضَّت منه بولايته، فلما تكرر ذلك عزم على أن يطلقها، وجاء يعلم رسول الله ﷺ بعزمه على ذلك؛ لأنه تزوجها من عنده.

وروي عن علي زين العابدين: أن الله أوحى إلى النبيﷺ أنه سينكح زينب بنت جحش.

وعن الزهري: نزل جبريل على النبيﷺ يعلمه أن الله زوجه زينب بنت جحش، وذلك هو ما في نفسه.

وذكر القرطبي أنه مختار بكر بن العلاء القشيري[١] وأبي بكر بن العربي.

والظاهر عندي: أن ذلك كان في الرؤيا كما أرى أنه قال لعائشة: «**أتاني بك الملك في المنام في سرقة من حرير يقول لي: هذه امرأتك، فأكشف، فإذا هي أنت فأقول: إن يكن هذا من عند الله يُمضِه**».

فقول النبيﷺ لزيد: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ توفية بحق النصيحة، وهو أمر نصح، وإشارة بخير لا أمر تشريع؛ لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذا المقام متصرفٌ بحقِّ الولاء والصحبة لا بصفة التشريع والرسالة، وأداء هذه الأمانة لا يتأكد أنه كان يعلم أن زينبَ صائرةٌ زوجاً له؛ لأن علم النبي بما سيكون لا يقتضي إجراءه، وإرشاده، أو تشريعه بخلاف علمه أو ظنه؛ فإن النبيﷺ كان يعلم أن أبا جهل ـمثلاًـ لا يُؤْمِن ولم يمنعه ذلك أن يبلِّغه الرسالة، ويعاوده الدعوة، ولأن رغبته في حصول شيء لا تقتضي إجراء أمره على حسب رغبته إن كانت رغبته تخالف ما يحمل الناس عليه، كما كان يرغب أن يقوم أحد يقتل عبدالله بن سعد بن أبي سرح قبل أن يسمع إعلانه بالتوبة من ارتداده حين جاء به عثمان بن عفان يوم الفتح تائباً.

ولذلك كلِّه لا يعد تصميم زيد على طلاق زينب عصياناً للنبيﷺ لأن أمره في

١ـ هو من المالكية، توفي سنة ٣٤٤، ترجمته في المدارك.

ذلك كان على وجه التوفيق بينه وبين زوجه، ولا يلزم أحداً المصيرُ إلى إشارة المشير كما اقتضاه حديث بريرة مع زوجها مغيث إذ قال لها: «**لو رَاجَعْتِهِ؟** فقالت: يا رسول الله تأمرني؟ **قال: لا إنما أنا أشفع**، قالت: لا حاجة لي فيه». ٣٢ـ٣١/٢٢

٨ـ وقد رُوِيَتْ في هذه القصة أخبار مخلوطة؛ فإياك أن تتسرب إلى نفسك منها أغلوطة؛ فلا تُصْغِ ذِهْنَكَ إلى ما ألصقه أهل القصص بهذه الآية من تبسيط في حال النبي ﷺ حين أمر زيداً بإمساك زوجه؛ فإن ذلك من مختلقات القصاصين، فإما أن يكون ذلك اختلافاً من القصاص؛ لتزيين القصة، وإما أن يكون كله أو بعضه من أراجيف المنافقين وبهتانهم فتلقفه القصاص وهو الذي نجزم به.

ومما يدل لذلك أنك لا تجد فيما يؤثر من أقوال السلف في تفسير هذه الآية أثراً مسنداً إلى النبيﷺ أو إلى زيد، أو إلى زينب، أو إلى أحد من الصحابة رجالِهم ونسائهم، ولكنها قَصَصٌ وأخبارٌ وقيل وقال.

ولسوء فهم الآية كَبُر أمرُها على بعض المسلمين، واستفزت كثيراً من الملاحدة وأعداء الإسلام من أهل الكتاب.

وقد تصدى أبو بكر بن العربي في الأحكام لوهن أسانيدها وكذلك عياض في الشفاء.

والآن نريد أن ننقل مجرى الكلام إلى التسليم بوقوع ما رُوي من الأخبار الواهية السند؛ لكي لا نترك في هذه الآية مهواة لأحد.

ومجموع القصة من ذلك: أن النبي ﷺ جاء بيت زيد يسأل عنه فرأى زينب متفضلة، وقيل: رفعت الريح ستار البيت فرأى النبي ـعليه الصلاة والسلام ـ

زينب فجأةً على غير قصد، فأعجبه حُسْنُها، وسبح لله.

وأن زينب علمت أنه وقعت منه موقع الاستحسان وأن زيداً علم ذلك وأنه أحب أن يطلقها؛ ليؤثر بها مولاه النبيﷺ، وأنه لما أخبر النبيﷺ بذلك قال له: «**أمسك عليك زوجك**» وهو يود طلاقها في قلبه ويعلم أنها صائرة زوجاً له».

وعلى تفاوت أسانيده في الوهن أُلْقِيَ إلى الناس في القصة؛ فانتقل غَثُّه وسمينه، وتُحُمِّلَ خفه ورزينه، فأخذ منه كل ما وسعه فهمه ودينه. ولو كان كله واقعاً لما كان فيه مغمز في مقام النبوة.

فأما رؤيةُ زينبَ في بيت زيدٍ إن كانت عن عمد فذلك أنه استأذن في بيت زيد فإن الاستئذان واجب؛ فلا شك أنه رأى وجهها وأعجبته ولا أحسب ذلك لأن النساء لم يكن يسترن وجوههن قال ـتعالىـ: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (أي الوجه والكفين) وزيد كان من أشد الناس اتصالاً بالنبي، وزينب كانت ابنة عمته، وزوج مولاه ومتبناه، فكانت مختلطة بأهله، وهو الذي زوجها زيداً، فلا يصح أن يكون ما رآها إلا حين جاء بيت زيد، وإن كانت الريح رفعت الستر فرأى من محاسنها وزينتها ما لم يكن يراه من قبل ـ فكذلك لا عجب فيه؛ لأن رؤية الفجأة لا مؤاخذة عليها، وحصول الاستحسان عقب النظر الذي ليس بحرام أمر قهري لا يملك الإنسان صرفه عن نفسه، وهل استحسان ذات المرأة إلا كاستحسان الرياض والجنات والزهور والخيل ونحو ذلك مما سماه الله زينة إذا لم يتبعه النَّظَّار نظرة.

وأما ما خطر في نفس النبي ﷺ من مودة تزوجها فإن وقع فما هو بخطب جليل؛ لأنه خاطر لا يملك المرء صرفَه عن نفسه؛ وقد علمت أن قوله:

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ ليس بلوم، وأن قوله: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ ليس فيه لوم ولا توبيخ على عدم خشية الله ولكنه تأكيد لعدم الاكتراث بخشية الناس.

وإنما تظهر مجالاتُ النفوس في ميادين الفتوة بمقدار مصابرتها على الكمال في مقاومة ما ينشأ عن تلك المرائي من ضعف في النفوس، وخور العزائم.

وكفاك دليلاً على تمكن رسول الله ﷺ من هذا المقام هو أفضل من ترسخ قدمه في أمثاله أنه لم يَزَلْ يراجعُ زيداً في إمساك زوجه مشيراً عليه بما فيه خير له، وزيد يرى ذلك إشارةً ونصحاً لا أمراً وشرعاً.

ولو صح أن زيداً علم مودة النبي ﷺ تزوج زينب فطلقها زيد لذلك دون أمر من النبي -عليه الصلاة والسلام- ولا التماس لما كان عجباً؛ فإنهم كانوا يؤثرون النبي ﷺ على أنفسهم، وقد تنازل له دِحْيَةُ الكلبيُّ عن صفية بنت حيي بعد أن صارت له في سهمه من مغانم خيبر، وقد عرض سعد بن الربيع على عبدالرحمن ابن عوف أن يتنازل له عن إحدى زوجتيه يختارها؛ للمؤاخاة التي آخى النبي ﷺ بينهما.

وأما إشارة النبي -عليه الصلاة والسلام- على زيد بإمساك زوجه مع علمه بأنها ستصير زوجة له فهو أداء لواجب أمانة الاستنصاح والاستشارة؛ وقد يشير المرء بالشيء يعلمه مصلحةً وهو يوقن أن إشارته لا تُمْتَثَلُ.

والتخليط بين الحالين تخليطٌ بين التصرف المستند لما تقتضيه ظواهر الأحوال وبين ما في علم الله في الباطن، وأشبه مقام به مقام موسى مع الخضر في القضايا الثلاث.

وليس هذا من خائنة الأعين -كما توهمه من لا يحسن- لأن خائنة الأعين المذمومة ما كانت من الخيانة والكيد.

وليس هو -أيضاً- من الكذب لأن قول النبي -عليه الصلاة والسلام- لزيد: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ لا يناقض رغبته في تزوجها، وإنما يناقضه لو قال: إني أحب أن تمسك زوجك، إذ لا يَخْفَى أن الاستشارة طلب النظر فيما هو صلاح للمستشير لا ما هو صلاح للمستشار.

ومن حق المستشار إعلام المستشير بما هو صلاح له في نظر المشير، وإن كان صلاح المشير في خلافه فضلاً على كون ما في هذه القصة إنما تخالف بين النصيحة وبين ما علمه الناصح من أن نصحه لا يؤثر.

فإن قلت: فما معنى ما روي في الصحيح عن عائشة أنها قالت: لو كان رسول الله كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ الآية.

قلت: أرادت أن رغبة النبي ﷺ في تزوج زينب أو إعلام الله إياه بذلك كان سراً في نفسه لم يطلع عليه أحدٌ؛ إذ لم يؤمر بتبليغه إلى أحد.

وعلى ذلك السر انبنى ما صدر منه لزيد في قوله: ﴿أمسك عليك زوجك﴾.

فلما طلقها زيد ورام تزوجها علم أن المنافقين سيرجفون بالسوء، فلما أمره الله بذكر ذلك للأمة وتبليغ خبره بلغه ولم يكتمه مع أنه ليس في كتمه تعطيل شرع، ولا نقص مصلحة؛ فلو كان كاتماً لكتم هذه الآية التي هي حكاية سر في نفسه وبينه وبين ربه -تعالى-.

ولكنه لما كان وحياً بلغه؛ لأنه مأمور بتبليغ كل ما أنزل إليه.

واعلم أن للحقائق نصابَها، وللتصرفات موانعها وأسبابها، وأن الناس قد تمتلكهم العوائد؛ فتحول بينهم وبين إدراك الفوائد، فإذا تفشت أحوال في

عاداتهم استحسنوها ولو ساءت، وإذا ندرت المحامد دافعوها إذا رامت مداخلة عقولهم وشاءت، وكل ذلك من تحريف الفطرة عن وضعها، والمباعدة بين الحقائق وشرعها.

ولما جاء الإسلام أخذ يغزو تلك الجيوش لِيَقْلَعَها من أقاصيها، وينزلها من صياصيها؛ فالحُسْنُ المشروعُ ما تشهد الفطرة لحسنه، والقبيح الممنوع الذي أماتته الشريعة وأمرت بدفنه. ٢٢/٣٥ـ٣٨

٩ـ **وقد أجمع الصحابة على أن محمداًﷺ خاتم الرسل والأنبياء**، وعرف ذلك وتواتر بينهم وفي الأجيال من بعدهم، ولذلك لم يترددوا في تكفير مسيلمة والأسود العنسي؛ فصار معلوماً من الدين بالضرورة؛ فمن أنكره فهو كافر خارج عن الإسلام ولو كان معترفاً بأن محمداًﷺ رسول الله للناس كلهم.

وهذا النوع من الإجماع موجبُ العلم الضروري ما أشار إليه جميع علمائنا، ولا يدخل هذا النوع في اختلاف بعضهم في حجِّية الإجماع؛ إذ المختلف في حجيته هو الإجماع المستند لنظر وأدلة اجتهادية بخلاف المتواتر المعلوم بالضرورة.

وفي كلام الغزالي في خاتمة كتاب الاقتصاد في الاعتقاد مخالفة لهذا على ما فيه من قلة تحرير.

وقد حمل عليه ابن عطية حملة غير منصفة، وألزمه إلزاماً فاحشاً ينزه عنه علمه ودينه؛ فرحمة الله عليهما. ٢٢/٤٥

١٠ـ **ولذلك لا يتردد مسلم في تكفير من يثبت نبوةً لأحد بعد محمدﷺ** وفي إخراجه من حظيرة الإسلام، ولا تعرف طائفة من المسلمين أقدمت على ذلك

إلا البابية[١] والبهائية[٢] وهما نحلتان مشتقة ثانيتهما من الأولى.

وكان ظهور الفرقة الأولى في بلاد فارس في حدود ستة مائتين وألف[٣] وتسربت إلى العراق، وكان القائم بها رجلاً من أهل شيراز يدعوه أتباعه السيد علي محمد كذا اشتهر اسمه، كان في أول أمره من غلاة الشيعة الإمامية أخذ عن رجل من المتصوفين اسمه الشيخ أحمد زين الدين الأحسائي الذي كان ينتحل التصوف بالطريقة الباطنية وهي الطريقة المتلقاة عن الحلاج، وكانت طريقته تعرف بالشيخية، ولما اظهر نحلته علي محمد هذا لقب نفسه باب العلم؛ فغلب عليه اسم الباب، وعرفت نحلته بالبابية، وادعى لنفسه النبوءة وزعم أنه أوحي إليه بكتاب اسمه (البيان) وأن القرآن أشار إليه بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾.

وكتاب البيان مؤلف بالعربية الضعيفة، ومخلوط بالفارسية وقد حكم عليه بالقتل سنة ١٢٦٦ في تبريز.

وأما البهائية فهي شعبة من البابية تنسب إلى مؤسسها الملقب ببهاء الله واسمه

---

١ ـ هي فرقه ضالة، ونحلة كافرة، انبثقت من الشيعة الاثني عشرية، وظهرت في القرن الثالث عشر الهجري في إيران، على يد رجل شيعي، يدعى الميرزا علي محمد الشيرازي، الذي ظهر بفكرة الباب إلى المهدي المنتظر. (م)

٢ ـ البهائية هي: فرقة باطنية كافرة ظهرت في إيران في القرن الثالث عشر الهجري على يد حسين علي المازندراني الملقب بالبهاء.

والبهائية هي البابية السابقة؛ ولكنها انتقلت إلى مرحلة جديدة بعد مقتل الباب زعيم البابية؛ فالبهائية قامت على أنقاض البابية. (م)

٣ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: ستة وستين ومائتين وألف. (م)

ميرزا حسين علي من أهل طهران تتلمذ للباب بالمكاتبة، وأخرجته حكومة شاه العجم إلى بغداد بعد قتل الباب، ثم نقلته الدولة العثمانية من بغداد، إلى أدرنة، ثم إلى عكا، وفيما ظهرت نحلته وهم يعتقدون نبوءة الباب، وقد التف حوله أصحاب نحلة البابية وجعلوه خليفة الباب فقام اسمُ البهائية مقامَ اسمِ البابية؛ فالبهائية هم البابية.

وقد كان البهاء بني بناءً في جبل الكرمل؛ ليجعله مدفناً لرفات (الباب) وآلَ أمرُه إلى أن سجنته السلطنة العثمانية في سجن عكا؛ فلبث في السجن سبع سنوات، ولم يطلق من السجن إلا عندما أعلن الدستور التركي؛ فكان في عداد المساجين السياسيين الذين أطلقوا يومئذ، فرحل منتقلاً في أوربا وأمريكا مدة عامين، ثم عاد إلى حيفا فاستقر بها إلى أن توفي سنة ١٣٤٠.

وبعد موته نشأ شقاق بين أبنائه وإخوته؛ فتفرقوا في الزعامة، وتضاءلت نحلتهم.

فمن كان من المسلمين متبعاً للبهائية أو البابية فهو خارج عن الإسلام مرتد عن دينه تجري عليه أحكام المرتد، ولا يرث مسلماً ويرثه جماعة المسلمين، ولا ينفعهم قولهم: «إنا مسلمون» ولا نطقهم بكلمة الشهادة؛ لأنهم يثبتون الرسالة لمحمدﷺ ولكنهم قالوا بمجيء رسول من بعده.

ونحن كَفَّرنا الغُرابية من الشيعة لقولهم: «بأن جبريل أرسل إلى علي، ولكنه شُبِّه له محمد بعلي؛ إذ كان أحدهما أشبه بالآخر من الغراب بالغراب ـوكذبواـ فبلغ الرسالة إلى محمدﷺ».

فهم أثبتوا الرسالة لمحمدﷺ ولكنهم زعموه غير المعين من عند الله.

وتُشْبِهُ طقوسُ البهائية طقوسَ الماسونية إلا أن البهائية تنتسب إلى التلقي من

الوحي الإلهي؛ فبذلك فارقت الماسونية، وعُدَّت في الأديان والملل، ولم تعد في الأحزاب. ٤٥/٢٢ـ٤٧

١١ـ **والسين والتاء في: ﴿يَسْتَنكِحَهَا﴾ ليستا للطلب** بل هما لتأكيد الفعل كقول النابغة:

وهم قتلوا الطائى بالحجر عنوةً ... أبا جابر فاستنكحوا أم جابر

أي بنو حُنٍّ قتلوا أبا جابر الطائى فصارت أم جابر المزوجة بأبي جابر زوجة بني حُنّ، أي زوجة رجل منهم، وهي مثل السين والتاء في قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾. ٦٩/٢٢

١٢ـ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ﴾

لما بين الله في الآياتِ السابقةِ آدابَ النبيﷺ مع أزواجه قفَّاه في هذه الآية بآداب الأمة معهن، و صدر بالإشارة إلى قصة هي سبب نزول هذه الآية، وهي ما في صحيح البخاري و غيره عن أنس بن مالك قال:لما تزوج رسول اللهﷺ زينب ابنة جحش صنع طعاماً بخبز ولحم، ودعا القوم، فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام؛ فلم يقوموا؛ فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ليدخل فإذا القوم جلوس، فجعل النبيﷺ يخرج ثم يرجع، فانطلق إلى حجرة عائشة، فَتَقَرَّى حِجَرَ نسائه كلِّهن يسلم عليهن، ويسلمن عليه، ويدعون له، ثم إنهم قاموا، فانطلقت، فجئت، فأخبرت النبيﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لاَ تَدْخُلُوْا بُيُوْتَ النَّبِيِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ .

وفي حديث آخر في الصحيح عن أنس ـ أيضاً ـ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له : « يا رسول الله يدخل عليك البر و الفاجر ، فلو أمرت أمهاتِ المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب » .

وليس بين الخبرين تعارضٌ؛ لجواز أن يكون قول عمر كان قبل البناء بزينب بقليل ، ثم عقبته قصة وليمة زينب ، فنزلت الآية بإثرها.

وابتدئ شرعُ الحجاب بالنهي عن دخول بيوت النبي ﷺ إلا لطعام دعاهم إليه؛ لأن النبي ـ عليه الصلاة و السلام ـ له مجلس يجلس في المسجد؛ فمن كان له مهم عنده يأتيه هنالك.

وليس ذكر الدعوة إلى طعام تقييداً لإباحة دخول بيوت النبي ﷺ لا يدخلها إلا المدعو إلى طعام ، و لكنه مثالٌ للدعوة ، و تخصيصٌ بالذكر كما جرى في القضية التي هي سبب النزول ، فيلحق به كل دعوة تكون من النبي ﷺ وكل إذن منه بالدخول إلى بيته لغير قصد أن يطعم معه كما كان يقع ذلك كثيراً.

ومن ذلك قصة أبي هريرة حين استقرأ من عمر آية من القرآن وهو يطمع أن يدعوه عمر إلى الغداء ، ففتح عليه الآية ، فإذا رسول الله قائم على رأس أبي هريرة وقد عرف ما به ، فانطلق به إلى بيته ، و أمر له بعُسٍّ من لبن ثم ثانٍ ، ثم ثالث ، وإنما ذكر الطعام ، إدماجاً؛ لتبيين آدابه ، ولذلك ابتدئ بقوله : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ مع أنه لم يقع مثله في قصة سبب النزول. ٢٢/٨١ـ٨٢

١٣ـ قال حماد بن زيد و إسماعيل بن أبي حكيم : هذه الآية أدبٌ أدَّبَ الله به الثقلاء.

وقال ابن أبي عائشة: حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم.

ومعنى الثقل فيه هو إدخال أَحَدٍ القلقَ والغمَّ على غيره من جراء عمل لفائدة العامل، أو لعدم الشعور بما يلحق غيره من الحرج من جراء ذلك العمل.

وهو من مساوي الخلق، لأنه إن كان من عمد كان ضراً بالناس، وهو منهي عنه؛ لأنه من الأذى وهو ذريعة للتباغض عند نفاذ صبر المضرور؛ فإن النفوس متفاوتة في مقدار تحمل الأذى، ولأن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه؛ فعليه إذا أحس بأن قوله أو فعله يدخل الغم على غيره أن يكف عن ذلك ولو كان يجتني منه منفعة لنفسه؛ إذ لا يضر بأحد؛ لينتفع غيره إلا أن يكون لمن يأتي بالعمل حق على الآخر؛ فإن له طلبه مع أنه مأمور بحسن التقاضي، وإن كان إدخاله الغم على غيره عن غباوة وقلة تفطن له فإنه مذموم في ذاته، وهو يصل إلى حد يكون الشعور به بديهياً.

وللحكماء والشعراء أقوال كثيرة في الثقلاء طفحت بها كتب أدب الأخلاق.

ومعاملة الناس النبيﷺ بهذا الخلق أشدُّ بعداً عن الأدب؛ لأن للنبي ﷺ أوقاتاً لا تخلو ساعة منها عن الاشتغال بصلاح الأمة، ويجب أن لا يشغل أحدٌ أوقاته إلا بإذنه، ولذلك قال ـ تعالى ـ: ﴿إلا أن يأذن لكم﴾. ٢٢/٨٤ـ٨٥

١٤ـ وفي هذه الآية دليل على أن طعام الوليمة وطعام الضيافة ملك للمتضيف، وليس ملكاً للمدعوين، ولا للأضياف؛ لأنهم إنما أذن لهم في الأكل منه خاصة، ولم يملكوه؛ فلذلك لا يجوز لأحد رفع شيء من ذلك الطعام معه. ٢٢/٨٥

١٥ـ واعلم أن في ورود: ﴿يُؤْذِي﴾ هنا ما يبطل المثال الذي أورده ابن الأثير

في كتاب المثل السائر شاهداً على أن الكلمة قد تروق السامع في كلام، ثم تكون هي بعينها مكروهة للسامع، وجاء بكلمة: ﴿يؤذي﴾ في هذه الآية، ونظيرها (تؤذي) في قول المتنبي:

تلذ له المروءة وهي تُوذي

وزعم أن وجودها في البيت يحط من قدر المعنى الشريف الذي تضمنه البيت، وأحال في الجزم بذلك على الطبع السليم، ولا أحسب هذا الحكم إلا غضباً من ابن الأثير لا تسوغه صناعة ولا يشهد به ذوق، ولقد صرف أئِمة الأدب همهم إلى بحث شعر المتنبي ونقده؛ فلم يَعُدَّ عليه أحدٌ منهم هذا منتقداً، مع اعتراف ابن الأثير بأن معنى البيت شريف؛ فلم يبقَ له إلا أن يزعم أن كراهة هذا اللفظ فيه راجعة إلى أمر لفظي من الفصاحة، وليس في البيت شيءٌ من الإخلال بالفصاحة، وكأنه أراد أن يقفي على قدم الشيخ عبدالقاهر فيما ذكر في الفصل الذي جعله ثانياً من كتاب دلائل الإعجاز؛ فإن ما انتقده الشيخ في ذلك الفصل من مواقع بعض الكلمات لا يخلو من رجوع نقده إياها إلى أصول الفصاحة أو أصول تناسب معاني الكلمات بعضها مع بعض في نظم الكلام، وشتان ما بين الصنعتين. ٢٢/٨٩ـ٩٠

١٦ـ ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

والمعنى: ذلك أقوى طهارة لقلوبكم وقلوبهن؛ فإن قلوب الفريقين طاهرة بالتقوى وتعظيم حرمات الله وحرمة النبيﷺ.

ولكن لما كانت التقوى لا تصل بهم إلى درجة العصمة أراد الله أن يزيدهم

منها بما يكسب المؤمنين مراتب من الحفظ الإلهي من الخواطر الشيطانية بقطع أضعف أسبابها، وما يقرِّب أمهات المؤمنين من مرتبة العصمة الثابتة لزوجهن ﷺ فإن الطيبات للطيبين بقطع الخواطر الشيطانية عنهن بقطع دابرها ولو بالفرض.

وأيضاً فإن للناس أوهاماً وظنوناً سُوأى تتفاوت مراتب نفوس الناس فيها صرامةً، ووهناً، ونفاقاً، وضعفاً، كما وقع في قضية الإفك المتقدمة في سورة النور؛ فكان شرع حجاب أمهات المؤمنين قاطعاً لكل تَقَوُّلٍ وإرجاف بعمد أو بغير عمد.

ووراء هذه الحكم كلِّها حكمةٌ أخرى سامية وهي زيادة تقرير أمومتهن للمؤمنين في قلوب المؤمنين التي هي أمومة جَعْلية شرعية بحيث أن ذلك المعنى الجعلي الروحي وهو كونهن فلانة أو فلانة؛ فيصبحن غير متصورات إلا بعنوان الأمومة؛ فلا يزال ذلك المعنى الروحي ينمي في النفوس، ولا تزال الصورة الحسية تتضاءل من القوة المدركة حتى يصبح معنى أمهات المؤمنين معنى قريباً في النفوس من حقائق المجردات كالملائكة، وهذه حكمة من حكم الحجاب الذي سنه الناس لملوكهم في القدم؛ ليكون ذلك أدخل لطاعتهم في نفوس الرعية. **٢٢/٩١-٩٢**

١٧ - ﴿ إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥٤) ﴾.

كلامٌ جامعٌ تحريضاً وتحذيراً، ومنبئٌ عن وعد ووعيد؛ فإن ما قبله قد حوى أمراً ونهياً، وإذ كان الامتثال متفاوتاً في الظاهر والباطن، وبخاصة في النوايا والمضمرات كان المقام مناسباً لتنبيههم بأن الله مطلع على كل حال من أحوالهم في ذلك، وعلى كل شيء؛ فالمراد من: ﴿شَيْئاً﴾ الأول شيء مما يبدونه أو يخفونه وهو يعم كل ما يبدو وما يخفى؛ لأن النكرة في سياق الشرط تعم، والجملة تذييل

لما اشتملت عليه من العموم في قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وإظهار لفظ شيء هنا دون إضمار؛ لأن الإضمار لا يستقيم؛ لأن الشيء المذكور ثانياً هو غير المذكور أولاً؛ إذ المراد بالثاني جميع الموجودات ـ والمراد بالأول خصوص أحوال الناس الظاهرة والباطنة؛ فالله عليم بكل كائن ومن جملة ذلك ما يبدونه ويخفونه من أحوالهم. ٩٥/٢٢

١٨ـ وجملة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ هي المقصودة، وما قبلها توطئة لها وتمهيداً؛ لأن الله لما حذَّر المؤمنين من كل ما يؤذي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعقبه بأن ذلك ليس هو أقصى حظِّهم من معاملة رسولهم أن يتركوا أذاه، بل حظهم أكبر من ذلك، وهو أن يصلوا عليه ويسلموا، وذلك هو إكرامهم لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما بينهم وبين ربهم؛ فهو يدل على وجوب إكرامه في أقوالهم وأفعالهم بحضرته بدلالة الفحوى، فجملة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمنزلة النتيجة الواقعة بعد التمهيد.

وجيء في صلاة الله وملائكته بالمضارع الدال على التجديد والتكرير؛ ليكون أمر المؤمنين بالصلاة عليه والتسليم عقب ذلك مشيراً إلى تكرير ذلك منهم أسوة بصلاة الله وملائكته. ٩٧/٢٢

١٩ـ وقوله: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ القول فيه كالقول في: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ حكماً ومكاناً وصفةً؛ فإن صفته حُدِّدت بقول النبيﷺ: «**والسلام كما قد علمتم**».

فإن المعلوم هو صيغته التي في التشهد «**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**» وكان ابن عمر يقول فيه بعد وفاة النبيﷺ: «**السلام على النبي**

ورحمة الله وبركاته».

والجمهور أبقوا لفظه على اللفظ الذي كان في حياة النبي ـعليه الصلاة والسلامـ رعياً لما ورد عن النبي ـعليه الصلاة والسلامـ أنه حي يبلغه تسليم أمته عليه.

ومن أجل هذا المعنى أبقيت له صيغة التسليم على الأحياء وهي الصيغة التي يتقدم فيها لفظ التسليم على المتعلق به؛ لأن التسليم على الأموات يكون بتقديم المجرور على لفظ السلام.

وقد قال رسول الله للذي سلم فقال: عليك السلام يا رسول الله فقال له: «**إن عليك السلام تحية الموتى، فقل: السلام عليك**».

والتسليم مشهور في أنه التحية بالسلام، والسلام فيه بمعنى الأمان والسلامة، وجُعِل تحية في الأولين عند اللقاء مبادأة بالتأمين من الاعتداء والثار ونحو ذلك؛ إذ كانوا إذ اتقوا أحداً توجسوا خيفة أن يكون مضمراً شراً لملاقيه، فكلاهما يدفع ذلك الخوف بالإخبار بأنه مُلْقٍ على ملاقيه سلامة وأمناً، ثم شاع ذلك حتى صار هذا اللفظ دالاً على الكرامة والتلطف، قال النابغة:

أتاركـــة تدللـــها قطـــام وضـنـا بالتحيـة والسـلام

٢٢/١٠١ـ١٠٢

٢٠ـ والآية تضمنت الأمر بشيئين: الصلاة على النبيﷺ والتسليم عليه، ولم تقتض جمعهما في كلام واحد وهما مُفَرَّقان في كلمات التشهد؛ فالمسلم مخير بين أن يقرن بين الصلاة والتسليم بأن يقول: «صلى الله على محمد والسلام عليه» أو أن يقول: «اللهم صلِّ على محمد والسلام على محمد» فيأتي في جانب التصلية

بصيغة طلب ذلك من الله، وفي جانب التسليم بصيغة إنشاء السلام بمنزلة التحية له، وبين أن يفرد الصلاة، ويفرد التسليم وهو ظاهر الحديث الذي رواه عياض في الشفاء أن النبيﷺ قال: «**لقيت جبريل فقال لي: أبشرك أن الله يقول: من سلم عليك سلمت عليه، ومن صلى عليك صليت عليه**».

وعن النووي أنه قال بكراهة إفراد الصلاة والتسليم، وقال ابن حجر: «لعله أراد خلاف الأولى».

وفي الاعتذار والمعتذر عنه نظر؛ إذ لا دليل على ذلك.

وأما أن يقال: «اللهم سلِّم على محمد» فليس بوارد فيه مسند صحيح ولا حسن عن النبيﷺ ولم يرد عنه إلا بصيغة إنشاء السلام مثل ما في التحية، ولكنهم تسامحوا في حالة الاقتران بين التصلية والتسليم فقالوا: «صلى الله عليه وسلم» لقصد الاختصار فيما نرى.

وقد استمر عليه عمل الناس من أهل العلم والفضل وفي حديث أسماء بنت أبي بكر المتقدم أنها قالت: «صلى الله على محمد وسلم».

ومعنى تسليمِ الله عليه إكرامُه، وتعظيمه؛ فإن السلام كناية عن ذلك.

وقد استحسن أئمة السلف أن يجعل الدعاء بالصلاة مخصوصاً بالنبيﷺ.

وعن مالك: لا يصلى على غير نبينا من الأنبياء يريد أن تلك هي السنة، وروي مثله عن ابن عباس، وروي عن عمر بن عبدالعزيز: أن الصلاة خاصة بالنبيين كلهم. ٢٢/١٠٢ـ١٠٣

٢١ـ **وأنه يجوز إتباع آلهم وأصحابهم** وصالحي المؤمنين إياهم في ذلك دون استقلال.

هذا الذي استقر عليه اصطلاح أهل السنة، ولم يقصدوا بذلك تحريماً، ولكنه اصطلاح، وتمييز لمراتب رجال الدين، كما قصروا الرضى على الأصحاب وأئمة الدين، وقصروا كلمات الإجلال نحو: تبارك وتعالى، وجل جلاله، على الخالق دون الأنبياء والرسل.

وأما الشيعة فإنهم يذكرون التسليم على علي وفاطمة وآلهما، وهو مخالف لعمل السلف؛ فلا ينبغي اتباعهم فيه؛ لأنهم قصدوا به الغض من الخلفاء والصحابة. ١٠٣/٢٢

٢٢ـ **والإرجاف:** إشاعة الأخبار.

وفيه معنى كون الأخبار كاذبة أو مسيئة لأصحابها يعيدونها في المجالس؛ ليطمئن السامعون لها مرة بعد مرة بأنها صادقة؛ لأن الإشاعة إنما تقصد للترويج بشيء غير واقع أو مما لا يصدق به لاشتقاق ذلك من الرجف والرجفان وهو الاضطراب والتزلزل.

فالمرجفون قوم يتلقون الأخبار فيحدثون بها في مجالس ونواد ويخبرون بها من يسأل ومن لا يسأل. ١٠٨/٢٢

٢٣ـ **والوجيه:** صفة مُشَبَّهة، أي ذو الوجاهة، وهي الجاه، وحسن القبول عند الناس، يُقال: وجُه الرجل، بضم الجيم، وجاهة فهو وجيه.

وهذا الفعل مشتق من الاسم الجامد وهو الوجه الذي للإنسان، فمعنى كونه وجيهاً عند الله أنه مرضي عنه، مقبول، مغفور له، مستجاب الدعوة. ١٢١/٢٢

٢٤ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١)﴾.

بعد أن نهى الله المسلمين عما يؤذي النبيﷺ وربأ بهم عن أن يكونوا مثل الذين آذوا رسولهم ـ وجَّه إليهم بعد ذلك نداءً بأن يتَّسموا بالتقوى، وسداد القول؛ لأن فائدة النهي عن المناكر التلبسُ بالمحامد، والتقوى جماع الخير في العمل والقول، والقول السديد مَبَثُّ الفضائل.

وابتداء الكلام بنداء الذين آمنوا للاهتمام به، واستجلاب الإصغاء إليه؛ ونداؤهم بالذين آمنوا لما فيه من الإيماء إلى أن الإيمان يقتضي ما سيؤمرون به؛ ففيه تعريض بأن الذين يصدر منهم ما يؤذي النبيﷺ قصداً ليسوا من المؤمنين في باطن الأمر ولكنهم منافقون، وتقديم الأمر بالتقوى مشعر بأن ما سيؤمرون به من سديد القول هو من شُعَب التقوى كما هو من شعب الإيمان.

والقول: الكلام الذي يصدر من فم الإنسان يعبر عما في نفسه.

والسديد: الذي يوافق السداد.

والسداد: الصواب، والحق، ومنه تسديد السهم نحو الرمية، أي عدم العدول به عن سمتها بحيث إذا اندفع أصابها؛ فشمل القولُ السديدُ الأقوالَ الواجبةَ، والأقوالَ الصالحةَ النافعةَ مثل ابتداء السلام، وقول المؤمن للمؤمن الذي يحبه: إني أحبك.

والقول يكون باباً عظيماً من أبواب الخير ويكون كذلك من أبواب الشر.

وفي الحديث: «**وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم**».

وفي الحديث الآخر: «**رحم الله امرأ قال خيراً فغنم أو سكت فسلم**».

وفي الحديث الآخر: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**».

ويشمل القول السديد ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء، وما هو تبليغ لإرشاد غيره من مأثور أقوال الأنبياء والعلماء.

فقراءة القرآن على الناس من القول السديد، ورواية حديث الرسولﷺ من القول السديد.

وفي الحديث: «**نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها**».

وكذلك نشر أقوال الصحابة والحكماء وأئمة الفقه.

ومن القول السديد تمجيد الله، والثناء عليه مثل التسبيح.

ومن القول السديد الأذان والإقامة، قال ـتعالىـ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ في سورة فاطر.

فبالقول السديد تَشيع الفضائلُ والحقائق بين الناس؛ فيرغبون في التخلق بها، وبالقول السيئ تشيع الضلالات والتمويهات؛ فيغتر الناس بها، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

والقول السديد يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولما في التقوى والقول السديد من وسائل الصلاح جعل للآتي بهما جزاء بإصلاح الأعمال، ومغفرة الذنوب.

وهو نَشْرٌ على عكس اللفِّ[١] فإصلاح الأعمال جزاء على القول السديد؛ لأن أكثر ما يفيده القولُ السديدُ إرشادَ الناس إلى الصلاح، أو اقتداء الناس بصاحب القول السديد.

وغفرانُ الذنوبِ جزاءٌ على التقوى؛ لأن عمود التقوى اجتناب الكبائر، وقد غفر الله للناس الصغائر باجتناب الكبائر، وغفر لهم الكبائر بالتوبة، والتحول عن المعاصي بعد الهم بها ضربٌ من مغفرتها. ٢٢/١٢١ـ١٢٣

٢٥ـ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾.

فحقيق بنا أن نقول: إن هذا العرض كان في مبدأ تكوين العالم ونوع الإنسان؛ لأنه لما ذُكرت فيه السماوات والأرض والجبال مع الإنسان عُلِمَ أن المرادَ بالإنسان نوعُه؛ لأنه لو أريد بعض أفراده ـولو في أول النشأةـ لما كان في تحمل ذلك الفرد الأمانة ارتباط بتعذيب المنافقين والمشركين، ولَمَّا كان في تحمل بعض أفراده دون بعض الأمانة حكمةٌ مناسبة لتصرفات الله ـتعالىـ. ٢٢/١٢٥

---

١ ـ اللف والنشر: يسميهما بعض البلاغيين الطي والنشر، وهو أحد فنون علم البديع من علم البلاغة، ويعني أن تذكر شيئين فصاعداً إما تفصيلاً؛ فتنص على كل واحد منهما، وإما إجمالاً؛ فتأتي بلفظ واحد يشتمل على متعدد وتفوض إلى العقل رد كل واحد إلى ما يليق به من غير حاجة إلى أن تنص أنت على ذلك.

أو هو ـبعبارة أخرىـ: ذكر متعدد مفصل أو مجمل، ثم ذكر ما لكلٍّ من آحاده بلا تعيين؛ اتكالاً على أن السامع يَرُدَّ إلى كلٍّ ما يليق به لوضوح الحال.

ومن أمثلته قوله ـتعالىـ: ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوْا فِيْهِ وَلِتَبْتَغُوْا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فالسكون راجع إلى الليل، والابتغاء من فضل الله راجع إلى النهار على الترتيب، وهكذا.

ولهذا الفن تفصيلات ليس هذا محل تفصيلها. (م)

٢٦ـ وقد عُدّت هذه الآية من مشكلات القرآن، وتردد المفسرون في تأويلها تردداً دل على الحيرة في تقويم معناها.

ومرجع ذلك إلى تقويم معنى العرض على السماوات والأرض والجبال، وإلى معرفة معنى الأمانة، ومعرفة معنى الإباء والإشفاق.

فأما العرض فقد استبانت معانيه بما علمتَ من طريقة التمثيل، وأما الأمانة فهي ما يؤتمن عليه، ويطالب بحفظه والوفاء دون إضاعة ولا إجحاف.

وقد اختلف فيها المفسرون على عشرين قولاً، وبعضها متداخل في بعض، ولنبتدئ بالإلمام بها، ثم نعطف إلى تمحيصها وبيانها.

فقيل: الأمانةُ: الطاعة، وقيل: الصلاة، وقيل: مجموع الصلاة والصوم والاغتسال، وقيل: جميع الفرائض، وقيل الانقياد إلى الدين، وقيل: حفظ الفرج، وقيل: الأمانة: التوحيد، أو دلائل الوحدانية، أو تجليات الله بأسمائه، وقيل: ما يؤتمن عليه، ومنه الوفاء بالعهد، ومنه انتفاء الغش بالعمل، وقيل: الأمانة: العقل، وقيل: الخلافة، أي خلافة الله في الأرض التي أودعها الإنسان كما قال ـتعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الآية.

وهذه الأقوال ترجع إلى أصناف: صنف الطاعات والشرائع، وصنف العقائد، وصنف ضد الخيانة، وصنف العقل، وصنف خلافة الأرض.

ويجب أن يطرح منها صنف الشرائع؛ لأنها ليست لازمة لفطرة الإنسان؛ فطالما خلت أمم عن التكليف بالشرائع وهم أهل الفتَر فتسقط ستة أقوال وهي ما في الصنف الأول.

ويبقى سائر الأصناف؛ لأنها مرتكزة في طبع الإنسان وفطرته؛ فيجوز أن تكون الأمانة أمانة الإيمان، أي توحيد الله، وهي العهد الذي أخذه الله على جنس بني آدم وهو الذي في قوله ـتعالىـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾.

وتقدم في سورة الأعراف.

فالمعنى: أن الله أودع في نفوس الناس دلائل الوحدانية فهي ملازمة للفكر البشري؛ فكأنها عهْد عَهِد الله لهم به، وكأنه أمانة ائتمنهم عليها؛ لأنه أودعها في الجِبِلَّة ملازمة لها، وهذه الأمانة لم تودع في السماوات والأرض والجبال؛ لأن هذه الأمانة من قبيل المعارف، والمعارفُ من العلم الذي لا يتصف به إلا من قامت به صفة الحياة، لأنها مُصَحِّحةُ الإدراك لمن قامت به، ويناسب هذا المحمل قوله: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾.

فإن هذين الفريقين خالون من الإيمان بوحدانية الله.

ويجوز أن تكون الأمانة هي العقل، وتسميته أمانةً تعظيم لشأنه، ولأن الأشياء النفسية تودع عند من يحتفظ بها.

والمعنى: أن الحكمة اقتضت أن يكون الإنسان مستودع العقل من بين الموجودات العظيمة؛ لأنَّ خلقته ملائمة لأَنْ يكونَ عاقلاً؛ فإنَّ العقل يبعث على التغير والانتقال من حال إلى حال ومن مكان إلى غيره، فلو جعل ذلك في سماء من السماوات أو في الأرض، أو في جبل من الجبال، أو جميعها ـ لكان سبباً في اضطراب العوالم واندكاكها.

وأقرب الموجودات التي تحمل العقل أنواع الحيوان ما عدا الإنسان، فلو أودع

فيها العقل لما سمحت هيئات أجسامها بمطاوعة ما يأمرها العقل به؛ فلنفرض أن العقل يسوِّل للفرس أن لا ينتظر علفه أو سومه، وأن يخرج إلى حَنَّاط يشتري منه علفاً؛ فإنه لا يستطيع إفصاحاً، ويضيع في الإفهام، ثم لا يتمكن من تسليم العوض بيده إلى فرس غيره، وكذلك إذا كانت معاملته مع أحد من نوع الإنسان.

ومناسبة قوله: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ﴾ الآية لهذا المحمل نظير مناسبته للمحمل الأول.

ويجوز أن تكون الأمانة ما يؤتمن عليه، وذلك أن الإنسان مَدَنِيٌّ بالطبع، مخالط لبني جنسه؛ فهو لا يخلو عن ائتمان أو أمانة؛ فكان الإنسان متحملاً لصفة الأمانة بفطرته والناس متفاوتون في الوفاء لما ائتمنوا عليه كما في الحديث: «**إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة**» أي إذا انقرضت الأمانة كان انقراضها علامةً على اختلال الفطرة؛ فكان في جملة الاختلالات المنذرة بدنو الساعة مثل تكوير الشمس، وانكدار النجوم، ودك الجبال.

والذي بَيَّن هذا المعنى قول حذيفة: «**حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الأخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة، وحدثنا عن رفعها فقال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكْت[1] ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المَجْل[2] كجمر دحرجته على رجلك، فنفط، فتراه**

١ـ الوكت: الشية في الشيء من غير لونه.

٢ـ المجل: نفاخة في الجلد مرتفعة يكون ما تحتها فارغاً مثل ما يقع في أَكُفِّ العَمَلَةِ بالفؤوس من ارتفاعات في الجلد.

منتبراً وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون، ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان».

أي من أمانة لأن الإيمان من الأمانة؛ لأنه عهد الله.

ومعنى عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض والجبال يندرج في معنى تفسير الأمانة بالعقل؛ لأن الأمانة بهذا المعنى من الأخلاق التي يجمعها العقل ويصرّفها، وحينئذ فتخصيصها بالذكر للتنبيه على أهميتها في أخلاق العقل.

والقول في حمل معنى الأمانة على خلافة الله ـتعالى ـ في الأرض مثل القول في العقل؛ لأن تلك الخلافة ما هَيَّأ الإنسان لها إلا العقل كما أشار إليه قوله ـتعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ثم قوله ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

فالخلافة في الأرض هي القيام بحفظ عمرانها ووضع الموجودات فيها في مواضعها، واستعمالها فيما استعدت إليه غرائزها.

وبقية الأمور التي فسر بها بعض المفسرون الأمانة يعتبر تفسيرها من قبيل ذكر الأمثلة الجزئية للمعاني الكلية.

والمتبادر من هذه المحامل أن يكون المراد بالأمانة حقيقتها المعلومة، وهي الحفاظ على ما عُهد به، ورعْيُه والحذارُ من الإخلال به سهواً أو تقصيراً؛ فيسمى تفريطاً وإضاعة، أو عمداً؛ فيسمى خيانة وخَيْساً؛ لأن هذا المحمل هو المناسب لورود هذه الآية في ختام السورة التي ابتدئت بوصف خيانة المنافقين واليهود و إخلالهم بالعهود وتلونهم مع النبيﷺ قال ـتعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا

يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ﴾ وقال: ﴿مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

وهذا المحمل يتضمن -أيضاً- أقرب المحامل بعده وهو أن يكون هي العقل؛ لأن قبول الأخلاق فرع عنه. ٢٢/١٢٦-١٢٩

سورة سبأ

١ـ **هذا اسمها** الذي اشتهرت به في كتب السنة وكتب التفسير وبين القراء ولم أقف على تسميتها في عصر النبوة.

ووجه تسميتها به أنها ذكرت فيها قصة أهل سبأ.

وهي مكية وحُكي اتفاق أهل التفسير عليه.

وعن مقاتل أن آية: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ إلى قوله: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ نزلت بالمدينة. ١٣٣/٢٢

٢ـ **وهي السورة الثامنة والخمسون في عداد السور،** نزلت بعد سورة لقمان وقبل سورة الزمر كما في المروي عن جابر بن زيد واعتمد عليه الجعبري كما في الإتقان، وقد تقدم في سورة الإسراء أن قوله ـتعالىـ فيها: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ إنهم عنوا قوله ـتعالىـ في هذه السورة: ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمْ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنْ السَّمَاءِ﴾.

فاقتضى أن سورة سبأ نزلت قبل سورة الإسراء وهو خلاف ترتيب جابر بن زيد الذي يعد الإسراء متممة الخمسين.

وليس يتعين أن يكون قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ معنيّاً به هذه الآية؛ لجواز أن يكون النبيﷺ هددهم بذلك في موعظة أخرى.

وعدد آيها أربع وخمسون في عد الجمهور، وخمس وخمسون في عد أهل الشام. ١٣٣/٢٢ـ١٣٤

٣ـ من أغراض هذه السورة: إبطالُ قواعدِ الشرك وأعظمُها إشراكهم آلهةً مع الله، وإنكارُ البعث؛ فابتدئ بدليل على انفراده ـتعالىـ بالإلهية عن أصنامهم ونفي أن تكون الأصنامُ شفعاءَ لِعُبَّادها.

ثم موضوعُ البعث، وعن مقاتل: «أن سببَ نزولها أن أبا سفيانَ لما سمع قوله ـتعالىـ: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ الآية الأخيرة من سورة الأحزاب ـ قال لأصحابه: كأن محمداً يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت، واللاتِ والعزى لا تأتينا الساعة أبداً، فأنزل الله ـتعالىـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾» الآية.

وعليه فما قبل الآية المذكورة من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ تمهيدٌ للمقصود من قوله: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾.

واثباتُ إحاطةِ عِلْمِ اللهِ بما في السماوات وما في الأرض؛ فما يخبر به فهو واقع ومن ذلك إثبات البعث والجزاء.

وإثباتُ صدقِ النبيِّ ﷺ فيما أخبر به، وصِدْقُ ما جاء به القرآنُ، وأن القرآنَ شَهِدَتْ به علماءُ أهلِ الكتاب.

وتخلل ذلك بضروب مِنْ تهديدِ المشركين وموعظتهم بما حل ببعض الأمم المشركين مِنْ قَبْل.

وعَرَّضَ بأن جَعْلَهم لله شركاءَ كفرانٌ لنعمةِ الخالق؛ فَضَرَبَ لهم المثلَ بمن شكروا نعمةَ اللهِ واتقوه؛ فَأُوتوا خيرَ الدنيا والآخرة، وسُخِّرَتْ لهم الخيراتُ مِثْلِ داودَ وسليمانَ، وبمن كفروا بالله؛ فسلَّط عليه الأرزاءَ في الدنيا وأَعَدَّ لهم العذاب

في الآخرة مثلِ سبأ، وحذِّروا من الشيطان، وذُكِّروا بأن ما هم فيه من قرة العين يقربهم إلى الله، وأنذروا بما سيلقون يوم الجزاء مِنْ خِزْيٍ، وتكذيبٍ، وندامةٍ، وعدم النصيرِ، وخلود في العذاب، وبُشِّر المؤمنون بالنعيم المقيم. ٢٢/١٣٤ـ١٣٥

٤ـ واعلم أن كلمتي: ﴿يَلِجُ﴾ و﴿يَخْرُجُ﴾ أوضح ما يُعَبِّر به عن أحوال جميع الموجودات الأرضية بالنسبة إلى اتصالها بالأرض، وأن كلمتي: ﴿يَنزِلُ﴾ و﴿يَعْرُجُ﴾ أوضح ما يعبَّر به عن أحوال الموجودات السماوية بالنسبة إلى اتصالها بالسماء، من كلمات اللغة التي تدل على المعاني الموضوعة للدلالة عليها دلالة مطابقية على الحقيقة دون المجاز ودون الكناية، ولذلك لم يعطف السماء على الأرض في الآية فلم يقل: يعلم ما يلج في الأرض والسماء، وما يخرج منهما، ولم يُكتَفَ بإحدى الجملتين عن الأخرى.

وقد لاح لي أن هذه الآية ينبغي أن تجعل من الإنشاء مثل ما اصطلح على تسميته بصراحة اللفظ.

ولذلك ألحقتها بكتابي: «أصول الإنشاء والخطابة» بعد تفرق نسخه بالطبع، وسيأتي نظير هذه في أول سورة الحديد. ٢٢/١٣٧ـ١٣٨

٥ـ ولما كان من جملة أحوال ما في الأرض أعمالُ الناس وأحوالُهم من عقائد وسير، ومما يعرج في السماء العمل الصالح والكَلِم الطيب ـ أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أي الواسع الرحمة، والواسع المغفرة.

وهذا إجمالٌ قُصِدَ منه حثُّ الناس على طلب أسباب الرحمة والمغفرة المرغوب فيهما؛ فإن من رغب في تحصيل شيء بحث عن وسائل تحصيله، وسعى إليها.

وفيه تعريض بالمشركين أن يتوبوا عن الشرك فيغفر لهم ما قدموه. **١٣٨/٢٢**

٦ ـ وبهذا تتبين أن إرادة علماء أهل الكتاب من هذه الآية لا يقتضي أن تكون نازلة بالمدينة حتى يتوهم الذين توهموا أن هذه الآية مستثناة من مكيات السورة كما تقدم.

والأظهر أن المراد من ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ من آمنوا بالنبيﷺ من أهل مكة لأنهم أوتوا القرآن، وفيه علم عظيم هم عالموه على تفاضلهم في فهمه والاستنباط منه؛ فقد كان الواحد من أهل مكة يكون فظّاً غليظاً حتى إذا أسلم رق قلبه، وامتلأ صدره بالحكمة، وانشرح لشرائع الإسلام، واهتدى إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم.

وأول مثال لهؤلاء، وأشهره، وأفضله هو عمر بن الخطاب، لِلْبَوْنِ البعيد بين حالتيه في الجاهلية والإسلام.

وهذا ما أعرب عنه قول أبي خراش الهذلي خالطاً فيه الجد بالهزل:

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل

فإنهم كانوا إذا لقوا النبيﷺ أشرقت عليهم أنوار النبوة؛ فملأتهم حكمة وتقوى.

وقد قال النبيﷺ لأحد أصحابه: «**لو كنتم في بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة بأجنحتها**».

وبفضل ذلك ساسوا الأمة، وافتتحوا الممالك، وأقاموا العدل بين الناس مسلمهم وذمِّيهم، ومُعَاهَدِهم، وملأوا أعين ملوك الأرض مهابة.

وعلى هذا المحمل حمل ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ في سورة الحج، ويؤيده قوله

ـتعالىـ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ﴾ في سورة الروم. ٢٢/١٤٥ـ١٤٦

٧ـ **ولم تكن التماثيل المجسمة محرمة الاستعمال في الشرائع السابقة وقد حرمها الإسلام**؛ لأن الإسلام أمعن في قطع دابر الإشراك لشدة تمكن الإشراك من نفوس العرب وغيرهم.

وكان معظم الأصنام تماثيل فحرم الإسلام اتخاذها لذلك، ولم يكن تحريماً لأجل اشتمالها على مفسدة في ذاتها، ولكن لكونها كانت ذريعة للإشراك.

واتفق الفقهاء على تحريم اتخاذ ما له ظل من تماثيل ذوات الروح إذا كانت مستكملة الأعضاء التي لا يعيش ذو الروح بدونها، وعلى كراهة ما عدا ذلك مثل التماثيل المنصفة، ومثل الصور التي على الجدران، وعلى الأوراق، والرقم في الثوب، ولا ما يجلس عليه ويداس، وحكم صنعها يتبع اتخاذها.

ووقعت الرخصة في اتخاذ صور تلعب بها البنات؛ لفائدة اعتيادهن العملَ بأمور البيت. ٢٢/١٦٢

٨ـ **و﴿الْعَرِمِ﴾**: يجوز أن يكون وصفاً من العرامة وهي الشدة والكثرة فتكون إضافة (السيل) إلى (العرم) من إضافة الموصوف إلى الصفة.

ويجوز أن يكون (العرم) اسماً للسيل الذين كان يَنْصَبُّ في السد، فتكون الإضافة من إضافة المسمى إلى الاسم، أي السيل العرم.

وكانت للسيول والأودية في بلاد العرب أسماء كقولهم: سيل مهزور ومذينيب الذي كانت تسقى به حدائق المدينة، ويدل على هذا المعنى قول الأعشى:

ومأرب عفَّى عليها العرم

وقيل: (العرم) اسم جمع عرَمَة بوزن شجرة، وقيل لا واحد له من لفظه وهو ما بني ليمسك الماء لغة يمنية وحبشية، وهي المسناة بلغة أهل الحجاز، والمسناة بوزن مفعلة التي هي اسم الآلة مشتق من سنيت بمعنى سقيت،ومنه سميت الساقية سانية وهي الدلو المستقى به والإضافة على هذين أصيلة.

والمعنى: أرسلنا السيل الذي كان مخزوناً في السد.

وكان لأهل سبأ سد عظيم قرب بلاد مأرب يعرف بسد مأرب ـومأرب من كور[1] اليمن ـ.

وكان أعظم السداد في بلاد اليمن التي كانت فيها سداد كثيرة متفرقة، وكانوا جعلوا هذه السداد لخزن الماء الذي تأتي به السيول في وقت نزول الأمطار في الشتاء والربيع؛ ليسقوا منها المزارع والجنات في وقت انحباس الأمطار في الصيف والخريف، فكانوا يعمدون إلى ممرات السيول من بين الجبال، فيبنون في ممر الماء سوراً من صخور يبنونها بناء محكماً يصبون في الشقوق التي بين الصخور القار حتى تلتئم، فينحبس الماء الذي يسقط هنالك حتى إذا امتلأ الخزان جعلوا بجانبيه جَوابيَ عظيمةً يصب فيها الماء يفيض من أعلى السد، فيقيمون من ذلك ما يستطيعون من توفير الماء المختزن.

وكان سد مأرب الذي يحفظ فيه: ﴿ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ شرع في بنائه سبأ أول ملوك هذه الأمة، ولم يتمَّه؛ فأتمه ابنه حمير.

وأما ما يقال من أن بلقيس بنته فذلك اشتباه؛ إذ لعل بلقيس بَنَتْ حَولَه خزانات أخرى فرعيةً، أو رممت بناءه ترميماً أطلق عليه اسم البناء؛ فقد كانوا

---

١ ـ الكور: جمع كُوْرة، وهي الأعمال، والأجناد، أو ما يُعرف في وقتنا الحاضر بـ: المحافظات. (م)

يتعهدون تلك السداد بالإصلاح والترميم كل سنة حتى تبقى تجاه قوة السيول الساقطة فيها.

وكانوا يجعلون للسد منافذ مغلقة يزيلون عنها السَّكر إذا أرادوا إرسال الماء إلى الجنات على نوبات يُرسل عندها الماء إلى الجهات المتفرقة التي تسقى منه إذ جعلوا جناتهم حول السد مجتمعة، وكان يصب في سد مأرب سبعون وادياً.

وجعلوا هذا السد بين جبلين يعرف كلاهما بالبَلَق، فهما البلق الأيمن، والبلق الأيسر.

وأعظم الأودية التي كانت تصب فيه اسمه (إذنه) فقالوا: أن الأودية كانت تأتي إلى سبأ من الشحْر وأودية اليمن.

وهذا السد حائط طوله من الشرق إلى الغرب ثمانمائة ذراع وارتفاعه بضع عشرة ذراعاً وعرضه مائة وخمسون ذراعاً.

وقد شاهده الحسن الهمداني، ووصفه في كتابه المسمى بالإكليل وهو من أهل أوائل القرن الرابع بما سمعت حاصله.

ووصفه الرحالة (أرنو) الفرنسي سنة ١٨٨٣ والرحالة (غلازر) الفرنسي.

ولا يعرف وقت انهدام هذا السد، ولا أسباب ذلك.

والظاهر إن سبب انهدامه اشتغال ملوكهم بحروب داخلية بينهم ألهتهم عن تفقد ترميمه حتى تخرب، أو يكون قد خربه بعض من حاربهم من أعدائهم، وأما ما يذكر في القصص من أن السد خربته الجرذان فذلك من الخرافات.

وفي العرم قال النابغة الجعدي:

مــن ســبإ الحاضــرين مــأرب إذ يبنــون مــن دون ســيله العرمــا

والتبديل: تعويض شيء بآخر، وهو يتعدى إلى المأخوذ بنفسه، وإلى المبذول بالباء وهي باء العوض كما تقدم في قوله -تعالى-: ﴿وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ في سورة النساء.

فالمعنى :أعطيناهم أشجار خمط وأثل وسدر عوضاً عن جنتيهم، أي صارت بلادهم شَعْراء قاحلة ليس فيها إلا شجر العِضاة والبادية.

وفيما بين هذين الحالين أحوال عظيمة انتابتهم، فقاسوا العطش، وفقدان الثمار حتى اضطروا إلى مفارقة تلك الديار، فلما كانت هذه النهاية دالة على تلك الأحوال طوي ذكر ما قبلها، واقتصر على: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ إلى آخره. **٢٢/١٦٩-١٧١**

٩- **والخمط:** شجر الأراك، ويطلق الخمط على الشيء المُرّ.

والأثل: شجر عظيم من شجر العضاه يشبه الطرفاء.

والسدر: شجر من العضاه -أيضاً- له شوك يشبه شجر العناب، وكلها تنبت في الفيافي.

والسدر أكثرها ظلاً، وأنفعها؛ لأنه يغسل بورقه مع الماء، فينظف، وفيه رائحة حسنة؛ ولذلك وصف هنا بالقليل؛ لإفادة أن معظم شجرهم لا فائدة منه، وزيد تقليله قلة بذكر كلمة ﴿شَيْءٍ﴾ المؤذنة في ذاته بالقلة، يقال شيء من كذا، إذا كان قليلاً. **٢٢/١٧١-١٧٢**

١٠- ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾.

والأظهر عندي أن يكون هذا القول قالوه جواباً عن مواعظ أنبيائهم

والصالحين منهم حين ينهونهم عن الشرك، فهم يعظونهم بأن الله أنعم عليهم بتلك الرفاهية وهم يجيبون بهذا القول؛ إفحاماً لدعاة الخير منهم على نحو قول كفار قريش: ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قبل هذا ﴿ فَأَعْرَضُوْا ﴾ فإن الإعراض يقتضي دعوة لشيء ويفيد هذا المعنى قوة ﴿ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ عقب حكاية قولهم؛ فإنه إما معطوف على جملة: ﴿ فَقَالُوا ﴾ أي فأعقبوا ذلك بكفران النعمة وبالإشراك؛ فإن ظلم النفس أطلق كثيراً على الإشراك في القرآن، وما الإشراك إلا أعظم كفران نعمة الخالق. ١٧٦/٢٢

١١ـ **وأشارت الآية إلى التفرق الشهير الذي أصيبت به قبيلة سبا**؛ إذ حملهم خراب السد، وقحولة الأرض إلى مفارقة تلك الأوطان مفارقة وتفريقاً ضربت به العرب المثل في قولهم: ذهبوا، أو تفرقوا أيدي سبا، أو أيادي سبا، بتخفيف همزة سبا؛ لتخفيف المثل.

وفي لسان العرب في مادة (يدي) قال المعري: لم يهمزوا سبا؛ لأنهم جعلوه مع ما قبله بمنزلة الشيء الواحد.

هكذا، ولعله التباس أو تحريف، وإنما ذكر المعري عدم إظهار الفتحة على ياء (أيادي) أو (أيدي) كما هو مقتضى التعليل؛ لأن التعليل يقتضي التزام فتح همزة سبا كشأن المركب المزجي.

قال في لسان العرب: وبعضهم ينوِّنه إذا خففه، قال ذو الرمة:

فيا لك من دار تفرق أهلها   أيادي سبا عنها وطال انتقالها

والأكثر عدم تنوينه قال كثير:

أيادي سبا يا عز ما كنتُ بعدكم فلم يحلُ بالعينين بعدكِ منظر

والأيادي والأيدي فيه جمع يد، واليد بمعنى الطريق.

والمعنى: أنهم ذهبوا في مذاهب شتى يسلكون منها إلى أقطار عدة كقوله ـتعالىـ: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾.

وقيل: الأيادي جمع يد بمعنى النعمة؛ لأن سبأ تَلِفت أموالهم.

وكانت سبأ قبيلة عظيمة تنقسم إلى عشر أفخاذ وهم: الأزد، وكندة، ومَذحِج، والأشعريون، وأنمار، وبَجيلة، وعاملة وهم خُزاعة، وغسان، ولخم، وجُذام.

فلما فارقوا مواطنهم فالستة الأولون تفرقوا في اليمن والأربعة الأخيرون خرجوا إلى جهات قاصية فلحقت الأزد بعمان، ولحقت خزاعة بتهامة في مكة، ولحقت الأوس والخزرج بيثرب، ولعلهم معدودون في لخم، ولحقت غسان ببُصرى، والغُوير من بلاد الشام، ولحقت لخم بالعراق. ٢٢/١٧٨ـ١٧٩

١٢ـ والجمع بين ﴿صَبَّارٍ﴾ و﴿شَكُورٍ﴾ في الوصف لإفادة أن واجب المؤمن التخلق بالخلقين وهما: الصبر على المكاره، والشكر على النعم، وهؤلاء المتحدث عنهم لم يشكروا النعمة فيطروها، ولم يصبروا على ما أصابهم من زوالها؛ فاضطربت نفوسهم، وعمهم الجزع؛ فخرجوا من ديارهم، وتفرقوا في الأرض، ولا تسأل عما لاقوه في ذلك من المتالف والمذلات.

فالصبّار يَعْتَبر من تلك الأحوال؛ فيعلم أن الصبر على المكاره خير من الجزع، ويرتكب أخف الضرين، ولا يستخفه الجزع، فيلقي بنفسه إلى الأخطار، ولا ينظر في العواقب.

والشكور يعتبر بما أعطي من النعم؛ فيزداد شكراً لله ـتعالىـ ولا يَبْطَرُ النعمةَ، ولا يطغى، فيُعاقب بسلبها كما سلبت عنهم، ومن وراء ذلك أن يحرمهم الله التوفيق.

وأن يقذف بهم الخذلان في بنيات الطريق.

وفي الآية دلالة واضحة على أن تأمين الطريق وتيسير المواصلات وتقريب البلدان؛ لتيسير تبادل المنافع واجتلاب الأرزاق من هنا ومن هناك نعمة إلهية، ومقصد شرعي يحبه الله لمن يحب أن يرحمه من عباده كما قال ـتعالىـ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾ وقال: ﴿وَإِذ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ﴾ وقال: ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.

فلذلك قال هنا: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾. **٢٢**/١٨٠ـ١٨١

١٣ـ من أجل ذلك كله كان **حقاً على ولاة أمور الأمة أن يسعوا جهدهم في تأمين البلاد وحراسة السبل** وتيسير الأسفار وتقرير الأمن في سائر نواحي البلاد جليلها وصغيرها بمختلف الوسائل، وكان ذلك من أهم ما تنفق فيه أموال المسلمين، وما يَبْذِلُ فيه أهلُ الخير من الموسرين أموالَهم؛ عوناً على ذلك، وذلك من رحمة أهل الأرض المشمولة لقول النبيﷺ: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**».

وكان حقاً على أهل العلم والدين أن يرشدوا الأئمة والأمة إلى طريق الخير، وأن ينبهوا على معالم ذلك الطريق ومسالكه بالتفصيل دون الإجمال؛ فقد افتقرت الأمة إلى العمل، وسئمت الأقوال. **٢٢**/١٨١

١٤ـ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤)﴾.

وهذا اللون من الكلام يسمى الكلام المنصف، وهو أن لا يترك المُجادلُ لخصمه موجبَ تَغَيُّظٍ واحتداد في الجدال، ويسمى في علم المناظرة إرخاء العنان للمناظِر ومع ذلك فقرينة إلزامهم الحجة قرينة واضحة.

ومن لطائفه هنا أن اشتمل على إيماء إلى ترجيح أحد الجانبين في أحد الاحتمالين بطريق مقابلة الجانبين في ترتيب الحالتين باللف والنشر المرتب وهو أصل اللفِّ.

فإنه ذكر ضمير جانب المتكلم وجماعته وجانب المخاطبين، ثم ذكر حال الهدى وحال الضلال على ترتيب ذكر الجانبين، فأومأ إلى أن الأولِين موجَّهون إلى الهدى والآخِرين موجهون إلى الضلال المبين، لا سيما بعد قرينة الاستفهام، وهذا ـأيضاًـ من التعريض وهو أوقع من التصريح لا سيما في استنزال طائر الخصم.

وفيه ـأيضاًـ تجاهل العارف؛ فقد التأم في هذه الجملة ثلاثة محسنات من البديع ونكتة من البيان فاشتملت على أربع خصوصيات. ١٩٢/٢٢

١٥ـ ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾.

قفَّوا على صريح كفرهم بالقرآن وغيره من الشرائع بكلام كَنَّوا به عن إبطال حقية الإسلام بدليل سفسطائي؛ فجعلوا كثرة أموالهم وأولادهم حجة على أنهم أهل حظ عند الله ـتعالىـ فضمير: ﴿وَقَالُوْا﴾ عائد إلى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

من قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ الخ.

وهذا من تمويه الحقائق بما يحف بها من العوارض؛ فجعلوا ما حف بحالهم في كفرهم من وفرة المال والوالد حجة على أنهم مظنة العناية عند الله، وأن ما هم عليه هو الحق.

وهذا تعريض منهم بعكس حال المسلمين بأن حال ضعف المسلمين، وقلة عددهم، وشظف عيشهم حجة على أنهم غير محظوظين عند الله، ولم يتفطنوا إلى أن أحوال الدنيا مسببة على أسباب دنيوية لا علاقة لها بأحوال الأولاد.

وهذا المبدأ الوهمي السفسطائي خطير في العقائد الضالة التي كانت لأهل الجاهلية والمنتشرة عند غير المسلمين، ولا يخلو المسلمون من قريب منها في تصرفاتهم في الدين، ومرجعها إلى قياس الغائب على الشاهد، وهو قياس يصادف الصواب تارة، ويخطئه تارات.

ومن أكبر أخطاء المسلمين في هذا الباب خطأ اللجَأ إلى القضاء والقدر في أعذارهم، وخطأ التخلق بالتوكل في تقصيرهم وتكاسلهم. ٢٢/٢١٢-٢١٣

١٦ـ وبهذا أخطأ قول أحمد بن الراوندي:

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيت مذاهبُه ... وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأوهام حائرةً ... وصيَّر العالمَ النحريرَ زنديقا

فلو كان عالماً نحريراً لما تحير فهمه، وما تزندق من ضيق عطن فكره. ٢٢/٢١٤

١٧ـ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾.

وهذا تعليم للمسلمين بأن نعيم الآخرة لا ينافي نعيم الدنيا قال ـتعالىـ:

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ﴾.

فأما نعيم الدنيا فهو مسبب عن أحوال دنيوية رتبها الله -تعالى- ويسرها لمن يسرها في علمه بغيبه، وأما نعيم الآخرة فهو مسبب عن أعمال مبينة في الشريعة وكثير من الصالحين يحصل لهم النعيم في الدنيا مع العلم بأنهم منعَّمون في الآخرة كما أنعم على داود وسليمان، وعلى كثير من أصحاب محمدﷺ وكثير من أئمة الدين مثل مالك بن أنس، والشافعي، والشيخ عبد الله بن أبي زيد، وسحنون.

فأما اختيار الله لنبيه محمدﷺ حالة الزهادة في الدنيا فلتحصل له غاياتُ الكمال من التمحض لتلقي الوحي، وجميل الخصال، ومن مساواة جمهور أصحابه في أحوالهم، وقد بسطناه بياناً في **رسالة طعام رسول الله - عليه السلام -**.

وأعقب ذلك بترغيب الأغنياء في الإنفاق في سبيل الله؛ فجعل الوعد بإخلاف ما ينفقه المرء كناية عن الترغيب في الإنفاق؛ لأن وعد الله بإخلافه مع تأكيد الوعد يقتضي أنه يحب ذلك من المنافقين. ٢٢/٢٢٠

سورة فاطر

١ـ **سميت (سورة فاطر)** في كثير من المصاحف في المشرق والمغرب وفي كثير من التفاسير.

وسميت في صحيح البخاري وفي سنن الترمذي وفي كثير من المصاحف والتفاسير **(سورة الملائكة)** لا غير.

وقد ذكر لها كلا الاسمين صاحب الإتقان؛ فوجه تسميتها (سورة فاطر) أن هذا الوصف وقع في طالعة السورة، ولم يقع في أول سورة أخرى.

ووجه تسميته (سورة الملائكة) أنه ذكر في أولها صفة الملائكة، ولم يقع في سورة أخرى.

وهي مكية بالاتفاق وحكى الآلوسي عن الطبرسي أن الحسن استثنى آيتين: آية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ الآيةَ، وآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآيةَ، ولم أر هذا لغيره.

وهذه السورة هي الثالثة والأربعون في ترتيب نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة الفرقان وقبل سورة مريم.

وقد عدت آيها في عد أهل المدينة والشام ستاً وأربعين، وفي عد أهل مكة والكوفة خمساً وأربعين. **٢٢/٢٤٧**

٢ـ أغراض هذه السورة: اشتملت هذه السورةُ على إثباتِ تَفَرُّدِ الله ـتعالىـ بالإلهية؛ فافْتُتِحَتْ بما يدل على أنه مستحقُ الحمدِ على ما أبدع من الكائناتِ الدالِّ إبداعُها على تفرده ـتعالىـ بالإلهية.

وعلى إثباتِ صِدْقِ الرسولﷺفيما جاء به وأنه جاء به الرسل من قبله، وإثباتِ البعث والدار الآخرة.

وتذكيرِ الناسِ بإنعام الله عليهم بنعمةِ الإيجادِ ونعمةِ الإمداد، وما يعبد المشركون من دونه لا يغنون عنهم شيئاً وقد عبدهم الذين من قبلهم فَلَمْ يغنوا عنهم.

وتثبيتِ النبيﷺ على ما يلاقيه من قومه.

وكشفِ نواياهم في الإعراض عن اتباع الإسلام؛ لأنهم احتفظوا بعزتهم.

وإنذارِهم أن يَحُلَّ بهم ما حل بالأمم المكذبة قبلهم.

والثناءِ على الذين تلقوا الإسلام بالتصديق وبضد حال المكذبين.

وتذكيرِهم بأنهم كانوا يودون أن يرسل إليهم رسولٌ؛ فلما جاءهم رسول تكبروا واستنكفوا.

وأنهم لا مفر لهم من حلول العذاب عليهم؛ فقد شاهدوا آثار الأمم المكذبين من قبلهم، وأن لا يغتروا بإمهال الله إياهم؛ فإن الله لا يخلف وعده.

والتحذيرِ من غرورِ الشيطان، والتذكير، بعداوتِه لنوع الإنسان. **٢٢/٢٤٧-٢٤٨**

٣- وجملة: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لأن ما ذكر من صفات الملائكة يثير تعجب السامع أن يتساءل عن هذه الصفة العجيبة، فأجيب بهذا الاستئناف بأن مشيئة الله -تعالى- لا تنحصر ولا تُوقَّت.

ولكل جنس من أجناس المخلوقات مقوماته وخواصه.

فالمراد بالخلق: المخلوقات كلها، أي يزيد الله في بعضها ما ليس في خلق آخر.

فيشمل زيادة قوة بعض الملائكة على بعض، وكل زيادة في شيء بين المخلوقات من المحاسن والفضائل من حصافة عقل وجمال صورة وشجاعة

وذلقة لسان ولياقة كلام.

ويجوز أن تكون جملة: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ صفة ثانية للملائكة، أي أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في خلقهم ما يشاء كأنه قيل: مثنى وثلاث ورباع وأكثر، فما في بعض الأحاديث من كثرة أجنحة جبريل يبين معنى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾.

وعليه فالمراد بالخلق ما خُلق عليه الملائكة من أن لبعضهم أجنحة زائدة على ما لبعض آخر. **٢٥١/٢٢**

٤ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾.

لما جرى ذكر رحمة الله التي تعم الناس كلهم أقبل على خطابهم بأن يتذكروا نعمة الله عليهم الخاصة، وهي النعمة التي تخص كل واحد بخاصته، فيأتلف منها مجموع الرحمة العامة للناس كلهم، وما هي إلا بعض رحمة الله بمخلوقاته.

والمقصود من تذكر النعمة شكرُها وقَدْرُها قَدْرَها.

ومن أكبر تلك النعم نعمة الرسالة المحمدية التي هي وسيلة فوز الناس الذين يتبعونها بالنعيم الأبدي.

فالمراد بالذكر هنا التذكر بالقلب وباللسان، فهو من عموم المشترك، أو من إرادة القدر المشترك؛ فإن الذكر باللسان والذكر بالقلب يستلزم أحدهما الآخر، وإلا لكان الأول هذياناً، والثاني كتماناً.

قال عمر بن الخطاب: «أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه» أي وفي كليهما فضل. **٢٢/٢٥٣ـ٢٥٤**

٥ـ ﴿ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾.

والمراد بالعلماء: العلماء بالله وبالشريعة، وعلى حسب مقدار العلم في ذلك تقوى الخشيةُ، فأما العلماء بعلوم لا تتعلق بمعرفة الله وثوابه وعقابه معرفة على وجهها فليست علومهم بمقربة لهم من خشية الله؛ ذلك لأن العالم بالشريعة لا تلتبس عليه حقائق الأسماء الشرعية؛ فهو يفهم مواقعها حق الفهم، ويرعاها في مواقعها، ويعلم عواقبها من خير أو شر؛ فهو يأتي ويدَعُ من الأعمال ما فيه مراد الله ومَقْصِدُ شرعِه، فإن هو خالف ما دعت إليه الشريعة في بعض الأحوال أو في بعض الأوقات؛ لداعي شهوةٍ أو هوىً أو تعجلِ نفعٍ دنيوي كان في حال المخالفة موقناً أنه مُوَرَّط فيما لا تحمد عقباه؛ فذلك الإيقان لا يلبث أن ينصرف به عن الاسترسال في المخالفة بالإقلاع أو الإقلال.

وغير العالم إن اهتدى بالعلماء فسعيه مثل سعي العلماء، وخشيته متولدة عن خشية العلماء.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد: «والعلم دليل على الخيرات وقائد إليها، وأقرب العلماء إلى الله أولاهم به، وأكثرهم له خشية، وفيما عنده رغبة».
٢٢/٣٠٤ـ٣٠٥

٦ـ **والظالمون لأنفسهم** هم الذين يجرون أَنْفُسَهم إلى ارتكاب المعصية؛ فإن معصيةَ المرءِ رَبَّه ظُلْمٌ لنفسه؛ لأنه يورطها في العقوبة المعينة للمعاصي على تفصيلها، وذلك ظُلْمٌ للنفس، لأنه اعتداء عليها؛ إذ قَصَّر بها عن شيء من الخيرات قليل أو كثير، وورطها فيما تجد جزاء ذميماً عليه.

قال ـتعالىـ حكاية عن آدم وحواء حين خالفا ما نهيا عنه من أكل الشجرة:

﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ وقال: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللَّهَ يَجِدْ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ وقال: ﴿ إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ في سورة النمل، وقال: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ في سورة الزمر.

واللام في (لنفسه) لام التقوية لأن العامل فرع في العمل؛ إذ هو اسم فاعل.

والمقتصد: هو غير الظالم نفسه كما تقتضيه المقابلة، فهم الذين اتقوا الكبار، ولم يحرموا أنفسهم من الخيرات المأمور بها، وقد يُلِمُّون باللمم المعفوِّ عنه من الله، ولم يأتوا بمنتهى القربات الرافعة للدرجات؛ فالاقتصاد افتعال من القصد وهو ارتكاب القصد وهو الوسط بين طرفين يبينه المقام؛ فلما ذكر هنا في مقابلة الظالم والسابق علم أنه مرتكب حالةً بين تينك الحالتين؛ فهو ليس بظالم لنفسه، وليس بسابق.

والسابق أصله: الواصل إلى غايةٍ معينة قبل غيره من الماشين إليها.

وهو هنا مجاز لإحراز الفضل؛ لأن السابق يحرز السَّبَق -بفتح الباء- أو مجاز في بذل العناية؛ لنوال رضى الله، وعلى الاعتبارين في المجاز فهو مكنى عن الإكثار من الخير؛ لأن السبق يستلزم إسراعَ الخطوات، والإسراع إكثار، وفي هذا السبق تفاوت -أيضاً- كخيل الحلبة. ٣١٢/٢٢-٣١٣

٧- ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) ﴾.

مقابلة الأقسام الثلاثة للذين أورثوا الكتاب بذكر الكافرين يزيدنا يقيناً بأن تلك الأقسام أقسام المؤمنين، ومقابلة جزاء الكافرين بنار جهنم يوضح أن الجنة

دار للأقسام الثلاثة على تفاوت في الزمان والمكان. ٣١٧/٢٢

٨ـ **وجملة: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾** تذييل أو موعظة.

ويحيق: ينزل بشيء مكروه حاق به، أي نزل وأحاط إحاطة سوء، أي لا يقع أثره إلا على أهله.

وفيه حذف مضاف تقديره: ضَرُّ المكرِ السيِّئ أو سوء المكر السيء كما دل عليه فعل **(يحيق)** فإن كان التعريف في **(المكر)** للجنس كان المراد بـ**(أهله)** كل ماكر.

وهذا هو الأنسب بموقع الجملة، ومحملها على التذييل، ليعم كل مكر، وكل ماكر؛ فيدخل فيه الماكرون بالمسلمين من المشركين؛ فيكون القصر الذي في الجملة قصراً ادعائياً مبنياً على عدم الاعتداد بالضر القليل الذي يحيق بالممكور به بالنسبة لما أعده الله للماكر في قدره من ملاقاة جزائه على مكره؛ فيكون ذلك من النواميس التي قدَّرها القدَرُ لنظام هذا العالم؛ لأن أمثال هذه المعاملات الضارة تؤول إلى ارتفاع ثقة الناس بعضهم ببعض، والله بنى نظام هذا العالم على تعاون الناس بعضهم مع بعض؛ لأن الإنسان مدني بالطبع، فإذا لم يأمن أفراد الإنسان بعضهم بعضاً تنكر بعضهم لبعض، وتبادروا الإضرار والإهلاك؛ ليفوز كل واحد بكيد الآخر قبل أن يقع فيه؛ فيفضي ذلك إلى فساد كبير في العالم، والله لا يحب الفساد، ولا ضر عبيده إلا حيث تأذن شرائعه بشيء.

ولهذا قيل في المثل: «وما ظالم إلا سيبلى بظالم» وقال الشاعر:

لكل[1] شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد

وكم في هذا العالم من نواميس مغفول عنها، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَاللَّهُ لا

١ ـ البيت يروى: ولكل شيء ... بإثبات الواو حتى يستقيم الوزن. (م)

يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾.

وفي كتاب ابن المبارك في الزهد بسنده عن الزهري بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تمكر، ولا تُعن ماكراً فإن الله يقول:** ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾».

ومن كلام العرب: «من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً».

ومن كلام عامة أهل تونس «يا حافر حفرة السوء ما تحفر إلا قياسك».

وإذا كان تعريف (المكر) تعريف العهد كان المعنى: ولا يحيق هذا المكر إلا بأهله، أي الذين جاءهم النذير؛ فازدادوا نفوراً، فيكون موقع قوله: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ موقع الوعيد بأن الله يدفع عن رسوله ﷺ مكرهم، ويحيق ضُرّ مكرِهم بهم بأن يسلط عليهم رسوله على غفلة منهم كما كان يوم بدر ويوم الفتح، فيكون على نحو قوله -تعالى-: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ فالقصر حقيقي.

فكم انهالت من خلال هذه الآية من آداب عمرانية، ومعجزات قرآنية، ومعجزات نبوية خفية. ٢٢/٣٣٥-٣٣٦

٩- واعلم أن قوله -تعالى-: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ قد جعل في علم المعاني مثالاً للكلام الجاري على أسلوب المساواة دون إيجاز ولا إطناب.

وأول من رأيته مثل بهذه الآية للمساواة هو الخطيب القزويني في الإيضاح وفي تخليص المفتاح، وهو مما زاده على ما في المفتاح، ولم يمثل صاحب المفتاح للمساواة بشيء ولم أدر من أين أخذه القزويني؛ فإن الشيخ عبدالقاهر لم يذكر الإيجاز والإطناب في كتابه.

وإذ قد صرح صاحب المفتاح أن المساواة هي متعارف الأوساط وأنه لا يحمد

في باب البلاغة ولا يذم ـ فقد وجب القطع بأن المساواة لا تقع في الكلام البليغ، بَلْهَ المعجز.

ومن العجيب إقرارُ العلاَّمةِ التفتزاني كلامَ صاحبِ تلخيص المفتاح، وكيف يكون هذا من المساواة وفيه جملة ذات قصرٍ، والقصر من الإيجاز؛ لأنه قائم مقام جملتين: جملة إثبات للمقصود، وجملة نفيه عما سواه، فالمساواة أن يقال: يحيق المكر السيء بالماكرين دون غيرهم، فما عدل عن ذلك إلى صيغة القصر فقد سُلك طريقه الإيجاز.

وفيه ـأيضاًـ حذف مضاف؛ إذ التقدير: ولا يحيق ضر المكر السيء إلا بأهله على أن في قوله: ﴿بِأَهْلِهِ﴾ إيجازاً؛ لأنه عوض عن أن يقال: باللذين تقلدوه.

والوجه أن المساواة لم تقع في القرآن، وإنما مواقعها في محادثات الناس التي لا يعبأ فيها بمراعاة آداب اللغة. ٣٣٦/٢٢

سورة يس

١ـ **سميت هذه السورة (يس) بمسمى الحرفين الواقعين في أولها** في رسم المصحف لأنها انفردت بها فكانا مميزين لها عن بقية السور، فصار منطوقهما علماً عليها، وكذلك ورد اسمها عن النبيﷺ.

روى أبو داود عن معقل بن يسار قال: قال رسول اللهﷺ: «**اقرأوا يس على موتاكم**».

وبهذا الاسم عنون البخاري والترمذي في كتابي التفسير.

ودعاها بعض السلف (قلب القرآن) لوصفها في قول النبيﷺ: «**إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس**» رواه الترمذي عن أنس، وهي تسمية غير مشهورة.

ورأيت مصحفاً مشرقياً نسخ سنة ١٠٧٨ أحسبه في بلاد العجم عنونها (سورة حبيب النجار) وهو صاحب القصة وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى كما يأتي.

وهذه تسمية غريبة لا نعرف لها سنداً، ولم يخالف ناسخ ذلك المصحف في أسماء السور ما هو معروف إلا في هذه السورة وفي (سورة التين) عنونها (سورة الزيتون).

وهي مكية، وحكى ابن عطية الاتفاق على ذلك قال: «إلا أن فرقةً قالت: قوله ـتعالىـ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسولﷺ فقال لهم: «**دياركم تكتب آثاركم**».

وليس الأمر كذلك وإنما نزلت الآية بمكة ولكنها احتج بها عليهم في المدينة» اهـ.

وفي الصحيح أن النبيﷺ قرأ عليهم: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم﴾ وهو يؤول ما في حديث الترمذي بما يوهم أنها نزلت يومئذ.

وهي السورة الحادية والأربعون في ترتيب النزول في قول جابر بن زيد الذي اعتمده الجعبري، نزلت بعد سورة (قل أوحي) وقبل سورة الفرقان.

وعُدَّت آياتها عند جمهور الأمصار اثنتين وثمانين، وعُدَّت عند الكوفيين ثلاثاً وثمانين.

وورد في فضلها ما رواه الترمذي عن أنس قال النبيﷺ: «**إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات**».

قال الترمذي: «هذا حديث غريب، وفيه هارون أبو محمد شيخ مجهول».

قال أبو بكر بن العربي: «حديثها ضعيف». **٢٢/٣٤١ـ٣٤٢**

٢ـ أغراض هذه السورة: التحديْ بإعجاز القرآن بالحروف المُقَطَّعة، وبالقسم بالقرآن؛ تنويهاً به، وأُدْمِجَ وصفُه بالحكيم؛ إشارةً إلى بلوغه أعلى درجات الإحكام.

والمقصودُ من ذلك تحقيقُ رسالةِ محمدٍﷺ وتفضيلُ الدين الذي جاء به في كتابٍ منزلٍ من الله؛ لإبلاغ الأمةِ الغايةَ الساميةَ، وهي استقامةُ أمورِها في الدنيا، والفوزُ في الحياةِ الأبدية؛ فلذلك وُصِفَ الدينُ بالصراط المستقيم كما تقدم في سورة الفاتحة.

وأن القرآنَ داعٍ لإنقاذ العرب الذين لم يسبقْ مجيءُ رسولٍ إليهم؛ لأن عَدَمَ سبقِ الإرسالِ إليهم تهيئةً لنفوسهم لقبول الدين؛ إذ ليس فيها شاغلُ سَبْقٍ يَعَزُّ عليهم فراقه، أو يكتفون بما فيه من هدىً.

وَوَصْفُ إعراضِ أكثرِهم عن تلقي الإسلام، وتمثيلُ حالِهم الشنيعة، وحرمانُهم من الانتفاع بهدي الإسلام، وأن الذين اتبعوا دينَ الإسلامِ هم أهل الخشيةُ، وهو الدين الموصوف بالصراط المستقيم.

وَضْربُ المثلِ لفريقي المتبعين والمعرضين من أهل القرى بما سبق من حال أهل القرية الذين شابه تكذيبُهم الرسلِ تكذيبَ قريشٍ.

وكيف كان جزاءُ المعرضين من أهلها في الدنيا، وجزاءُ المتبعين في درجات الآخرة.

ثم ضَرَبَ المثلَ بالأعم وهم القرون الذين كذبوا فأُهلكوا، والرثاءُ لحال الناس في إضاعة أسباب الفوز كيف يسرعون إلى تكذيب الرسل.

وتخلَّص إلى الاستدلال على تقريبِ البعثِ، وإثباتِه بالاستقلال تارة، وبالاستطراد أخرى، مُدْمِجاً في آياته الامتنانَ بالنعمة التي تتضمنها تلك الآيات، ورامزاً إلى دلالة تلك الآيات والنعم على تفرد خالقها ومنعمها بالوحدانية؛ إيقاظاً لهم.

ثم تذكيرُهم بأعظمِ حادثةٍ حدثت على المكذبين للرسل والمتمسكين بالأصنام من الذين أرسل إليهم نوح نذيراً؛ فهلك مَنْ كذَّب، ونجا مَنْ آمن.

ثم سيقت دلائلُ التوحيدِ المشوبةُ بالامتنانِ للتذكيرِ بواجبِ الشكر على النعم بالتقوى والإحسان وتَرقُّبِ الجزاء.

والإقلاعُ عن الشرك، والاستهزاءُ بالرسول، واستعجالُ وعيدِ العذاب.

وحُذِّروا من حلوله بغتةً حين يفوت التدارك.

وذُكِّروا بما عَهِدَ اللهُ إليهم مما أودعه في الفطرة من الفطنة.

والاستدلالُ على عداوة الشيطان للإنسان.

واتباعُ دعاةِ الخير.

ثم رَدَّ العَجُزَ على الصدر؛ فعاد إلى تنزيه القرآن عن أن يكون مفترىً صادراً من شاعرٍ بتخيلات الشعراء.

وسلَّى اللهُ رسولَهﷺ أن لا يُحْزِنَه قولُهم وأن له بالله أسوةً؛ إذ خلقهم، فعطلوا قُدْرَتَهُ عن إيجادهم مرة ثانية، ولكنهم راجعون إليه.

فقامت السورة على تقرير أمهات أصول الدين على أبلغ وجهٍ وأَتَمِّهِ من إثباتِ الرسالةِ، ومعجزةِ القرآن، وما يعتبر في صفات الأنبياء، وإثباتِ القدر، وعلمِ الله، والحَشرِ، والتوحيدِ، وشكرِ المنعم.

وهذه أصولُ الطاعةِ بالاعتقاد والعمل، ومنها تتفرع الشريعةُ.

وإثباتُ الجزاء على الخير والشر مع إدماج الأدلةِ من الآفاق والأنفسِ بتَفَنُّنٍ عجيب؛ فكانت هذه السورة جديرة بأن تسمى (قَلْب القرآن) لأن من تقاسيمها تتشعب شرايينُ القرآن كلِّه، وإلى وَتِيْنِها يَنْصَبُّ مجراها.

قال الغزالي: إن ذلك لأن الإيمانَ صحتُه باعتراف بالحشر، والحشرُ مقررٌ في هذه السورة بأبلغ وجه، كما سميت الفاتحة أم القرآن؛ إذ كانت جامعة لأصول التدبر في أفانيه كما تكون أم الرأس مِلاكُ التدبرِ في أمور الجسد». **٢٢/٣٤٢-٣٤٤**

٣- ﴿يَس(١)﴾ القول فيه كالقول في الحروف المقطعة الواقعة في أوائل السور، ومن جملتها أنه اسم من أسماء الله -تعالى- رواه أشهب عن مالك قاله ابن العربي، وفيه عن ابن عباس أنه: يا إنسان، بلسان الحبشة.

وعنه أنها كذلك بلغة طيء، ولا أحسب هذا يصح عنه؛ لأن كتابتها في

المصاحف على حرفين تنافي ذلك.

ومن الناس من يَدَّعِي أن (يس) اسم من أسماء النبيﷺ ، وبنى عليه إسماعيل بن بكر الحميري شاعر الرافضة المشهور عندهم بالسيد الحميري قوله:

يا نفس لاتمحضي بالود جاهدة ... على المودة إلا آل ياسينا

ولعله أخذه من قوله -تعالى- في سورة الصافات: ﴿سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ فقد قيل إنه يعني آل محمدﷺ .

ومن الناس من قال: إن يس اختزال: يا سيد، خطاباً للنبيﷺ ويوهنه نطق القرآن بها بنون. **٢٢/٣٤٤**

٤- ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) ﴾.

والتطير في الأصل: تكلُّف معرفة دلالة الطير على خير أو شر من تعرض نوع الطير ومن صفة اندفاعه أو مجيئه، ثم أطلق على كل حدث يتوهم منه أحد أنه كان سبباً في لحاق شر به؛ فصار مرادفاً للتشاؤم.

وفي الحديث: «**لا عدوى ولا طيرة وإنما الطيرة على من تطير**».

وبهذا المعنى أطلق في هذه الآية، أي قالوا إنا تشاءمنا بكم.

ومعنى: ﴿بِكُم﴾ بدعوتكم، وليسوا يريدون أن القرية حل بها حادث سوء يعم الناس كلهم من قحط أو وباء أو نحو ذلك من الضر العام مقارن لحلول الرسل أو لدعوتهم.

وقد جوزه بعض المفسرين، وإنما معنى ذلك: أن أحداً لا يخلو في هذه الحياة من أن يناله مكروه.

ومن عادة أصحاب الأوهام السخيفة، والعقول المأفونة أن يسندوا الأحداث إلى مقارنتها دون معرفة أسبابها ثم أن يتخيروا في تعيين مقارنات الشؤم أموراً لا تلائم شهواتهم وما ينفرون منه، وأن يعينوا من المقارنات للتيمن ما يرغبون فيه، وتقبله طباعهم يغالطون بذلك أنفسهم شأن أهل العقول الضعيفة؛ فمرجع العلل كلها لديهم إلى أحوال نفوسهم ورغائبهم كما حكى الله -تعالى- عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ وحكى عن مشركي مكة: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾.

ويجوز أن يكونوا أرادوا بالشؤم أن دعوتهم أحدثت مشاجراتٍ واختلافاً بين أهل القرية فلما تمالأت نفوس أهل القرية على أن تعليل كلِّ حدثٍ مكروه يصيب أحدهم بأنه من جزاء[1] هؤلاء الرسل اتفقت كلمتهم على ذلك فقالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي يقولها الواحد منهم، أو الجمع، فيوافقهم على ذلك جميع أهل القرية.

ثم انتقلوا إلى المطالبة بالانتهاء عن هذه الدعوة فقالوا: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وبذلك ألجأوا (بوليس) و(برنابا) إلى الخروج من إنطاكية فخرجا إلى إيقونية، وظهرت كرامة (بولس) في أيقونية ثم في (لسترة) ثم في (دربة).

ولم يزل اليهود في كل مدينة من هذه المدن يشاقون الرسل، ويضطهدونهم، ويثيرون الناس عليهم، ويلحقونهم إلى كل بلد يحلون به؛ ليشعبوا عليهم،

---

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: جَرَّاء. (م)

فمسهم من ذلك عذاب وضر، ورجم (بولس) في مدينة (لسترة) حتى حسبوا أن قد مات. ٢٢/٣٦٢ـ٣٦٣

٥ـ ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩)﴾

حكي قول الرسل بما يرادفه ويؤدي معناه بأسلوب عربي؛ تعريضاً بأهل الشرك من قريش الذين ضُرِبَت القرية مثلاً لهم، فالرسل لم يذكروا مادة الطِّيَرة والطَيْر، وإنما أتوا بما يدل على أن شؤم القوم متصل بذواتهم لا جاءٍ من المرسلين إليهم؛ فحكي بما يوافقه في كلام العرب؛ تعريضاً بمشركي مكة.

وهذا بمنزلة التجريد لضرب المثل لهم بأن لوحظ في حكاية القصة ما هو من شؤون المشبهين بأصحاب القصة.

ولما كانت الطيرة بمعنى الشؤم مشتقة من اسم الطير لوحظ فيها مادة الاشتقاق.

وقد جاء إطلاق الطائر على معنى الشؤم في قوله ـتعالى ـ في سورة الأعراف: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ على طريقة المشاكلة.

ومعنى: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾: الطائر الذي تنسبون إليه الشؤم هو معكم، أي في نفوسكم، أرادوا أنكم لو تدبرتم لوجدتم أن سبب ما سميتموه شؤماً هو كفركم، وسوء سَمْعِكم للمواعظ؛ فإن الذين استمعوا أحسن القول اتبعوه، ولم يعتدوا عليكم، وأنتم الذين آثرتم الفتنة، وأسعرتم البغضاء والإحن؛ فلا جرم أنتم سبب سوء لحالة التي حدثت في المدينة. ٢٢/٣٦٣ـ٣٦٤

٦ـ ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِي لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي

شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥)﴾.

عطف على قصة التحاور الجاري بين أصحاب القرية والرسل الثلاثة لبيان البون بين حال المعاندين من أهل القرية وحال الرجل المؤمن منهم الذي وعظهم بموعظة بالغة وهو من نفر قليل من أهل القرية.

فلك أن تجعل جملة: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ عطفاً على جملة: ﴿جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ولك أن تجعلها عطفاً على جملة: ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾.

والمراد بالمدينة هنا نفس القرية المذكورة في قوله: ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ عبر عنها هنا بالمدينة؛ تفتناً، فيكون (أقصى) صفة لمحذوف هو المضاف في المعنى إلى المدينة.

والتقدير: من بعيد المدينة، أي طرف المدينة، وفائدة ذكر أنه جاء من أقصى المدينة الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة؛ لأن قلب المدينة هو مسكن حكامها وأحبار اليهود وهم أبعد من الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليهم الرسل، وعامة سكانها تبع لعظمائها؛ لتعلقهم بهم، وخشيتهم بأسهم بخلاف سكان أطراف المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر وقلة اكتراث بالآخرين؛ لأن سكان الأطراف غالبهم عملة أنفسهم لقربهم من البدو.

وبهذا يظهر وجه تقديم: ﴿مِنْ أَقْصَى الْمَدِيْنَةِ﴾ على ﴿رَجُلٌ﴾ للاهتمام بالثناء على أهل أقصى المدينة.

وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء؛ لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة؛ إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة، قال أبو تمام:

كانت هي الوسطَ المحميَّ فاتصلت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

وأما قوله -تعالى- في سورة القصص: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ فجاء النظم على الترتيب الأصلي؛ إذ لا داعي إلى التقديم؛ إذ كان ذلك الرجل ناصحاً ولم يكن داعياً للإيمان.

وعلى هذا فهذا الرجل غير مذكور في سفر أعمال الرسل، وهو مما امتاز القرآن بالإعلام به.

وعن ابن عباس وأصحابه وجد أن اسمه حبيب بن مرة، قيل: كان نجاراً، وقيل غير ذلك؛ فلما أشرف الرسل على المدينة رآهم ورأى معجزة لهم أو كرامة فآمن.

وقيل: كان مؤمناً من قبل، ولا يبعد أن يكون هذا الرجل الذي وصفه المفسرون بالنجار أنه هو (سمعان) الذي يدعى (بالنيجر) المذكور في الإصحاح الحادي عشر من سفر أعمال الرسل، وأن وصف النجار محرف عن (نيجر) فقد جاء في الأسماء التي جرت في كلام المفسرين عن ابن عباس اسم شمعون الصفا أو سمعان.

وليس هذا الاسم موجوداً في كتاب أعمال الرسل.

وَوَصْفُ الرجلِ بالسعي يفيد أنه جاء مسرعاً، وأنه بلغه همُّ أهل المدينة برجم الرسل أو تعذيبهم؛ فأراد أن ينصحهم؛ خشيةً عليهم وعلى الرسل.

وهذا ثناء على هذا الرجل يفيد أنه ممن يقتدى به في الإسراع إلى تغيير المنكر.

وجملة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ بدل اشتمال من جملة: ﴿جَاءَ رَجُلٌ﴾ لأن مجيئه لما كان لهذا الغرض كان مما اشتمل عليه المجيء المذكور.

وافتتاح خطابه إياهم بندائهم بوصف القومية له قصد منه أن في كلامه الإيماء إلى أن ما سيخاطبهم به هو محض نصيحة؛ لأنه يحب لقومه ما يحب لنفسه.

والاتِّبَاعُ: الامتثالُ، استُعِيْرَ له الاتباعُ؛ تشبيهاً للآخذ برأي غيره بالمتبع له في سيره.

والتعريف في ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ للعهد. **٢٢/٣٦٥ـ٣٦٦**

٧ـ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)﴾.

وكيف يكون القرآن شعراً والشعر كلام موزون مقفّىً له معانٍ مناسبةٌ لأغراضه التي أكثرها هزل وفكاهة؟ فأين الوزن في القرآن، وأين التقفية، وأين المعاني التي ينتجها الشعراء، وأين نظم كلامهم من نظمه، وأساليبهم من أساليبه.

ومن العجيب في الوقاحة أن يصدر عن أهل اللسان والبلاغة قول مثل هذا ولا شبهة لهم فيه بحال، فما قولهم ذلك إلا بهتان.

وما بني عليه أسلوب القرآن من تساوي الفواصل لا يجعلها موازية للقوافي كما يعلمه أهل الصناعة منهم، وكل من زاول مبادئ القافية من المولدين، ولا أحسبهم دعوه شعراً إلا تعجلاً في الإبطال، أو تمويهاً على الإغفال؛ فأشاعوا في العرب أن محمداً ﷺ شاعر، وأن كلامه شعر، وينبني عن هذا الظن خبرُ أنيس بن جنادة

الغفاري أخي أبي ذر، فقد روى البخاري عن ابن عباس، ومسلم عن عبد الله ابن الصامت، يزيد أحدهما على الآخر قالا: «قال أبو ذر لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء واستمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتى قدم وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاماً ما هو بالشعر، قال أبو ذر: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر، وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون».

ثم اقتص الخبر عن إسلام أبي ذر، ويظهر أن ذلك كان في أول البعثة.

ومثله خبر الوليد بن المغيرة الذي رواه البيهقي وابن إسحاق: «أنه جمع قريشاً عند حضور الموسم ليتشاوروا في أمر النبيﷺ فقال لهم: إن وفود العرب تَرِدُ عليكم؛ فأجمعوا فيه رأياً، لا يكذب بعضكم بعضاً، فقالوا: نقول كاهن؟ فقال: والله ما هو بكاهن، ما هو بزمزمته ولا بسجعه، قالوا: نقول مجنون؟ فقال: والله ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته، فذكر ترددهم في وصفه إلى أن قالوا: نقول شاعر؟ قال: ما هو بشاعر، قد عرفت الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه وما هو بشاعر...» إلى آخر القصة.

فمعنى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾: وما أوحينا إليه شعراً علمناه إياه.

وليس المراد أن الله لم يجعل في طبع النبي القدرة على نظم الشعر؛ لأن تلك المقدرة لا تسمى تعليماً حتى تنفى وإنما يستفاد هذا المعنى من قوله بعده: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾. ٢٣/٥٧-٥٨

٨ـ **وقد اقتضت الآية نفي أن يكون القرآن شعراً،** وهذا الاقتضاء قد أثار مطاعن للملحدين ومشاكل للمخلصين؛ إذ وجدت فقرات قرآنية استكملت ميزان بحور من البحور الشعرية، بعضها يلتئم منه بيت كامل، وبعضها يتقوم منه مصراع واحد، ولا تجد أكثر من ذلك فهذا يلزم منه وقوع الشعر في آي القرآن.

وقد أثار الملاحدة هذا المطعن؛ فلذلك تعرض أبو بكر الباقلاني إلى دحضه في كتابه إعجاز القرآن وتبعه السكاكي، وأبو بكر بن العربي، فأما الباقلاني فانفرد برد قال فيه: إن البيت المفرد لا يسمى شعراً، بَلْهَ المصراع الذي لا يكمل به بيت.

وأرى هذا غير كاف هنا؛ لأنه لا يستطاع نفي مسمى الشعر عن المصراع، وأولى عن البيت.

وقال السكاكي في آخر مبحث رد المطاعن عن القرآن من كتاب مفتاح العلوم: «إنهم يقولون أنتم في دعواكم أن القرآن كلام الله وقد علمه محمداًﷺ على أحد أمرين: إما أن الله ـتعالىـ جاهل لا يعلم ما الشعر، وإما أن الدعوى باطلة، وذلك أن في قرآنكم ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ وأنه يستدعي أن لا يكون فيما علمه شعر.

ثم إن في القرآن من جميع البحور شعراً: فمن الطويل من صحيحه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

ومن مخرومه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾.

ومن بحر المديد: ﴿وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

ومن بحر الوافر: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾.

ومن بحر الكامل: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

ومن بحر الهجز من مخرومه: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾.

ومن بحر الرجز: ﴿ دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾.

ومن بحر الرمل: ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ ونظيره: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾.

ومن بحر المنسرح: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾.

ومن بحر الخفيف: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ومنه ﴿ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ ونحوه: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي ﴾.

ومن بحر المضارع من مخرومه: ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾.

ومن بحر المقتضب: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾.

ومن بحر المتقارب: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾.

فيقال لهم من قبل النظر فيما أوردوه: هل حرفوا بزيادة أو نقصان حركة أو حرفاً أم لا؟

وقبل أن ننظر هل راعوا أحكام علم العروض في الأعاريض والضروب التي سبق ذكرها أم لا.

ومن قبل أن ننظر هل عملوا بالمنصور من المذهبين في معنى الشعر على نحو ما سبق أم لا -يعني المذهبين مذهب الذين قالوا لا يكون الشعر شعراً إلا إذا قصد قائله أن يكون موزوناً؟ ومذهب الذين قالوا: إن تعمد الوزن ليس بواجب، بل يكفي أن يُلْفَى موزوناً ولو بدون قصد قائله للوزن وقد نصر المذهب الأول- يا سبحان الله قدروا جميع ذلك أشعاراً، أليس يصح بحكم التغليب أن لا يلتفت

إلى ما أوردتموه لِقِلَّتِه، ويُجرى ذلك القرآن مجرى الخالي عن الشعر؛ فيقال بناء على مقتضى البلاغة: وما علمناه الشعر». اهـ كلامه.

وقد نحا به نحو أمرين:

أحدهما: أن ما وقع في القرآن من الكلام المتزن ليس بمقصود منه الوزن؛ فلا يكون شعراً على رأي الأكثر من اشتراط القصد إلى الوزن؛ لأن الله ـ تعالى ـ لم يعبأ باتزانه.

الثاني: إن سلمنا عدم اشتراط القصد فإنَّ نفي كونِ القرآن شعراً جرى على الغالب؛ فلا يعد قائله كاذباً ولا جاهلاً؛ فلا ينافي اليقين بأن القرآن من عند الله علمه محمداً ﷺ.

ومال ابن العربي في أحكام القرآن إلى أن ما تكلفوه من استخراج فقرات من القرآن على موازين شعرية لا يستقيم إلا بأحد أمور مثل بتر الكلام أو زيادة ساكن أو نقص حرف أو حرفين، وذكر أمثلة لذلك في بعضها ما لا يتم له فراجعه.

ولا محيص من الاعتراف باشتمال القرآن على فقرات متزنة يلتئم منها بيت أو مصراع، فأما ما يَقِلُّ عن بيت فهو كالعدم؛ إذ لا يكون الشعر أقلَّ من بيت، ولا فائدة في الاستكثار من جلب ما يُلْفى متزناً؛ فإن وقوعَ ما يساوي بيتاً تاماً من بحر من بحور الشعر العربي ولو نادراً أو مزحّفاً أو مُعلاً كافٍ في بقاء الإشكال؛ فلا حاجة إلى ما سلك ابن العربي في رده ولا كفاية لما سلكه السكاكي في كتابه؛ لأن المردود عليهم في سعة من الأخذ بما يلائم نحلتهم من أضعف المذاهب في حقيقة الشعر وفي زحافه وعلله.

وبعد ذلك فإن الباقلاني والسكاكي لم يغوصا على اقتلاع ما يثيره الجواب الثاني في كلامهما بعدم القصد إلى الوزن من لزوم خفاء ذلك على علم الله -تعالى- فلماذا لا تجعل في موضع تلك الفقرات المتزنة فقرات سليمة من الاتزان.

ولم أر لأحد من المفسرين والخائضين في وجوه إعجاز القرآن التصدي لاقتلاع هذه الشبهة، وقد مضت عليها من الزمان برهة، وكنت غير مقتنع بتلك الردود ولا أرضاها، وأراها غير بالغة من غاية خيل الحلبة منتهاها.

فالذي بدا لي أن نقول: إن القرآن نزل بأفصح لغات البشر التي تواضعوا واصطلحوا عليها، ولو أن كلاماً كان أفصح من كلام العرب أو أمة كانت أسلم طباعاً من الأمة العربية - لاختارها الله لظهور أفضل الشرائع، وأشرف الرسل، وأعز الكتب الشرعية.

ومعلوم أن القرآن جاء معجزاً لبلغاء العرب؛ فكانت تراكيبه ومعانيها بالغين حداً يقصر عنه كل بليغ من بلغائهم على مبلغ ما تتسع له اللغة العربية فصاحة وبلاغة؛ فإذا كانت نهاية مقتضى الحال في مقام من مقامات الكلام تتطلب لإيفاء حق الفصاحة والبلاغة ألفاظاً وتركيباً ونظماً فاتفق أن كان لمجموع حركاتها وسكوناتها ما كان جارياً على ميزان الشعر العربي في أعاريضه وضروبه لم يكن ذلك الكلام معدوداً من الشعر لو وقع مثله في كلام عن غير قصد؛ فوقوعه في كلام البشر قد لا يتفطن إليه قائله، ولو تفطن له لم يعسر تغييره، لأنه ليس غاية ما يقتضيه الحال، اللهم إلا أن يكون قصد به تفنناً في الإتيان بكلام ظاهره نثر، وتفكيكه نظم.

فأما وقوعه في كلام الله -تعالى- فخارج عن ذلك كله من ثلاثة وجوه:

أحدها: أن الله لا يخفى عليه وقوعه في كلام أوحى به إلى رسولهﷺ.

الثاني: أنه لا يجوز تبديل ذلك المجموع من الألفاظ بغيره لأن مجموعها هو جميع ما اقتضاه الحال، وبلغ حد الإعجاز.

الثالث: أن الله لا يريد أن يشتمل الكلام الموحى به من عنده على محسن الجمع بين النثر والنظم، لأنه أراد تنزيه كلامه عن شائبة الشعر.

واعلم أن الحكمة في أن لا يكون القرآن من الشعر مع أن المُتَحَدَّيْنَ به بلغاء العرب، وجُلُّهم شعراءُ، وبلاغتهم مُوْدَعَةٌ في أشعارهم - هي الجمع بين الإعجاز وبين سد باب الشبهة التي تعرض لهم لو جاء القرآن على موازين الشعر، وهي شبه الغلط أو المغالطة بعدِّهم النبيﷺ في زمن الشعراء فيحسب جمهور الناس الذين لا تغوص مدركاتهم على الحقائق أن ما جاء به الرسول ليس بالعجيب، وأن هذا الجائي به ليس بنبي ولكنه شاعر؛ فكان القرآن معجزاً لبلغاء العرب بكونه من نوع كلامهم لا يستطيعون جحوداً لذلك، ولكنه ليس من الصنف المسمى بالشعر، بل هو فائق على شعرهم في محاسنه البلاغية، وليس هو في أسلوب الشعر بالأوزان التي ألفوها، بل هو في أسلوب الكتب السماوية والذكر.

ولقد ظهرت حكمة علام الغيوب في ذلك؛ فإن المشركين لما سمعوا القرآن ابتدروا إلى الطعن في كونه منزلاً من عند الله بقولهم في الرسول: هو شاعر، أي أن كلامه شعر حتى أفاقهم من غفلتهم عقلاؤهم مثل الوليد بن المغيرة، وأنيس ابن جنادة الغفاري، وحتى قرعهم القرآن بهذه الآية: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾.

وبعد هذا فإن إقامة الشعر لا يخلو الشاعر فيها من أن يتصرف في ترتيب الكلام تارات بما لا تقضيه الفصاحة مثل ما وقع لبعض الشعراء من التعقيد اللفظي، ومثل تقديم وتأخير على خلاف مقتضى الحال؛ فيعتذر لوقوعه بعذر الضرورة الشعرية، فإذا جاء القرآن شعراً قصّر في بعض المواضع عن إيفاء جميع مقتضى الحال حقه.

وسنذكر عند تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَه﴾ وجوهاً ينطبق معظمها على ما أشار إليه قوله ـ تعالى ـ هنا: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾.

وقد قال ابن عطية: إن الضمير المجرور باللام في قوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَه﴾ يجوز أن يعود على القرآن كما سيأتي.

وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَه﴾ جملة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين قصد منها اتباع نفي أن يكون القرآن الموحى به للنبيﷺ شعراً بنفي أن يكون النبيﷺ شاعراً فيما يقوله من غير ما أوحى به إليه أي فطر الله النبيﷺ على النفرة بين ملكته الكلامية والملكة الشاعرية، أي لم يجعل له ملكة أصحاب قرض الشعر، لأنه أراد أن يقطع من نفوس المكذبين دابر أن يكون النبيﷺ شاعراً، وأن يكون قرآنه شعراً، ليتضح بهتانُهم عند من له أدنى مُسْكَةٍ من تمييز للكلام وكثيرٌ ما هُمْ بين العرب رجالهم، وكثير من نسائهم غير زوج عبدالله بن رواحة ونظيراتها، والواو اعتراضية.

وضمير (ينبغي) عائد إلى الشعر، وضمير (له) يجوز أن يكون عائد إلى ما عاد إليه ضمير الغائب في قوله: «علمناه» وهو الظاهر.

وجوز ابن عطية أن يعود إلى القرآن الذي يتضمنه فعل (علمناه) فجعل

جملة: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَه﴾ بمنزلة التعليل لجملة: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾.

ومعنى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَه﴾ ما يتأتى له الشعر، وقد تقدم عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ تفصيل ذلك في سورة مريم، وتقدم قريباً عند قوله: ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾.

فأصل معنى: (ينبغي) يستجيب للبغي، أي الطلب، وهو يشعر بالطلب الملح.

ثم غلب في معنى يتأتى ويستقيم؛ فتنوسي منه معنى المطاوعة وصار (ينبغي) بمعنى يتأتى يقال: لا ينبغي كذا، أي لا يتأتى.

قال الطيبي: رُوِيَ عن الزمخشري أنه قال في كتاب سيوبيه: «كل فعل فيه علاج يأتي مطاوعة على الانفعال: كضرب وطلب وعَلِم، وما ليس فيه علاج: كعَدِم وفقَد لا يأتي في مطاوعة الانفعال البتة» اهـ.

ومعنى كون الشعر لا ينبغي له: أن قول الشعر لا ينبغي له؛ لأن الشعر صنف من القول له موازينُ وقوافٍ، فالنبيﷺ منزه عن قرض الشعر وتأليفه، أي ليست من طباع ملكته إقامة الموازين الشعرية، وليس المراد أنه لا ينشد الشعر؛ لأن إنشادَ الشعرِ غيرُ تَعَلُّمِه، وكم من رواية للأشعار ومن نَقَّاد للشعر لا يستطيع قول الشعر وكذلك كان النبيﷺ قد انتقد الشعر، ونبه على بعض مزايا فيه، وفضَّل بعض الشعراء على بعض وهو مع ذلك لا يقرض شعراً.

وربما أنشد البيت، فغفل عن ترتيب كلماته، فربما اختل وزنه في إنشاده[1]

---

١ ـ كما أنشد بيت عباس بن مرداس

أتجعل نهبي ونهب العُبيـ ـد بين عيينة والأقرع

وذلك من تمام المنافرة بين ملكة بلاغته وملكة الشعراء، ألا ترى أنه لم يكن مطرداً فربما أنشد البيت موزوناً.

هذا من جانب نظم الشعر وموازينه، وكذلك -أيضاً- جانب قوام الشعر ومعانيه فإن للشعر طرائقَ من الأغراض كالغزل والنسيب والهجاء والمديح والملح، وطرائق من المعاني كالمبالغة البالغة حد الإغراق، وكادعاء الشاعر أحوالاً لنفسه في غرام أو سير أو شجاعة هو خلو من حقائقها؛ فهو كذب مغتفر في صناعة الشعر، وذلك لا يليق بأرفع مقامٍ لكمالات النفس، وهو مقام أعظم الرسل -صلوات الله عليه وعليهم- فلو أن النبيﷺ قرض الشعر، ولم يأتِ في شعره بأفانين الشعراء لَعُدَّ غضاضةً في شعره، وكانت تلك الغضاضةُ داعيةً للتناول من حرمة كماله في أنفس قومه يستوي فيها العدو والصديق.

على أن الشعراء في ذلك الزمان كانت أحوالهم غيرَ مَرضِيَّةٍ عند أهل المروءة والشرف؛ لما فيهم من الخلاعة والإقبال على السكر والميسر والنساء ونحو ذلك. وحسبك ما هو معلوم من قضية خلع حجر الكندي ابنه امرأ القيس وقد قال -تعالى-: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ ﴾ الآيةَ.

فقال: بين الأقرع وعيينة، وكذلك أنشد مرة مصراع طرفة:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فقال «ويأتيك من لم تزود بالأخبار».

وربما أنشد البيت دون تغيير كما أنشد بيت ابن رواحة:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وأنشد بيت عنترة:

ولقد أَبيتُ على الطوَى وأَظَلُّه ... كيما أنال به شهيّ المطعم

فلو جاء الرسولﷺ بالشعر أو قاله لرمقه الناس بالعين التي لا يرمق بها قدره الجليل وشرفه النبيل.

والمنظور إليه في هذا الشأن هو الغالب الشائع وإلا فقد قال النبيﷺ : «**إن من الشعر لحكمة**» وقال : «**أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :**

ألا كل شيء ما خلا الله باطل»

فتنزيه النبيﷺ عن قول الشعر من قبيل حياطة معجزة القرآن، وحياطه مقام الرسالة مثل تنزيهه عن معرفة الكتابة.

قال أبو بكر بن العربي : هذه الآية ليست من عيب الشعر كما لم يكن قوله ـتعالىـ : ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ من عيب الخط، فلما لم تكن الأمية من عيب الخط كذلك لا يكون نفي النظم عن النبيﷺ من عيب الشعر.

ومن أجل ما للشعر من الفائدة والتأثير في شيوع دعوة الإسلام أن أمر النبيﷺ حساناً وعبدالله بن رواحة بقوله، وأظهر استحسانه لكعب بن زهير حين أنشده القصيدة المشهور : بانت سعاد.

والقول في ما صدر النبيﷺ من كلام موزون مثل قوله يوم أحد :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

كالقول فيما وقع في القرآن من شبيه ذلك مما بيناه آنفاً.

وجملة : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ استئناف بياني؛ لأن نفي الشعر عن القرآن يثير سؤال متطلب يقول : فما هو هذا الذي أوحي به إلى محمدﷺ فكان قوله : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ﴾ جواباً لطلبته. ٢٣/٥٨ـ٦٥

سورة الصافات

١ـ **اسمها المشهور المتفق عليه (الصافات)** وبذلك سميت في كتب التفسير وكتب السنة وفي المصاحف كلها، ولم يثبت شيء عن النبيﷺ في تسميتها، وقال في الإتقان: «رأيت في كلام الجعبري أن سورة (الصافات) تسمى (سورة الذبيح) وذلك يحتاج إلى مستند من الأثر».

ووجه تسميتها باسم (الصافات) وقوع هذا اللفظ فيها بالمعنى الذي أريد به أنه وصف الملائكة وإن كان قد وقع في سورة (الملك) لكن بمعنى آخر إذ أريد هنالك صفة الطير، على أن الأشهر أن (سورة الملك) نزلت بعد (سورة الصافات).

وهي مكية بالاتفاق وهي السادسة والخمسون في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة الأنعام وقبل سورة لقمان.

وعُدَّت آيُها مائة واثنتين وثمانين عند أكثر أهل العدد، وعَدَّها البصريون مائة وإحدى وثمانين. ٨١/٢٣

٢ـ أغراضها: إثباتُ وحدانيةِ الله ـتعالى ـ وسوقُ دلائلَ كثيرةٍ على ذلك دلت على انفراده بصنع المخلوقات العظيمة التي لا قَبِلَ لغيره بصنعها وهي العوالمُ السماويةُ بأجزائها وسكنها، ولا قَبِلَ لمن على الأرض أنْ يتطرقَ في ذلك.

وإثباتُ أن البعثَ يُعْقبه الحشرُ والجزاء.

ووصفُ حالِ المشركين يوم الجزاء، ووقوعُ بعضِهم في بعض.

ووصفُ حُسْنِ أحوال المؤمنين ونعيمهم.

ومذاكرتُهم فيما كان يجري بينهم وبين بعض المشركين من أصحابهم في الجاهلية، ومحاولتُهم صرفَهم عن الإسلام.

ثم انْتُقِل إلى تنظير دعوةِ محمدٍﷺ قوَمهُ بدعوةِ الرسل مِنْ قَبْلِه، وكيف نَصَرَ اللهُ رسلَه، ورَفَع شأنَهم، وبارك عليهم.

وأُدمج في خلال ذلك شيءٌ من مناقبهم، وفضائلهم، وقُوَّتِهم في دين الله وما نجاهم الله من الكروب التي حفَّت بهم، وخاصةً منقبةُ الذبيحِ، والإشارة إلى أنه إسماعيلُ.

ووَصْفُ ما حلَّ بالأمم الذين كذبوهم.

ثم الإنحاءُ على المشركين فسادَ معتقداتِهم في الله، ونِسْبَتَهم إليه الشركاء.

وقولهم: الملائكةُ بناتُ اللهِ، وتكذيبُ الملائكة إياهم على رؤوس الأشهاد.

وقولهم في النبيﷺ والقرآن، وكيف كانوا يودون أن يكون لهم كتاب.

ثم وَعْدُ اللهِ رسولَه بالنصر كدأْب المرسلين ودأْب المؤمنين السابقين، وأن عذابَ اللهِ نازلٌ بالمشركين، وتَخْلُصُ العاقبةُ الحسنى للمؤمنين.

وكانت فاتحتُها مناسبةً لأغراضها بأن القَسَمَ بالملائكة مناسبٌ لإثبات الوحدانية؛ لأن الأصنامَ لم يدَّعوا لها ملائكةً، والذي تخدمه الملائكةُ هو الإلهُ الحق، ولأن الملائكةَ من جملة المخلوقاتِ الدالِّ خَلْقُها على عظم الخالق، ويُؤْذِنُ القسمُ بأنها أشرفُ المخلوقاتِ العلوية.

ثم إن الصفاتِ التي لوحظت في القسم بها مناسبةٌ للأغراض المذكورة بعدها، فـ﴿ الصَّافَّاتِ ﴾ يناسب عَظَمَةَ ربِّها، و﴿ الزَّاجِرَاتِ ﴾ يناسب قَذْفَ الشياطين عن السماوات، ويناسب تسييرَ الكواكبِ وحفظِها من أن يدرك بعضُها بعضاً،

ويناسب زَجْرُها الناسَ في المحشر.

و ﴿ التَّالِيَاتِ ذِكْراً ﴾ يناسب أحوالَ الرسولِ، والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وما أرسلوا به إلى أقوامهم.

هذا وفي الافتتاح بالقسم تشويقٌ إلى معرفة المُقْسَمِ عليه؛ لِيُقْبِلَ عليه السامعُ بشراشره.(١)

فقد استكملت فاتحةُ السورةِ أحسنَ وجوه البيان وأكملها. ٢٣/٨١ـ٨٣

٣ـ وعن ابن سيده: بلغنا أنه لما نزلت: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾ أي في سورة الدخان لم يعرفها قريش.

فقال أبو جهل: يا جارية هاتي لنا تمراً وزبداً نزدقمه، فجعلوا يأكلون ويقولون: أفبهذا يخوفنا محمد في الآخرة؟ اهـ.

والمناسب أن يكون قولهم هذا عندما سمعوا آية سورة الواقعة لا آية سورة الدخان وقد جاءت فيها نكرة.

وإما أن يكون اسماً لشجر معروف هو مذموم، قيل: هو شجر من أخبث الشجر يكون بتهامة وبالبلاد المجدبة المجاورة للصحراء كريهة الرائحة صغيرة الورق مسمومة ذات لبن إذا أصاب جلد الإنسان تورم ومات منه في الغالب، قاله قطرب وأبو حنيفة. ٢٣/١٢٢

٤ـ ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ

١ ـ الشراشر: الأثقال، الواحدة شرشره، يقال: ألقى عليه شراشره؛ حرصاً ومحبةً. ومعناها في السياق الماضي: أقبل عليه بكليَّته؛ رغبةً ومحبةً وحرصاً. (م)

اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾.

والحليم: الموصوف بالحلم وهو اسم يجمع أصالة الرأي، ومكارم الأخلاق، والرحمة بالمخلوق.

قيل: ما نعت الله الأنبياء بأقل مما نعتهم بالحلم.

وهذا الغلام الذي بشر به إبراهيم هو إسماعيل ابنه البكر، وهذا غير الغلام الذي بشره به الملائكة الذين أرسلوا إلى قوم لوط في قوله ـتعالىـ: ﴿قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ فذلك وُصف بأنه (عليم) وهذا وصف بـ(حليم).

وأيضاً ذلك كانت البشارة به بمحضر سارة أمه وقد جعلت هي المبشرة في قوله ـتعالىـ: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾.

فتلك بشارة كرامة والأولى بشارة استجابة دعائه، فلما ولد له إسماعيل تحقق أمل إبراهيم أن يكون له وارث من صلبه.

فالبشارة بإسماعيل لما كانت عقب دعاء إبراهيم أن يهب الله له من الصالحين عُطفت هنا بفاء التعقيب، وبشارته بإسحاق ذكرت في هذه السورة معطوفاً بالواو عطف القصة على القصة. ١٤٩/٢٣

٥ـ والفاء في ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ فصيحة؛ لأنها مفصحة عن مقدر، تقديره: فولد له، ويفع، وبلغ السعي، فلما بلغ السعي قال يا بني الخ، أي بلغ أن يسعى مع أبيه، أي بلغ سن من يمشي مع إبراهيم في شؤونه. ١٤٩/٢٣ـ١٥٠

٦ـ وأمر الله إبراهيم بذبح ولده أمرُ ابتلاء.

وليس المقصود به التشريع؛ إذ لو كان تشريعاً لما نسخ قبل العمل به؛ لأن ذلك

يفيت الحكمة من التشريع بخلاف أمر الابتلاء.

والمقصود من هذا الابتلاء إظهار عزمه وإثبات علو مرتبته في طاعة ربه؛ فإن الولد عزيز على نفس الوالد، والولد الوحيد الذي هو أمل الوالد في مستقبله أشد عزة على نفسه لا محالة، وقد علمتَ أنه سأل ولداً ليرثه نَسْلُه ولا يرثه مواليه؛ فبعد أن أقر الله عينه بإجابة سؤله وترعرع ولده أمره بأن يذبحه، فينعدم نسله، ويخيب أمله ويزول أنسه، ويتولى بيده إعدام أحب النفوس إليه، وذلك أعظم الابتلاء، فقابل أمر ربه بالامتثال، وحصلت حكمة الله من ابتلائه، وهذا معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴾.

وإنما برز هذا الابتلاء في صورة الوحي المنامي؛ إكراماً لإبراهيم عن أن يُزْعَجَ بالأمر بذبح ولده بوحي في اليقظة؛ لأن رؤى المنام يعقبها تعبيرها؛ إذ قد تكون مشتملة على رموز خفية وفي ذلك تأنيس لنفسه لتلقي هذا التكليف الشاق عليه وهو ذبح ابنه الوحيد.

والفاء في قوله: ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ فاء تفريع، أو هي فاء الفصيحة، أي إذا علمت هذا فانظر ماذا ترى.

والنظر هنا نظر العقل، لا نظر البصر، فحقه أن يتعدى إلى مفعولين، ولكن علّقه الاستفهام عن العمل.

والمعنى: تأمل في الذي تقابل به هذا الأمر، وذلك لأن الأمر لما تعلق بذات الغلام كان للغلام حظ في الامتثال، وكان عرض إبراهيم هذا على ابنه عرض اختبار لمقدار طواعيته بإجابة أمر الله في ذاته؛ لتحصل له بالرضى والامتثال مرتبة بذل نفسه في إرضاء الله وهو لا يرجو من ابنه إلا القبول؛ لأنه أعلم بصلاح ابنه،

وليس إبراهيم مأمور بذبح ابنه جبراً، بل الأمر بالذبح تعلق بمأمورين: أحدهما بتلقي الوحي، والآخر بتبليغ الرسول إليه؛ فلو قدر عصيانه لكان حاله في ذلك حال ابن نوح الذي أبى أن يركب السفينة لما دعاه أبوه فاعتبر كافراً. ٢٣/١٥٠ـ١٥١

٧ـ ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيّاً مِنْ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾.

هذه بشارة أخرى لإبراهيم ومكرمة له، وهي غير البشارة بالغلام الحليم، فإسحاق غير الغلام الحليم.

وهذه البشارة هي التي ذكرت في القرآن في قوله ـتعالىـ: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾.

وتسمية المبشر به إسحاق تحتمل أنَّ اللهَ عَيَّنَ له اسماً يسميه به وهو مقتضى ما في الإصحاح السابع عشر من التكوين: «سارة امرأتك تلد ابناً وتدعو اسمه إسحاق».

وتحتمل أن المراد: بشرناه بولد الذي سمي إسحاق، وهو على الاحتمالين إشارة إلى أن الغلام المبشر به في الآية قبل هذه ليس هو الذي اسمه إسحاق؛ فتعين أنه الذي سمي إسماعيل.

ومعنى البشارة به البشارة بولادته له، لأن البشارة لا تتعلق بالذوات، بل تتعلق بالمعاني. ٢٣/١٦١

٨ـ وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعُنْصر؛ فقد يلد البر الفاجر، والفاجر البر، وعلى أن فساد الأعقاب لا يعد غضاضة

على الآباء، وأن مناط الفضل هو خصال الذات وما اكتسب المرء من الصالحات، وأما كرامة الآباء فتكملة للكمال وباعث على الاتساع بفضائل الخلال، فكان في هذه التكملة إبطال غرور المشركين بأنهم من ذرية إبراهيم، وإنها مزية لكن لا يعادلها الدخول في الإسلام، وأنهم الأولى بالمسجد الحرام. ١٦٢/٢٣

٩ـ **وإلياس هو (إيلياء) من أنبياء بني إسرائيل التابعين لشريعة التوراة،** وأطلق عليه وصف الرسول لأنه أمر من جانب الله ـتعالى ـ بتبليغ ملوك إسرائيل أن الله غضب عليهم من أجل عبادة الأصنام؛ فإطلاق وصف الرسول عليه مثل إطلاقه على الرسل إلى أهل أنطاكية المذكورين في سورة يس. ١٦٦/٢٣

١٠ـ **و(بعل) اسم صنم الكنعانيين**، وهو أعظم أصنامهم؛ لأن كلمة بعل في لغتهم تدل على معنى الذكورة.

ثم دلت على معنى السيادة، فلفظ البعل يطلق على الذكر، وهو عندهم رمز على الشمس ويقابله كلمة (تانيت) بمثناتين، أي الأنثى وكانت لهم صنمة تسمى عند الفنيقيين بقرطاجنة (تانيت) وهي عندهم رمز القمر وعند فنيقيي أرض فنيقية الوطن الأصلي للكنعانيين تسمى هذه الصنمة (العشتاروث).

وقد أطلق على بعل في زمن موسى ـ عليه السلام ـ اسم (مولك) ـأيضاًـ وقد مثلوه بصورة إنسان له رأس عجل، وله قرنان، وعليه إكليل، وهو جالس على كرسيٍّ ماداً يديه كمن يتناول شيئاً، وكانت صورته من نحاس، وداخلها مجوف وقد وضعوها على قاعدة من بناء كالتنور، فكانوا يوقدون النار في ذلك التنور حتى يحمى النحاس، ويأتون بالقرابين، فيضعونها على ذراعيه، فتحترق

بالحرارة، فيحسبون ـلجهلهمـ الصنمَ تَقَبَّلَها، وأكلها من يديه.

وكانوا يقربون له أطفالاً من أطفال ملوكهم وعظماء ملتهم، وقد عبده بنو إسرائيل غير مرة تبعاً للكنعانيين، والعمونيين، والمؤبيين وكان لبعل من السدنة في بلاد السامرة، أو مدينة صرفة أربعمائة وخمسون سادناً.

وتوجد صورة بعل في دار الآثار بقصر اللوفر في باريس منقوشة على وجه حجارة صوروه بصورة إنسان على رأسه خوذة بها قرنان، وبيده مقرعة.

ولعلها صورته عند بعض الأمم التي عبدته ولا توجد له صورة في آثار قرطاجنة الفنيقية بتونس. ٢٣/١٦٦ـ١٦٧

١١ـ وسنة الاقتراع في أسفار البحر كانت متبعة عند الأقدمين إذا ثقلت السفينة بوفرة الراكبين أو كثرة المتاع.

وفيها قصة الحيلة التي ذكرها الصفدي في شرح الطغرائية[١]: أن بعض الأصحاب يدَّعي أن مركباً فيه مسلمون وكفار أشرف على الغرق وأرادوا أن يرموا بعضهم إلى البحر، ليخف المركب، فينجو بعضهم، ويسلم المركب فقالوا: نقترع فمن وقعت القرعة عليه ألقيناه، فنظر رئيس المركب إليهم وهم جالسون على هذه الصورة فقال ليس هذا حكماً مرضياً وإنما نعد الجماعة؛ فمن كان تاسعاً ألقيناه، فارتضوا بذلك، فلم يزل يعدهم، ويلقي التاسع فالتاسع إلى أن ألقى الكفار وسلم المسلمون.

وهذه صورة ذلك، وصوَّر دائرة فيها علامات حمر وعلامات سود؛ فالحمر

١ـ قصيدة الطُّغرائي اللامية المسماة لامية العجم. انظر شرح البيت:

إن العُلا حدثتني وهي صادقة ... فيما تحدث أن العز في النقل

للمسلمين ومنهم ابتداء العد وهو إلى جهة الشمال، قال: ولقد ذكرتها لنور الدين علي بن إسماعيل الصفدي؛ فأعجبته وقال: كيف أصنع بحفظ هذا الترتيب فقلت له: الضابط في هذا البيت تجعل حروفه المعجمة للكفار والمهملة للمسلمين وهو:

الله يقضـــي بكـــل يســـر ويـــرزق الضـــيف حيـــث كانـــا

وكانت القرعة طريقاً من طرق القضاء عند التباس الحق أو عند استواء عدد في استحقاق شيء.

وقد تقدم في سورة آل عمران عند قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

وهي طريقة إقناعية كان البشر يصيرون إليها؛ لفصل التنازع يزعمون أنها دالة على إرادة الله -تعالى- عند الأمم المتدينة، أو إرادة الأصنام عند الأمم التي تعبد الأصنام تمييز صاحب الحق عند التنازع.

ولعلها من مخترعات الكهنة وسدنة الأصنام؛ فلما شاعت في البشر أقرتها الشرائع لما فيها من قطع الخصام والقتال.

ولكن الشرائع الحق لما أقرتها اقتصدت في استعمالها بحيث لا يصار إليها إلا عند التساوي في الحق، وفقدان المرجح، الذي هو مؤثر في نوع ما يختلفون فيه، فهي من بقايا الأوهام.

وقد اقتصرت الشريعة الإسلامية في اعتبارها على أقل ما تعتبر فيه، مثل تعيين أحد الأقسام المتساوية لأحد المتقاسمين إذ تشاحوا في أحدها، قال ابن رشد في المقدمات والقرعة إنما جعلت تطييباً لأنفس المتقاسمين، وأصلها قائم في كتاب

الله لقوله ـ تعالى ـ في قصة يونس: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ﴾.

وعندي: أن ليس في الآية دليل على مشروعية القرعة في الفصل بين المتساويين، لأنها لم تَحْكِ شرعاً صحيحاً كان قبل الإسلام؛ إذ لا يعرف دين أهل السفينة الذين أجروا الاستهام على يونس، على أن ما أجري الاستهام عليه قد أجمع المسلمون على أنه لا يجري في مثله استهام، فلو صح أن ذلك كان شرعاً لمن قبلنا فقد نسخه إجماع علماء أمتنا.

قال ابن العربي: الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز فكيف المسلم فإنه لا يجوز فيمن كان عاصياً أن يُقْتَلَ، ولا أن يُرْمَى به في النار والبحر، وإنما تُجْرَى عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته.

وظن بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم، فيطرح بعضهم تخفيفاً، وهذا فاسد فلا تخفف برمي بعض الرجال وإنما ذلك في الأموال وإنما يصبرون على قضاء الله.

وكانت في شريعة من قبلنا القرعة جائزة في كل شيء على العموم.

وجاءت القرعة في شرعنا على الخصوص في ثلاثة مواطن: الأول: كان النبيﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه؛ فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

الثاني: أن النبيﷺ رفع إليه أن رجلاً أعتق في مرض موته ستة أعبد لا مال له غيرهم فأقرع بين اثنين (وهما معادل الثلث) وأرق أربعة.

الثالث: أن رجلين اختصما إليه في مواريث درست، فقال: «**اذهبا، وتوخيا الحق واسْتَهِمَا وليحللْ كلٌّ واحد منكما صاحبه**». ٢٣/١٧٣ـ١٧٥

١٢ـ فحرف (أو) في قوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ بمعنى (بل) على قول الكوفيين

واختيار الفراء وأبي علي الفارسي وابن جني وابن برهان[١].

واستشهدوا بقول جرير:

ماذا ترى في عيال قد برمت بهم	لم أحص عدتهم إلا بعداد
كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية	لولا رجاؤك قد قتلت أولادي

والبصريون لا يجيزون ذلك إلا بشرطين أن يتقدمها نفي أو نهي، وأن يعاد العامل، وتأولوا هذه الآية بأن (أو) للتخيير، والمعنى إذا رآهم الرائي تخير بين أن يقول: هم مائة ألف، أو يقول: يزيدون.

ويرجحه أن المعطوف بـ(أو) غير مفرد بل هو كلام مبين ناسب أن يكون الحرف للإضراب. ٢٣/١٧٩ـ١٨٠

١ـ بفتح الباء الموحدة ممنوعاً من الصرف هو سعيد بن المبارك البغدادي ولد سنة ٤٦٩ وتوفي سنة ٥٥٩.

سورة ص

١ـ **سميت في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة والآثار عن السلف (سورة صاد)** كما ينطق باسم حرف الصاد تسمية لها بأول كلمة منها هي صاد ، ـبصاد فألف فدال ساكنة سكون وقفـ شأن حروف التهجي عند التهجي بها أن تكون موقوفة ، أي ساكنة الأعجاز.

وأما قول المعري يذكر سليمان ـعليه السلامـ :

وهو من سُخِّرت له الإنس والجن بما صح من شهادة صاد

فإنما هي كسرة القافية الساكنة تغير إلى الكسرة؛ لأن الكسر أصل في التخلص من السكون كقول امرئ القيس :

عقرتَ بعيري يا امرأ القيس فانزل

وفي الإتقان عن كتاب جمال القراء للسخاوي: أن سورة (ص) تسمى ـأيضاًـ سورة (داود) ولم يُذْكَر سنده في ذلك.

وكُتِبَ اسمُها في المصاحف بصورة حرف الصاد مثل سائر الحروف المقطعة في أوائل السور؛ اتباعاً لما كُتب في الصحف.

وهي مكية في قول الجميع ، وذكر في الإتقان أن الجعبري حكى قولاً بأنها مدنية قال السيوطي : وهو خلاف حكاية جماعةٍ الإجماعَ على أنها مكية.

وعن الداني في كتاب العدد بأنها مدنية وقال : إنه ليس بصحيح.

وهي السورة الثامنة والثلاثون في عداد نزول السور نزلت بعد سورة: ﴿ اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ ﴾ وقبل سورة الأعراف.

وعُدَّت آيها ستاً وثمانين عند أهل الحجاز والشام والبصرة وعدها أيوب ابن المتوكل البصري خمساً وثمانين.

وعُدَّت عند أهل الكوفة ثماناً وثمانين. ٢٣/٢٠١ـ٢٠٢

٢ـ **أغراضها:** أصلُها ما عَلِمتَ من حديث الترمذي في سبب نزولها، وما اتصل به من توبيخ المشركين على تكذيبهم الرسولﷺ وتَكَبُّرِهم عن قبول ما أرسل به، وتهديدِهم بمثل ما حلَّ بالأمم المكذبة قبلهم، وأنهم إنما كذبوه لأنه جاء بتوحيد الله ـتعالىـ ولأنه اخْتُصَّ بالرسالة من دونهم، وتسلية الرسولﷺ عن تكذيبهم وأن يقتدي بالرسل من قبله داود وأيوب وغيرهم، وما جُوْزُوا عن صبرهم، واستطرادِ الثناء على داود وسليمان وأيوب، وأَتْبَعَ ذكر أنبياء آخرين؛ لمناسبة سنذكرها.

وإثباتُ البعثِ؛ لحكمة جزاء العاملين بأعمالهم من خير وشر.

وجزاءُ المؤمنين المتقين، وضدُّه مِنْ جزاء الطاغين والذين أضلوهم، وقبَّحوا لهم الإسلامَ والمسلمين، ووصفُ أحوالِهم يوم القيامة.

وذكرُ أولِ غواية حصلت، وأصلِ كلِّ ضلالةٍ وهي غوايةُ الشيطان في قصة السجود لآدم.

وقد جاءت فاتحتُها مناسبةً لجميع أغراضها؛ إذ ابْتُدِئَتْ بالقسم بالقرآن الذي كذَّب به المشركون، وجاء المُقْسَمُ عليه أن الذين كفروا في عزة وشقاق، وكل ما ذكر فيها من أحوال المكذبين سَبَبُهُ اعتزازُهم وشقاقُهم، ومن أحوال المؤمنين سببه ضدُّ ذلك، مع ما في الافتتاح بالقسم من التشويق إلى ما بعده؛ فكانت فاتحتُها مستكملةً خصائصَ حُسْنِ الابتداء. ٢٣/٢٠٣

٣ـ وفي تذييل كلامه بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ حث لهما أن يكونا من

الصالحين؛ لما هو متقرر في النفوس من نفاسة كل شيء قليل، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾.

والسبب في ذلك من جانب الحكمة أن الدواعي إلى لذات الدنيا كثيرة، والمشي مع الهوى محبوب ومجاهدة النفس عزيزة الوقوع؛ فالإنسان محفوف بجواذب السيئات، وأما دواعي الحق والكمال فهو الدين والحكمة، وفي أسباب الكمال إعراض عن محركات الشهوات، وهو إعراض عسير لا يسلكه إلا من سما بدينه وهمته إلى الشرف النفساني، وأعرض عن الداعي الشهواني، **فذلك هو العلة في هذا الحكم بالقلة.** ٢٣/٢٣٦ـ٢٣٧

٤ـ وليس في قول الخصمين: ﴿هَذَا أَخِي﴾ ولا في فرضهما الخصومة التي هي غير واقعة ارتكابُ الكذب؛ لأن هذا من الأخبار المخالفة للواقع التي لا يريد المُخْبِر بها أن يظن المخبَر (بالفتح) وقوعَها إلا ريثما يحل الغرض من العبرة بها ثم ينكشف له باطنها فيعلم أنها لم تقع.

وما يجري في خلالها من الأوصاف والنسب غير الواقع فإنما هو على سبيل الفرض والتقدير، وعلى نية المشابهة.

وفي هذا دليل شرعي على جواز وضع القصص التمثيلية التي يقصد منها التربية والموعظة، ولا يحتمل واضعها جرحة الكذب خلافاً للذين نبزوا الحريري بالكذب في وضع المقامات كما أشار هو إليه في ديباجتها.

وفيها دليل شرعي لجواز تمثيل تلك القصص بالأجسام والذوات إذا لم تخالف الشريعة، ومنه تمثيل الروايات والقصص في ديار التمثيل؛ فإن ما يجري في شرع من قبلنا يصلح دليلاً لنا في شرعنا إذا حكاه القرآنُ، أو سنةُ النبيﷺ ولم

يرد في شرعنا ما ينسخه.

وأخذ من الآية مشروعية القضاء في المسجد، قالوا: وليس في القرآن ما يدل على ذلك سوى هذه الآية بناء على أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكاه الكتاب أو السنة. ٢٣/٢٣٨

٥ـ **ومعنى الهوى:** المحبة، وأطلق على الشيء المحبوب مبالغة، أي ولو كان هوى شديداً تَعْلَقُ النفس به.

والهوى: كناية عن الباطل، والجور، والظلم؛ لما هو متعارف من الملازمة بين هذه الأمور وبين هوى النفوس؛ فإن العدل والإنصاف ثقيل على النفوس؛ فلا تهواه غالباً، ومن صارت له محبة الحقِّ سجية فقد أوتي العلم والحكمة، وأُيِّد بالحفظ أو العصمة.

والنهي عن اتباع الهوى تحذير له وإيقاظ؛ ليحذر من جراء الهوى ويتّهم هوى نفسه، ويتعقبه؛ فلا ينقاد إليه فيما يدعوه إليه إلا بعد التأمل والتثبت، وقد قال سهل بن حنيف ﷺ: «اتهموا الرأي».

ذلك أن هوى النفس يكون في الأمور السهلة عليها الرائقة عندها، ومعظم الكمالات صعبة على النفس؛ لأنها ترجع إلى تهذيب النفس، والارتقاء بها عن حضيض الحيوانية إلى أوج المَلَكِية، ففي جميعها أو معظمها صرفٌ للنفس عما لاصَقَها من الرغائب الجسمانية الراجع أكثرها إلى طبع الحيوانية؛ لأنها إما مدعوةٌ لداعي الشهوة، أو داعي الغضب؛ فالاسترسال في اتباعها وقوعٌ في الرذائل في الغالب؛ ولهذا جُعل هنا الضلال عن سبيل الله مُسَبَّباً على اتباع الهوى، وهو تَسَبُّبٌ أغلبي عرفي؛ فشبَّه الهوى بسائرٍ في طريق مهلكة على طريقة المكنية،

ورمز إليه بلازم ذلك، وهو الإضلال عن طريق الرشاد المعبر عنه بسبيل الله؛ فإن الذي يتبع سائراً غيرَ عارفٍ بطريق المنازل النافعة لا يلبث أن يجدَ نفسَه وإياه في مهلكة، أو مقطعة طريق. ٢٣/٢٤٤

٦ـ وقد بدت من إبليس نزعة كانت كامنة في جِبِلَّتِه وهي نزعة الكبر والعصيان، ولم تكن تظهر منه قبل ذلك؛ لأن الملأ الذي كان معهم كانوا على أكمل حسن الخلطة، فلم يكن منهم مثيرٌ لما سكن في نفسه من طبع الكبر والعصيان.

فلما طرأ على ذلك الملأ مخلوق جديد، وأُمر أهل الملأ الأعلى بتعظيمه كان ذلك مورياً زناد الكبر في نفس إبليس، فنشأ عنه الكفر بالله، وعصيان أمره.

وهذا ناموس خُلُقي جعله الله مبدأ لهذا العالم قبل تعميره، وهو أن تكون الحوادث والمضائق معيار الأخلاق والفضيلة، فلا يحكم على نفس بتزكية أو ضدها إلا بعد تجربتها وملاحظة تصرفاتها عند حلول الحوادث بها.

وقد مُدح رجل عند عمر بن الخطاب بالخير، فقال عمر: هل أريتموه الأبيض والأصفر؟ يعني الدراهم والدنانير، وقال الشاعر:

لا تمدحن امرءاً حتى تجربه ... ولا تذمنه من قبل تجريب

إن الرجال صناديق مقفلة ... وما مفاتيحها غير التجاريب

٢٣/٣٠١ـ٣٠٢

سورة الزمر

١ـ **سميت (سورة الزمر) من عهد النبيﷺ** ، فقد روى الترمذي عن عائشة قالت: «كان النبيﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل».

وإنما سميت سورة الزمر لوقوع هذا اللفظ فيها دون غيرها من سور القرآن.

وفي تفسير القرطبي عن وهب بن منبه أنه سماها (سورة الغرف) وتناقله المفسرون.

ووجهه أنها ذكر فيها لفظ الغرف، أي بهذه الصيغة دون الغرفات، في قوله ـتعالى ـ: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ الآيةَ.

وهي مكية كلها عند الجمهور، وعن ابن عباس أن قوله ـتعالى ـ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ الآيات الثلاث.

وقيل: إلى سبع آيات نزلت بالمدينة في قصة وحشيّ قاتل حمزة، وسنده ضعيف، وقصته عليها مخائل القصص.

وعن عمر بن الخطاب أن تلك الآيات نزلت بالمدينة في هشام بن العاصي ابن وائل؛ إذ تأخر عن الهجرة إلى المدينة بعد أن استعد لها.

وفي رواية: أن معه عياشَ بنَ أبي ربيعة وكانا تواعدا على الهجرة إلى المدينة ففُتِنا، فافتتنا.

والأصح أنها نزلت في المشركين ـكما سيأتي عند تفسيرهاـ وما نشأ القول بأنها مدنية إلا لما روي فيها من القصص الضعيفة.

وقيل: نزل ـأيضاًـ قوله ـتعالى ـ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾

الآية بالمدينة.

وعن ابن عباس أن قوله ـ تعالى ـ: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ﴾ الآية، نزل بالمدينة.

فبلغت الآيات المختلف فيها تسع آيات.

والمتجه: أنها كلَّها مكيةٌ، وأن ما يخيل أنه نزل في قصص معينة إن صحت أسانيده أن يكون وقع التمثل به في تلك القصص؛ فاشتبه على بعض الرواة بأنه سبب نزول.

وسيأتي عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ أنها نزلت قبيل هجرة المؤمنين إلى الحبشة، أي في سنة خمس قبل الهجرة.

وهي السورة التاسعة والخمسون في ترتيب النزول على المختار، نزلت بعد سورة سبأ وقبل سورة غافر.

وعدت آياتها عند المدنيين والمكيين والبصريين اثنتين وسبعين، وعند أهل الشام ثلاثاً وسبعين، وعند أهل الكوفة خمساً وسبعين. ٢٣/٣١١ـ٣١٢

٢ـ أغراضها: ابتُدِئَتْ هذه السورة بما هو كالمقدمة للمقصود، وذلك بالتنويه بشأن القرآن تنويهاً تكرر في ستة مواضع[1] من هذه السورة؛ لأن القرآن جامع لأغراضها.

وأغراضُها كثيرةٌ تحوم حولَ إثباتِ تفرد الله بالإلهية، وإبطالِ الشرك فيها.

١ـ هي قوله: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ ﴾ الآيتين وقوله: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ الآيه، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ الآيتين، وقوله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴾ الآية.

وإبطال تَعَلُّلات المشركين لإشراكهم وأكاذيبهم.

ونفيِ ضَرْبٍ من ضروب الإشراك وهو زعمهم أن لله ولداً.

والاستدلالِ على وحدانية الله في الإلهية بدلائلِ تَفَرُّدِهِ بإيجاد العوالم العلوية والسفلية، وبتدبيرِ نظامها وما تحتوي عليه مما لا ينكر المشركون انفراده به.

والخلقِ العجيبِ في أطوار تكوُّنِ الإنسان والحيوان.

والاستدلالِ عليهم بدليل من فعلهم وهو التجاؤهم إلى الله عندما يصيبهم الضُّر.

والدعوةِ إلى التدبر فيما يُلْقى إليهم من القرآن الذي هو أحسن القول.

وتنبيههم على كفرانِهم شُكْرَ النَّعْمَةِ.

والمقابلةِ بين حالهم وبين حال المؤمنين المخلصين لله.

وأن دينَ التوحيدِ هو الذي جاءت به الرسلُ مِنْ قَبْل.

والتحذيرُ من أن يَحِلَّ بالمشركين ما حَلَّ بأهل الشرك من الأمم الماضية.

وإعلامُ المشركين بأنهم وشركاءهم لا يُعْبَأُ بهم عند الله وعند رسولهﷺ فالله غنيٌّ عن عبادتهم، ورسولُه لا يخشاهم ولا يخاف أصنامَهم؛ لأن اللهَ كفاه إياهم جميعاً.

وإثباتُ البعثِ والجزاء؛ لِتُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت.

وتمثيلُ البعث بإحياء الأرض بعد موتها.

وَضَربَ لهم مَثَلَهُ بالنوم والإفاقةَ بعده، وأنه يوم الفصل بين المؤمنين والمشركين.

وتمثيلُ حالِ المؤمنين وحال المشركين في الحياتين: الحياةِ الدنيا والحياةِ الآخرة.

ودعاءُ المشركين للإقلاع عن الإسراف على أنفسهم، ودعاءُ المؤمنين للثبات على التقوى، ومفارقة دار الكفر، وخُتِمَت بوصفِ حال يوم الحساب.

وتخلل ذلك كلَّه وعيدٌ ووعدٌ، وأمثالٌ، وترهيبٌ وترغيبٌ، ووعظٌ، وإيماءٌ بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ الآية إلى أن شأن المؤمنين أنهم أهل علم، وأن المشركين أهل جهالة، وذلك تنويه برفعة العلم ومَذَمَّةِ الجهل. ٢٣/٣١٢ـ٣١٣

٣ـ **والإخلاص:** الإمحاض، وعدم الشوب بمغاير، وهو يشمل الإفراد. وسميت السورة التي فيها توحيد الله سورة الإخلاص، أي إفراد الله بالإلهية. وأوثر الإخلاص هنا لإفادة التوحيد، وأخصُّ منه وهو أن تكون عبادة النبيﷺ ربه غير مشوبة بحظ دنيوي كما قال ـتعالىـ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾. ٢٣/٣١٦

٤ـ **والإخلاص في العبادة:** أن يكون الداعي إلى الإتيان بالمأمور وإلى ترك المنهي إرضاء الله ـتعالىـ وهو معنى قولهم: لوجه الله، أي لقصد الامتثال بحيث لا يكون الحظ الدنيوي هو الباعث على العبادة مثل أن يعبد الله؛ ليمدحه الناس بحيث لو تعطل المدح لترك العبادة.

ولذا قيل: الرياء: الشرك الأصغر، أي إذا كان هو الباعث على العمل.

ومثل ذلك أن يقاتل لأجل الغنيمة؛ فلو أيس منها ترك القتال، فأما إن كان للنفس حظ عاجل وكان حاصلاً تبعاً للعبادة وليس هو المقصود فهو مغتفر وخاصة إذا كان ذلك لا تخلو عنه النفوس، أو كان مما يُعين على الاستزادة من العبادة. ٢٣/٣١٨

٥ـ وقال مالك: «إذا كان أول ذلك وأصلُه لله فلا بأس به إن شاء الله، قال الله ـتعالىـ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ وقال: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي

الآخِرِينَ﴾.

قال مالك: وإنما هذا شيء يكون في القلب لا يُملك وذلك من وسوسة الشيطان؛ ليمنعه من العمل فمن وجد ذلك فلا يُكْسِلْه عن التمادي على فعل الخير ولا يؤيسه من الأجر، وليدفع الشيطان عن نفسه ما استطاع -أي إذا أراد تثبيطه عن العمل- ويجدد النية؛ فإن هذا غير مؤاخذ به إن شاء الله» ا هـ. ٣١٩/٢٣

٦- وأقول: إن القصد إلى العبادة ليتقرب إلى الله؛ فيسأله ما فيه صلاحه في الدنيا -أيضا- لا ضير فيه، لأن تلك العبادة جعلت وسيلة للدعاء ونحوه وكل ذلك تقرب إلى الله -تعالى- وقد شرعت صلوات لكشف الضر، وقضاء الحوائج مثل صلاة الاستخارة وصلاة الضرِّ والحاجة.

ومن المغتفر -أيضاً- أن يقصد العامل من عمله أن يدعوَ له المسلمون، ويذكروه بخير.

وفي هذا المعنى قال عبدالله بن رواحةرضي الله عنه حين خروجه إلى غزوة مؤتة ودعا له المسلمون حين ودّعوه ولمن معه بأن يردهم الله سالمين:

لكنني أسأل الرحمان مغفرةً وضربةً ذاتَ فرع يقذف الزبدا

أو طعنة من يدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي أرشدك الله من غازٍ وقد رشدا

وقد علمت من تقييدنا الحظ بأنه حظ دنيوي أن رجاء الثواب واتقاء العقاب هو داخل في معنى الإخلاص؛ لأنه راجع إلى التقرب لرضى الله -تعالى-. ٣١٩/٢٣-٣٢٠

٧ـ **وينبغي أن تعلم أن فضيلة الإخلاص في العبادة** هي قضية أخص من قضية صحة العبادة وإجزائها في ذاتها؛ إذ قد تعرُو العبادة عن فضيلة الإخلاص، وهي مع ذلك صحيحة مجزئة، فللإخلاص أثر في تحصيل ثواب العمل، وزيادته، ولا علاقة له بصحة العمل. ٢٣/٣٢٠

٨ـ ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ بدل من جملة: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾.

وضمير المخاطبين هنا راجع إلى الناس لا غير، وهو استدلال بتطور خلق الإنسان على عظيم قدرة الله، وحكمته، ودقائق صنعه.

والتعبير بصيغة المضارع لإفادة تجدد الخلق، وتكرره مع استحضار صورة هذا التطور العجيب استحضاراً بالوجه والإجمال الحاصل للأذهان على حسب اختلاف مراتب إدراكها، ويعلم تفصيلَه علماءُ الطب والعلوم الطبيعية، وقد بينه الحديث عن النبيﷺ: « **إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يُرسل إليه الملَك فينفخُ فيه الروح** ».

وقوله: ﴿ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أي طوراً من الخلق بعد طور آخر يخالفه.

وهذه الأطوار عشرة: الأول: طورُ النطفة، وهي جسم مُخاطي مستدير أبيض خال من الأعضاء يشبه دودة، طوله نحو خمسة مليمتر.

الثاني: طورُ العلقة، وهي تتكون بعد ثلاثة وثلاثين يوماً من وقت استقرار النطفة في الرحم، وهي في حجم النملة الكبيرة طولها نحو ثلاثة عشر مليمتراً يلوح فيها الرأسُ، وتخطيطاتٌ من صور الأعضاء.

الثالث: طور المضغة وهي قطعةٌ حمراء في حجم النحلة.

الرابع: عند استكمال شهرين يصير طولُه ثلاثةَ سنتيمتر، وحجمُ رأسِه بمقدار نصف بقيته، ولا يتميز عُنُقُه، ولا وجهه، ويستمر احمرارُه.

الخامس: في الشهر الثالث يكون طوله خمسة عشر سنتيمتراً، ووزنه مائة غرام، ويبدو رسمُ جبهته وأنفه وحواجبه وأظافره، ويستمر احمرارُ جلدِه.

السادس: في الشهر الرابع يصير طوله عشرين سنتيمتراً، ووزنه ٢٤٠ غرامات، ويظهر في الرأس زَغَبٌ، وتزيد أعضاؤه البطْنية على أعضائه الصدْرية، وتتضح أظافره في أواخر ذلك الشهر.

السابع: في الشهر السادس يصير طوله نحو ثلاثين سنتيمتراً، ووزنه خمسمائة غرام، ويظهر فيه مطبقاً، وتتصلب أظافره.

الثامن: في الشهر السابع يصير طوله ثمانية وثلاثين سنتيمتراً، ويقل احمراراً جِلْدُهُ ويتكاثف جلده، وتظهر على الجلد مادة دهنية دسمة ملتصقة، ويطول شعر رأسه، ويميل إلى الشقرة، وتتقبب جمجمته من الوسط.

التاسع: في الشهر الثامن يزيد غلظه أكثر من ازدياد طوله، ويكون طوله نحو أربعين سنتيمتراً، ووزنه نحو أربعة أرطال أو تزيد، وتقوى حركته.

العاشر: في الشهر التاسع يصير طوله من خمسين إلى ستين سنتيمتراً ووزنه من ستة إلى ثمانية أرطال، ويتم عظمُه، ويتضخم رأسه، ويكثف شعره، وتبتدئ فيه وظائفُ الحياة في الجهاز الهضمي والرئة والقلب، ويصير نماؤه بالغذاء، وتظهر دورة الدم فيه المعروفة بالدورة الجنينية.

و**(الظلمات الثلاث):** ظلمة بطن الأم، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة،

وهي غشاء من جلد يخلق مع الجنين محيطاً به ليقيه وليكون به استقلاله مما ينجر إليه من الأغذية في دورته الدموية الخاصة به دون أمه.

وفي ذكر هذه الظلمات تنبيهٌ على إحاطة علم الله ـتعالىـ بالأشياء، ونفوذ قدرته إليها في أشد ما تكون فيه من الخفاء. ٢٣/٣٣٣ـ٣٣٤

٩ـ ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾.

وشرح الصدر للإسلام استعارة لقبول العقل هديَ الإسلام ومحبته.

وحقيقة الشرح أنه: شق اللحم، ومنه سمي علم مشاهدة باطن الأسباب وتركيبه علم التشريح؛ لتوقفه على شق الجلد واللحم، والاطلاع على ما تحت ذلك.

ولما كان الإنسان إذا تحير وتردد في أمر يجد في نَفَسه عما يتأثر منه جهازه العصبي، فيظهر تأثره في انضغاط نَفَسه حتى يصير تنفسه عسيراً، ويكثر تنهده، وكان عضو التنفس في الصدر، شبه ذلك الانضغاط بالضيق والانطباق فقالوا: ضاق صدره قال ـتعالىـ عن موسى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾.

وقالوا: انطبق صدره، وانطبقت أضلاعه، وقالوا في ضد ذلك: شرح اللهُ صَدْرَهُ، وجمع بينهما قوله ـتعالىـ: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ في سورة الأنعام.

ومنه قولهم: فلان في انشراح، أي يحس كأن صدره شُرِح ووُسع.

ومن رشاقة ألفاظ القرآن إيثار كلمة (شرح) للدلالة على قبول الإسلام؛ لأن تعاليم الإسلام وأخلاقه وآدابه تكسب المسلم فرحاً بحاله، ومسرة برضى ربه،

واستخفافاً للمصائب والكوارث؛ لجزمه بأنه على حق في أمره، وأنه مثاب على ضره، وأنه راجٍ رحمةَ ربه في الدنيا والآخرة، ولعدم مخالطة الشك والحيرة ضميره.

فإن المؤمن أول ما يؤمن بأن الله واحد وأن محمداًﷺ رسوله ـ ينشرح صدره بأنه ارتفع درجاتٍ عن الحالة التي كان عليها حالة الشرك إن اجتنب عبادة أحجار هو أشرف منها، ومعظم ممتلكاته أشرف منها كفرسه، وجَمَلِه، وعَبْدِه، وأَمَتِه، وماشيته، ونخله؛ فشعر بعزة نفسه مرتفعاً عما انكشف له من مهانتها السابقة التي غسلها عنه الإسلامُ، ثم أصبح يقرأ القرآنَ وينطق عن الحكمة، ويتَّسم بمكارم الأخلاق، وأصالة الرأي، ومحبة فعل الخير؛ لوجه الله، لا للرياء والسمعة، ولا ينطوي باطنه على غل ولا حسد ولا كراهية في ذات الله وأصبح يُعد المسلمين لنفسه إخواناً، وقد ترك الاكتساب بالغارة والميسر، واستغنى بالقناعة عن الضراعة إلا إلى الله ـتعالىـ وإذا مسه ضرٌّ رجا زواله ولم ييأس من تغير حاله، وأيقن أنه مثاب على تحمله وصبره، وإذا مسته نعمةٌ حمد ربه وترقَّب المزيد؛ فكان صدره منشرحاً بالإسلام متلقياً الحوادث باستبصار غير هياب شجاع القلب عزيز النفس. ٢٣/٣٧٩ـ٣٨٠

١٠ـ **ومعنى كون القرآن أحسن الحديث**: أنه أفضل الأخبار؛ لأنه اشتمل على أفضل ما تشتمل عليه الأخبار من المعاني النافعة والجامعة لأصول الإيمان، والتشريع، والاستدلال، والتنبيه على عظم العوالم والكائنات، وعجائب تكوين الإنسان، والعقل، وبث الآداب، واستدعاء العقول للنظر والاستدلال الحق، ومن فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه البالغَيْن حد الإعجاز، ومن كونه

مصدقاً لما تقدمه من كتب الله، ومهيمناً عليها.

وفي إسناد إنزاله إلى الله استشهاد على حسنه حيث نزّله العليم بنهاية محاسن الأخبار والذكر. ٣٨٥/٢٣

١١ـ وقد أوصى أئمة سلفنا الصالح أن لا يُذكَر أحدٌ من أصحاب الرسولﷺ إلا بأحسن ذكر، وبالإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس بأن يُلتمس لهم أحسنُ المخارج فيما جرى بين بعضهم، ويظن بهم أحسن المذاهب.

ولذلك اتفق السلف على تفسيق ابن الأشتر النخعي ومن لُفَّ لَفَّه من الثوار الذين جاءوا من مصر إلى المدينة لخلع عثمان بن عفان، واتفقوا على أن أصحاب الجمل، وأصحاب صفين كانوا متنازعين عن اجتهاد، وما دفعهم عليه إلا السعي لصلاح الإسلام، والذب عن جامعته من أن تتسرب إليها الفرقة والاختلال؛ فإنهم جميعاً قدوتنا، وواسطة تبليغ الشريعة إلينا، والطعن في بعضهم يفضي إلى مخاوف في الدين، ولذلك أثبت علماؤنا عدالة جميع أصحاب النبيﷺ. ١١/٢٤

١٢ـ ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾.

أُطنبت آيات الوعيد بأفنانها السابقة إطناباً يبلغ من نفوس سامعيها أيَّ مبلغ من الرعب والخوف على رغم تظاهرهم بقلة الاهتمام بها.

وقد يبلغ بهم وقعها مبلغ اليأس من سَعيٍ ينجيهم من وعيدها، فأعقبها الله ببعث الرجاء في نفوسهم؛ للخروج إلى ساحل النجاة إذا أرادوها على عادة هذا الكتاب المجيد من مداواة النفوس بمزيج الترغيب والترهيب.

والكلام استئناف بياني؛ لأن الزواجر السابقة تثير في نفوس المواجَهين بها خاطر التساؤل عن مسالك النجاة؛ فتتلاحم فيها الخواطر الملَكية والخواطر الشيطانية إلى أن يُرسي التلاحم على انتصار إحدى الطائفتين؛ فكان في إنارة السبيل لها ما يسهل خطو الحائرين في ظلمات الشك، ويرتفق بها، ويواسيها بعد أن أثخنتها جروح التوبيخ والزجر والوعيد، ويضمد تلك الجراحة ـوالحليمُ يزجرُ ويلين ـ وتثير في نفس النبيﷺ خشية أن يحيط غضبُ الله بالذين دعاهم إليه فأعرضوا، أو حببهم في الحق فأبغضوا؛ فلعله لا يُفْتَح لهم باب التوبة، ولا تقبل منهم بعد إعراضهم أوبة، ولا سيما بعد أن أمره بتفويض الأمر إلى حُكْمِه، المشتَمِّ منه ترقبُ قطعِ الجدال وفصمِه، فكان أمره لرسوله ﷺ بأن يناديهم بهذه الدعوة؛ تنفيساً عليه، وتفتيحاً لباب الأوبة إليه؛ فهذا كلام ينحل إلى استئنافين فجملة (قل) استئناف لبيان ما ترقَّبه أفضل النبيين ﷺ أي بلغ عني هذا القول. ٢٤/٣٩ـ٤٠

سورة المؤمن

١ـ وردت تسمية هذه السورة في السنة (حم المؤمن).

روى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ حم المؤمن** إلى ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ **وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما**» الحديث.

وبذلك اشتهرت في مصاحف المشرق، وبذلك ترجمها البخاري في صحيحه والترمذي في الجامع.

ووجه التسمية أنها ذكرت فيها قصة مؤمن آل فرعون، ولم تذكر في سورة أخرى بوجه صريح.

والوجه في إعراب هذا الاسم حكايةُ كلمة (حم) ساكنةَ الميم بلفظها الذي يقرأ، وبإضافته إلى لفظ (المؤمن) بتقدير: سورة حم ذِكْرِ المؤمن أو (لفظ المؤمن) وتسمى ـأيضاًـ سورة (الطَّوْل) لقوله ـتعالىـ في أولها: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ وقد تنوسي هذا الاسم.

وتسمى سورة غافر لذكر وصفه ـتعالىـ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ في أولها.

وبهذا الاسم اشتهرت في مصاحف المغرب.

وهي مكية بالاتفاق وعن الحسن استثناء قوله ـتعالىـ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ لأنه كان يرى أنها نزلت في فرض الصلوات الخمس وأوقاتها.

ويرى أن فرض صلواتٍ خمسٍ وأوقاتها ما وقع إلا في المدينة، وإنما كان المفروض بمكة ركعتين كل يوم من غير توقيت، وهو من بناء ضعيف على ضعيف؛ فإن الجمهور على أن الصلوات الخمس فرضت بمكة في أوقاتها على أنه

لا يتعين أن يكون المراد بالتسبيح في تلك الآية الصلوات، بل يحمل على ظاهر لفظه من كل قول ينزه به الله -تعالى-.

وأشذُّ منه ما روي عن أبي العالية أن قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ نزلت في يهود من المدينة جادلوا النبيﷺ في أمر الدجال، وزعموا أنه منهم.

وقد جاء في أول السورة: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُو﴾ والمراد بهم: المشركون.

وهذه السورة جعلت الستين في عداد ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة الزمر وقبل سورة فصلت وهي أول سور آل حم نزولاً.

وقد كانت هذه السورة مقروءة عقب وفاة أبي طالب، أي سنة ثلاث قبل الهجرة، لما سيأتي أن أبا بكر قرأ آية: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ﴾ حين آذى نفر من قريش رسول اللهﷺ حول الكعبة، وإنما اشتد أذى قريش رسول اللهﷺ بعد وفاة أبي طالب.

والسور المفتتحة بكلمة ﴿حَم﴾ سبع سور مرتبة في المصاحف على ترتيبها في النزول، ويدعى مجموعها (آل حم) جعلوا لها اسم (آل) لتآخيها في فواتحها.

فكأنها أسرة واحدة وكلمة (آل) تضاف إلى ذي شرف، ويقال لغير المقصود تشريفه: أهل فلان قال الكميت:

قرأنا لكم في آل حاميم آيةً ... تَأَوَّلَها منا فقيهٌ ومُعربُ

يريد قول الله -تعالى- في سورة: ﴿حم عسق﴾ ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ على تأويل غير ابن عباس؛ فلذلك عززه بقوله: تأولها

منا فقيه ومعرب. ٢٤/٧٥ـ٧٦

٢ـ وأنشد أبو عبيدة أبياتاً لم يسمِّ قائلها:

حلفت بالسبع الألى قد طولت ... وبمئين بعدها قد أمِّئَت

وبثمان ثنيت وكررت ... وبالطواسين اللواتي ثلثت

وبالحواميم اللواتي سُبعت ... وبالمفصل التي قد فُصّلت

وعن أبي عبيدة والفراء أن قول العامة الحواميم ليس من كلام العرب وتبعهما أبو منصور الجواليقي.

وقد عدت آيها أربعاً وثمانين في عد أهل المدينة وأهل مكة، وخمساً وثمانين في عد أهل الشام والكوفة، واثنتين وثمانين في عد أهل البصرة. ٢٤/٧٧

٣ـ **أغراض هذه السورة**: تضمنت هذه السورةُ أغراضاً من أصول الدعوة إلى الإيمان؛ فابْتُدِئَتْ بما يقتضي تحديَ المعاندين في صدق القرآن كما اقتضاه الحرفان الْمُقطَّعان في فاتحتهما كما تقدم في أول سورة البقرة.

وأجري على اسم الله ـتعالىـ من صفاته ما فيه تعريضٌ بدعوتهم إلى الإقلاع عما هم فيه؛ فكانت فاتحةُ السور مثلَ دِيباجةِ الخُطْبَةِ مشيرةً إلى الغرض من تنزيلِ هذه السورة.

وعَقَّب ذلك بأن دلائلَ تنزيلِ هذا الكتابِ من الله بَيِّنَةٌ لا يجحدها إلا الكافرون من الاعتراف بها حسداً، وأن جدالهم تَشْغِيْبٌ، وقد تكرر ذكر المجادلين في آيات الله خَمْسَ مرات في هذه السورة، وتمثيلُ حالهم بحال الأمم التي كذبت رسل الله بذكرهم إجمالاً، ثم التنبيهُ على آثار استئصالهم، وضربُ المثل بقوم فرعون.

وموعظةُ مؤمن آل فرعونَ قَوْمَهُ بمواعظَ تُشبه دعوة محمدﷺ قومه.

والتنبيهُ على دلائل تفرد الله ـتعالى ـ بالإلهية إجمالاً.

وإبطالُ عبادة ما يعبدون من دون الله.

والتذكيرُ بنعم الله على الناس؛ لِيشْكُرَه الذين أعرضوا عن شكره.

والاستدلالُ على إمكان البعث.

وإنذارُهم بما يَلْقَون مِنْ هَوْلِه، وما يترقبهم من العذاب، وتوعدهم بأن لا نصيرَ لهم يومئذ، وبأن كبراءهم يتبرؤون منهم.

وتثبيتُ الله رسولَهﷺ بتحقيقِ نصرِ هذا الدينِ في حياته وبعد وفاته.

وتخلَّل ذلك الثناءُ على المؤمنين، وَوصفُ كرامتِهم، وثناءُ الملائكة عليهم.

ووردَ في فضلِ هذه السورةِ الحديثُ الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «**من قرأ حم المؤمن إلى** ﴿إِلَيْهِ المَصِيْر﴾ **وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح**».

٢٤/٧٧ـ٧٨

٤ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾.

هذه مقالة أخرى لفرعون في مجلس آخر غير المجلس الذي حاجّه فيه موسى ولذلك عطف قوله بالواو كما أشرنا إليه فيما عطف من الأقوال السابقة آنفاً، وكما أشرنا إليه في سورة القصص، وتقدم الكلام هنالك مستوفى على نظيره معنى هذه الآية على حسب ظاهرها، وتقدم ذكر (هامان) والصرح هنالك.

وقد لاح لي هنا محمل آخر أقرب أن يكون المقصود من الآية ينتظم مع ما ذكرناه هنالك في الغاية ويخالفه في الدلالة، وذلك أن يكون فرعون أمر ببناء

صرح لا لقصد الارتقاء إلى السماوات، بل ليخلُوَ بنفسه رياضة، ليستمد الوحي من الرب الذي ادعى موسى أنه أَوحَى إليه إذ قال: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

فإن الارتياض في مكان منعزل عن الناس كان من شعار الاستحياء الكهنوتي عندهم، وكان فرعون يحسب نفسه أهلاً لذلك؛ لزعمه أنه ابن الآلهة، وحامي الكهنة والهياكل.

وإنما كان يشغله تدبير أمر المملكة؛ فكان يكِل شؤون الديانة إلى الكهنة في معابدهم، فأراد في هذه الأزمة الجدلية أن يتصدى لذلك بنفسه؛ ليكون قوله الفصل في نفي وجود إله آخر؛ تضليلاً لدهماء أمته؛ لأنه أراد التوطئة للإخبار بنفي إله آخر غير آلهتهم، فأراد أن يتولى وسائل النفي بنفسه كما كانت لليهود محاريب للخلوة للعبادة كما تقدم عند قوله ـتعالىـ: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ﴾ وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ ومن اتخاذ الرهبان النصارى صوامع في أعالي الجبال؛ للخلوة للتعبد.

ووجودها عند هذه الأمم يدل على أنها موجودة عند الأمم المعاصرة لهم والسابقة عليهم. ١٤٥/٢٤ـ١٤٦

٥ـ **وكلمة: ﴿لا جَرَمَ﴾** بفتحتين في الأفصح من لغات ثلاث فيها، كلمة يراد بها معنى: لا يثبت، أو لابد؛ فمعنى ثبوته؛ لأن الشيء الذي لا ينقطع هو باق وكل ذلك يؤول إلى معنى حق وقد يقولون: لا ذا جرم، ولا أنَّ ذا جرم، ولا عَنَّ ذا جرم، ولا جَرَ بدون ميم ترخيماً للتخفيف.

والأظهر أن (جرم) اسم لا فعل؛ لأنه لو كان فعلاً لكان ماضياً بحسب

صيغته ، فيكون دخول (لا) عليه من خصائص استعمال الفعل في الدعاء.

والأكثر أن يقع بعدها (أنَّ) المفتوحة المشددة؛ فيقدر معها حرف (في) ملتزماً حذفه غالباً.

والتقدير : لا شك في أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة.

وتقدم بيان معنى (لا جرم) وأن جرم فعل أو اسم عند قوله ـتعالىـ : ﴿ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ الأَخْسَرُونَ ﴾ في سورة هود. ١٥٤/٢٤

سورة فصلت

١ـ **تسمى (حم السجدة)** بإضافة (حم) إلى (السجدة) كما قدمناه في أول سورة المؤمن، وبذلك تُرجمت في صحيح البخاري، وفي جامع الترمذي؛ لأنها تميزت عن السور المفتتحة بحروف (حم) بأن فيها سجدةً من سجود القرآن.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن خليل بن مرة[١]: «أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: تبارك، وحم السجدة»[٢].

وسميت في معظم مصاحف المشرق والتفاسير (سورة السجدة) وهو اختصار قولهم (حم السجدة) وليس تمييزاً لها بذات السجدة.

وسميت هذه السورة في كثير من التفاسير (سورة فصلت).

واشتهرت تسميتها في تونس والمغرب (سورة فصلت) لوقوع كلمة: ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ في أولها فعُرِّفت؛ بها تمييزاً لها من السور المفتتحة بحروف (حم).

كما تميزت (سورة المؤمن) باسم (سورة غافر) عن بقية السور المفتتحة بحروف (حم).

وقال الكواشي: وتسمى (سورة المصابيح) لقوله ـتعالىـ فيها: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا

١ـ هو خليل بن مرة الضُبَعي (بضم الضاد المعجمة وفتح الموحدة) البصري الرقي، روى عن عطاء وقتادة، وروى عنه الليث، وابن وهب، وأحمد بن حنبل، قال البخاري: هو منكر الحديث توفي سنة ستين ومائة.

٢ـ المعروف هو حديث الترمذي عن جابر «كان رسول الله لا ينام حتى يقرأ: آلم تنزيل، وتبارك الذي بيده الملك». ولا منافاة بين الحديثين.

السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وتسمى (سورة الأقوات) لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾.

وقال الكواشي في التبصرة: تسمى (سجدة المؤمن) ووجه هذه التسمية قصد تمييزها عن سورة (الم السجدة) المسماة (سورة المضاجع) فأضافوا هذه إلى السورة التي قبلها وهي (سورة المؤمن) كما ميزوا (سورة المضاجع) باسم (سجدة لقمان) لأنها واقعة بعد (سورة لقمان).

وهي مكية بالاتفاق نزلت بعد (سورة غافر) وقبل (سورة الزخرف) وعدت الحادية والستين في ترتيب نزول السور.

وعدت آيها عند أهل المدينة وأهل مكة ثلاثاً وخمسين، وعند أهل الشام والبصرة اثنتين وخمسين، وعند أهل الكوفة أربعاً وخمسين. **٢٤/٢٢٧ـ٢٢٨**

٢ـ أغراضُها: التنويهُ بالقرآنِ، والإشارةُ إلى عَجْزِهم عن معارضته.

وذكرُ هَدْيِهِ، وأنه معصومٌ من أن يتطرقه الباطل، وتأييدهُ بما أُنْزِل إلى الرسل من قبل الإسلام.

وتَلَقِّي المشركين له بالإعراض وصمِّ الآذان.

وإبطالُ مطاعنِ المشركين فيه، وتذكيرُهم بأن القرآنَ نزل بِلُغَتِهم؛ فلا عذر لهم أصلاً في عدم انتفاعهم بهديه.

وَزجْرُ المشركين، وتوبيخُهم على كفرهم بخالق السماوات والأرض مع بيان ما في خلقها من الدلائل على تفرده بالإلهية.

وإنذارُهم بما حلَّ بالأمم المكذبةِ من عذاب الدنيا.

ووعيدُهم بعذاب الآخرة، وشهادةُ سمعهم وأبصارهم وأجسادهم عليهم.

وتحذيرُهم من القرناء المُزَيِّنين لهم الكُفْرَ من الشياطين والناس، وأنهم سيندمون يومَ القيامة على اتباعهم في الدنيا.

وقوبل ذلك بما للموحدين من الكرامة عند الله.

وأمرُ النبيِّ ﷺ بدفعهم بالتي هي أحسن، وبالصبر على جفوتهم، وأن يستعيذ بالله من الشيطان.

وذُكِرَتْ دلائلُ تفردِ الله بخلق المخلوقات العظيمة كالشمس والقمر.

ودلائلُ إمكانِ البعث؛ وأنه واقع لا محالة، ولا يعلم وقته إلا الله -تعالى-.

وتثبيتُ النبي ﷺ والمؤمنين بتأييد الله إياهم بتنزل الملائكة بالوحي، وبالبشارة للمؤمنين.

وتخلل ذلك أمثالٌ مختلفةٌ في ابتداء خلق العوالم، وعِبَرٌ في تقلبات أهل الشرك، والتنويه بإيتاء الزكاة. **٢٤/٢٢٨-٢٢٩**

٣- والخوف: غم في النفس ينشأ عن ظن حصول مكروه شديد.

والحزَن: غم في النفس ينشأ عن وقوع مكروه بفوات نفع، أو حصول ضر. **٢٤/٢٨٥**

٤- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾.

وفي هذه الآية منزع عظيم لفضيلة علماء الدين الذين بينوا السنن، ووضحوا أحكام الشريعة واجتهدوا في التوصل إلى مراد الله -تعالى- من دينه ومن خَلْقه. **٢٤/٢٨٩**

٥- و﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: هي الحسنة، وإنما صيغت بصيغة التفضيل ترغيباً

في دفع السيئة بها؛ لأن ذلك يشق على النفس؛ فإن الغضب من سوء المعاملة من طباع النفس، وهو يبعث على حب الانتقام من المسيء، فلما أُمر الرسولﷺ بأن يجازي السيئة بالحسنة أشير إلى فضل ذلك.

وقد ورد في صفة رسول اللهﷺ: «ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح».

وقد قيل: إن ذلك وصفه في التوراة.

وفرع على هذا الأمر قوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ لبيان ما في ذلك الأمر من الصلاح؛ ترويضاً على التخلق بذلك الخُلق الكريم، وهو أن تكون النفس مصدراً للإحسان.

ولما كانت الآثار الصالحة تدل على صلاح مثارها، وأَمَرَ اللهُ رسولَهﷺ بالدفع بالتي هي أحسن ـ أردفه بذكر بعض محاسنه، وهو أن يصير العدو كالصديق، وحُسنُ ذلك ظاهرٌ مقبول؛ فلا جرم أن يدل حُسنه على حسن سببه.

ولذكر المُثُل والنتائجِ عَقِبَ الإرشادِ شأنٌ ظاهرٌ في تقرير الحقائق، وخاصة التي قد لا تقبلها النفوس؛ لأنها شاقة عليها، والعداوة مكروهة، والصداقة والولاية مرغوبة؛ فلما كان الإحسان لمن أساء يدنيه من الصداقة، أو يُكسبه إياها كان ذلك من شواهد مصلحة الأمر بالدفع بالتي هي أحسن.

و**(إذا)** للمفاجأة، وهي كناية عن سرعة ظهور أثر الدفع بالتي هي أحسن في انقلاب العدو صديقاً.

وعدل ذكر العدو معرفاً بلام الجنس إلى ذكره باسم الموصول ليتأتى تنكير عداوة للنوعية، وهو أصل التنكير، فيصدُقُ بالعداوة القوية ودونها، كما أن

ظرف (بينك وبينه) يصدُق بالبين القريب والبين البعيد، أعني ملازمةَ العداوةِ، أو طُرُوَّها.

وهذا تركيب من أعلى طَرَف البلاغة؛ لأنه يجمع أحوال العداوات، فيعلم أن الإحسان ناجح في اقتلاع عداوة المحسَن إليه للمُحْسِنِ على تفاوت مراتب العداوة قوة وضعفاً، وتمكناً وبعداً، ويعلم أنه ينبغي أن يكون الإحسان للعدو قوياً بقدر تمكن عداوته؛ ليكون أنجع في اقتلاعها.

ومن الأقوال المشهورة: النفوس مجبولة على حبِّ من أحسن إليها.

والتشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ تشبيه في زوال العداوة، ومخالطة شوائب المحبة؛ فوجه الشبه هو المصافاةُ والمقاربةُ وهو معنى متفاوت الأحوال، أي مقول على جنسه بالتشكيك على اختلاف تأثر النفس بالإحسان، وتفاوت قوة العداوة قبل الإحسان، ولا يبلغ مبلغ المشبَّه به؛ إذ من النادر أن يصير العدو ولياً حميماً، فإن صاره فهو لعوارضَ غيرِ داخلةٍ تحت معنى الإسراع الذي آذنت به (إذا) الفجائية. ٢٤/٢٩٢-٢٩٣

٦ـ ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾.

وهذا تحريض على الارتياض بهذه الخصلة بإظهار احتياجها إلى قوة عزم، وشدة مراس للصبر على ترك هوى النفس في حب الانتقام، وفي ذلك تنويه بفضلها بأنها تلازمها خصلةُ الصبر وهي في ذاتها خصلةٌ حميدة، وثوابها جزيل ـكما علم من عدة آيات في القرآنـ وحسبك قوله ـتعالىـ: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

فالصابر مرتاض بتحميل المكاره، وتجرع الشدائد، وكظم الغيظ؛ فيهون عليه ترك الانتقام. ٢٤/٢٩٤-٢٩٥

٧- ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾.

عطفٌ على جملة: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ فبعد أن أُرشد إلى ما هو عونٌ على تحصيل هذا الخلقِ المأمورِ به - وهو دفع السيئة بالتي هي أحسن - وبعد أن شُرِحَتْ فائدةُ العمل بها بقوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ صُرِف العِنان هنا إلى التحذير من عوائقها التي تجتمع كثرتها في حقيقة نزغ الشيطان، فأُمر بأنه إن وجد في نفسه خواطر تَصْرِفه عن ذلك، وتدعوه إلى دفع السيئة بمثلها؛ فإن ذلك نزغٌ من الشيطان دواؤه أن تستعيذ بالله منه؛ فقد ضمن الله له أن يعيذه إذا استعاذ؛ لأنه أمره بذلك، والخطاب للنبيﷺ.

وفائدة هذه الاستعاذة تجديدُ داعيةِ العصمة المركوزة في نفس النبيﷺ لأن الاستعاذة بالله من الشيطان استمداد للعصمة وصقل لزكاء النفس مما قد يقترب منها من الكدرات.

وهذا سرٌّ من الاتصال بين النبيﷺ وربه وقد أشار إليه قول النبيﷺ: «**إنه لَيُغانَ على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»[1].

فبذلك تسلم نفسه من أن يغشاها شيءٌ من الكُدُرات، ويلحق به في ذلك صالحو المؤمنين. ٢٤/٢٩٦

٨- **والمعنى:** فإن سوّل لك الشيطان أن لا تعامل أعداءك بالحسنة، وزيَّن لك

١- رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

الانتقام، وقال لك: كيف تحسن إلى أعداء الدين، وفي الانتقام منهم قطع كيدهم للدين؟ فلا تأخذ بنزغه، وخذْ بما أمرناكَ واستعذ بالله من أن يزلّك الشيطان؛ فإن الله لا يخفى عليه أمر أعدائك، وهو يتولى جزاءهم. ٢٤/٢٩٨

٩ـ ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

وفي هذه الآية طرف من الإعجاز بالإخبار عن الغيب؛ إذ أخبرت بالوعد بحصول النصر له، ولدينه، وذلك بما يسَّر الله لرسولهﷺ ولخلفائه من بعده في آفاق الدنيا والمشرق والمغرب عامة، وفي باحة العرب خاصة من الفتوح، وثباتها، وانطباع الأمم بها ما لم تتيسر أمثالُها لأحد من ملوك الأرض والقياصرة والأكاسرة على قلة المسلمين إن نسب عددهم إلى عدد الأمم التي فتحوا آفاقها بنشر دعوة الإسلام في أقطار الأرض.

والتاريخُ شاهدٌ بأن ما تهيأ للمسلمين من عجائب الانتشار والسلطان على الأمم أمرٌ خارقٌ للعادة؛ فيتبين أن دين الإسلام هو الحق، وأن المسلمين كلما تمسكوا بعرى الإسلام لقوا من نصر الله أمراً عجيباً يشهد بذلك السابق واللاحق، وقد تحداهم الله بذلك في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

ثم قال: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

ولم يقفْ ظهور الإسلام عند فتح الممالك والغلب على الملوك والجبابرة، بل تجاوز ذلك إلى التغلغل في نفوس الأمم المختلفة، فَتَقَلَّدوه ديناً، وانبثت آدابه وأخلاقه فيهم، فأصلحت عوائدهم ونظمهم المدنية المختلفة التي كانوا عليها،

فأصبحوا على حضارة متماثلة متناسقة، وأوجدوا حضارةً جديدةً سالمة من الرعونة، وتفشت لغةَ القرآن فتخاطبت بها الأمم المختلفة الألسن، وتعارفت بواسطتها.

ونبغت فيهم فطاحل من علماء الدين، وعلماء العربية، وأئمة الأدب العربي، وفحول الشعراء، ومشاهير الملوك الذين نشروا الإسلام في الممالك بفتوحهم. ٢٥/١٨ـ١٩

سورة الشورى

١ـ **اشتهرت تسميتها** عند السلف (حم عسق) وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير، والترمذي في جامعه، وكذلك سميت في عدة من كتب التفسير وكثير من المصاحف.

وتسمى (سورة الشورى) بالألف واللام كما قالوا: (سورة المؤمن).

وبذلك سميت في كثير من المصاحف والتفاسير، وربما قالوا: (سورة شورى) بدون ألف ولام؛ حكايةً للفظ القرآن.

وتسمى سورة عسق بدون لفظ (حم) لقصد الاختصار.

ولم يعدها في الإتقان في عداد السور ذات الاسمين فأكثر، ولم يثبت عن النبيﷺ شيء في تسميتها.

وهي مكية كلها عند الجمهور، وعدها في الإتقان في عداد السور المكية، وقد سبقه إلى ذلك الحسن بن الحصار في كتابه في الناسخ والمنسوخ ـكما عزاه إليه في الإتقانـ.

وعن ابن عباس وقتادة استثناء أربع آيات أولاها قوله: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ إلى آخر الأربع الآيات.

وعن مقاتل استثناء قوله ـتعالىـ: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ رؤي أنها نزلت في الأنصار وهي داخلة في الآيات الأربع التي ذكرها ابن عباس.

وفي أحكام القرآن لابن الفرس عن مقاتل: أن قوله ـتعالىـ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ

الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ الآيَةَ، نزل في أهل الصفة فتكون مدنية، وفيه عنه أن قوله ـتعالىـ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ نزل بالمدينة.

نزلت بعد سورة الكهف وقبل سورة إبراهيم وعدت التاسعة والستين في ترتيب نزول السور عند الجعبري المروي عن جابر بن زيد.

وإذا صحَّ أن آية: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ نزلت في انحباس المطر عن أهل مكة ـكما قال مقاتلـ تكون السورة نزلت في حدود سنة ثمان بعد البعثة، ولعل نزولها استمر إلى سنة تسع بعد أن آمن نقباء الأنصار ليلة العقبة، فقد قيل: إن قوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أريد به الأنصار قبل هجرة النبيﷺ إلى المدينة.

وعدت آيها عند أهل المدينة ومكة والشام والبصرة خمسين، وعند أهل الكوفة ثلاثاً وخمسين. **٢٥/٢٣ـ٢٤**

٢ـ أغراضُ هذه السورة: أولُ أغراضِها الإشارةُ إلى تحدي الطاعنين في أن القرآن وحيٌ مِنَ اللهِ بأن يأتوا بكلام مثله؛ فهذا التحدي لا تخلو عنه السور المفتتحة بالحروف الهجائية المقطعة ـكما تقدم في سورة البقرةـ.

واستدل اللهُ على المعاندين بأن الوحي إلى محمدﷺ ما هو إلا كالوحي إلى الرسل من قبله؛ لِيُنْذِرَ أهلَ مكةَ ومَنْ حولَها بيوم الحساب.

وأن الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض لا تُعَارَضُ قدرتُه، ولا يُشَكُّ في حكمته، وقد خَضَعَتْ له العوالمُ العليا ومَنْ فيها، وهو فاطرُ المخلوقات؛ فهو يجتبي من يشاء لرسالته؛ فلا بِدْعَ أن يشرع للأمة المحمدية من الدين مِثْلَ ما شرع

لمن قبله من الرسل، وما أرسل اللهُ الرسلَ إلا مِنَ البشرِ يوحي إليهم؛ فلم يَسْبِقْ أَنْ أرسل ملائكةً لمخاطبة عمومِ الناس مباشرةً.

وأن المشركين بالله لا حجة لهم إلا تقليدُ أئمةِ الكفر الذين شرعوا لهم الإشراكِ، وألقوا إليهم الشبهات.

وحذَّرهم يومَ الجزاء، واقترابَ الساعة، وما سيلقى المشركون يوم الحساب من العذاب مع إدماجِ التعريضِ بالترغيب فيما سيلقاه المؤمنون من الكرامة، وأنهم لو تَدَّبروا لعلموا أن النبيَّ ﷺ لا يأتي عن الله مِنْ تلقاء نفسه؛ لأن الله لا يقره على أن يقول عليه ما لم يقله.

وذُكِرَتْ دلائلُ الوحدانيةِ، وما هو من تلك الآيات؛ نعمةً على الناس مثل دليل السير في البحر، وما أوتيه الناسُ مِنْ نِعَمِ الدنيا.

وتسليةُ الرسولِ ﷺ بأن الله هو مُتَولي جزاءِ المكذبين وما على الرسول ﷺ من حسابهم من شيء؛ فما عليه إلا الاستمرار على دعوتهم إلى الحق القويم.

ونبَّههم إلى أنه لا يبتغي منهم جزاءً على نصحه لهم، وإنما يبتغي أن يراعوا أواصر القرابة بينه وبينهم.

وذكَّرهم نِعَمَ اللهِ عليهم، وحذَّرهم من التسبب في قطعها بسوء أعمالهم، وحرَّضهم على السعي في أسباب الفوز في الآخرة، والمبادرةِ إلى ذلك قبل الفوات؛ فقد فاز المؤمنون المتوكلون، ونوَّه بجلائل أعمالهم، وتَجَنُّبِهم التعرضَ لغضب الله عليهم.

وتخلل ذلك تنبيهٌ على آياتٍ كثيرةٍ من آيات انفراده -تعالى- بالخلق والتصرف المقتضي إنفرادَهُ بالإلهية؛ إبطالاً للشرك.

وخَتَمَها بتجَدُّد المُعجزة الأميةِ بأن الرسولﷺ جاءهم بهدىً عظيمٍ من الدين وقد علموا أنه لم يكن ممن تصدى لذلك في سابق عمره، وذلك أكبر دليل على أن ما جاء به أمر قد أوحي إليه به؛ فعليهم أن يهتدوا بهديه؛ فمن اهتدى بهديه فقد وافق مراد الله.

وختم ذلك بكلمة جامعة تتضمن التفويض إلى الله، وانتظار حُكْمِهِ وهي كلمةُ ﴿ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾. ٢٥/٢٤ـ٢٥

٣ـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (١١)﴾ خبر ثالث أو رابع عن الضمير في قوله: ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وموقع هذه الجملة كالنتيجة للدليل؛ فإنه لما قدم ما هو نعم عظيمة تبين أن الله لا يماثله شيء من الأشياء في تدبيره وإنعامه.

ومعنى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ﴾ ليس مثله شيء، فأقحمت كاف التشبيه على (مثل) وهي بمعناه؛ لأن معنى المثل هو الشبيه؛ فتعين أن الكاف مفيدة تأكيداً لمعنى المثل، وهو من التأكيد اللفظي باللفظ المرادف من غير جنسه، وحُسْنُه أنَّ المؤكد اسمٌ فأشبه مدخول كاف التشبيه المخالف لمعنى الكاف؛ فلم يكن فيه الثقل الذي في قول خطام المجاشعي:

وصاليات ككما يؤثفين[1]

وإذ قد كان المثل واقعاً في حيز النفي فالكاف تأكيد لنفيه؛ فكأنه نفيُ المثلِ عنه ـتعالىـ بجملتين؛ تعليماً للمسلمين كيف يبطلون مماثلة الأصنام لله ـتعالىـ.

١ـ رجز وقبله:

لم يبق من آي بها تحيين ... غير حطام ورمادي كفتين

وهذا الوجه هو رأي ثعلب، وابن جني، والزجاج، والراغب، وأبي البقاء، وابن عطية.

وجعله في الكشاف وجهاً ثانياً، وقدم قبله أن تكون الكاف غير مزيدة، وأن التقدير: ليس شبيه مثله شيء.

والمراد: ليس شبه ذاته شيء، فأثبت لذاته مثلاً، ثم نفى عن ذلك المثل أن يكون له مماثل كناية عن نفي المماثل لذات الله ـتعالىـ أي بطريق لازم اللازم؛ لأنه إذا نُفِي المثل عن مثله فقد انتفى المثل عنه؛ إذ لو كان له مثل لما استقام قولك: ليس شيء مثل مثله، وجعله من باب قول العرب: فلان قد أيفعت لِدَاتُه، أي أيفع هو فَكُنِّي بإيفاع لداته عن إيفاعه.

وقول رقيقة بنت صيفي[1] في حديث سقيا عبدالمطلب: «ألا وفيهم الطيب الطاهر لداته» اهـ، أي ويكون معهم الطيب الطاهر يعني النبي ﷺ.

وتبعه على ذلك ابن المنير في الانتصاف، وبعض العلماء يقول: هو كقولك ليس لأخي زيد أخ، تريد نفي أن يكون لزيد أخ؛ لأنه لو كان لزيد أخ لكان زيد أخاً لأخيه؛ فلما نفيت أن يكون لأخيه أخ فقد نفيت أن يكون لزيد أخ.

ولا ينبغي التعويل على هذا؛ لما في ذلك من التكلف والإبهام، وكلاهما مما ينبو عنه المقام.

وقد شمل نفي المماثلة إبطال ما نسبوا لله البنات، وهو مناسبة وقوعه عقب قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ الآية. ٢٥/٤٥ـ٤٧

٤ـ وقوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرف مستقر هو صفة لـ﴿شُورَى﴾.

١ـ هي رقيقة بقافين بصيغة التصغير بنت صيفي (والصواب أبي صيفي) بن هشام بن عبدالمطلب.

والتشاور لا يكون إلا بين المتشاورين فالوجه أن يكون هذا الظرف إيماء إلى أن الشورى لا ينبغي أن تتجاوز من يهمهم الأمر من أهل الرأي، فلا يدخل فيها من لا يهمه الأمر، وإلى أنها سر بين المتشاورين قال بشار:

ولا تشهد الشورى أمراً غير كاتم

وقد كان شيخ الإسلام محمود بن الخوجة أشار في حديث جرى بيني وبينه إلى اعتبار هذا الإيماء إشارة بيده حين تلا هذه الآية، ولا أدري أذلك استظهار منه أم شيء تلقاه من بعض الكتب، أو بعض أساتذته، وكلا الأمرين ليس ببعيد عن مثله. ٢٥/١١٢-١١٣

سورة الزخرف

١ـ سميت في المصاحف العتيقة والحديثة (سورة الزخرف) وكذلك وجدتها في جوء عتيق من مصحف كوفي الخط مما كتب في أواخر القرن الخامس.

وبذلك ترجم لها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه، وسميت كذلك في كتب التفسير.

وسماها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه (سورة حم الزخرف) بإضافة كلمة حم إلى الزخرف ـعلى نحو ما بيناه في تسمية سورة (حم المؤمن)ـ روى الطبرسي عن الباقر أنه سماها كذلك.

ووجه التسمية أن كلمة ﴿وَزُخْرُفاً﴾ وقعت فيها ولم تقع في غيرها من سور القرآن فعرفوها بهذه الكلمة.

وهي مكية: وحكى ابن عطية الاتفاق على أنها مكية، وأما ما روى عن قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن آية ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ نزلت بالمسجد الأقصى فإذا صح لم يكن منافياً لهذا لأن المراد بالمكي ما أنزل قبل الهجرة.

وهي معدودة السورة الثانية والستين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة فصلت وقبل سورة الدخان.

وعدت آيها عند العادين من معظم الأمصار تسعاً وثمانين، وعدها أهل الشام ثمانياً وثمانين. ١٥٧/٢٥

٢ـ أغراضها: أعظمُ ما اشتملت عليه هذه السورةُ من الأغراض: التحديْ

بإعجازِ القرآن؛ لأنه آيةُ صدقِ الرسولﷺ فيما جاء به، والتنويهُ بهِ عِدةَ مرات، وأنه أوحى الله به؛ لتذكيرهم، وتكريرِ تذكيرِهم وإن أعرضوا كما أعرض مَنْ قَبْلَهُمْ عن رسلهم.

وإذ قد كان باعثُهم على الطعنِ في القرآن تَعَلُّقَهُمْ بعبادة الأصنام التي نهاهم القرآن عنها ـ كان من أهمِّ أغراضِ السورةِ التعجيبُ من حالهم؛ إذ جمعوا بين الاعتراف بأن اللهَ خالقُهم والمنعمُ عليهم وخالقُ المخلوقات كلِّها وبين اتخاذِهم آلهةً يعبدونها شركاءَ لله، حتى إذا انتقض أساسُ عنادِهم اتضح لهم ولغيرهم باطِلُهم.

وجعلوا بناتٍ لله مع اعتقادهم أن البناتِ أحطُّ قدراً من الذكور؛ فجمعوا بذلك بين الإشراك والتنقيص.

وإبطالُ عبادةِ كلِّ ما دون الله على تفاوتِ درجاتِ المعبودين في الشرف؛ فإنهم سواءٌ في عدم الإلهية للألوهية ولِبُنُوَّة الله ـتعالىـ.

وعرَّج على إبطال حججهم ومعاذيرهم، وسفَّه تخييلاتِهم وَتُرَّهاتهم.

وذكَّرهم بأحوال الأمم السابقين مع رسلهم، وأنذرهم بمثل عواقبهم، وحذَّرهم من الاغترار بإمهال الله وخص بالذكر رسالةَ إبراهيمَ وموسى وعيسى ـعليهم السلامـ.

وخصَّ إبراهيمَ بأنه جعل كلمةَ التوحيدِ باقيةً في جَمْعٍ مِنْ عَقِبِه، وتوعَّد المشركين، وأنذرهم بعذاب الآخرة بعد البعث الذي كان إنكارُهم وقُوعَهُ من مُغَذِّيات كُفْرِهِم وإعراضهم؛ لاعتقادهم أنهم في مَأْمَنٍ بعد الموت.

وقد رُتِّبت هذه الأغراضُ وتفاريعُها على نَسْجٍ بديعٍ، وأسلوبٍ رائعٍ في التقديم والتأخير، والأصالة والاستطراد على حسب دواعي المناسباتِ التي

اقتضتها البلاغةُ، وتجديدُ نشاط السامع لقبول ما يلقى إليه.

وتخلل في خلاله من الحجج والأمثال والمُثُل والقوارع والترغيب والترهيب شيء عجيب، مع دحْضِ شُبَهِ المعاندين بأفانينِ الإقناعِ بانحطاط مِلَّةِ كُفْرِهم وعَسْفِ مُعْوَجِّ سلوكهم.

وأُدْمِجَ في خلال ذلك ما في دلائل الوحدانية من النعم على الناس والإنذار والتبشير.

وقد جرت آياتُ هذه السورةِ على أسلوبِ نِسْبَةِ الكلامِ إلى الله ـ تعالى ـ عدا ما قامت القرينة على الإسناد إلى غيره. ٢٥/١٥٨ـ١٥٩

٣ـ **وأشار بقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾** إلى ما كان في منطق موسى من الحُبسة والفهاهة كما حكى الله في الآية عن موسى ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي﴾ وفي الأخرى ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

وليس مقامُ موسى يومئذ مقامَ خطابةٍ ولا تعليم وتذكير حتى تكون قِلَّةُ الفصاحة نقصاً في عمله، ولكنه مقام استدلال وحجة؛ فيكفي أن يكون قادراً على إبلاغ مراده ولو بصعوبة، وقد أزال الله عنه ذلك حين تفرغ لدعوة بني إسرائيل كما قال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾.

ولعل فرعون قال ذلك؛ لما يعلم من حال موسى قبل أن يرسله الله حين كان في بيت فرعون، فذكر ذلك من حاله؛ ليذكِّر الناس بأمر قديم، فإن فرعون الذي بُعث موسى في زمنه هو (منفطاح الثاني) وهو ابن (رعمسيس الثاني) الذي وُلد موسى في أيامه وربِّي عنده، وهذا يقتضي أن (منفطاح) كان يعرف موسى ولذلك قال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

وأما رسولنا محمدﷺ فلما أُرسل إلى أمة ذات فصاحة وبلاغة وكانت معجزته القرآن المعجز في بلاغته وفصاحته وكانت صفة الرسول الفصاحة لتكون له المكانة الجليلة في نفوس قومه. ٢٣١/٢٥

٤ـ **والأساورة:** جمع أُسْوار لغة في سِوَار، وأصل الجمع أساوير مخفف بحذف إشباع الكسرة، ثم عوِّض الهاء عن المحذوف كما عوضت في زنادقة جمع زنديق إذ حقه زناديق.

وأما سوار فيجمع على أسورة.

والسوار: حلقة عريضة من ذهب أو فضة تحيط بالرسغ، وهو عند معظم الأمم من حلية النساء الحرائر ولذلك جاء في المثل: «لو ذاتُ سوار لطمتني» أي لو حرة لطمتني، قاله أحد الأسرى لطمته أمةٌ لقوم هو أسيرهم.

وكان السوار من شعار الملوك بفارس ومصر يلبس الملك سوارين.

وقد كان من شعار الفراعنة لبس سوارين أو أسورة من ذهب وربما جعلوا سوارين على الرسغين، وآخرين على العضدين.

فلما تخيّل فرعون أن رتبة الرسالة مثل المُلك حسب افتقادها هو من شعار الملوك عندهم أمارة على انتفاء الرسالة. ٢٣٢/٢٥

سورة الدخان

١ ـ سميت هذه السورة (حم الدخان).

روى الترمذي بسندين ضعيفين يعضد بعضهما بعضاً: عن أبي هريرة عن النبيﷺ : «**من قرأ حم الدخان في ليلة أو في ليلة الجمعة**» الحديث.

واللفظان بمنزلة اسم واحد؛ لأن كلمة (حم) غير خاصة بهذه السورة فلا تُعد علماً لها، ولذلك لم يعدها صاحب الإتقان في عداد السور ذوات أكثر من اسم.

وسميت في المصاحف وفي كتب السنة (سورة الدخان).

ووجه تسميتها بالدخان وقوع لفظ الدخان فيها المراد به آية من آيات الله أيّد الله بها رسولهﷺ فلذلك سميت به اهتماماً بشأنه، وإن كان لفظ (الدخان) بمعنى آخر قد وقع في سورة (حم تنزيل) في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾.

وهي نزلت قبل هذه السورة على المعروف من ترتيب تنزيل سور القرآن عن رواية جابر بن زيد التي اعتمدها الجعبري وصاحب الإتقان على أن وجه التسمية لا يوجبها.

وهي مكية كلها في قول الجمهور.

قال ابن عطية: هي مكية لا أحفظ خلافاً في شيء منها.

ووقع في الكشاف استثناء قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ ولم يعزه إلى قائل، ومِثله القرطبي، وذكره الكواشي قولاً وما عزاه إلى معيّن.

وأحسب أنه قول نشأ عما فهمه القائل، وسنبينه في موضعه.

وهي السورة الثالثة والستون في عد نزول السور في قول جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الزخرف وقبل سورة الجاثية في مكانها هذا.

وعدت آيها ستاً وخمسين عند أهل المدينة ومكة والشام، وعدت عند أهل البصرة سبعاً وخمسين، وعند أهل الكوفة تسعاً وخمسين. ٢٥/٢٧٥ـ٢٧٦

٢ـ أغراضها: أشبهَ افتتاحُ هذه السورةِ فاتحةَ سورةِ الزخرفِ من التنويه بشأن القرآن وشرفِهِ، وشرفِ وقتِ ابتداءِ نزولِه؛ ليكون ذلك مُؤْذِناً أنه من عند الله، ودالاً على رسالة محمدﷺ ولِيُتَخَلَّصَ منه إلى أن المعرضين عن تدبر القرآن ألهاهم الاستهزاءُ واللمزُ عن التدبر؛ فَحَقَّ عليهم دعاءُ الرسول بعذاب الجوع؛ إيقاظاً لبصائرهم بالأدلة الحسية حين لم تنجع فيهم الدلائلُ العقلية؛ ليعلموا أن إجابة الله دعاء رسولهﷺ دليل على أنه أرسله؛ لِيُبَلِّغَ عنه مرادَه.

فأنذرهم بعذاب يَحُلُّ بهم علاوةً على ما دعا به الرسولﷺ تأييداً من الله له بما هو زائدٌ على مطلبه.

وضَرَبَ لهم مثلاً بأمم أمثالهم عصوا رُسُلَ اللهِ إليهم؛ فَحَلَّ بهم من العقاب ما من شأنه[1] أن يكون عظةً لهؤلاء؛ تفصيلاً بقوم فرعون مع موسى ومؤمني قومه، ودون التفصيل بقوم تُبَّعٍ، وإجمالاً وتعميماً بالذين مِنْ قبل هؤلاء.

وإذ كان إنكارُ البعثِ وإحالَتُه من أكبر الأسباب التي أغرتهم على إهمال التدبر في مراد الله ـتعالىـ انْتَقَلَ الكلامُ إلى إثباته، والتعريف بما يعقبه من عقوبة المعاندين ومثوبة المؤمنين؛ ترهيباً وترغيباً.

وأُدْمِجَ فيها فضلُ الليلةِ التي أُنزل فيها القرآنُ، أي ابْتُدِئَ إنزالُه وهي ليلة القدر.

---

١ ـ في الأصل: من شأنه بدون: ما، ولعل الصواب ما أُثبت.

وأُدْمج في خلال ذلك ما جرت إليه المناسباتُ من دلائل الوحدانية، وتأييد الله من آمنوا بالرسل، ومن إثبات البعث.

وخُتِمَتْ بالشد على قلب الرسولﷺ بانتظار النصر، وانتظار الكافرين القهر. ٢٧٦/٢٥

٣ـ **فبركة الليلة التي أنزل فيها القرآن** بركة قدَّرها الله لها قبل نزول القرآن؛ ليكون القرآن بابتداء نزوله فيها مُلابساً لوقت مبارك؛ فيزداد بذلك فضلاً وشرفاً.

وهذا من المناسبات الإلهية الدقيقة التي أنبأنا الله ببعضها. ٢٧٨/٢٥

٤ـ والذي يجب الجزم به أن ليلة نزول القرآن كانت في شهر رمضان وأنه كان في ليلة القدر.

ولما تضافرت الأخبار أن النبيﷺ قال في ليلة القدر: «**اطلبوها في العشر الأواخر من رمضان في ثالثة تبقى في خامسة تبقى في سابعة تبقى في تاسعة تبقى**».

فالذي نعتمده أن القرآن ابتدئ نزوله في العشر الأواخر من رمضان، إلا إذا حُمل قول النبيﷺ: «**اطلبوها في العشر الأواخر**» على خصوص الليلة من ذلك العام.

وقد اشتهر عند كثير من المسلمين أن ليلة القدر ليلة سبع وعشرين باستمرار وهو مناف لحديث: «**اطلبوها في العشر الأواخر**» على كل احتمال. ٢٧٨/٢٥ـ٢٧٩

سورة الجاثية

١ـ سميت هذه السورة في كثير من المصاحف العتيقة بتونس، وكتب التفسير وفي صحيح البخاري (سورة الجاثية) معرفاً باللام.

وتسمى (حم الجاثية) لوقوع لفظ ﴿جَاثِيَةً﴾ فيها ولم يقع في موضع آخر من القرآن، واقتران لفظ (الجاثية) بلام التعريف في اسم السورة مع أن اللفظ المذكور فيها خَلِيّ عن لام التعريف لقصد تحسين الإضافة، والتقدير: سورة هذه الكلمة، أي السورة التي تذكر فيها هذه الكلمة، وليس لهذا التعريف فائدة غير هذه.

وذلك تسمية حم غافر، وحم الزخرف.

وتسمى (سورة شريعة) لوقوع لفظ ﴿شَرِيعَةٍ﴾ فيها ولم يقع في موضع آخر من القرآن.

وتسمى (سورة الدهر) لوقوع ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ فيها ولم يقع لفظ الدهر في ذوات حم الأخر.

وهي مكية قال ابن عطية: بلا خلاف، وفي القرطبي عن ابن عباس وقتادة استثناء قوله ـتعالى ـ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ إلى ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ نزلت بالمدينة.

وعن ابن عباس أنها نزلت عن عمر بن الخطاب شتمه رجل من المشركين بمكة فأراد أن يبطش به فنزلت.

وهي السورة الرابعة والستون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت

بعد سورة الدخان وقبل الأحقاف.

وعدد آيها في عد المدينة ومكة والشام والبصرة ست وثلاثون، وفي عد الكوفة سبع وثلاثون لاختلافهم في عد لفظ (حم) آية مستقلة. ٢٥/٣٢٣ـ٣٢٤

٢ـ **أغراضها**: الابتداءُ بالتحدي بإعجاز القرآن، وأنه جاء بالحق؛ توطئةً لما سيذكر بأنه حقٌّ كما اقتضاه قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾.

وإثباتُ انفرادِ الله ـتعالى ـ بالإلهية بدلائلِ ما في السماوات والأرض من آثار خَلْقِه وقدرتِه في جواهر الموجودات وأعراضها، وإدماجُ ما فيها مع ذلك مِنْ نِعَمِ يَحُقُّ على الناس شُكْرُها لا كفرُها.

ووعيدُ الذين كَذبوا على الله، والتزموا الآثامَ بالإصرار على الكفر والإعراض عن النظر في آيات القرآن، والاستهزاء بها.

والتنديدُ على المشركين؛ إذ اتخذوا آلهةً على حسب أهوائهم، وإذ جحدوا البعث، وتهديدُهم بالخسران يومَ البعثِ، ووصفُ أهوالِ ذلك، وما أُعِدَّ فيه من العذاب للمشركين ومن رحمة للمؤمنين.

ودعاءُ المسلمين للإعراض عن إساءة الكفار لهم، والوعدُ بأن اللهَ سيخزي المشركين.

ووصفُ بعضِ أحوالِ يومِ الجزاء.

ونُظِّر الذين أَهملوا النظر في آيات الله مع تبيانها، وخالفوا على رسولهمﷺ فيما فيه صلاحهم بحال بني إسرائيل في اختلافهم في كتابهم بعد أن جاءهم العلم وبعد أن اتبعوه؛ فما ظنك بمن خالف آياتِ اللهِ من أول وَهْلَةٍ؛ تحذيراً لهم من أن يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل من تسليط الأمم عليهم، وذلك تحذيرٌ بليغ.

وذلك تثبيت للرسولﷺ بأن شَأْنَ شَرْعِهِ مع قومه كشأن شريعة موسى لا تَسْلَمُ من مخالف، وأن ذلك لا يقدحُ فيها، ولا في الذي جاء بها، وأن لا يعبأ بالمعاندين، ولا بكثرتهم؛ إذ لا وزن لهم عند الله. ٢٥/٣٢٤

٣ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وقد بلغت هذه الجملة من الإيجاز مبلغاً عظيماً؛ إذ أفادت أن شريعة الإسلام أفضل من شريعة موسى، وأنها شريعة عظيمة، وأن الرسولﷺ متمكن منها لا يزعزعه شيء عن الدأب في بيانها، والدعوة إليها.

ولذلك فرَّع عليه أمرَه باتباعها بقوله: ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ أي دُم على اتباعها؛ فالأمر لطلب الدوام مثل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

وبين قوله: ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ وقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ محسِّن المطابقة بين الأمر بالاتباع والنهي عن اتباع آخر. ٢٥/٣٤٨

سورة الأحقاف

١ـ **سميت هذه السورة (سورة الأحقاف)** في جميع المصاحف وكتب السنة، ووردت تسميتها بهذا الاسم في كلام عبدالله بن عباس.

روى أحمد بن حنبل بسند جيد عن ابن عباس قال: «أقرأني رسول الله سورة من آل حم وهي الأحقاف».

وكانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت ثلاثين.

وكذلك وردت تسميتها في كلام عبدالله بن مسعود أخرج الحاكم بسند صححه عن ابن مسعود قال: «أقرأني رسول الله سورة الأحقاف» الحديث.

وحديث ابن عباس السابق يقتضي أنها تسمى ثلاثين إلا أن ذلك لا يختص بها فلا يعد من أسمائها.

ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم.

ووجه تسميتها (الأحقاف) ورود لفظ الأحقاف فيها ولم يرد في غيرها من سور القرآن.

وهي مكية قال القرطبي: باتفاق جميعهم، وفي إطلاق كثير من المفسرين. ٥/٢٦

٢ـ **وهذه السورة معدودة الخامسة والستين في عداد نزول السور،** نزلت بعد الجاثية وقبل الذاريات.

وعدت آيها عند جمهور أهل الأمصار أربعاً وثلاثين، وعدها أهل الكوفة خمساً وثلاثين والاختلاف في ذلك مبني على أن (حم) تعتبر آية مستقلة أَوْ لا. ٦/٢٦

٣ـ **أغراضها:** من الأغراض التي اشتملت عليها أنها افْتُتِحتْ مِثْلُ سورةِ الجاثية بما يشير إلى إعجاز القرآن للاستدلال على أنه مُنَزَّلٌ من عند الله.

والاستدلالُ بإتقانِ خلقِ السماوات والأرض على التفرد بالإلهية، وعلى إثباتِ جزاء الأعمال.

والإشارةُ إلى وقوع الجزاء بعد البعث، وأن هذا العالمَ صائرٌ إلى فناء، وإبطالُ الشركاءِ في الإلهية، والتدليلُ على خلوِّهم عن صفاتِ الإلهية، وإبطالُ أن يكون القرآن من صنع[1] غير الله.

وإثباتُ رسالةِ محمدٍ ﷺ واستشهادُ الله ـتعالى ـ على صدق رسالته، واستشهادُ شاهدِ بني إسرائيل وهو عبد الله بن سلام.

والثناءُ على الذين آمنوا بالقرآن، وذكرُ بعضِ خصالهم الحميدة وما يضادها من خصال أهل الكفر وحسدِهم الذي بعثهم على تكذيبه.

وذَكَرت معجزةَ إيمان الجن بالقرآن.

وخُتِمَت السورةُ بتثبيت الرسول ﷺ.

وأقحِمَ في ذلك معاملةُ الوالدين والذريةِ مما هو مِنْ خُلُقِ المؤمنين، وما هو من خلُقِ أهل الضلالة.

والعبرةُ بضلالهم مع ما كانوا عليه من القوة، وأن اللهَ أخذهم بكفرهم، وأهلك أمماً أخرى؛ فجعلهم عظةً للمكذبين، وأن جميعهم لم تُغْنِ عنهم أربابُهم المكذوبة.

وقد أشبهت كثيراً من أغراض سورة الجاثية مع تَفَنُّن. ٢٦/٦ـ٧

١ـ لو كانت العبارة: «وإبطال أن يكون القرآن من عند غير الله» لكانت أدقَّ وأصحَّ ـكما هي عبارة المؤلف في كثير من المواضع السابقة واللاحقةـ. (م)

سورة محمد

١ـ سميت هذه السورة في كتب السنة (سورة محمد).

وكذلك ترجمت في صحيح البخاري من رواية أبي ذر عن البخاري، وكذلك في التفاسير قالوا: وتسمى (سورة القتال).

ووقع في أكثر روايات صحيح البخاري (سورة الذين كفروا).

والأشهر الأول، ووجهه أنها ذكر فيها اسم النبيﷺ في الآية الثانية منها فعرفت به قبل سورة آل عمران التي فيها ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾.

وأما تسميتها (سورة القتال) فلأنها ذكرت فيها مشروعية القتال، ولأنها ذكر فيها لفظه في قوله ـتعالىـ: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ مع ما سيأتي أن قوله ـتعالىـ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أن المعني بها هذه السورة فتكون تسميتها (سورة القتال) تسمية قرآنية.

وهي مدنية بالاتفاق حكاه ابن عطية وصاحب الإتقان.

وعن النسفي: أنها مكية.

وحكى القرطبي عن الثعلبي وعن الضحاك وابن جبير: «أنها مكية» ولعله وَهْمٌ ناشئٌ عما روي عن ابن عباس أن قوله ـتعالىـ: ﴿وكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ﴾ الآية نزلت في طريق مكة قبل الوصول إلى حراء، أي في الهجرة.

قيل نزلت هذه السورة بعد يوم بدر وقيل نزلت في غزوة أحد.

وعدت السادسة والتسعين في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة

الحديد وقبل سورة الرعد.

وآيها عدت في أكثر الأمصار تسعاً وثلاثين، وعدها أهل البصرة أربعين، وأهل الكوفة تسعاً وثلاثين. ٧١/٢٦

٢ـ **أغراضها:** معظم ما في هذه السورةِ التحريضُ على قتال المشركين، وترغيبُ المسلمين في ثواب الجهاد.

افتتحت بما يثير حنقَ المؤمنين على المشركين؛ لأنهم كفروا بالله وصدوا عن سبيله، أي دينه.

وأعلم اللهُ المؤمنين بأنه لا يسدد المشركين في أعمالهم، وأنه مصلحُ المؤمنين؛ فكان ذلك كفالةً للمؤمنين بالنصر على أعدائهم.

وانْتُقِلَ من ذلك الى الأمر بقتالهم، وعدمِ الإبقاء عليهم.

وفيها وعدُ المجاهدين بالجنة، وأمرُ المسلمين بمجاهدة الكفار، وأن لا يَدْعُوهم إلى السلم، وإنذارُ المشركين بأن يصيبَهم ما أصاب الأممَ المكذبين مِنْ قبلهم.

ووصفُ الجنةِ ونعيمِها، ووصفُ جهنمَ وعذابِها.

ووصفُ المنافقين وحالِ اندهاشهم إذا نزلت سورة فيها الحضُّ على القتال، وقلةِ تَدَبُّرِهِمُ القرآنَ وموالاتِهم المشركين.

وتهديدُ المنافقين بأن الله ينبي رسولهﷺ بسيماهم، وتحذيرُ المسلمين من أن يروجَ عليهم نفاقُ المنافقين.

وخُتِمَتِ بالإشارة إلى وعد المسلمين بنوال السلطان، وحذَّرهم إن صار إليهم الأمر من الفساد والقطيعة. ٧٢/٢٦

٣ـ **ولهذا المقصد الدقيق جمع بين النهي عن الوهن والدعاء إلى السلم وأتبع**

بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ﴾.

فتحصل مما تقرر أن الدعاء إلى السلم المنهي عنه هو طلب المسألة من العدو في حال قدرة المسلمين، وخوف العدو منهم، فهو سَلْمٌ مُقَيَّدٌ بكون المسلمين داعين له وبكونه عن وهن في حال قوة.

قال قتادة: أي لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها.

فهذا لا ينافي السلم المأذون فيه بقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ في سورة الأنفال؛ فإنه سَلْمٌ طلبه العدو؛ فليست هذه الآية ناسخة لآية الأنفال، ولا العكس، ولكل حالة خاصة، ومقيد بكون المسلمين في حالة قوة ومنعة وعِدَّة وعُدَّة بحيث يدعون إلى السلم رغبة في الدَّعَة.

فإذا كان للمسلمين مصلحةٌ في السَّلْم، أو كان أخف ضراً عليهم فلهم أن يبتدئوا إذا احتاجوا إليه، وأن يجيبوا إليه إذا دُعوا إليه.

وقد صالح النبيﷺ المشركين يوم الحديبية؛ لمصلحة ظهرت فيما بعد، وصالح المسلمون في غزوهم أفريقية أهلها، وانكفأوا راجعين إلى مصر.

وقال عمر بن الخطاب في كلام له مع بعض أمراء الجيش: «فقد آثرت سلامة المسلمين».

وأما الصلح على بعض الأرض مع فتحها فذلك لا ينافي قوة الفاتحين كما صالح أمراء أبي بكر نصف أهل دمشق وكما صالح أمراء عمر أهل سود العراق وكانوا أعلم بما فيه صلاحهم. ١٣١/٢٦

سورة الفتح

١ـ سورة ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ سميت في كلام الصحابة (سورة الفتح).

ووقع في صحيح البخاري عن عبدالله بن مغفل (بغين معجمة مفتوحة وفاء مشددة مفتوحة) قال: قرأ النبيﷺ يوم فتح مكة (سورة الفتح) فرجَّع فيها.

وفيها حديث سهل بن حنيف: «لقد رأيتُنا يوم الحديبية ولو ترى قتالاً لقاتلنا».

ثم حكى مقالة عمر إلى أن قال: «فنزلت سورة الفتح ولا يعرف لها اسم آخر».

ووجه التسمية أنها تضمنت حكاية فتح متجه الله للنبيﷺ ـكما سيأتيـ.

وهي مدنية على المصطلح المشهور في أن المدني ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله في مكان غير المدينة من أرضها أو من غيرها.

وهذه السورة نزلت بموضع يقال له كُراع الغَمِيم ـبضم الكاف من كراع وبفتح الغين المعجمة وكسر الميم من الغميمـ موضع بين مكة والمدينة، وهو واد على مرحلتين من مكة وعلى ثلاثة أميال من عُسفان وهو من أرض مكة.

وقيل نزلت بضَجْنان ـبوزن سكرانـ وهو جبل قرب مكة، ونزلت ليلاً؛ فهي من القرآن الليلي.

ونزولها سنة ست بعد الهجرة مُنصرَف النبيﷺ من الحديبية وقبل غزوة خيبر.

وفي الموطأ عن عمر: «أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره ـأي منصرفه من الحديبيةـ ليلاً وعمر بن الخطاب يسير معه، فسأله عمر بن الخطاب

عن شيء فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال: عمر ثكلت أم عمر نزرتَ رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك.

قال عمر: فحركت بعيري، وتقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فيّ القرآن، فما نَشِبْت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن، فجئت رسول الله، فسلمت عليه فقال: «**لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ:** ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾».

ومعنى قوله: «**لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**» لما اشتملت عليه من قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾.

وأخرج مسلم والترمذي عن أنس قال: «أنزل على النبي: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزاً عَظِيماً﴾ مرجعه من الحديبية فقال النبي ﷺ: **لقد أنزلت علي آية أحب إليَّ مما على وجه الأرض**» ثم قرأها.

وهي السورة الثالثة عشرة بعد المائة في ترتيب نزول السور في قول جابر ابن زيد.

نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة التوبة.

وعدة آيها تسع وعشرون.

وسبب نزولها ما رواه الواحدي وابن إسحاق عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم قالا: «نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية وقد حيل بيننا وبين نُسْكنا؛ فنحن بين الحزن والكآبة أنزل الله ـتعالىـ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ فقال رسول الله: «**لقد أنزلت عليَّ آية أحب إليَّ من الدنيا وما فيها**» وفي

رواية: «من أولها إلى آخرها». ١٤١/٢٦-١٤٢

٢- **أغراضُها:** تَضَمَّنَتْ هذه السورةُ بشارةَ المؤمنين بِحُسْنِ عاقبة صُلْحِ الحديبية، وأنه نصرٌ وفتحٌ؛ فنزلت به السكينةُ في قلوب المسلمين، وأزال حُزْنَهم مِنْ صدِّهم عن الاعتمار بالبيت، وكان المسلمون عُدَّةً لا تغلب من قلة؛ فرأوا أنهم عادوا كالخائبين؛ فأعلمهم الله بأن العاقبة لهم، وأن دائرةَ السَّوءِ على المشركين والمنافقين.

والتنويهُ بكرامة النبيﷺ عند ربه، ووعدُه بنصر متعاقب.

والثناءُ على المؤمنين الذين عَزَّروه وبايعوه، وأن اللهَ قَدَّمَ مَثَلَهُمْ في التوراة وفي الإنجيل.

ثم ذِكْرُ بيعةِ الحديبية، والتنويهِ بشأن مَنْ حضرها.

وَفضْحُ الذين تخلفوا عنها من الأعراب ولَمْزُهُمْ بالجبن والطمع وسُوءِ الظن بالله وبالكذب على رسول اللهﷺ ومَنْعُهُمّ من المشاركة في غزوة خيبر، وإنباؤهم بأنهم سَيُدْعون إلى جهاد آخر، فإن استجابوا غُفِرَ لهم تَخَلُّفُهم عن الحديبية.

وَوَعْدُ النبيِّﷺ بفتحٍ آخرَ يَعقبه فتحٌ أعظمَ منه وبفتحِ مكةَ، وفيها ذكرٌ بفتحٍ مِنْ خيبر كما سيأتي في قوله -تعالى- ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾. ١٤٢/٢٦-١٤٣

٣- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

وقد تكلموا في تسمية ما حل بهم يومئذ فتحاً كما علمت مما تقدم فلما بين لهم الرسولﷺ ما فيه من الخير اطمأنت نفوسهم بعد الاضطراب ورسخ يقينهم بعد خواطر الشك؛ فلولا ذلك الاطمئنان والرسوخ لبقُوا كاسفي البال، شديدي البلبال؛ فذلك الاطمئنان هو الذي سماه الله بالسكينة، وسمّي إحداثه في

نفوسهم إنزالاً للسكينة في قلوبهم، فكان النصر مشتملاً على أشياء من أهمها إنزالُ السكينةِ، وكان إنزالُ السكينةِ بالنسبة إلى هذا النصر نظيرَ التأليف بين قلوب المؤمنين مع اختلاف قبائلهم وما كان بينهما من الأمن في الجاهلية بالنسبة للنصر الذي في قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

وإنزالها: إيقاعها في العقل والنفس، وخلق أسبابها الجوهرية والعارضة.

وأطلق على ذلك الإيقاع فعل الإنزال؛ تشريفاً لذلك الوَجَدَان بأنه كالشيء الذي هو مكان مرتفع فوق الناس، فألقي إلى قلوب الناس، وتلك رفعة تخييلية مراد بها شرف ما أثبتت له على طريقة التخييلية.

ولما كان من عواقب تلك السكينة أنها كانت سبباً لزوال ما يلقيه الشيطان في نفوسهم من التأويل لوعد الله إياهم بالنصر على غير ظاهره، وحمله على النصر المعنوي لاستبعادهم أن يكون ذلك فتحاً، فلما أنزل الله عليهم السكينة اطمأنت نفوسهم، فزال ما خامرها وأيقنوا أنه وعد الله وأنه واقع؛ فانقشع عنهم ما يوشك أن يشكك بعضهم، فيلتحق بالمنافقين الظانين بالله ظن السوء؛ فإن زيادة الأدلة تؤثر رسوخ المستَدلّ عليه في العقل، وقوة التصديق. ٢٦/١٤٩ـ١٥٠

٤ـ **والحسد:** كراهية أن ينال غيرك خيراً معيَّناً أو مطلقاً سواء كان مع تمني انتقاله إليك أو بدون ذلك، فالحسد هنا أريد به الحرص على الانفراد بالمغانم وكراهية المشاركة فيها لئلا ينقص سهام الكارهين. ٢٦/١٦٩

٥ـ و﴿أَشِدَّاءُ﴾: جمع شديد، وهو الموصوف بالشدة المعنوية وهي صلابة المعاملة وقساوتها، قال ـ تعالى ـ في وصف النار: ﴿عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ﴾.

والشدة على الكفار: هي الشدة في قتالهم وإظهار العداوة لهم، وهذا وصف مدح؛ لأن المؤمنين الذين مع النبيﷺ كانوا هم فئة الحق ونشر الإسلام؛ فلا يليق بهم إلا إظهار الغضب لله والحب في الله والبغض في الله من الإيمان، وأصحاب النبيﷺ أقوى المؤمنين إيماناً من أجل إشراق أنوار النبوة على قلوبهم؛ فلا جرم أن يكونوا أشد على الكفار؛ فإن بين نفوس الفريقين تمامَ المضادة، وما كانت كراهيتهم للصلح مع الكفار يوم الحديبية ورغبتهم في قتل أسراهم الذين ثقفوهم يوم الحديبية وعفا عنهم النبيﷺ إلا من آثار شدتهم على الكفار، ولم تكن لاحت لهم المصلحةُ الراجحةُ على القتال وعلى القتل التي آثرها النبيﷺ.

ولذلك كان أكثرهم محاورة في إباء الصلح يومئذ أشد أشدائهم على الكفار وهو عمر بن الخطاب، وكان أفهمهم للمصلحة التي توخاها النبيﷺ في إبرام الصلح أبا بكر.

وقد قال سهل بن حنيف يوم صفين: أيها الناس اتهموا الرأي؛ فلقد رأيتنا يوم أبي جندل، ولو نستطيع أن نرد على رسول الله فعله لرددناه، والله ورسوله أعلم.

ثم تكون أحكام الشدة على الكفار من وجوب وندب وإباحة وأحكام صحبتهم ومعاملتهم جارية على مختلف الأحوال ولعلماء الإسلام فيها مقال، وقد تقدم كثير من ذلك في سورة آل عمران وفي سورة براءة.

والشدة على الكفار اقتبسوها من شدة النبيﷺ في إقامة الدين قال ـتعالىـ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وأما كونهم رحماء بينهم فذلك من رسوخ أخوة الإيمان بينهم في نفوسهم.

وقد وردت أخبار أخوتهم وتراحمهم في مواضع كثيرة من القرآن وكلام الرسولﷺ.

وفي الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين الشدة والرحمة إيماء إلى أصالة آرائهم، وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد، فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى، ولا يندفعون إلى العمل بالجِبِلَّة وعدم الرؤية[1]. ٢٦/٢٠٤ـ٢٠٥

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: الرَّوِيَّة. (م)

سورة الحجرات

١ـ سميت في جميع المصاحف وكتب السنة والتفسير (سورة الحجرات) وليس لها اسم غيره، ووجه تسميتها أنها ذكر فيها لفظ ﴿الْحُجُرَاتِ﴾.

ونزلت في قصة نداء بني تميم رسول الله ﷺ من وراء حجراته، فعرفت بهذه الإضافة.

وهي مدنية باتفاق أهل التأويل، أي مما نزل بعد الهجرة، وحكى السيوطي في الإتقان قولاً شاذاً أنها مكية ولا يعرف قائل هذا القول.

وفي أسباب النزول للواحدي أن قوله ـتعالىـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ الآية نزلت بمكة في يوم فتح مكة كما سيأتي، ولم يثبت أن تلك الآية نزلت بمكة ـكما سيأتيـ.

ولم يعدها في الإتقان في عداد السور المستثنى بعض آياتها.

وهي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم وكان نزول هذه السورة سنة تسع، وأول آيها في شأن وفد بني تميم كما سيأتي عند قوله ـتعالىـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾.

وعد جميع العادين آيها ثمان عشرة آية. ٢١٣/٢٦

٢ـ أغراض هاته السورة: تتعلق أغراضُها بحوادثَ جدَّت متقاربةٍ كانت سبباً لنزول ما فيها من أحكام وآداب.

وأولُها تعليمُ المسلمين بعضَ ما يجب عليهم من الأدب مع النبيﷺ في معاملتِهِ، وخطابِه وندائِه، دعا إلى تعليمهم إياها ما ارتكبه وفد بني تميم من جفاء الأعراب لما نادوا الرسولﷺ من بيوته كما سيأتي عند قوله ـتعالىـ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾.

ووجوبُ صدقِ المسلمين فيما يخبرون به، والتثبتُ في نقل الخبر مطلقاً، وأن ذلك من خلق المؤمنين، ومجانبةِ أخلاق الكافرين والفاسقين، وتَطَرُّقٌ إلى ما يحدث من التقاتل بين المسلمين، والإصلاح بينهم لأنهم إخوة، وما أمر الله به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم في السر والعلانية، وتَخَلُّصٌ من ذلك إلى التحذير من بقايا خلق الكفر في بعض جفاة الأعراب؛ تقويماً لأود نفوسهم. ٢٦/٢١٣ـ٢١٤

٣ـ **علم أن قوله: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾** لا ينافي أن تكون للناس مكارم أخرى في المرتبة الثانية بعد التقوى مما شأنه أن يكون له أثر تزكية في النفوس مثل حسن التربية، ونقاء النسب، والعرافة[١] في العلم والحضارة، وحسن السمعة في الأمم وفي الفصائل، وفي العائلات، وكذلك بحسب ما خلده التاريخ الصادق للأمم والأفراد مما يترك آثاراً لأفرادها وخلالاً في سلائلها قال النبيﷺ: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**».

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: العراقة. (م)

فإن في خلق الأنباء[1] آثاراً من طباع الآباء الأدنَيْن أو الأعَلَيْن تكون مهيئة نفوسهم للكمال أو ضده، وأن للتهذيب والتربية آثاراً جمّة في تكميل النفوس أو تقصيرها، وللعوائد والتقاليد آثارها في الرفعة والضعة.

وكل هذه وسائل لإعداد النفوس إلى الكمال والزكاء الحقيقي الذي تخططه التقوى. ٢٦/٢٦٢ـ٢٦٣

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب، الأبناء. (م)

سورة ق

١- **سميت في عصر الصحابة (سورة ق)** (يُنطق بحروف (قاف) بقاف، وألف، وفاء).

فقد روى مسلم عن قطبة بن مالك أن النبيﷺ قرأ في صلاة الصبح سورة ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

وربما قال: ﴿ق﴾ (ويعني في الركعة الأولى).

وروى مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان: «ما أخذتُ ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤها كل يوم على المنبر إذ خطب الناس».

وروى مسلم عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ(قاف والقرآن المجيد).

هكذا رُسم قاف ثلاث أحرف، وقوله (في الفجر) يعني به صلاة الصبح؛ لأنها التي يصليها في المسجد في الجماعة، فأما نافلة الفجر فكان يصليها في بيته.

وفي الموطأ ومسلم أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ(قاف).

هكذا رسم قاف ثلاثة أحرف مثل ما رسم حديث جابر بن سمرة و﴿الْقُرْآنِ الْمَجِيْدِ﴾ و﴿اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

وهي من السور التي سميت بأسماء الحروف الواقعة في ابتدائها مثل (طه) و(ص) و(ق) و(يس) لانفراد كل سورة منها بعدد الحروف الواقعة في أوائلها بحيث إذا دُعيت بها لا تلتبس بسورة أخرى.

وفي الإتقان أنها تسمى سورة (الباسقات) هكذا بلام التعريف، ولم يعزه لقائل والوجه أن تكون تسميتها هذه على اعتبار وصف لموصوف محذوف، أي سورة النخل الباسقات إشارة إلى قوله: ﴿ النَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾.

وهذه السورة مكية كلها قال ابن عطية: بإجماع من المتأولين.

وفي تفسير القرطبي والإتقان عن ابن عباس وقتادة والضحاك: استثناء آية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ أنها نزلت في اليهود، يعني في الرد عليهم إذ قالوا: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، يعني أن مقالة اليهود سُمعت بالمدينة، يعني: وألحقت بهذه السورة؛ لمناسبة موقعها.

وهذا المعنى وإن كان معنى دقيقاً في الآية فليس بالذي يقتضي أن يكون نزول الآية في المدينة؛ فإن الله علم ذلك فأوحى به إلى رسولهﷺ على أن بعض آراء اليهود كان مما يتحدث به أهل مكة قبل الإسلام يتلقونه تلقي القصص والأخبار.

وكانوا بعد البعثة يسألون اليهود عن أمر النبوة والأنبياء، على أن إرادةَ اللهِ إبطالَ أوهام اليهود لا تقتضي أن يؤخر إبطالَها إلى سماعها، بل قد يجيء ما يبطلها قبل فشوها في الناس كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ فإنها نزلت بمكة.

وورد أن النبيﷺ أتاه بعض أحبار اليهود فقال: إن الله يضع السماوات على أصبع والأرضين على إصبع والبحار على أصبع والجبال على إصبع ثم يقول «أنا الملك أين ملوك الأرض» فتلا النبيﷺ الآية.

والمقصود من تلاوتها هو قوله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾.

والإيماء إلى سوء فهم اليهود صفات الله.

وهي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة المرسلات وقبل سورة لا أقسم بهذا البلد.

وقد أجمع العادون على عد آيها خمساً وأربعين. ٢٦/٢٧٣-٢٧٤

٢- أغراض هاته السورة:

أولها: التنويهُ بشأن القرآن.

ثانيها: أنهم كذبوا الرسولَ ﷺ لأنه من البشر.

وثالثها: الاستدلالُ على إثبات البعث، وأنه ليس بأعظم من ابتداء خلق السماوات وما فيها وخلقِ الأرض وما عليها، ونشأة النباتِ والثمار من ماء السماء، وأن ذلك مثلٌ للإحياء بعد الموت.

الرابع: تنظيرُ المشركين في تكذيبهم بالرسالة والبعث ببعض الأمم الخالية المعلومة لديهم، ووعيدُ هؤلاء أن يَحِلَّ بهم ما حل بأولئك.

الخامس: الوعيدُ بعذابِ الآخرة ابتداءً من وقت احتضارِ الواحد، وذِكْرُ هولِ يوم الحساب.

السادس: وَعْدُ المؤمنين بنعيم الآخرة.

السابع: تسليةُ النبي ﷺ على تكذيبهم إياه، وأَمْرُه بالإقبال على طاعة ربه، وإرجاءُ أمرِ المكذبين إلى يوم القيامة، وأن اللهَ لو شاء لأَخَذَهم من الآن، ولكنَّ حكمةَ اللهِ قَضَت بإرجائهم، وأن النبيَّ ﷺ لم يكلَّف بأن يُكْرِهَهُم على الإسلام، وإنما أُمِرَ بالتذكير بالقرآن.

الثامن: الثناءُ على المؤمنين بالبعث بأنهم الذين يتذكرون بالقرآن.

التاسع: إحاطةُ علمِ اللهِ -تعالى- بخفيات الأشياء، وخواطر النفوس. ٢٦/٢٧٥

سورة الذاريات

١ـ **تسمى هذه السورة (والذاريات)** بإثبات الواو تسمية لها بحكاية الكلمتين الواقعتين في أولها.

وبهذا عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، وابن عطية في تفسيره والكواشي في تلخيص التفسير والقرطبي.

وتسمى ـأيضاًـ (سورة الذاريات) بدون الواو اقتصاراً على الكلمة التي لم تقع في غيرها من سور القرآن.

وكذلك عنونها الترمذي في جامعه وجمهور المفسرين.

وكذلك هي في المصاحف التي وقفنا عليها من مشرقية ومغربية قديمة.

ووجه التسمية أن هذه الكلمة لم تقع بهذه الصيغة في غيرها من سور القرآن.

وهي مكية بالاتفاق.

وقد عدت السورة السادسة والستين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد.

نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية.

واتفق أهل عد الآيات على أن آيها ستون آية. **٣٣٥/٢٦**

٢ـ **أغراض هذه السورة:** احتوت على تحقيقِ وقوع البعث والجزاء.

وإبطالِ مزاعمِ المكذبين به وبرسالةِ محمد ﷺ ورمْيِهِمْ بأنهم يقولون بغير تَثَبُّت.

ووعيدِهم بعذاب يفتنهم.

وَوَعْدِ المؤمنين بنعيم الخلد، وذِكْرِ ما استحقوا به تلك الدرجة من الإيمان والإحسان.

ثم الاستدلالِ على وحدانية الله، والاستدلالِ على إمكان البعث، وعلى أنه واقعٌ لا محالةَ بما في بعض المخلوقات التي يشاهدونها، ويحسون بها دالة على سعة قدرة الله ـتعالىـ وحكمته على ما هو أعظمُ من إعادة خلق الإنسان بعد فنائه، وعلى أنه لم يخلق إلا لجزائه.

والتعريضِ بالإنذارِ بما حاق بالأمم التي كذبت رسل الله، وبيانِ الشبهِ التام بينهم وبين أولئك.

وتلقينِ هؤلاء المكذبين الرجوعَ إلى الله، وتصديقَ النبيﷺ ونبذَ الشرك.

ومعذرةِ الرسولﷺ مِنْ تَبِعَةِ إعراضهم، والتسجيلِ عليهم بكفران نعمة الخلق والرزق.

ووعيدِهم على ذلك بمثل ما حلَّ بأمثالهم. ٢٦/٣٣٥ـ٣٣٦

سورة الطور

١ ـ **سميت هذه السورة عند السلف** (سورة الطور) دون واو قبل الطور.

ففي جامع الطواف من الموطأ حديث مالك عن أم سلمة قالت: فَطُفْتُ ورسول الله إلى جنب البيت يقرأ بـ: ﴿الطُّورِ وكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾.

أي يقرأ بسورة الطور ولم ترد يقرأ بالآية لأن الآية فيها: ﴿والطُّور﴾ بالواو وهي لم تذكر الواو.

وفي باب القراءة في المغرب من الموطأ حديث مالك عن جبير بن مطعم قال: «سمعت رسول الله ﷺ قرأ بالطور في المغرب».

وفي تفسير سورة الطور من صحيح البخاري عن جبير بن مطعم قال: «سمعت النبي يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير».

وكان جبير بن مطعم مشركاً قدم على النبي ﷺ في فداء أسرى بدر وأسلم يومئذ.

وكذلك وقعت تسميتها في ترجمتها من جامع الترمذي وفي المصاحف التي رأيناها، وكثير من التفاسير.

وهذا على التسمية بالإضافة، أي سورة ذكر الطور كما يقال: سورة البقرة، وسورة الهدهد، وسورة المؤمنين.

وفي ترجمة هذه السورة من تفسير صحيح البخاري (سورة والطور) بالواو

على حكاية اللفظ الواقع في أولها كما يقال: (سورة قل هو الله أحد).

وهي مكية جميعها بالاتفاق.

وهي السورة الخامسة والسبعون في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة نوح وقبل سورة المؤمنين.

وعد أهل المدينة ومكة آيها سبعاً وأربعين، وعدها أهل الشام وأهل الكوفة تسعاً وأربعين، وعدها أهل البصرة ثمانياً وأربعين. ٢٧/٣٥ـ٣٦

٢ـ أغراض هذه السورة: أولُ أغراضِ هذه السورةِ التهديدُ بتحقيقِ وقوعِ العذاب يوم القيامة للمشركين المكذبين بالنبي ﷺ فيما جاء به من إثبات البعث وبالقرآن المتضمن ذلك فقالوا: هو سحر.

ومقابَلةُ وعيدِهم بَوعْدِ المتقين المؤمنين، وصفةِ نعيمهم، ووصفِ تَذكُّرهم؛ خشيةً، وثنائهم على الله بما مَنَّ عليهم، فانتقل إلى تسلية النبيﷺ وإبطال أقوالهم فيه وانتظارهم موتَه.

وتحديهم بأنهم عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن.

وإبطالُ خليطٍ مِنْ تكاذيبهم بإعادة الخلق، وببعثه رسولٍ ليس من كبرائهم، وبكون الملائكة بناتِ الله، وإبطالُ تعدُّدِ الآلهة، وذكرُ استهزائهم بالوعيد.

وأمرُ النبيﷺ بتركهم، وأن لا يحزن لذلك؛ فإن الوعيدَ حالٌّ بهم في الدنيا ثم في الآخرة، وأمرُه بالصبر، ووعدُه بالتأييد، وأمرُه بشكر ربه في جميع الأوقات. ٢٧/٣٦

سورة النجم

١ـ **سميت (سورة النجم)** بغير واو في عهد أصحاب النبيﷺ ففي الصحيح عن ابن مسعود: «أن النبيﷺ قرأ سورة النجم فسجد بها فما بقي أحد من القوم إلا سجد فأخذ رجل كفاً من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه.

وقال: يكفيني هذا، قال عبدالله: فلقد رأيته بعدُ قُتِل كافراً، وهذا الرجل أمية بن خلف.

وعن ابن عباس أن النبيﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون.

فهذه تسمية؛ لأنها ذكر فيها النجم.

وسموها سورة (والنجم) بواو بحكاية لفظ القرآن الواقع في أوله وكذلك ترجمها البخاري في التفسير، والترمذي في جامعه.

ووقعت في المصاحف والتفاسير بالوجهين، وهو من تسمية السورة بلفظ وقع في أولها وهو لفظ (النَّجْمِ) أو حكاية لفظ (وَالنَّجْمِ).

وسموها (والنجم إذا هوى) كما في حديث زيد بن ثابت في الصحيحين: «أن النبيﷺ قرأ: والنجم إذا هوى فلم يسجد» أي في زمن آخر غير الوقت الذي ذكره ابن مسعود وابن عباس.

وهذا كله اسم واحد متوسع فيه؛ فلا تُعَدُّ هذه السورة بين السور ذوات أكثر من اسم.

وهي مكية، قال ابن عطية: بإجماع المتأولين.

وعن ابن عباس وقتادة: استثناء قوله ـتعالىـ: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ

وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ الآية قالا : هي آية مدنية ، وسنده ضعيف.

وقيل: السورة كلها مدنية ونسب إلى الحسن البصري: أن السورة كلها مدنية، وهو شذوذ.

وعن ابن مسعود هي أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة.

وهي السورة الثالثة والعشرون في عد ترتيب السور، نزلت بعد سورة الإخلاص وقبل سورة عبس.

وعد جمهور العادين آيها إحدى وستين، وعدها أهل الكوفة اثنتين وستين.

قال ابن عطية: سبب نزولها أن المشركين قالوا: إن محمداً يتقول القرآن، ويختلق أقواله، فنزلت السورة في ذلك. ٨٧/٢٧ـ٨٨

٢ـ أغراض هذه السورة: أولُ أغراضها تحقيقُ أن الرسولَ ﷺ صادقٌ فيما يبلِّغه عن الله ـتعالىـ وأنه منزهٌ عما ادعوه.

وإثباتُ أن القرآنَ وحيٌ من عند الله بواسطة جبريل.

وتقريبُ صفةِ نزولِ جبريلَ بالوحي في حالين زيادةً في تقريرِ أنه وحيٌ من الله واقعٌ لا محالة.

وإبطالُ إلهيةِ أصنام المشركين، وإبطالُ قولِهم في اللات والعزى ومناة بنات الله، وأنها أوهامٌ لا حقائقَ لها، وتنظيرُ قولِهم فيها بقولهم في الملائكة أنهم إناثٌ.

وذكرُ جزاءِ المُعرضين والمهتدين، وتحذيرُهم من القول في هذه الأمور بالظن دون حجة.

وإبطالُ قياسهم عالمَ الغيبِ على عالم الشهادة، وأن ذلك ضلالٌ في الرأي قد

جاءهم بضده الهدى من الله.

وذُكِرَ لذلك مثالٌ مِنْ قصة الوليد بن المغيرة، أو قصة ابن أبي سرح.

وإثباتُ البعث والجزاء.

وتذكيرُهم بما حلَّ بالأمم ذاتِ الشرك مِنْ قَبْلِهم، وبمن جاء قبل محمدﷺ من الرسلِ أهلِ الشرائع.

وإنذارُهم بحادثة تَحُلُّ بهم قريباً.

وما تخلل ذلك من مُعْتَرضَات ومُسْتَطْردات لمناسبات ذكرهم عن أن يتركوا أنفسهم[1]، وأن القرآن حوى كتب الأنبياء السابقين. ٢٧/٨٨ـ٨٩

٣ـ **واستثناء اللمم استثناء منقطع**؛ لأن اللمم ليس من كبائر الإثم، ولا من الفواحش.

فالاستثناء بمعنى الاستدراك.

ووجهه أن ما سمي باللمم ضرب من المعاصي المحذر منها في الدين، فقد يظن الناس أن النهي عنها يلحقها بكبائر الإثم؛ فلذلك حق الاستدراك، وفائدة هذا الاستدراك عامة وخاصة: أما العامة فلكي لا يعامل المسلمون مرتكب شيء منها معاملة من يرتكب الكبائر، وأما الخاصة فرحمة بالمسلمين الذين قد يرتكبونها؛ فلا يفُل ارتكابها من نشاط طاعة المسلم، ولينصرف اهتمامه إلى تجنب الكبائر.

فهذا الاستدراك بشارة لهم، وليس المعنى أن الله رخص في إتيان اللمم.

وقد أخطأ وضَّاح اليَمن في قوله الناشىء عن سوء فهمه في كتاب الله وتطفله

---

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل فيه خطأً مطبعيًّا، ولعل الصواب: ولمناسبات ذكَّرهم فيها أن يزكوا أنفسهم. (م)

في غير صناعته:

فمـا نوَّلَـتْ حتـى تضـرعتُ عنـدها وأنبأتُهـا مـا رَخَّـص الله في اللَّمـم

واللمم: الفعل الحرام الذي هو دون الكبائر والفواحش في تشديد التحريم، وهو ما يندر ترك الناس له؛ فيكتفى منهم بعدم الإكثار من ارتكابه.

وهذا النوع يسميه علماء الشريعة الصغائر في مقابلة تسمية النوع الآخر بالكبائر. ٢٧/١٢١ـ١٢٢

٤ـ **وسامدون:** من السمود وهو ما في المرء من الإعجاب بالنفس، يقال: سمد البعير، إذا رفع رأسه في سيره، مُثِّل به حالُ المتكبر المعرض عن النصح المعجب بما هو فيه بحال البعير في نشاطه.

وقيل السمود: الغِناء بلغة حِمْير، والمعنى: فرحون بأنفسكم تتغنون بالأغاني لقلة الاكتراث بما تسمعون من القرآن كقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ على أحد تفسيرين. ٢٧/١٦٠

سورة القمر

١ ـ اسمها بين السلف (سورة اقتربت الساعة).

ففي حديث أبي واقد الليثي: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الفطر والأضحى»، وبهذا الاسم عنون لها البخاري في كتاب التفسير.

وتسمى (سورة القمر) وبذلك ترجمها الترمذي.

وتسمى (سورة اقتربت) حكاية لأول كلمة فيها.

وهي مكية كلها عند الجمهور، وعن مقاتل: أنه استثنى منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمَرُّ﴾ قال: «نزل يوم بدر» ولعل ذلك من أن النبي ﷺ تلا هذه الآية يوم بدر.

وهي السورة السابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة (الطارق) وقبل سورة (ص).

وعدد آيها خمس وخمسون باتفاق أهل العدد.

وسبب نزولها ما رواه الترمذي عن أنس بن مالك قال: «سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة فنزلت: ﴿اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾».

وفي أسباب النزول للواحدي بسنده إلى عبدالله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد محمد ﷺ فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة سحركم، فسألوا السُّفَّار، فقالوا: نعم قد رأينا، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ الآيات.

وكان نزولها في حدود سنة خمس قبل الهجرة ففي الصحيح: «أن عائشة قالت: أُنزل على محمد بمكة، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلْ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾».

وكانت عُقد عليها في شوال قبل الهجرة بثلاث سنين، أي في أواخر سنة أربع قبل الهجرة بمكة، وعائشة يومئذ بنت ست سنين، وذكر بعض المفسرين أن انشقاق القمر كان سنة خمس قبل الهجرة.

وعن ابن عباس كان بين نزول آية: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ وبين بدر سبع سنين. ١٦٥/٢٧ـ١٦٦

٢ـ **أغراض هذه السورة:** تسجيلُ مكابرةِ المشركين في الآيات البينة، وأمرُ النبيﷺ بالإعراض عن مكابرتهم.

وإنذارُهم باقتراب القيامة، وبما يلقونه حين البعث من الشدائد.

وتذكيرُهم بما لَقِيَتْهُ الأممُ أمثالُهم من عذاب الدنيا؛ لتكذيبهم رسلَ الله، وأنهم سيلقون مثلَ ما لقي أولئك؛ إذ ليسوا خيراً من كفار الأمم الماضية.

وإنذارُهم بقتال يُهزمون فيه، ثم لهم عذابُ الآخرة وهو أشد.

وإعلامُهم بإحاطة الله علماً بأفعالهم، وأنه مجازيهم شرَّ الجزاء، ومجازِ المتقين خير الجزاء، وإثباتُ البعث، وَوَصْفُ بعض أحواله.

وفي خلال ذلك تكريرُ التنويهِ بهدي القرآن وحكمته. ١٦٦/٢٧

٣ـ ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾.

واعلم أن الآية صريحة في أن كل ما خلقه الله كان بضبط جارياً على حكمته، وأما تعيين ما خلقه الله مما ليس مخلوقاً له من أفعال العبادة مثلاً عند القائلين بخلق

العباد أفعالهم كالمعتزلة أوالقائلين بكسب العبد كالأشعرية، فلا حجة بالآية عليهم لاحتمال أن يكون مصبُّ الإخبار هو مضمون ﴿خَلَقْنَاه﴾ أو مضمون ﴿بِقَدَر﴾ ولاحتمال عموم ﴿كُلَّ شَيء﴾ للتخصيص، ولاحتمال المراد بالشيء ما هو، وليس نفي حجية هذه الآية على إثبات القدر الذي هو محل النزاع بين الناس بمبطل ثبوت القدر من أدلة أخرى.

وحقيقة القدر الاصطلاحي خَفِيَّة؛ فإن مقدار تأثر الكائنات بتصرفات الله -تعالى- وبتسبب أسبابها ونهوض موانعها لم يبلغ علم الإنسان إلى كشف غوامضه ومعرفة ما مكّن الله الإنسان من تنفيذ لما قدّره الله، والأدلة الشرعية والعقلية تقتضي أن الأعمال الصالحة والأعمال السيئة سواء في التأثر لإرادة الله -تعالى- وتعلق قدرته إذا تعلقت بشيء، فليست نسبة آثار الخير إلى الله دون نسبة أثر الشر إليه إلا أدباً مع الخالق لقنه الله عبيده، ولولا أنها منسوبة في التأثر لإرادة الله -تعالى- لكانت التفرقة بين أفعال الخير وأفعال الشر في النسبة إلى الله ملحقة باعتقاد المجوس بأنّ للخير إلهاً وللشر إلهاً، وذلك باطل لقول النبيﷺ: «**وتؤمنوا بالقدر خيره وشره**» وقوله: «**القدرية مجوس هذه الأمة**» رواه أبو داود بسنده إلى ابن عمر مرفوعاً. ٢٧/٢١٨-٢١٩

سورة الرحمن

١ـ **وردت تسميتها بسورة (الرحمن)** في أحاديث منها ما رواه الترمذي عن جابر بن عبدالله قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ سورة الرحمن» الحديث.

وفي تفسير القرطبي أن قيس بن عاصم المنقري قال للنبيﷺ: «اتلُ عليَّ ما أُنزل عليك، فقرأ عليه سورة الرحمن، فقال: أعدها، فأعادها ثلاثاً، فقال: إن له لحلاوة» الخ.

وكذلك سميت في كتب السنة وفي المصاحف.

وذكر في الإتقان: أنها تسمى (عروس القرآن) لما رواه البيهقي في شعب الإيمان عن علي أن النبي ﷺ قال: «**لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن**».

وهذا لا يعدوا أن يكون ثناءً على هذه السورة، وليس هو من التسمية في شيء كما رُوي أن سورة البقرة فسطاطا القرآن[١].

ووجه تسمية هذه السورة بسورة الرحمن أنها ابتدئت باسمه ـتعالىـ ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾.

١ـ الظاهر أن معنى: لكل شيء عروس، أي لكل جنس أو نوع واحد من جنسه يزينه تقول العرب: عرائس الإبل لكرائمها؛ فإن العروس تكون مُكَرَّمة مزينة مرعية من جمع الأهل بالخدمة والكرامة، ووصف سورة الرحمن بالعروس تشبيه ما تحتوي عليه من ذكر الحبرة والنعيم في الجنة بالعروس في المسرة والبذخ، تشبيه معقول بمحسوس، ومن أمثال العرب، لا عطر بعد عروس (على أحد تفسيرين للمثل) أو تشبيه ما كثر فيها من تكرير ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بما يكثر على العروس من الحلي في كل ما تلبسه.

وقد قيل: إن سبب نزولها قول المشركين المحكي في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ في سورة الفرقان، فتكون تسميتها باعتبار إضافة (سورة) إلى (الرحمن) على معنى إثبات وصف الرحمن.

وهي مكية في قول جمهور الصحابة والتابعين، وروى جماعة عن ابن عباس: أنها مدنية نزلت في صلح القضية عندما أَبى سهيل بن عمرو أن يكتب في رسم الصلح (بسم الله الرحمن الرحيم).

ونسب إلى ابن مسعود ـ أيضاً ـ أنها مدنية.

وعن ابن عباس: أنها مكية سوى آية منها هي قوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

والأصح أنها مكية كلها وهي في مصحف ابن مسعود أول المفصل.

وإذا صح أن سبب نزولها قول المشركين: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ تكون نزلت بعد سورة الفرقان.

وقيل: سبب نزولها قول المشركين: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ المحكي في سورة النحل، فرد الله عليهم بأن الرحمن هو الذي علم النبيﷺ القرآن.

وهي من أول السور نزولاً فقد أخرج أحمد في مسنده بسند جيد عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «سمعت رسول الله ﷺ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون يقرأ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾».

وهذا يقتضي أنها نزلت قبل سورة الحجر.

وللاختلاف فيها لم تحقق رتبتها في عداد نزول سور القرآن.

وعدها الجعبري ثامنة وتسعين بناءً على قول بأنها مدنية وجعلها بعد سورة

الرعد وقبل سورة الإنسان.

وإذْ كان الأصح أنها مكية، وأنها نزلت قبل سورة الحج، وقبل سورة النحل، وبعد سورة الفرقان ـ فالوجه أن تعد ثالثة وأربعين بعد سورة الفرقان، وقبل سورة فاطر.

وعد أهل المدينة ومكة آيها سبعاً وسبعين، وأهل الشام والكوفة ثماناً وسبعين؛ لأنهم عدوا الرحمن آية، وأهل البصرة ستاً وسبعين. **٢٧/٢٢٧ـ٢٢٨**

٢ـ أغراض هذه السورة: ابتدئت بالتنويه بالقرآن قال في الكشاف: «أراد الله أن يقدم في عدد آلائه أول شيء ما هو أسبق قِدَماً من ضروب آلائه، وأصناف نعمائه وهي نعمة الدين؛ فقدم من نعمة الدين ما هو أعلى مراتبها، وأقصى مراقبها، وهو إنعامه بالقرآن، وتنزيله، وتعليمه، وأَخَّر ذكر خلق الإنسان عن ذكره، ثم أتبعه إياه، ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان» اهـ.

وتبع ذلك من التنويه بالنبيﷺ بأن اللهَ هو الذي علمه القرآن؛ رداً على مزاعم المشركين الذين يقولون ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ ورداً على مزاعمهم أن القرآن أساطير الأولين، أو أنه سحر، أو كلام كاهن أو شعر.

ثم التذكيرُ بدلائلِ قدرة الله ـتعالىـ في ما أتقن صنعه مُدْمَجاً في ذلك التذكيرُ بما في ذلك كله من نعمٍ على الناس.

وخلقُ الجن، وإثباتُ جزائهم.

والموعظةُ بالفناء، وتَخلّص من ذلك إلى التذكير بيوم الحشر والجزاء، وختمت بتعظيم الله والثناء عليه.

وتخلل ذلك إدماجُ التنويهِ بشأن العدل، والأمرُ بتوفية أصحابِ الحقوق

حقوقَهم، وحاجةُ الناس إلى رحمةِ الله فيما خَلَق لهم، ومن أهمِّها نعمةُ العلم ونعمةُ البيان، وما أَعَّد من الجزاء للمجرمين، ومن الثواب والكرامة للمتقين، ووصفُ نعيم المتقين.

ومن بديع أسلوبها افتتاحها الباهر باسمه ﴿الرَّحْمَن﴾ وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء الله لم يتقدَّمْه غيره.

ومنه التعدادُ في مقام الامتنان، والتعظيم بقوله ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إذ تكرر فيها إحدى وثلاثين مرة، وذلك أسلوب عربي جليل كما سنبينه. ٢٢٩/٢٧

٣ـ **والبيان:** الإعراب عما في الضمير من المقاصد والأغراض، وهو النطق، وبه تميز الإنسان عن بقية أنواع الحيوان؛ فهو من أعظم النعم.

وأما البيان من غير النطق من إشارة، وإيماء، ولمح النظر فهو ـأيضاًـ من مميزات الإنسان، وإن كان دون بيان النطق.

ومعنى تعليم الله الإنسان البيان: أنه خلق فيه الاستعداد لعلم ذلك، وألهمه وضعَ اللغة للتعارف، وقد تقدم عند قوله ـتعالىـ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ في سورة البقرة.

وفي الإشارة إلى أن نعمةَ البيانِ أجلُّ النعمِ على الإنسانِ؛ فعدّ نعمة التكاليف الدينية، وفيه تنويه بالعلوم الزائدة في بيان الإنسان، وهي خصائص اللغة وآدابها. ٢٣٣/٢٧

٤ـ **والنجم:** يطلق اسم جمع على نجوم السماء قال ـتعالىـ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ ويطلق مفرداً فيُجمع على نجوم، قال ـتعالىـ: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾.

وعن مجاهد تفسيره هنا بنجوم السماء.

ويطلق النجم على النبات والحشيش الذي لا سُوق له فهو متصل بالتراب.

وعن ابن عباس تفسير **النجم** في هذه الآية بالنبات الذي لا ساق له، **والشجر**: النبات الذي له ساقٌ وارتفاعٌ عن وجه الأرض، وهذان ينتفع بهما الإنسان والحيوان.

فحصل من قوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ بعد قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ قرينتان متوازيتان في الحركة والسكون، **وهذا من المحسنات البديعية الكاملة.** ٢٧/٢٣٦

٥ـ ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (١٣)﴾.

والآلاء: النعم جمع: إِلْي بكسر الهمزة وسكون اللام، وأَلْي بفتح الهمزة وسكون اللام وياء في آخره ويقال أَلْوُ بواو عوض الياء وهو النعمة.

وضمير المثنى في ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ خطاب لفريقين من المخاطبين بالقرآن.

والوجه عندي أنه خطاب للمؤمنين والكافرين الذين ينقسم إليهما جنس الإنسان المذكور في قوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ وهم المخاطبون بقوله: ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ الآية.

والمنقسم إليهما الأنام المتقدم ذكره، أي أن نعم الله على الناس لا يجحدها كافر بَلْهَ المؤمن، وكل فريق يتوجه إليه الاستفهام بالمعنى الذي يناسب حاله.

والمقصود الأصلي: التعريض بالمشركين وتوبيخهم على أن أشركوا في العبادة مع المنعم غير المنعم، والشهادة عليهم بتوحيد المؤمنين، والتكذيب مستعمل في الجحود والإنكار.

وقيل: التثنية جرت على طريقة في الكلام العربي أن يخاطبوا الواحد بصيغة المثنى كقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

ذكر ذلك الطبري والنسفي.

ويجوز أن تكون التثنية قائمة مقام تكرير اللفظ لتأكيد المعنى مثل: لبيك وسعديك، ومعنى هذا أن الخطاب لواحد وهو الإنسان.

وقال جمهور المفسرين: هو خطاب للإنس والجن، وهذا بعيد؛ لأن القرآن نزل لخطاب الناس، ووعظهم ولم يأت لخطاب الجن، فلا يتعرض القرآن لخطابهم، وما ورد في القرآن من وقوع اهتداء نفر من الجن بالقرآن في سورة الأحقاف وفي سورة الجن يحمل على أن الله كلّف الجن باتباع ما يتبين لهم في إدراكهم، وقد يُكلف الله أصنافاً بما هم أهل له دون غيرهم، كما كلف أهل العلم بالنظر في العقائد، وكما كلفهم بالاجتهاد في الفروع، ولم يكلف العامة بذلك؛ فما جاء في القرآن من ذكر الجن فهو في سياق الحكاية عن تصرفات الله فيهم وليس لتوجيه العمل بالشريعة.

وأما ما رواه الترمذي عن جابر بن عبدالله الأنصاري: «أن النبيﷺ خرج على أصحابه؛ فقرأ عليهم سورة الرحمن وهم ساكتون فقال لهم: «لقد قرأتُها على الجن ليلةَ الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِكُمَا تُكَذِّبَان﴾ قالوا: «لا بشيء مِنْ نِعَمِك ربنا نكذب؛ فلك الحمد».

قال الترمذي: هو حديث غريب، وفي سنده زهير بن محمد، وقد ضعفه البخاري وأحمد بن حنبل.

وهذا الحديث لو صحَّ فليس تفسيراً لضمير التثنية؛ لأن الجنَّ سمعوا ذلك بعد نزوله؛ فلا يقتضي أنهم المخاطبون به وإنما كانوا مقتدين بالذين خاطبهم الله، وقيل: الخطاب للذكور والإناث وهو بعيد. ٢٧/٢٤٣ـ٢٤٤

٦ـ **وفائدة التكرير توكيد التقرير** بما لله -تعالى- من نعم على المخاطبين وتعريض بتوبيخهم على إشراكهم بالله أصناماً لا نعمة لها على أحد، وكلها دلائل على تفرد الإلهية.

وعن ابن قتيبة: «أن الله عدَّدَ في هذه السورة نعماء[1] وذكر خلقه آلاءه ثم أتبع كل خلة وصفها، ونعمة وضعها بهذه، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم، ويقررهم بها» اهـ.

وقال الحسين بن الفضل[2]: «التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة».

وقال الشريف المرتضى في مجالسه وآماله المسمى الدرر والغرر: وهذا كثير في كلام العرب وأشعارهم، قال مهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كليباً:

على أن ليس عدلا من كليب إذا طرد اليتيم عن الجزور

وذكر المصراع الأول ثمان مرات في أوائل أبيات متتابعة، وقال الحارث بن عباد:

قَرِّبَا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حبال

ثم كرر قوله: قرِّبا مربط النعامة مني، في أبيات كثيرة من القصيد.

وهكذا القول في نظائر قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِكُمَا تُكَذِّبَان﴾ المذكور هنا إلى ما

---

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: نعماءَه. (م)

٢ـ الحسين بن الفضل بن عمير الجبلي الكوفي النيسابوري، توفي سنة ٢٨٢ وعمره مائة وأربع سنين، له تفسير القرآن.

في آخر السورة. ٢٧/٢٤٦ـ٢٤٧

٧ـ **والمرجان:** حيوان بحري ذو أصابع دقيقة ينشأ ليِّنا ثم يتحجر، ويتلوّن بلون الحمرة ويتصلب كلما طال مكثه في البحر، فيستخرج منه كالعروق تتخذ منه حلية، ويسمى بالفارسية (بسَذ).

وقد تتفاوت البحار في الجيد من مرجانها.

ويوجد ببحر طبرقة على البحر المتوسط في شمال البلاد التونسية.

والمرجان: لا يخرج من ملتقى البحرين: الملح والعذب، بل من البحر الملح.

وقيل: المرجان اسم لصغار الدر، واللؤلؤ كباره؛ فلا إشكال في قوله منهما. ٢٧/٢٥٠

٨ـ **والثقلان:** تثنية ثقل، وهذا المثنى اسم مفرد لمجموع الإنس والجن.

وأحسب أن الثقل هو الإنسان؛ لأنه محمول على الأرض، فهو كالثقل على الدابة، وأن إطلاق هذا المثنى على الإنس والجن من باب التغليب، وقيل غير هذا مما لا يرتضيه المتأمل.

وقد عد هذا اللفظ بهذا المعنى مما يستعمل إلا بصيغة التثنية؛ فلا يطلق على نوع الإنسان بانفراده اسم الثقل؛ ولذلك فهو مثنى اللفظ مفرد الإطلاق.

وأظن أن هذا اللفظ لم يطلق على مجموع النوعين قبل القرآن؛ فهو من أعلام الأجناس بالغلبة، ثم استعمله أهل الإسلام، قال ذو الرمة:

ومية أحسن الثقلين وجهاً ... وسالفة وأحسنه قذالا

أراد وأحسن الثقلين، وجعل الضمير له مفرداً، وقد أخطأ في استعماله؛ إذ لا علاقة للجن في شيء من غرضه. ٢٧/٢٥٧

٩ـ وقوله: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ تشبيه بليغ، أي كانت كوردة.

والوردة: واحدة الورد، وهو زهر أحمر من شجرة دقيقة ذات أغصان شائكة تظهر في فصل الربيع وهو مشهور.

ووجه الشبه قيل: هو شدة الحمرة، أي يتغير لون السماء المعروف أنه أزرق إلى البياض، فيصير لونها أحمر قال ـتعالىـ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾.

ويجوز عندي: أن يكون وجه الشبه كثرة الشقوق كأوراق الوردة. **٢٦١/٢٧**

١٠ـ وعبقري: وصف لما كان فائقاً في صنفه عزيز الموجود، وهو نسبة إلى عبقر بفتح فسكون ففتح اسم بلاد الجن في معتقد العرب؛ فَنَسَبوا إليه كل ما تجاوز العادة في الإتقان والحسن، حتى كأنه ليس من الأصناف المعروفة في أرض البشر، قال زهير:

بِخَيْلٍ عليها جِنةٌ عبقرية ... جديرون يوماً أن ينالوا ويسْتَعْلُوا

فشاع ذلك؛ فصار العبقري وصفاً للفائق في صنفه كما قال النبيﷺ فيما حكاه من رؤيا القليب الذي استسقى منه: «**ثم أخذها (أي الذنوب) عمر فاستحالت غرباً؛ فلم أر عبقرياً يفري فَرِيَّه**».

وإلى هذا أشار المعري بقوله:

وقد كان أرباب الفصاحة كلما ... رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

فضربه القرآن مثلاً لما هو مألوف عند العرب في إطلاقه. **٢٧٥/٢٧**

سورة الواقعة

١ـ سميت هذه السورة الواقعة بتسمية النبيﷺ.

روى الترمذي عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: «**يا رسول الله قد شبت، قال: شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت**» وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

وروى ابن وهب، والبيهقي عن عبدالله بن مسعود بسند ضعيف أنه سمع رسول الله يقول: «**من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً**».

وكذلك سميت في عصر الصحابة.

روى أحمد عن جابر بن سمرة قال: «كان رسول الله يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور».

وهكذا سميت في المصاحف وكتب السنة فلا يعرف لها اسم غير هذا.

وهي مكية قال ابن عطية: «بإجماع من يعتد به من المفسرين.

وقيل: فيها آيات مدنية، أي نزلت في السفر، وهذا كله غير ثابت» اهـ.

وقال القرطبي: عن قتادة وابن عباس استثناء قوله ـتعالىـ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ نزلت بالمدينة.

وقال الكلبي: إلا أربع آيات: اثنتان نزلتا في سفر النبيﷺ إلى مكة وهما: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، واثنتان نزلتا في سفره إلى المدينة وهما: ﴿ثُلَّةٌ مِنْ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنْ الآخِرِينَ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنها نزلت في غزوة تبوك.

وهي السورة السادسة والأربعون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة طه وقبل سورة الشعراء.

وقد عد أهل المدينة ومكة والشام آيها تسعاً وتسعين، وعدها أهل البصرة سبعاً وتسعين، وأهل الكوفة ستاً وتسعين.

وهذه السورة جامعة للتذكير قال مسروق: «من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة؛ فليقرأ سورة الواقعة» اهـ. ٢٧/٢٧٩ـ٢٨٠

٢ـ **أغراض هذه السورة:** التذكيرُ بيوم القيامة، وتحقيقُ وقوعه.

ووصفُ ما يعرض لهذا[1] العالمِ الأَرضيِّ عند ساعة القيامة.

ثم صفةُ أهلِ الجنةِ وبعضِ نعيمهم.

وصفةُ أهل النار وما هم فيه من العذاب وأن ذلك لتكذيبهم بالبعث.

وإثباتُ الحشرِ والجزاءِ، والاستدلالُ على إمكان الخلق الثاني بما أبدعه الله من الموجودات بعد أن لم تكن.

والاستدلالُ بدلائل قدرة الله ـتعالىـ والاستدلالُ بنزع اللهِ الأرواحَ من الأجساد والناسُ كارهون لا يستطيع أحدٌ مَنْعَها من الخروج على أن الذي قَدِرَ على نزعها بدون مُدافِعٍ قادرٌ على إرجاعها متى أراد أن يميتهم.

وتأكيدُ أن القرآن مُنَزَّل من عند الله، وأنه نعمةٌ أنعم الله بها عليهم، فلم يشكروها، وكذبوا بما فيه. ٢٧/٢٨٠

٣ـ ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي

---

١ ـ لعل ما أُثبت هو الصواب، وفي الأصل: وهذا. (م)

جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ﴾.

وقد أفاد التفصيل أن الأصناف ثلاثة: صنف منهم أصحاب الميمنة، وهم الذين يجعلون في الجهة اليمنى في الجنة أو في المحشر.

واليمين جهة عناية وكرامة في العرف، واشتقت من اليمن، أي البركة.

وصنف أصحاب المشأمة، وهي اسم جهة مشتقة من الشؤم، وهو ضد اليمن فهو الضر وعدم النفع، وقد سميا في الآية الآتية أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فجعل الشمال ضد اليمين كما جُعل المشأمة هنا ضد الميمنة؛ إشعاراً بأن حالهم حال شؤم وسوء، وكل ذلك مستعار لما عرف في كلام العرب من إطلاق هذين اللفظين على هذا المعنى الكنائي الذي شاع حتى ساوى الصريح.

وأصله جاء من الزجر والعيافة[١] إذ كانوا يتوقعون حصول خير من أغراضهم من مرور الطير أو الوحش من يمين الزاجر إلى يساره، ويتوقعون الشر من مروره بعكس ذلك، وقد تقدم تفصيله عند قوله -تعالى-: ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ ﴾ في سورة الصافات، وتقدم شيء منه عند قوله -تعالى-: ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ في سورة الأعراف، وعند قوله -تعالى-: ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ في سورة يس. ٢٧/٢٨٥-٢٨٦

٤- **والسدر:** شجر من شجر العِضاه ذو ورق عريض مدوَّر وهو صنفان: عُبْرِي بضم العين وسكون الموحدة وياء نسب نسبة إلى العِبْر بكسر العين وسكون الموحدة

---

١ - الزجر: المقصود به زجر الطير وتنفيرها.

والعيافة هي: زجر الطير، وتنفيرها، وإرسالها، والتفاؤل، أو التشاؤم بأسمائها، وأصواتها، وممراتها؛ فعن العيافة يكون الفأل، أو التشاؤم. (م)

على غير قياس وهو عبر النهي[١] أي ضفته، له شوك ضعيف في غصونه لا يضير.

والصنف الثاني الضَّالُ ـبضاد ساقطة ولام مخففةـ وهو ذو شوك.

وأجود السدر الذي ينبت على الماء وهو يشبه شجر العناب، وورقه كورق العناب، وورقه يجعل غسولاً ينظف به، يخرج مع الماء رغوة كالصابون.

وثمر هذا الصنف هو النبق ـبفتح النون وكسر الموحدة وقافـ يشبه ثمر العناب إلا أنه أصفر مُزّ ـبالزايـ يفوِّح الفم، ويفوح الثياب، ويُتَفَكَّه به.

وأما الضال وهو السدر البري الذي لا ينبت على الماء فلا يصلح ورقه للغسول، وثمره عَفِصٌ لا يسوغ في الحلق، ولا ينتفع به، ويخبط الرعاة ورقه للراعية، وأجود ثمر السدر ثمر سدر هَجَر أشد نَبِقٍ حلاوةً، وأطيبه رائحة.

ولما كان السدر من شجر البادية، وكان محبوباً للعرب، ولم يكونوا مستطيعين أن يجعلوا منه في جناتهم وحوائطهم؛ لأنه لا يعيش إلا في البادية، فلا ينبت في جناتهم ـ خص بالذكر من بين شجر الجنة؛ إغراباً به وبمحاسنه التي كان محروماً منها من لا يسكن البوادي، وبوفرة ظله، وتهدُّل أغصانه، ونكهة ثمره.

ووصف بالمخضود، أي المُزال شوكُه، فقد كملت محاسنه بانتفاء ما فيه من أذىً. ٢٧/٢٩٨ـ٢٩٩

٥ـ **والطلح**: شجرٌ من شجر العِضَاه، واحدهُ طلحة، وهو من شجر الحجاز ينبت في بطون الأودية، شديدُ الطول، غليظ الساق، من أصلب شجر العِضاه عُوداً، وأغصانه طوال عظام شديدة الارتفاع في الجو، ولها شوك كثير قليلةُ الورق، شديدة الخضرة، كثيرةُ الظل من التفاف أغصانها، وصَمْغُها جيِّد،

---

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: عبر النهر. (م)

وشوكها أقل الشوك أذىً، ولها نَوْرٌ طيب الرائحة، وتسمى هذه الشجرة أم غيلان، وتسمى في صفاقس غيلان، وفي أحواز تونس تسمى مِسْكَ صَنادِق.

والمنضود: المتراص المتراكب بالأغصان ليست له سوق بارزة، أو المنضَّد بالحمل، أي النُوَّار فتكثر رائحته.

وعلى ظاهر هذا اللفظ يكون القول في البشارة لأصحاب اليمين بالطلح على نحو ما قرر في قوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ ويعتاض عن نعمة نكهة ثمر السدر بنعمة عَرْف نَوْر الطلح.

وفسر الطلح بشجر الموز روي ذلك عن ابن عباس وابن كثير، ونسب إلى علي بن أبي طالب.

والامتنان به على هذا التفسير امتنان بثمره؛ لأنه ثمر طيب لذيذ، ولشجره من حسن المنظر، ولم يكن شائعاً في بلاد العرب لاحتياجه إلى كثرة الماء. ٢٧/٢٩٩

٦ـ **والعُرُب:** جمع عَروب بفتح العين، ويقال: عَرِبه بفتح فكسر، فيجمع على عَرِبات كذلك، وهو اسم خاص بالمرأة.

وقد اختلفت أقوال أهل اللغة في تفسيره.

وأحسن ما يجمعهما أن العَروب: المرأة المتحببة إلى الرجل، أو التي لها كيفية المتحببة، وإن لم تقصد التحبب، بأن تكثر الضحك بمرأى الرجل، أو المزاح أو اللهو، أو الخضوع في القول، أو اللثغ في الكلام بدون علة، أو التغزل في الرجل، أو المساهلة في مجالسته، والتدلل، وإظهار معاكسة أميال الرجل، لعِباً لا جِدّاً، وإظهار أذاه كذلك كالمغاضبة من غير غضب، بل للتورك على الرجل. ٢٧/٣٠١

٧ـ **ويقال للعروب بلغة أهل مكة**: العَرِبة والشَّكِلَةُ.

ويقال لها بلغة أهل المدينة: الغَنجَة.

وبلغة العراق: الشّكِلة، أي ذات الشَّكَل بفتح الكاف وهو الدلال والتعرُّبُ. ٣٠٢/٢٧

٨ـ **والحميم:** الماء الشديد الحرارة.

واليحموم: الدخان الأسود على وزن يفعول مشتق من الحُمَم بوزن صُرَد اسم للفحم.

والحُممة: الفحمة، فجاءت زنة يفعول فيه اسماً ملحوظاً فيه هذا الاشتقاق وليس ينقاس. ٣٠٤/٢٧

سورة الحديد

١ـ **هذه السورة تسمى من عهد الصحابة (سورة الحديد)** فقد وقع في حديث إسلام عمر بن الخطاب عند الطبراني، والبزار أن عمر دخل على أخته قبل أن يسلم فإذا صحيفة فيها أول سورة الحديد، فقرأه حتى بلغ: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فأسلم.

وكذلك سميت في المصاحف وفي كتب السنة؛ لوقوع لفظ (الْحَدِيدَ) فيها في قوله ـتعالى ـ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

وهذا اللفظ وإن ذُكر في سورة الكهف في قوله ـتعالى ـ: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ وهي سابقة في النزول على سورة الحديد على المختار، فلم تسم به؛ لأنها سميت باسم الكهف؛ للاعتناء بقصة أهل الكهف، ولأن الحديد الذي ذكر هنا مراد به حديدُ السلاح من سيوف ودروع وخُوذ؛ تنويهاً به إذ؛ هو أثر من آثار حكمة الله في خلق مادته، وإلهام الناس صنعه؛ لتحصل به منافع؛ لتأييد الدين، ودفاع المعتدين كما قال ـتعالى ـ: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾.

وفي كون هذه السورة مدنية أو مكية اختلاف قوي لم يختلَف مثله في غيرها، فقال الجمهور: مدنية.

وحكى ابن عطية عن النقاش: أن ذلك إجماع المفسرين، وقد قيل: إن صدرها مكي لما رواه مسلم في صحيحه والنسائي وابن ماجه عن عبدالله ابن مسعود أنه قال: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ

لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ إلا أربع سنين.

عبدالله بن مسعود من أول الناس إسلاماً؛ فتكون هذه الآية مكية.

وهذا يعارضه ما رواه ابن مردويه عن أنس وابن عباس: أن نزول هذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة من ابتداء نزول القرآن؛ فيصار إلى الجمع بين الروايتين أو الترجيح، ورواية مسلم وغيره عن ابن مسعود أصح سنداً، وكلام ابن مسعود يرجّح على ما رُوي عن أنس وابن عباس؛ لأنه أقدم إسلاماً، وأعلم بنزول القرآن، وقد علمتَ آنفاً أن صدر هذه السورة كان مقروءاً قبل إسلام عمر بن الخطاب.

قال ابن عطية: «يشبه صدرها أن يكون مكياً والله أعلم، ولا خلاف أن فيها قرآناً مدنياً». اهـ

وروي أن نزولها كان يوم ثلاثاء؛ استناداً إلى حديث ضعيف رواه الطبراني عن ابن عمر ورواه الديلمي عن جابر بن عبدالله.

وأقول: الذي يظهر أن صدرها مكي كما توسمه ابن عطية، وأن ذلك ينتهي إلى قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وأن ما بعد ذلك بعضه نزل بالمدينة ـكما تقتضيه معانيه مثل حكاية أقوال المنافقينـ وبعضه نزل بمكة مثل آية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآيةَ، كما في حديث مسلم.

ويشبه أن يكون آخر السورة قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ نزل بالمدينة ألحق بهذه السورة بتوقيف من النبيﷺ في خلالها أو في آخرها.

قلت: وفيها آية: ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ الآية،

وسواء كان المراد بالفتح في تلك الآية فتح مكة أو فتح الحديبية فإنه أطلق عليه اسم الفتح وبه سميت (سورة الفتح) فهي متعينة؛ لأن تكون مدنية؛ فلا ينبغي الاختلاف في أن معظم السورة مدني.

وروي أن نزولها كان يوم الثلاثاء استناداً إلى حديث ضعيف رواه الطبراني عن ابن عمر ورواه الديلمي عن جابر بن عبدالله.

وقد عدت السورة الخامسة والتسعين في ترتيب نزول السور؛ جرياً على قول الجمهور: إنها مدنية فقالوا: نزلت بعد سورة الزلزال، وقبل سورة القتال، وإذا روعي قول ابن مسعود: إنها نزلت بعد البعثة بأربع سنين، وما روي من أن سبب إسلام عمر بن الخطاب أنه قرأ صحيفة لأخته فاطمة فيها صدر سورة الحديد ـ لم يستقم هذا العد؛ لأن العبرة بمكان نزول صدر السورة لا نزول آخرها، فيشكل موضعها في عد نزول السورة.

وعلى قول ابن مسعود يكون ابتداء نزولها آخر سنة أربع من البعثة، فتكون من أقدم السور نزولاً، فتكون نزلت قبل سورة الحجر وطه، وبعد غافر؛ فالوجه أن معظم آياتها نزل بعد سورة الزلزال.

وعدت آيها في عد أهل المدينة ومكة والشام ثماناً وعشرين، وفي عد أهل البصرة والكوفة تسعاً وعشرين.

وورد في فضلها مع غيرها من السور المفتتحة بالتسبيح ما رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن العرباض بن سارية: «أن النبي ﷺ كان يقرأ بالمسبحات قبل أن يرقد ويقول: «**إن فيهن آيةً أفضل من ألف آية**».

وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

وظن ابن كثير أن الآية المشار إليها في حديث العرباض هي قوله ـتعالىـ: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لما ورد في الآثار من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها. ٢٧/٣٥٣ـ٣٥٥

٢ـ **أغراضها**: الأغراضُ التي اشتملت عليها هذه السورة: التذكيرُ بجلال الله ـتعالىـ وصفاتِه العظيمة، وسعةِ قدرته وملكوته، وعمومِ تصرفه، ووجوبِ وجوده، وسعةِ علمه، والأمرُ بالإيمان بوجوده، وبما جاء به رسولهﷺ ، وما أنزل عليه من الآيات البينات.

والتنبيهُ لما في القرآن من الهُدى وسبيلِ النجاة، والتذكيرُ برحمة الله ورأفته بخلقه.

والتحريضُ على الإنفاق في سبيل الله، وأن المالَ عرضٌ زائل لا يبقى منه لصاحبه إلا ثوابُ ما أنفق منه في مرضاة الله.

والتخلصُ إلى ما أعدَّ اللهُ للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة من خير، وضِدِّ ذلك للمنافقين والمنافقات.

وتحذيرُ المسلمين من الوقوع في مهواة قساوة القلوب التي وقع فيها أهلُ الكتابِ مِنْ قَبْلِهم من إهمالِ ما جاءهم مِنَ الهدى حتى قست قلوبُهم وجرَّ ذلك إلى الفسوق كثيراً منهم.

والتذكيرُ بالبعث، والدعوةِ إلى قلة الاكتراث بالحياة الفانية، والأمرُ بالصبر على النوائب، والتنويهُ بحكمة إرسال الرسلِ والكتبِ؛ لإقامة أمور الناس على العدل العام.

والإيماءُ إلى فضل الجهاد في سبيل الله.

وتنظيرُ رسالةِ محمدﷺ برسالة نوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ على أن في

ذريتهما مهتدين وفاسقين، وأن اللهَ أَتْبَعَهُما برسلٍ آخرين منهم عيسى ـ عليه السلام ـ الذي كان آخرَ رسولٍ أُرْسِلَ بشرع قبل الإسلام، وأن أتباعَه كانوا على سُنَّةِ مَنْ سبقهم: منهم مؤمن، ومنهم كافر.

ثم أهاب بالمسلمين أن يُخْلِصوا الإيمانَ؛ تعريضاً بالمنافقين، وَوَعَدَهم بحسن العاقبة، وأن الله فضَّلهم على الأمم؛ لأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء. ٢٧/٣٥٥ـ٣٥٦

٣ـ ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) ﴾.

استئناف ثالث انْتُقِل به الخطاب إلى المؤمنين؛ فهذه الآية يظهر أنها مبدأُ الآيات المدنية في هذه السورة، ويزيد ذلك وضوحاً عطف قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآيات ـكما سيأتي قريباًـ.

والخطاب هنا وإن كان صالحاً لتقرير ما أفادته جملة: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾.

ولكن أسلوب النظم وما عطف على هذه الجملة يقتضيان أن تكون استئنافاً انتقالياً هو من حسن التخلص إلى خطاب المسلمين، ولا تفوته الدلالة على تقرير ما قبله؛ لأن التقرير يحصل من انتساب المعنيين: معنى الجملة السابقة، ومعنى هذه الجملة الموالية.

فهذه الجملة بموقعها ومعناها وعلتها وما عُطف عليها أفادت بياناً، وتأكيداً، وتعليلاً، وتذييلاً، وتخلصاً لغرض جديد، وهي أغراض جمعتها جمعاً بلغ حد الإعجاز في الإيجاز، مع أن كل جملة منها مستقلة بمعنى عظيم من الاستدلال

والتذكير والإرشاد والامتنان. ٣٧١/٢٧

٤ـ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) ﴾.

قد علم من صدر تفسير هذه السورة أن هذه الآية نزلت بمكة سنة أربع أو خمس من البعثة.

رواه مسلم وغيره عن عبدالله بن مسعود أنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ إلى: ﴿ وكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ إلا أربع سنين.

والمقصود من ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ : إما بعض منهم ربما كانوا مقصرين عن جمهور المؤمنين يومئذ بمكة؛ فأراد الله إيقاظ قلوبهم بهذا الكلام المجمل على عادة القرآن وأقوال الرسول ﷺ في التعريض مثل قوله: «**ما بال أقوام يفعلون كذا**» وقوله ـتعالىـ: ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾.

وليس ما قاله ابن مسعود مقتضياً أن مثله من أولئك الذين ذكرهم الله بهذه الآية، ولكنه يخشى أن يكون منهم؛ حذراً، وحيطة.

فالمراد بـ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ المؤمنون حقاً لا من يظهرون الإيمان من المنافقين؛ إذ لم يكن في المسلمين بمكة منافقون، ولا كان داعٍ إلى نفاق بعضهم.

وعن ابن مسعود: «لما نزلت جعل بعضنا ينظر إلى بعض ونقول: ما أحدثنا».

وإما أن يكون تحريضاً للمؤمنين على مراقبة ذلك والحذر من التقصير. ٣٨٩/٢٧ـ٣٩٠

٥ـ والمقصود التحذير لا أنهم تلبسوا بذلك، ولم يأن لهم الإقلاع عنه.

والتحذير مُنْصَبٌّ إلى ما حدث لأهل الكتاب من قسوة القلوب بعد طول الأمد عليهم في مزاولة دينهم، أي فليحذر الذين آمنوا من أن يكونوا مثلهم على حدثان عهدهم بالدين.

وليس المقصود عذر الذين أوتوا الكتاب بطول الأمد عليهم؛ لأن طول الأمد لا يكون سبباً في التفريط فيما طال فيه الأمد، بل الأمر بالعكس، ولا قصد تهوين حصوله للذين آمنوا بعد أن يطول الأمد؛ لأن ذلك لا يتعلق به الغرض قبل طول الأمد.

وإنما المقصود النهي عن التشبه بالذين أوتوا الكتاب في عدم خشوع قلوبهم.

ولكنه يفيد تحذير المؤمنين بعد أن يطول الزمان من أن يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب.

ويستتبع ذلك الأنباء بأن مدة المسلمين تطول قريباً أو أكثر من مدة أهل الكتاب الذين كانوا قبل البعثة؛ فإن القرآن موعظة للعصور والأجيال.

ويجوز أن تجعل (لا) حرف نهي وتعلق النهي بالغائب التفاتاً أو المراد: أَبْلِغْهم أن لا يكونوا. ٢٧/٣٩١ـ٣٩٢

٦ـ **والمعنى:** أنهم نَسُوا ما أوصوا به، فخالفوا أحكام شرائعهم، ولم يخافوا عقاب الله؛ يأخذون عرض هذا الأدنى، ويقولون سيغفر لنا، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً، وصار ديدناً لهم رويداً رويداً حتى ضَرِئوا بذلك؛ فقست قلوبهم، أي تمردت على الاجتراء على تغيير أحكام الدين. ٢٧/٣٩٢

٧ـ ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ (١٧) ﴾.

افتتاح الكلام بـ(اعلموا) ونحوه يؤذن بأن ما سيُلْقى جديرٌ بتوجه الذهن بشراشره إليه، كما تقدم عند قوله ـتعالىـ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ في سورة البقرة، وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية في سورة الانفال.

وهو هنا يشير إلى أن الكلام الذي بُعده مغزى عظيم غير ظاهر، وذلك أنه أريد به تمثيل حال احتياج القلوب المؤمنة إلى ذكر الله بحال الأرض الميتة في الحاجة إلى المطر، وحال الذكر في تزكية النفوس واستنارتها بحال الغيث في إحياء الأرض الجدبة.

ودل على ذلك قوله بعده: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وإلا فإن إحياء الله الأرض بعد موتها بما يصيبها من المطر لا خفاء فيها؛ فلا يقتضي أن يفتتح الإخبار عنه بمثل: ﴿اعْلَمُوا﴾ إلا لأن فيه دلالةً غيرَ مألوفةٍ وهي دلالة التمثيل، ونظيره قول النبيﷺ لأبي مسعود البدري وقد رآه لطم وجه عبدٍ له: «**اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا**».

فالجملة بمنزلة التعليل لجملة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ لما تتضمنه تلك من التحريض على الخشوع لذكر الله، ولكن هذه بمنزلة العلة فصلت ولم تعطف، وهذا يقتضي أن تكون مما نزل مع قوله ـتعالىـ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية.

والخطاب في قوله: ﴿اعْلَمُوا﴾ للمؤمنين على طريقة الالتفات؛ إقبالاً عليهم للاهتمام.

وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ استعارة تمثيلية مصرحة، ويتضمن تمثيلية مَكْنية بسبب تضمنه تشبيه حالِ ذكر الله والقرآن في إصلاح القلوب بحال المطر في إصلاحه الأرض بعد جدبها.

وطُوي ذكر الحالةِ المشبهِ بها، ورُمز إليها بلازمها وهو إسناد إحياء الأرض إلى الله؛ لأن الله يحيى الأرض بعد موتها بسبب المطر كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾[1].

والمقصود الإرشاد إلى وسيلة الإنابة إلى الله، والحث على تعهد النفس بالموعظة، والتذكير بالإقبال على القرآن وتدبره، وكلام الرسول ﷺ وتعليمه، وأن في اللجأ إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ نجاةً، وفي المفزع إليهما عصمة، وقد قال النبي ﷺ: «**تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي**».

وقال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً؛ فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا، وسقوا، وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع لذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**». ٢٧/٣٩٣ـ٣٩٤

٨ـ ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾.

١ـ لعله يشير إلى الآية: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (النحل: ٦٥). (م)

أعقب التحريض على الصدقات والإنفاق بالإشارة إلى دحض سبب الشح أنه الحرص على استبقاء المال؛ لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا، فضُرب لهم مثلُ الحياة الدنيا بحالٍ محقَّرةٍ على أنها زائلةٌ تحقيراً لحاصلها، وتزهيداً فيها؛ لأن التعلق بها يعوق عن الفلاح قال ـتعالىـ: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾، وقال: ﴿وَأُحْضِرَتْ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾.

كل ذلك في سياق الحث على الإنفاق الواجب وغيره، وأشير إلى أنها ينبغي أن تتخذ الحياة وسيلة للنعيم الدائم في الآخرة، ووقاية من العذاب الشديد.

وما عدا ذلك من أحوال الحياة فهو متاع قليل، ولذلك أعقب مثل الحياة الدنيا بالإخبار عن الآخرة بقوله: ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ﴾ الخ. ٢٧/٤٠٠ـ٤٠١

٩ـ وقد ذكر هنا من شؤون الحياة ما هو الغالب على الناس وما لا يخلو من مقارفة تضييع الغايات الشريفة أو اقتحام مساوٍ ذميمة، وهي أصول أحوال المجتمع في الحياة.

وهي ـأيضاًـ أصول أطوار آحاد الناس في تطور كل واحد منهم؛ فإن اللعب طور سِنّ الطفولة والصبا، واللهوَ طور الشباب، والزينة طور الفتوة، والتفاخرَ طور الكهولة، والتكاثر طور الشيخوخة، وذكر هنا خمسة أشياء:

فاللعب: اسم لقول أو فعل يراد به المزاح والهزل؛ لتمضية الوقت، أو إزالة وحشة الوحدة، أو السكون، أو السكوت، أو لجلب فرح ومسرة للنفس، أو يجلب مثل ذلك للحبيب، أو يجلب ضده للبغيض، كإعمال الأعضاء وتحريكها؛ دفعاً لوحشة السكون، والهذيان المقصود لدفع وحشة السكوت، ومنه العبث،

وكالمزاح مع المرأة لاجتلاب إقبالها ومع الطفل، تحبباً أو إرضاءً له.

واللعب: هو الغالب على أعمال الأطفال والصبيان؛ فطور الطفولة طور اللعب ويتفاوت غيرهم في الإتيان منه؛ فيقل ويكثر بحسب تفاوت الناس في الأطوار الأولى من الإنسان، وفي رجاحة العقول، وضعفها.

والإفراط فيه من غير أصحاب طوره يؤذن بخسة العقل، ولذلك قال قوم إبراهيم له: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ اللاَّعِبِينَ﴾.

واللعب يكثر في أحوال الناس في الدنيا؛ فهو جزء عظيم من أحوالها، وحسبك أنه يَعمُر معظم أحوال الصبا.

واللهو: اسم لفعل أو قول يقصد منه التذاذ النفس به، وصرفها عن ألم حاصل من تعب الجسد أو الحزن أو الكمد، يقال: لها عن الشيء، أي تشاغل عنه، قال امرؤ القيس:

وبيضة خدر لا يرام خِباؤها   تمتعتُ من لَهْو بها غيرَ معجَل

وقال النابغة يذكر حجه:

حيَّاكِ ربي فإنا لا يحل لنا   لَهْوُ النساء وإن الدِّين قد عَزَمَا

ويغلب اللهو على أحوال الشباب، فطور الشباب طوره، ويكثر اللهو في أحوال الدنيا من تطلب اللذات والطرب.

والزينة: تحسين الذات أو المكان بما يجعل وقعه عند ناظره مُسراً له، وفي طباع الناس الرغبة في أن تكون مناظرهم حسنة في عين ناظريهم وذلك في طباع النساء أشد، وربما كان من أسباب شدته فيهن كثرة إغراء الرجال لهن بذلك.

ويكثر التزين في طور الفتوة؛ لأن الرجل يشعر بابتداء زوال محاسن شبابه،

والمرأة التي كانت غانية تحب أن تكون حالية، وليس ذلك لأجل تعرضها للرجال ـ كما يتوهمه الرجال فيهن غروراً بأنفسهم ـ بل ذلك لتكون حسنة في الناس من الرجال والنساء.

ويغلب التزين على أحوال الحياة؛ فإن معظم المساكن والملابس يراد منه الزينة، وهي ذاتية ومعنوية، ومن المعنوية ما يسمى في أصول الفقه بالتحسيني.

والتفاخر: الكلام الذي يفخر به، والفخر: حديث المرء عن محامده والصفات المحمودة منها فيه بالحق أو الباطل.

وصيغ منه زِنَة التفاعل؛ لأن شأن الفخر أن يقع بين جانبين كما أنبأ به تقييده بظرف (**بينكم**).

والناس يتفاخرون بالصفات المحمودة في عصورهم وأجيالهم وعاداتهم؛ فمن الصفات ما الفخر به غير باطل.

وهو الصفات التي حقائقها محمودة في العقل أو الشرع.

ومنها ما الفخر به باطل من الصفات والأعمال التي اصطلح قوم على التمدح بها، وليست حقيقة بالمدح مثل التفاخر بالإغلاء في ثمن الخمور، وفي الميسر، والزنى، والفخر بقتل النفوس، والغارة على الأموال في غير حق.

وأغلب التفاخر في طور الكهولة واكتمال الأشُدَّ؛ لأنه زمن الإقبال على الأفعال التي يقصد منها الفخر.

والتفاخر كثير في أحوال الناس في الدنيا، ومنه التباهي والعُجب، وعنه ينشأ الحسد.

والتكاثر: تفاعل من الكثرة، وصيغة التفاعل هنا للمبالغة في الفعل بحيث

ينزل منزلة من يغالب غيره في كثرة شيء؛ فإنه يكون أحرص على أن يكون الأكثر منه عنده؛ فكان المرء ينظر في الكثرة من الأمر المحبوب إلى امرىء آخر له الكثرة منه، ألا ترى إلى قول طرفة:

فلو شاء ربي كنت قيس بن عاصم[1] ... ولو شاء ربي كنت عمرو بنَ مرثدِ

فأصبحت ذا مال كثير وطاف بي ... بنونَ كرامٌ سادة لمسوَّد

ثم شاع إطلاق صيغة التكاثر؛ فصارت تستعمل في الحرص على تحصيل الكثير من غير مراعاة مغالبة الغير ممن حصل عليه، قال -تعالى-: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾. ٢٧/٤٠١-٤٠٣

١٠- **والمعنى: أن الله أقام نظام أحوال الناس في الحياة الدنيا على حكمة أن تكون الحياة وسيلة لبلوغ النفوس** إلى ما هيَّأها الله له من العروج إلى سمو المَلَكيَّة كما دل عليه قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فكان نظام هذه الحياة على أن تجري أمور الناس فيها على حسب تعاليم الهدى؛ للفوز بالحياة الأبدية في النعيم الحق بعد الممات والبعث؛ فإذا الناس قد حرفوها عن مهيعها، وقد تضمن ذلك قوله -تعالى-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ٢٧/٤٠٣-٤٠٤

١١- ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾.

فضرب مثل الحياة الدنيا لأطوار ما فيها من شباب وكهولة وهرم ففناء، ومن جِدَّةٍ وتبذّل وبِلىً، ومن إقبال الأمور في زمن إقبالها ثم إدبارها بعد ذلك،

---

١ - هكذا في الأصل، وفي ديوان طرفة: قيس بن خالد. (م)

بأطوار الزرع، وكلها أعراض زائلة وآخرها فناء.

وتندرج فيها أطوار المرء في الحياة المذكورة في قوله: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إلى: ﴿وَالأَولادِ﴾ كما يظهر بالتأمل. ٢٧/٤٠٦ـ٤٠٧

١٢ـ ويفهم من هذا أن ما كان من أحوال الحياة مقصوداً لوجه الله فإنه من شؤون الآخرة؛ فلا يدخل تحت هذا التمثيل إلا ظاهراً.

فأعمال البر ودراسة العلم ونحو ذلك لا يعتريها نقص ما دام صاحبها مقبلاً عليها، وبعضها يزداد نماءً بطول المدة، وتقدم نظير هذه الآية في سورة الزمر. ٢٧/٤٠٦

١٣ـ ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)﴾.

وعبر عن العناية والاهتمام بفعل المسابقة؛ لإلهاب النفوس بصرف العناية بأقصى ما يمكن من الفضائل كفعل من يسابق غيره إلى غاية فهو يحرص على أن يكون المجلِّيَّ، ولأن المسابقة كنايةٌ عن المنافسة، أي واتركوا المقتصرين على متاع الحياة الدنيا في الأخريات والخوالف. ٢٧/٤٠٧

١٤ـ ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾.

وهذا الكلام يجمع الإشارة إلى ما قدمناه من أن الله ـتعالىـ وضع نظام هذا العالم على أن تترتب المسببات على أسبابها، وقدر ذلك وعلمه، وهذا مثل قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ ونحو ذلك. ٢٧/٤١١

١٥ـ ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾.

والمقصود من هذا لفت بصائر السامعين إلى الاعتبار بحكمة الله ـتعالى ـ من خلق الحديد وإلهام صنعه، والتنبيه على أن ما فيه من نفع وبأس إنما أريد به أن يوضع بأسه حيث يستحق، ويوضع نفعه حيث يليق به، لا لتجعل منافعه لمن لا يستحقها مثل قطّاع الطريق والثوار على أهل العدل، ولتجهيز الجيوش؛ لحماية الأوطان من أهل العدوان، وللادخار في البيوت؛ لدفع الضاريات والعاديات على الحُرم والأموال.

وكان الحكيم (انتيثنوس) اليوناني تلميذ سقراط إذا رأى امرأة حالية متزينة في أثينا يذهب إلى بيت زوجها ويسأله أن يريه فرسه وسلاحه، فإذا رآهما كاملين أذن لامرأته أن تتزين؛ لأن زوجها قادر على حمايتها من داعر يغتصبها، وإلا أمرها بترك الزينة وترك الحلي.

وهذا من باب سد الذريعة، لا ليجعل بأسه لإخضاد شوكة العدل وإرغام الآمرين بالمعروف على السكوت؛ فإن ذلك تحريف لما أراد الله من وضع الأشياء النافعة والقارة، قال ـتعالى ـ: ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾.

وقال على لسان أحد رسله ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾. ٢٧/٤١٧

١٦ـ **والرهبانية:** اسم للحالة التي يكون الراهب متصفاً بها في غالب شؤون دينه، فيها ياء النسبة إلى الراهب على غير قياس؛ لأن قياس النسب إلى الراهب الراهبية، والنون فيها مزيدة للمبالغة في النسبة كما زيدت في قولهم: شَعْراني، لكثير الشعر، ولحياني لعظيم اللحية، وروحاني، ونصراني. ٢٧/٤٢١

١٧ـ **فالراهب يمتنع من التزوج؛ خيفة أن تشغله زوجه عن عبادته**، ويمتنع

من مخالطة الأصحاب؛ خشية أن يلهو عن العبادة، ويترك لذائد المآكل والملابس؛ خشية أن يقع في اكتساب المال الحرام، وأنهم أرادوا التشبه بعيسى -عليه السلام- في الزهد في الدنيا وترك التزوج، فلذلك قال الله -تعالى-: ﴿ ابْتَدَعُوهَا ﴾ أي أحدثوها؛ فإن الابتداعَ الإتيانُ بالبدعة والبِدَعِ، وهو ما لم يكن معروفاً، أي أحدثوها بعد رسولهم؛ فإن **البدعة ما كان محدثاً بعد صاحب الشريعة.** ٤٢٢/٢٧

سورة المجادلة

١ـ **سميت هذه السورة** في كتب التفسير وفي المصاحف وكتب السنة (سورة المجادلة) بكسر الدال أو بفتحه كما سيأتي.

وتسمى (سورة قد سمع) وهذا الاسم مشتهر في الكتاتيب في تونس، وسميت في مصحف أُبيّ بن كعب (سورة الظهار).

ووجه تسميتها (سورة المجادلة) لأنها افتتحت بقضية مجادلة امرأة أوس ابن الصامت لدى النبيﷺ في شأن مظاهرة زوجها.

ولم يذكر المفسرون ولا شارحوا كتب السنة ضبطه بكسر الدال أو فتحها.

وذكر الخفاجي في حاشية البيضاوي عن الكشف أن كسر الدال هو المعروف ـولم أدر ما أراد الخفاجي بالكشف الذي عزا إليه هذاـ فكشف القزويني على الكشاف لا يوجد فيه ذلك، ولا في التفسير المسمى الكشفَ والبيان للثعلبي.

فلعل الخفاجي رأى ذلك في الكشف الذي ينقل عنه الطيبي في مواضع تقريرات لكلام الكشاف وهو غير معروف في عداد شروح الكشاف.

وكسر الدال أظهر؛ لأن السورة افتتحت بذكر التي تجادل في زوجها؛ فحقيقة أن تضاف إلى صاحبة الجدال، وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

ورأيت في نسخة من حاشية محمد الهمذاني على الكشاف المسماة توضيح المشكلات، بخط مؤلفها جعل علامة كسرة تحت دال المجادلة.

وأما فتح الدال فهو مصدر مأخوذ من فعل: ﴿تُجَادِلُكَ﴾ كما عبر عنها

بالتحاور في قوله ـتعالى ـ: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾.

وهذه السورة مدنية قال ابن عطية بالإجماع.

وفي تفسير القرطبي عن عطاء: أن العشر الأُوَلَ منها مدني وباقيها مكي.

وفيه عن الكلبي أنها مدنية إلا قوله ـتعالى ـ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآية نزلت بمكة.

وهي السورة المائة وثلاث في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة المنافقين وقبل سورة التحريم.

والذي يظهر أن سورة المجادلة نزلت قبل سورة الأحزاب؛ لأن الله ـتعالى ـ قال في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وذلك يقتضي أن تكون هذه الآية نزلت بعد إبطال حكم الظهار بما في سورة المجادلة؛ لأن قوله: ﴿مَا جَعَلَ﴾ يقتضي إبطال التحريم بالمظاهرة، وإنما أبطل بآية سورة المجادلة.

وقال السخاوي: نزلت سورة المجادلة بعد سورة المنافقين وقبل سورة الحجرات.

وآيها في عد أهل المدينة وأهل مكة إحدى وعشرون، وفي عد أهل الشام والبصرة والكوفة اثنتان وعشرون. ٢٨/٥ـ٦

٢ـ **أغراض هاته السورة**: الحكمُ في قضيةِ مُظَاهَرَةِ أوسِ بنِ الصامتِ من زوجِهِ خولة.

وإبطالُ ما كان في الجاهلية من تحريم المرأةِ إذا ظاهر منها زوجُها، وأن عَمَلَهم مخالفٌ لما أراده الله، وأنه من أوهامهم وزورهم التي كبتهم الله بإبطالها، وتَخَلَّص من ذلك إلى ضلالات المنافقين ومنها مناجاتهم بمرأى المؤمنين؛

ليغيظوهم ويحزنوهم.

ومنها موالاتُهم اليهودَ، وحَلِفُهم على الكذب.

وتخلل ذلك التعرضُ لآداب مجلس الرسول ﷺ وشرعُ التصدق قبلَ مناجاةِ الرسول ﷺ والثناءُ على المؤمنين في مجافاتهم اليهودَ والمشركين، وأن اللهَ ورسولَه وحزبَهما هم الغالبون. ٢٨/٦

٣ـ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)﴾.

افتتحت آيات أحكام الظهار بذكر سبب نزولها؛ تنويهاً بالمرأة التي وجَّهت شكواها إلى الله ـتعالى ـ بأنها لم تُقَصِّر في طلب العدل في حقها وفي بَنِيها.

ولم ترضَ بعُنجهية زوجها، وابتداره إلى ما ينثر عقد عائلته دون تبصّر ولا رويَّة، وتعليماً لنساء الأمة الإسلامية، ورجالها واجبَ الذودِ عن مصالحها.

تلك هي قضية المرأة خولة أو خُويلة مصغراً أو جميلة بنت مالك بن ثعلبة أو بنت دُلَيْج ـمصغراً ـ العوفية.

وربما قالوا: الخزرجية، وهي من بني عوف بن مالك بن الخزرج من بطون الأنصار مع زوجها أوس بن الصامت الخزرجي أخي عبادة بن الصامت.

قيل: إن سبب حدوث هذه القضية أن زوجها رآها وهي تصلي وكانت حسنة الجسم، فلما سلمت أرادها، فأبت، فغضب، وكان قد ساء خلقه، فقال لها: أنتِ عليّ كظهر أمي.

قال ابن عباس: وكان هذا في الجاهلية تحريماً للمرأة مؤبَّداً ـأي وعمل به المسلمون في المدينة بعلم من النبي ﷺ وإقراره الناسَ عليه؛ فاستقر مشروعاً ـ.

فجاءت خولة رسول اللهﷺ وذكرت له ذلك، فقال لها: حَرُمْتِ عليه، فقالت للرسولﷺ: إن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا، فقال «**ما عندي في أمرك شيء، فقالت: يا رسول الله ما ذكر طلاقاً، وإنما هو أبو وَلَدِي وأحب الناس إلي، فقال: حَرُمتِ عليه، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي كلما قال رسول اللهﷺ حَرُمتِ عليه هتفت وشكت إلى الله**» فأنزل الله هذه الآيات.

وهذا الحديث رواه أبو داود في كتاب الظهار مجملاً بسند صحيح.

وأما تفصيل قصته فمن روايات أهل التفسير، وأسباب النزول يزيد بعضها على بعض، وقد استقصاها الطبري بأسانيده عن ابن عباس، وقتادة، وأبي العالية، ومحمد بن كعب القرظي، وكلها متفقة على أن المرأة المجادِلة هي خولة أو خويلة أو جميلة، وعلى أن زوجها أوس بن الصامت. ٢٨/٦-٧

٤- **والسماع في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾** مستعمل في معناه الحقيقي المناسب لصفات الله؛ إذ لا صارف يصرف عن الحقيقة.

وكون الله -تعالى- عالماً بما جرى من المحاورة معلوم لا يراد من الإخبار به إفادة الحكم، فتعين صرف الخبر إلى إرادة الاعتناء بذلك التحاور، والتنويه به، وبعظيم منزلته لاشتماله على ترقّب النبيﷺ ما ينزله عليه من وحي، وترقب المرأة الرحمة، وإلا فإن المسلمين يعلمون أن الله عالم بتحاورهما. ٢٨/٩

٥- **وجملة: ﴿اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾** تذييل لجملة: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي أن الله عالم بكل صوت وبكل مرئي. ٢٨/٩

٦- ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي

وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنْ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) ﴾.

ومعناه أن يقول الرجل لزوجه : أنت علي كظهر أمي.

وكان هذا قولاً يقولونه في الجاهلية يريدون به تأبيدَ تحريم نكاحها وبتّ عصمته.

وهو مشتق من الظهر ضد البطن لأن الذي يقول لامرأته أنت علي كظهر أمي يريد بذلك أنه حرمها على نفسه كما أن أمه حرام عليه ، فإسناد تركيب التشبيه إلى ضمير المرأة على تقدير حالة من حالاتها ، وهي حالة الاستمتاع المعروف ، سلكوا في هذا التحريم مسلك الاستعارة المكنية بتشبيه الزوجة حين يقربها زوجها بالراحلة ، وإثبات الظهر لها تخيل للاستعارة ، ثم تشبيه ظهر زوجته بظهر أمه ، أي في حالة من أحواله ، وهي حالة الاستمتاع المعروف ، وجعل المشبه ذات الزوجة.

والمقصود أخص أحوال الزوجة ، وهو حال قربانها؛ فآل إلى إضافة الأحكام إلى الأعيان.

فالتقدير : قربانك كقربان ظهر أمي ، أي اعتلائها الخاص.

ففي هذه الصيغة حذفٌ ، ومجيءُ حروفِ لفظِ ظهر في صيغة ظهار أو مظاهرة يشير إلى صيغة التحريم التي هي : (أنت علي كظهر أمي) إيماءٌ إلى تلك الصيغة على نحو ما يستعمل في النحت وليس هو من النحت؛ **لأن النحت يشتمل على حروف من عدة كلمات.**

قال المفسرون وأهل اللغة كان الظهار طلاقاً في الجاهلية يقتضي تأبيد التحريم.

وأحسب أنه كان طلاقاً عند أهل يثرب وما حولها؛ لكثرة مخالطتهم اليهود ، ولا أحسب أنه كان معروفاً عند العرب في مكة وتهامة ونجد وغيرها ، ولم أقف

على ذلك في كلامهم.

وحسبك أن لم يذكر في القرآن إلا في المدني هنا ، وفي سورة الأحزاب.

والذي يَلُوُح لي أن أهل يثرب ابتدعوا هذه الصيغة؛ للمبالغة في التحريم؛ فإنهم كانوا قبل الإسلام ممتزجين باليهود، متخلقين بعوائدهم، وكان اليهود يمنعون أن يأتي الرجل امرأته من جهة خلفها كما تقدم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ في سورة البقرة؛ فلذلك جاء في هذه الصيغة لفظ الظهر؛ فجمعوا في هذه الصيغة تغليظاً من التحريم وهي أنها كأمه، بل كظهر أمه؛ فجاءت صيغة شنيعة فضيعة. ٢٨/١٠ـ١١

٧ـ وأخذوا من صيغة: (أنت علي كظهر أمي) أصرحَ ألفاظِها، وأخصَّها بغرضها وهو لفظ ظهر؛ فاشتقوا منه الفعل بِزِناتٍ[1] متعددة، يقولون: ظاهر من امرأته، وظهّر مثل ضاعف وضعّف، ويدخلون عليهما تاء المطاوعة.

فيقولون: تظاهر منها وتظهَّر، وليس هذا من قبيل النحت نحو: بسمل، وهلّل؛ لعدم وجود حرف من الكلمات الموجودة في الجملة كلها. ٢٨/١١

٨ـ و﴿ **أَلَمْ تَرَى** ﴾ من الرؤية العلمية؛ لأن علم الله لا يرى، وسَدَّ المصدر مسدَّ المفعول.

والتقدير : ألم تر الله عالماً.

و﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ يعم المبصرات والمسموعات فهو أعم من قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لاختصاصه بعلم المشاهدات؛ لأن الغرض المفتتح به هذه الجملة هو علم المسموعات. ٢٨/٢٦

---

١ ـ يعني بأوزان. (م)

سورة الحشر

١ـ **اشتهرت تسمية هذه السورة (سورة الحشر)** وبهذا الاسم دعاها النبيﷺ.

روى الترمذي عن معقل بن يسار: «**قال رسول الله ﷺ: من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر**» الحديث، أي الآيات التي أولها: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ إلى آخر السورة.

وفي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس سورة الحشر قال: «قل: بني النضير» أي سورة بني النضير؛ فابن جبير سماها باسمها المشهور، وابن عباس يسميها سورة بني النضير.

ولعله لم يبلغه تسمية النبيﷺ إياها (سورة الحشر) لأن ظاهر كلامه أنه يرى تسميتها (سورة بني النضير) لقوله لابن جبير (قل: بني النضير).

وتأول ابن حجر كلام ابن عباس على أنه كره تسميتها بـ(الحشر) لئلا يظن أن المراد بالحشر يوم القيامة، وهذا تأول بعيد.

وأحسن من هذا أن ابن عباس أراد أن لها اسمين، وأن الأمر في قوله: (قل)، للتخيير.

فأما وجه تسميتها (الحشر) فلوقوع لفظ (الحَشْرِ) فيها.

ولكونها ذكر فيها حشر بني النضير من ديارهم أي من قريتهم المسماة الزهرة قريباً من المدينة؛ فخرجوا إلى بلاد الشام إلى أريحا وأذرعات، وبعض بيوتهم خرجوا إلى خيبر، وبعض بيوتهم خرجوا إلى الحيرة.

وأما وجه تسميتها (سورة بني النضير) فلأن قصة بني النضير ذكرت فيها.

وهي مدنية بالاتفاق.

وهي الثامنة والتسعون في عداد نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة البينة وقبل سورة النصر.

وكان نزولها عقب إخراج بني النضير من بلادهم سنة أربع من الهجرة.

وعدد آيها أربع وعشرون باتفاق العادين. ٢٨/٦٢-٦٣

٢ـ أغراض هذه السورة: وقع الاتفاق على أنها نزلت في شأن بني النضير، ولم يُعَيِّنوا ما هو الغرضُ الذي نزلت فيه، ويظهر أن المقْصِدَ منها حكمُ أموالِ بني النضير بعد الانتصار عليهم ـكما سنبينه في تفسير الآية الأولى منهاـ.

وقد اشتملت على أن ما في السماوات وما في الأرض دالٌّ على تنزيه الله، وكونِ ما في السماوات والأرض مُلْكَهُ، وأنه الغالبُ المدبر.

وعلى ذكرِ نِعْمَةِ اللهِ على ما يَسَّرَ من إجلاء بني النضير مع ما كانوا عليه من المَنَعةِ والحصون والعدة، وتلك آيةٌ من آيات تأييدِ رسول الله ﷺ وغلبته على أعدائه.

وذكرُ ما أجراه المسلمون من إتلافِ أموالِ بني النَّضير، وأحكامُ ذلك في أموالهم، وتَعْيِيْن مستحقيه من المسلمين.

وتعظيمُ شأنِ المهاجرين والأنصارِ والذين يجيئُون بعدَهم من المؤمنين.

وكشفُ دخائلِ المنافقين ومواعيدِهم لبني النضير أن ينصروهم، وكيف كذبوا وعدهم، وأنحى على بني النضير والمنافقين بالجبن وتفرُّق الكلمةِ، وتنظير حال

تغرير المنافقين لليهود بتغرير الشيطان للذين يكفرون بالله، وتَنَصُّلِه من ذلك يوم القيامة؛ فكان عاقبةُ الجميعِ الخلودَ في النار.

ثم خطابُ المؤمنين بالأمر بالتقوى، والحذرِ من أحوال أصحابِ النار، والتذكيرُ بتفاوت حال الفريقين.

وبيانُ عظمةِ القرآن، وجلالتِه، واقتضائه خشوعَ أهلِه.

وتخلل ذلك إيماءٌ إلى حكمةِ شرائعِ انتقالِ الأموال بين المسلمين بالوجوه التي نظَّمها الإسلام بحيث لا تَشُقُّ على أصحاب الأموال.

والأمرُ باتباع ما يشرعه الله على لسان رسولهﷺ.

وخُتِمَتْ بصفاتٍ عظيمة من الصفات الإلهية، وأنه يسبح له ما في السماوات والأرض؛ تزكيةً لحال المؤمنين، وتعريضاً بالكافرين. ٢٨/٦٣-٦٤

٣- والخطاب في قوله: ﴿يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ موجه إلى غير معين.

ونودي أولوا الأبصار بهذه الصلة؛ ليشير إلى أن العبرة بحال بني النضير واضحة مكشوفة لكل ذي بصر ممن شاهد ذلك، ولكل ذي بصر يرى مواقع ديارهم بعدهم؛ فتكون له عبرة قدرة الله -تعالى- على إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال.

وفي انتصار الحق على الباطل، وانتصار أهل اليقين على المذبذبين.

وقد احتج بهذه الآية بعض علماء الأصول لإثبات حجية القياس بناء على أنه من الاعتبار. ٢٨/٧٢

٤- والمقصود من ذلك إبطال ما كان معتاداً في العرب قبل الإسلام من استئثار

قائد الجيش بأمور من المغانم وهي: المرباع، والصفايا، وما صالح عليه عدوه دون قتال، والنشيطة والفضول.

قال عبدالله بنُ عَنمةَ الضبي يخاطب بسطام بن قيس سيد بني شيبان وقائدهم في أيامهم:

لك المرباع منه والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

فالمرباع: ربع المغانم كان يستأثر به قائد الجيش.

والصفايا: النفيس من المغانم الذي لا نظير له فتعذر قسمته، كان يستأثر به قائد الجيش.

وأما حكمه فهو ما أعطاه العدو من المال إذا نزلوا على حكم أمير الجيش.

والنشيطة: ما يصيبه الجيش في طريقه من مال عدوهم قبل أن يصلوا إلى موضع القتال.

والفضول: ما يبقى بعد قسمة المغانم مما لا يقبل القسمة على رؤوس الغزاة مثل بعير وفرس.

وقد أبطل الإسلام ذلك كله؛ فجعل الفيء مصروفاً إلى ستة مصارف راجعة فوائدها إلى عموم المسلمين؛ لسد حاجاتهم العامة والخاصة؛ فإن ما هو لله وللرسول ﷺ إنما يجعله الله لما يأمر به رسوله ﷺ وجعل الخمس من المغانم كذلك لتلك المصارف.

وقد بدا من هذا التعليل أن من مقاصد الشريعة أن يكون المال دولة بين الأمة الإسلامية على نظام محكم في انتقاله من كل مال لم يسبق عليه ملك لأحد مثل الموات، والفيء، واللقطات، والركاز، أو كان جزءاً معيناً مثل: الزكاة،

والكفارات، وتخميس المغانم، والخراج، والمواريث، وعقود المعاملات التي بين جانبي مال وعمل مثل: القراض، والمغارسة، والمساقاة، وفي الأموال التي يظفر بها الظافر بدون عمل وسعي مثل: الفيء والركاز، وما ألقاه البحر، وقد بينت ذلك في الكتاب الذي سميته (مقاصد الشريعة الإسلامية).

والدولة بضم الدال: ما يتداوله المتداولون.

والتداول: التعاقب في التصرف في شيء، وخصها الاستعمال بتداول الأموال.

والدولة بفتح الدال: النوبة في الغلبة والملك؛ ولذلك أجمع القراء المشهورون على قراءتها في هذه الآية بضم الدال. ٢٨/٨٤ـ٨٦

٥ـ وفي الحديث في بيان أفضل الصدقة: «**أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى**».

ولكن النفوس تتفاوت في هذا المقدار فإذا غلب عليها بمنع المعروف والخير فذلك مذموم، ويتفاوت ذمه بتفاوت ما يمنعه.

قال وقد أحسن وصفه من قال، لم أقف على قايله:

يمارس نفساً بين جنبيه كزة إذا همَّ بالمعروف قالت له مهلا

فمن وقي شح نفسه، أي وقي من أن يكون الشح المذموم خلقاً له، لأنه إذا وقي هذا الخلق سلم من كل مواقع ذمه؛ فإن وقي من بعضه كان له من الفلاح بمقدار ما وقيه. ٢٨/٩٤ـ٩٥

٦ـ ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (١٤)﴾.

استئناف بياني؛ لأن الإخبار عن أهل الكتاب وأنصارهم بأنهم لا يقاتلون

المسلمين إلا في قرى محصنة المفيد أنهم لا يتفقون على جيش واحد متساندين فيه مما يثير في نفس السامع أن يسأل عن موجب ذلك مع أنهم متفقون على عداوة المسلمين.

فيجاب بأن بينهم بأساً شديداً وتدابراً؛ فهم لا يتفقون.

وافتتحت الجملة بـ﴿بَأْسُهُمْ﴾ للاهتمام بالأخبار عنه بأنه بينهم، أي متسلط من بعضهم على بعض وليس بأسهم على المسلمين، وفي تهكم.

ومعنى بينهم: أن مجال البأس في محيطهم؛ فما في بأسهم من إضرار فهو منعكس إليهم، وهذا التركيب نظير قوله ـتعالىـ: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

وجملة: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً﴾ إلى آخرها استئناف عن جملة: ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ لأنه قد يسأل السائل: كيف ذلك ونحن نراهم متفقين؟ فأجيب بأن ظاهر حالهم حال اجتماع واتحاد، وهم في بواطنهم مختلفون؛ فآراؤهم غير متفقة لا إلفة بينهم؛ لأن بينهم إحناً وعداوات؛ فلا يتعاضدون.

والخطاب لغير مُعَيَّن؛ لأن النبيﷺ لا يحسب ذلك، وهذا تشجيع للمسلمين على قتالهم، والاستخفاف بجماعتهم.

وفي الآية تربية للمسلمين؛ ليحذروا من التخالف والتدابر، ويعلموا أن الأمة لا تكون ذات بأس على أعدائها إلا إذا كانت متفقة الضمائر يرون رأياً متماثلاً في أصول مصالحهما المشتركة، وإن اختلفت في خصوصياتها التي لا تنقض أصول مصالحها، ولا تفرق جامعتها، وأنه لا يكفي في الاتحاد توافق الأقوال ولا التوافق على الأغراض إلا أن تكون الضمائر خالصة من الإحن والعداوات. ٢٨/١٠٥ـ١٠٦

سورة الممتحنة

١ـ **عرفت هذه السورة** في كتب التفسير وكتب السنة وفي المصاحف بـ(سورة الممتحنة).

قال القرطبي: والمشهور على الألسنة النطق في كلمة (الممتحنة) بكسر الحاء وهو الذي جزم به السهيلي.

ووجه التسمية أنها جاءت فيها آية امتحان إيمان النساء اللاتي يأتين من مكة مهاجرات إلى المدينة وهي آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾.

فوصف الناس تلك الآية بالممتحنة؛ لأنها شرعت الامتحان، وأضيفت السورة إلى تلك الآية.

وقال السهيلي: أسند الامتحان إلى السورة مجازاً كما قيل لسورة براءة الفاضحة، يعني أن ذلك الوصف مجاز عقلي.

وروي بفتح الحاء على اسم المفعول.

قال ابن حجر: وهو المشهور أي المرأة الممتحنة على أن التعريف تعريف العهد والمعهود أول امرأة امتحنت في إيمانها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط امرأة عبد الرحمن بن عوف.

كما سميت سورة قد سمع الله (سورة المجادلة) بكسر الدال.

ولك أن تجعل التعريف تعريف الجنس، أي النساء الممتحنة.

قال في الإتقان: وتسمى (سورة الامتحان) و(سورة المودة) وعزا ذلك إلى كتاب جمال القراء لعلي السخاوي، ولم يذكر سنده.

وهذه السورة مدنية بالاتفاق.

واتفق أهل العدد على عد آيها ثلاث عشرة آية، وآياتها طوال.

واتفقوا على أن الآية الأولى نزلت في شأن كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين من أهل مكة.

روى البخاري من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار يبلغ به إلى علي ابن أبي طالب ﷺ قصة كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة ثم قال: قال عمرو بن دينار: نزلت فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

قال سفيان: «هذا في حديث الناس لا أدري الآية في الحديث أو قول عمرو، حفظته من عمرو وما تركت منه حرفاً». اهـ

وفي صحيح مسلم وليس في حديث أبي بكر، وزهير (من الخمسة الذين روى عنهم مسلم يروون عن سفيان بن عيينة) ذكر الآية.

وجعلها إسحاق ـأي ابن إبراهيمـ أحد من روى عنهم مسلم هذا الحديث في روايته من تلاوة سفيان. اهـ

ولم يتعرض مسلم لرواية عمرو الناقد وابن أبي عمر عن سفيان، فلعلهما لم يذكرا شيئاً في ذلك.

واختلفوا في أن كتابه إليهم أكان عند تجهز رسول الله ﷺ للحديبية وهو قول قتادة، ودرج عليه ابن عطية، وهو مقتضى رواية الحارث عن علي بن أبي طالب عند الطبري قال: لما أراد النبي ﷺ أن يأتي مكة أفشى في الناس أنه يريد خيبر وأسر إلى ناس من أصحابه منهم حاطب بن أبي بلتعة أنه يريد مكة؛ فكتب حاطب إلى أهل مكة... إلى آخره.

فإن قوله : أفشى ، أنه يريد خيبر يدل على أن إرادته مكة إنما هي إرادة عمر[1] الحديبية لا غزو مكة؛ لأن خيبر فتحت قبل فتح مكة.

ويؤيد هذا ما رواه الطبري أن المرأة التي أرسل معها حاطب كتابه كان مجيئها المدينة بعد غزوة بدر بسنتين : وقال ابن عطية : نزلت هذه السورة سنة ست.

وقال جماعة : كان كتاب حاطب إلى أهل مكة عند تجهز رسول اللهﷺ لفتح مكة ، وهو ظاهر صنيع جمهور أهل السير، وصنيع البخاري في كتاب المغازي من صحيحه في ترتيبه للغزوات ، ودرج عليه معظم المفسرين.

ومعظم الروايات ليس فيها تعيين ما قصده رسول اللهﷺ من تجهزه إلى مكة أهو لأجل العمرة ، أم لأجل الفتح ، فإن كان الأصح الأول وهو الذي نختاره كانت السورة جميعها نازلة في مدة متقاربة ، فإن امتحان أم كلثوم بنت عقبة كان عقب صلح الحديبية.

ويكون نزول السورة مرتباً على ترتيب آياتها وهو الأصل في السور.

وعلى القول الثاني يكون صدور السورة نازلاً بعد آيات الامتحان وما بعدها حتى قال بعضهم : إن أول السورة نزل بمكة بعد الفتح ، وهذا قول غريب لا ينبغي التعويل عليه.

وهذه السورة قد عدت الثانية والتسعين في تعداد نزول السور.

عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة العقود وقبل سورة النساء. ٢٨/١٢٩ـ١٣١

٢ـ أغراض هذه السورة : اشتملت من الأغراض على تحذيرِ المؤمنين من اتخاذ المشركين أولياءَ مع أنهم كفروا بالدين الحق ، وأخروجهم من بلادهم.

وإعلامِهم بأن اتخاذَهم أولياءَ ضلالٌ ، وأنهم لو تمكنوا من المؤمنين لأساؤوا إليهم بالفعل والقول ، وأن ما بينهم وبين المشركين من أواصر القرابة لا يُعْتَدُّ به

---

١ ـ هكذا في الأصل ، ولعل الصواب : عمرة. (م)

تُجاهَ العداوة في الدين، وضربَ لهم مثلاً في ذلك قطيعةَ إبراهيمَ لأبيه وقومِه.

وأردف ذلك باستئناسِ المؤمنين برجاءِ أن تَحْصُلَ مودةٌ بينهم وبين الذين أمرهم اللهُ بمعاداتهم أي هذه معاداة غير دائمة.

وأردف بالرخصة في حسن معاملة الكفرة الذين لم يقاتلوا المسلمين قتالَ عداوةٍ في دين، ولا أخرجوهم من ديارهم.

وهذه الأحكامُ إلى نهاية الآية التاسعة.

وحكمُ المؤمناتِ اللاءِ يأتين مهاجراتٍ، واختبارُ صدقِ إيمانهن، وأن يُحْفظن من الرجوع إلى دار الشرك، ويُعَوَّضُ أزواجُهن المشركون ما أعطوهن من المهور، ويقع الترادُّ كذلك مع المشركين.

ومبايعةُ المؤمنات المهاجرات؛ لِيُعْرَفَ التزامُهن لأحكام الشريعة الإسلامية، وهي الآية الثانية عشرة.

وتحريمُ تزوِّجِ المسلمينِ المشركاتِ وهذا في الآيتين العاشرة والحادية عشرة.

والنهي عن موالاة اليهود وأنهم أشبهوا المشركين وهي الآية الثالثة عشرة. ١٣٢-١٣١/٢٨

٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾.

والمعنى: لا يقع منكم اتخاذُ عدوي وعدوكم أولياء، ومودتُهم، مع أنهم كفروا بما جاءكم من الحق، وأخرجوكم لأجل إيمانكم.

إن كنتم خرجتم من بلادكم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي، فكيف توالون من أخرجوكم وكان إخراجهم إياكم لأجلي وأنا ربكم؟! ١٣٧/٢٨

سورة الصف

١ـ **اشتهرت هذه السورة باسم (سورة الصف)** وكذلك سميت في عصر الصحابة.

روى ابن أبي حاتم سنده إلى عبدالله بن سلام أن ناساً قالوا: «لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال» إلى أن قال: «**فدعا رسول الله ﷺ أولئك النفر حتى جمعهم ونزلت فيهم سورة سبح لله الصف**» الحديث، رواه ابن كثير.

وبذلك عنونت في صحيح البخاري وفي جامع الترمذي، وكذلك كتب اسمها في المصاحف وفي كتب التفسير.

ووجه التسمية وقوع لفظ: ﴿صَفّاً﴾ فيها وهو صف القتال، فالتعريف باللام تعريف العهد.

وذكر السيوطي في الإتقان: أنها تسمى (سورة الحواريين) ولم يسنده.

وقال الآلوسي: تسمى (سورة عيسى) ولم أقف على نسبته لقائل.

وأصله للطبرسي فلعله أخذ من حديث رواه في فضلها عن أبي بن كعب بلفظ (سورة عيسى).

وهو حديث موسوم بأنه موضوع.

والطبرسي يكثر من تخريج الأحاديث الموضوعة.

فتسميتها (سورة الحواريين) لذكر الحواريين فيها، ولعلها أول سورة نزلت ذكر فيها لفظ الحواريين.

وإذا ثبت تسميتها (سورة عيسى) فلما فيها من ذكر (عيسى) مرتين.

وهي مدنية عند الجمهور كما يشهد لذلك حديث عبدالله بن سلام.

وعن ابن عباس ومجاهد وعطاء أنها مكية ودرج عليه في الكشاف والفخر.

وقال ابن عطية : الأصح أنها مدنية ويشبه أن يكون فيها المكي.

واختلف في سبب نزولها وهل نزلت متتابعة أو متفرقة متلاحقة.

١٧٢ـ١٧١/٢٨

٢ـ **وهي السورة الثامنة والمائة في ترتيب نزول السور** عند جابر بن زيد. نزلت بعد سورة التغابن وقبل سورة الفتح ، وكان نزولها بعد وقعة أحد.

وعدد آيها أربع عشرة آية باتفاق أهل العدد. ١٧٣/٢٨

٣ـ **أغراضها:** أولُ أغراضِها التحذيرُ من إخلافِ الوعدِ والالتزام بواجبات الدين.

والتحريضُ على الجهاد في سبيل الله والثباتُ فيه ، وصدقُ الإيمانِ ، والثباتُ في نصرة الدين ، والائتساءُ بالصادقين مثل الحواريين.

والتحذيرُ من أذى الرسولﷺ تعريضاً باليهود مثل كعب بن الأشرف.

وَضْربُ المثل لذلك بفعل اليهود مع موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ.

والتعريضُ بالمنافقين.

والوعدُ على إخلاص الإيمانِ والجهادِ بحسن مثوبة الآخرة والنصر والفتح. ١٧٣/٢٨

٤ـ ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾.

استئناف بياني ناشئ عن الإخبار عنهم بأنهم افتروا على الله الكذب في حال

أنهم يدعون إلى الإسلام؛ لأنه يثير سؤال سائل عما دعاهم إلى هذا الافتراء؛ فأجيب بأنهم يريدون أن يخفوا الإسلام عن الناس، ويعوقوا انتشاره، ومثلت حالتهم بحالة نفر يبتغون الظلام للتلصص أو غيره مما يراد فيه الاختفاء.

فلاحت له ذبالة مصباح تضيء للناس، فكرهوا ذلك وخشوا أن يشع نوره على الناس فتفتضح ترهاتهم، فعمدوا إلى إطفائه بالنفخ عليه فلم ينطفىء، فالكلام تمثيل دال على حالة الممثل لهم.

والتقدير: يريدون عوق ظهور الإسلام كمثل قوم يريدون إطفاء النور، فهذا تشبيه الهيئة بالهيئة تشبيه المعقول بالمحسوس. ١٨٩/٢٨ـ١٩٠

٥ـ وإنما كانت كراهية الكافرين ظهور نور الله حالة يظن انتفاء تمام النور معها، لأن تلك الكراهية تبعثهم على أن يتألبوا على إحداث العراقيل وتضليل المتصدين للاهتداء، وصرفهم عنه بوجود المكر، والخديعة، والكيد، والإضرار.

وشمل لفظ: ﴿الْكَافِرُونَ﴾ جميع الكافرين بالإسلام من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم.

ولكن غلب اصطلاح القرآن على تخصيص وصف الكافرين بأهل الكتاب ومقابلتهم بالمشركين أو الظالمين. ١٩١/٢٨

سورة الجمعة

١ـ **سميت هذه السورة** عند الصحابة وفي كتب السنة والتفاسير (سورة الجمعة) ولا يعرف لها اسم غير ذلك.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: «**كنا جلوساً عند النبي فأنزلت عليه سورة الجمعة**» الحديث.

وسيأتي عند تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾.

ووجه تسميتها وقوع لفظ: ﴿الْجُمُعَةِ﴾ فيها، وهو اسم لليوم السابع من أيام الأسبوع في الإسلام.

وقال ثعلب: إن قريشاً كانت تجتمع فيه عند قُصيّ بدار الندوة، ولا يقتضي في ذلك أنهم سموا ذلك اليوم الجمعة.

ولم أَرَ في كلام العرب قبل الإسلام ما يثبت أن اسم الجمعة أطلقوه على هذا اليوم.

وقد أطلق اسم (الجمعة) على الصلاة المشروعة فيه على حذف المضاف لكثرة الاستعمال.

وفي حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل**».

ووقع في كلام عائشة: «**كان الناس ينتابون الجمعة من منازلهم والعوالي**» الخ.

وفي كلام أنس: «كنا نقيل بعد الجمعة».

ومن كلام ابن عمر: «كان رسول الله لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف» أي

من المسجد.

ومن كلام سهل بن سعد: «ما كنا نقيل ولا نتغدى إلا بعد الجمعة».

فيحتمل أن يكون لفظ الجمعة الذي في اسم هذه السورة معنياً به صلاة الجمعة؛ لأن في هذه السورة أحكاماً لصلاة الجمعة.

ويحتمل أن يراد به يوم الجمعة؛ لوقوع لفظ يوم الجمعة في السورة في آية صلاة الجمعة.

وهي مدنية بالاتفاق.

ويظهر أنها نزلت سنة ست وهي سنة خيبر، فظاهر حديث أبي هريرة الذي أشرنا إليه آنفاً أن هذه السورة نزلت بعد فتح خيبر؛ لأن أبا هريرة أسلم يوم خيبر.

وظاهره أنها نزلت دفعة واحدة؛ فتكون قضية ورود العير من الشام هي سبب نزول السورة ـوسيأتي ذكر ذلكـ.

وكان فرض صلاة الجمعة متقدماً على وقت نزول السورة؛ فإن النبيﷺ فرضها في خطبة خطب بها للناس، وصلاها في أول يوم جمعة بعد يوم الهجرة في دارٍ لبني سالم بن عوف.

وثبت أن أهل المدينة صلوها قبل قدوم رسول اللهﷺ المدينة ـكما سيأتيـ.

فكان فرضها ثابتاً بالسنة قولاً وفعلاً.

وما ذكر في هذه السورة من قوله: ﴿إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ورد مورد التأكيد لحضور صلاة الجمعة وترك البيع، والتحذير من الانصراف عند الصلاة قبل تمامها ـكما سيأتيـ.

وقد عدت هذه السورة السادسة بعد المائة في ترتيب نزول السور عند جابر ابن

زيد، نزلت بعد سورة التحريم وقبل سورة التغابن.

وظاهر حديث أبي هريرة يقتضي أن هذه السورة أنزلت دفعة واحدة غير منجمة.

وعدت آيها إحدى عشرة آية باتفاق العادين من قراء الأمصار. ٢٨/٢٠٤ـ٢٠٥

٢ـ أغراضُها: أولُ أغراضِها ما نزلت لأجله وهو التحذيرُ من التخلفِ عن صلاة الجمعة، والأمرُ بتركِ ما يشغلُ عنها في وقت أدائها.

وقُدِّم لذلك: التنويهُ بجلال الله ـتعالى ـ والتنويهُ بالرسولﷺ وأنه رسول إلى العرب ومن سيلحق بهم، وأن رسالته لهم فضلٌ من الله.

وفي هذا توطئةٌ لذمِّ اليهود؛ لأنهم حسدوا المسلمين على تشريفهم بهذا الدين.

ومن جملة ما حسدوهم عليه ونقموه أن جُعِل يومُ الجمعة اليومَ الفاضل في الأسبوع بعد أن كان يوم السبت، وهو المعروف في تلك البلاد.

وإبطالُ زعمهم أنهم أولياء الله.

وتوبيخُ قومٍ انصرفوا عنها؛ لمجيء عِيْرِ تجارةٍ من الشام. ٢٨/٢٠٥ـ٢٠٦

٣ـ والمراد بـ﴿ الأُمِّيِّينَ ﴾ : العرب؛ لأن وصف الأمية غالب على الأمة العربية يومئذ.

ووصف الرسول بـ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي لم يكن غريباً عنهم كما بُعِث لوطاً إلى أهل سلوم، ولا كما بُعِث يونس إلى أهل نينوى، وبُعِثَ إلياس إلى أهل صيدا من الكنعانيين الذين يعبدون بَعْل؛ فـ(مِنْ) تبعيضية، أي رسولاً من العرب.

وهذه منة موجهة للعرب؛ ليشكروا نعمة الله على لطفه بهم؛ فإنَّ كون رسولِ القوم منهم نعمةٌ زائدةٌ على نعمة الإرشاد والهدي، وهذا استجابة لدعوة

إبراهيم إذ قال: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾.

فتذكيرهم بهذه النعمة استنزال لطائر نفوسهم وعنادهم.

وفيه تورك عليهم إذ أعرضوا عن سماع القرآن؛ فإن كون الرسول منهم وكتابه بلغتهم هو أعون على تلقي الإرشاد منه؛ إذ ينطلق[١] بلسانهم، وبحملهم[٢] على ما يصلح أخلاقهم؛ ليكونوا حملة هذا الدين إلى غيرهم.

والأميين: صفة لموصوف محذوف دلَّ عليه صيغة جمع العقلاء، أي في الناس الأميين.

وصيغة جمع المذكور في كلام الشارع تشمل النساء بطريقة التغليب الاصطلاحي، أي في الأميين والأميات؛ فإن أدلة الشريعة قائمة على أنها تعم الرجال والنساء إلا في أحكام معلومة.

والأميون: الذين لا يقرؤون الكتابة ولا يكتبون، وهو جمع أمي نسبة إلى الأمة، يعنون بها أمة العرب؛ لأنهم لا يكتبون إلا نادراً؛ فغلبت هذا التشبيه في الإطلاق عند العرب حتى صارت تطلق على من لا يكتب ولو من غيرهم قال ـتعالى ـ في ذكر بني إسرائيل: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ وقد تقدم في سورة البقرة.

وأوثر التعبير به هنا توركاً على اليهود؛ لأنهم كانوا يقصدون به الغض من العرب ومن النبيﷺ جهلاً منهم؛ فيقولون: هو رسول الأميين وليس رسولاً إلينا.

---

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: ينطق، وربما أراد انطلاق الألسنة كما في قوله ـتعالى ـ: ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوْا ﴾ فيكون ما أُثبت هو الصواب. (م)

٢ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: ويحملهم. (م)

وقد قال ابن صياد للنبيﷺ لما قال له: «**أتشهد أني رسول الله**»: أشهد أنك رسول الأميين.

وكان ابن صياد متديناً باليهودية؛ لأن أهله كانوا حلفاء لليهود.

وكان اليهود ينتقصون المسلمين بأنهم أميون قال ـتعالىـ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ فتحدى الله اليهود بأنه بعث رسولاً إلى الأميين وبأن الرسول أمي، وأعلمهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ـكما في آخر الآيةـ وأن فضل الله ليس خاصاً باليهود، ولا بغيرهم وقد قال ـتعالىـ من قَبْلُ لموسى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾.

ووصف الرسول بأنه منهم، أي من الأميين شامل لمماثلته لهم في الأمية، وفي القومية.

وهذا من إيجاز القرآن البديع. ٢٨/٢٠٨ـ٢٠٩

٤ـ **وفي وصف الأمي بالتلاوة** وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس **ضرب من محسن الطباق**؛ لأن المتعارف أن هذه مضادة للأمية.

وابتدئ بالتلاوة لأن أول تبليغ الدعوة بإبلاغ الوحي، وثني بالتزكية لأن ابتداء الدعوة بالتطهير من الرجس المعنوي وهو الشرك، وما يعلق به من مساوي الأعمال والطباع. ٢٨/٢٠٩

٥ـ **وموضع جملة: ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾** موضع الحال، وينشأ عن هذا المعنى إيماء إلى أن الأمم التي تدخل في الإسلام بعد المسلمين الأولين يصيرون مثلهم، وينشأ منه ـأيضاًـ رمز إلى أنهم يتعربون لفهم الدين والنطق بالقرآن فكم من

معان جليلة حوتها هذه الآية سكت عنها أهل التفسير.

وهذه بشارة غيبية بأن دعوة النبي ﷺ ستبلغ أمماً ليسوا من العرب وهم فارس، والأرمن، والأكراد، والبربر، والسودان، والروم، والترك، والتتار، والمغول، والصين، والهنود، وغيرهم.

وهذا من معجزات القرآن من صنف الإخبار بالمغيبات.

وفي الآية دلالة على عموم رسالة النبي ﷺ لجميع الأمم. **٢١٢/٢٨**

٦ـ **وصلاة الجمعة هي صلاة ظهر يوم الجمعة**، وليست صلاة زائدة على الصلوات الخمس؛ فأسقط من صلاة الظهر ركعتان لأجل الخطبتين.

روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: «وإنما قصرت الجمعة لأجل الخطبة»[١].

وأحسب أن ذلك تخفيف على الناس إذ وجبت عليهم خطبتان مع الصلاة؛ فكانت كل خطبة بمنزلة ركعة، وهذا سبب الجلوس بين الخطبتين للإيماء إلى أنهما قائمتان مقام الركعتين ولذلك كان الجلوس خفيفاً.

غير أن الخطبتين لم تعطيا أحكام الركعتين؛ فلا يضر فوات إحداهما أو فواتهما معاً، ولا يجب على المسبوق تعويضهما، ولا سجود لنقصهما عند جمهور فقهاء الأمصار، روي عن عطاء ومجاهد وطاووس: أن من فاتته الخطبة يوم الجمعة صلى أربعاً صلاة الظهر.

وعن عطاء: أن من أدرك ركعة من صلاة الجمعة أضاف إليها ثلاث ركعات وهو أراد أن فاتته الخطبة وركعة من صلاة الجمعة[٢].

١ـ رواه أبو بكر الرازي الجصاص في أحكام القرآن له جزء ٣ ص ٥٤٨.

٢ـ ذكره الجصاص ص٥٤٨ ج٣ من أحكام القرآن للجصاص.

وجعلت القراءة في الصلاة جهراً مع أن شأن صلوات النهار إسرار القراءة لفائدة إسماع الناس سوراً من القرآن كما أسمعوا الخطبة؛ فكانت صلاة إرشاد لأهل البلد في يوم من كل أسبوع.

والإجماع على أن صلاة الجمعة قائمة مقام صلاة الظهر في يوم الجمعة فمن صلاها لا يصلي معها ظهراً فأما من لم يصلها لعذر أو لغيره فيجب عليه أن يصلي الظهر.

ورأيت في الجامع الأموي في دمشق قام إمام يصلي بجماعة ظهراً بعد الفراغ من صلاة الجمعة، وذلك بدعة. ٢٨/٢٢٢ـ٢٢٣

سورة المنافقون

١ـ **سميت هذه السورة** في كتب السنة وكتب التفسير (سورة المنافقين) اعتباراً بذكر أحوالهم وصفاتهم فيها.

ووقع هذا الاسم في حديث زيد بن أرقم عند الترمذي قوله: «فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين» وسيأتي قريباً.

وروى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة؛ فيحرض بها المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين؛ فيقرع بها المنافقين.

ووقع في صحيح البخاري وبعض كتب التفسير تسميتها (سورة المنافقون) على حكاية اللفظ الواقع في أولها، وكذلك ثبت في كثير من المصاحف المغربية، والمشرقية.

وهي مدنية بالاتفاق.

واتفق العادون على عد آيها إحدى عشرة آية.

وقد عدت الثانية بعد المائة في عداد نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الحج وقبل سورة المجادلة.

والصحيح أنها نزلت في غزوة بني المصطلق ووقع في جامع الترمذي عن محمد ابن كعب القرظي أنها نزلت في غزوة تبوك.

ووقع فيه ـأيضاًـ عن سفيان: أن ذلك في غزوةِ بني المصطَلِق، وغزوةُ بني المصطلق سنة خمس، وغزوة تبوك سنة تسع.

ورجح أهل المغازي وابن العربي في العارضة وابن كثير: أنها نزلت في غزوة بني المصطلق وهو الأظهر؛ لأن قول عبدالله بن أبي بن سلول: «ليخرجن الأعز منها الأذل» يناسب الوقت الذي لم يضعف فيه شأن المنافقين وكان أمرهم كل يوم في ضعف وكانت غزوة تبوك في آخر سني النبوءة وقد ضعف أمر المنافقين.

وسبب نزولها ما روي عن زيد بن أرقم أنه قال: كنا في غزاة فكسع[1] رجل من المهاجرين رجلاً جهنياً حليفاً للأنصار فقال الجهني: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين: فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟».

قالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: «**دعوها فإنها منتنة**» ـأي اتركوا دعوة الجاهلية: يآل كذاـ فسمع هذا الخبر عبدالله بن أُبي فقال: أقد فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

وقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، قال زيد ابن أرقم: فسمعت ذلك، فأخبرت به عمي، فذكره للنبيﷺ فدعاني، فحدثته، فأرسل رسول الله إلى عبدالله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله، وصدقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله، فقال عمي ما أردت إلا أن كذَّبك رسول الله، وفي رواية: إلى أن كذبك، فلما أصبحنا قرأ رسول الله سورة المنافقين وقال لي: «**إن الله قد صدقك**».

وفي رواية للترمذي في هذا الحديث: «أن المهاجريَّ أعرابُي، وأن الأنصاري من أصحاب عبدالله بن أبي، وأن المهاجري ضرب الأنصاري على رأسه بخشبة

---

١ ـ كسع: ضربه على دبره، وكان ذلك لخصومة في حوض ماء شربت منه ناقة الأنصاري.

فشجه، وأن عبدالله بن أبي قال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله» يعني الأعراب.

وذكر أهل السير أن المهاجري من غفار اسمه جهجاه أجير لعمر بن الخطاب، وأن الأنصاري جهني اسمه سنان حليف لابن أبيٍّ، ثم يحتمل أن تكون الحادثة واحدة.

واضطرب الراوي عن زيد بن أرقم في صفتها؛ ويجوز أن يكون قد حصل حادثتان في غزاة واحدة.

وذكر الواحدي في أسباب النزول: أن رسول الله ﷺ أرسل إلى عبدالله ابن أُبي وقال له: «أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني».

فقال عبدالله بن أبي: والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من هذا، وإن زيداً لكاذب.

والظاهر أن المقالة الأولى قالها ابن أبيّ في سورة غضبٍ؛ تهييجاً لقومه، ثم خشي انكشاف نفاقه؛ فأنكرها.

وأما المقالة الثانية فإنما أدرجها زيد بن أرقم في حديثه، وإنما قالها ابن أبيّ في سورة الناصح -كما سيأتي في تفسير حكايتها-.

وعلى الأصح فهي قد نزلت قبل سورة الأحزاب، وعلى القول بأنها نزلت في غزوة تبوك تكون نزلت مع سورة براءة، أو قبلها بقليل وهو بعيد. **٢٨/ ٢٣١-٢٣٣**

٢- أغراضُها: فضحُ أحوالِ المنافقين بعد كثير من دخائلهم وتولُّد بعضها عن بعض من كذب، وخَيْسٍ بِعَهْد الله، واضطرابٍ في العقيدة، ومن سفالةِ نفوسٍ في أجسام تَغُرُّ وتعجب، ومن تصميمٍ على الإعراض عن طلب الحق والهدى،

وعلى صدِّ الناس عنه.

وكان كل قسم من آيات السورة المفتتح بـ(إذا) خص بغرض من هذه الأغراض؛ وقد علمت أن ذلك جرت إليه الإشارة إلى تكذيب عبد الله بن أُبَي ابن سلول فيما حلف عليه من التنصل مما قاله.

وخُتِمَت بموعظة المؤمنين وحثِّهم على الإنفاق والادخار للآخرة قبل حلول الأجل. **٢٨/٢٣٣**

٣ـ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ هذه الجملة بمنزلة بدل البعض من مضمون جملة: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ أي من مخالفة باطنِهِمُ المشوهِ للظاهر المموه، أي هم أهل جبن في صورة شجعان.

وهذا من جملة ما فضحته هذه السورة من دخائلهم ومطاوي نفوسهم كما تقدم في الآيات السابقة، وإن اختلفت مواقعها من تفنن أساليب النظم؛ فهي مشتركة في التنبيه على أسرارهم.

والصيحة: المرة من الصياح، أي هم؛ لسوء ما يضمرونه للمسلمين من العداوة لا يزالون يتوجسون خيفة من أن ينكشف أمرهم عند المسلمين؛ فهم في خوف وهلع إذا سمعوا صيحة في خصومة، أو أنشدت ضالة خشوا أن يكون ذلك غارة من المسلمين عليهم؛ للإيقاع بهم. **٢٨/٢٤٠ـ٢٤١**

سورة التغابن

١ـ **سميت هذه السورة (سورة التغابن)** ولا تعرف بغير هذا الاسم، ولم ترد تسميتها بذلك في خبر مأثور عن رسول الله ﷺ سوى ما ذكره ابن عطية عن الثعلبي عن ابن عمر من أن النبي ﷺ قال: «**ما من مولود إلا وفي تشابيك مكتوب خمس آيات فاتحة سورة التغابن**».

والظاهر أن منتهى هذه الآيات قوله ـتعالى ـ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فتأمله، ورواه القرطبي عن ابن عمر ولم ينسبه إلى التعليق، فلعله أخذه من تفسير ابن عطية.

ووجه التسمية وقوع لفظ: ﴿التَّغَابُنِ﴾ فيها، ولم يقع في غيرها من القرآن.

وهي مدنية في قول الجمهور وعن الضحاك هي مكية.

وروى الترمذي عن عكرمة عن ابن عباس: «أن تلك الآيات نزلت في رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا الهجرة، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتون رسول الله ﷺ» الحديث.

وقال مجاهد: نزلت في شأن عوف الأشجعي ـكما سيأتي ـ.

وهي معدودة السابعة والمائة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة الجمعة وقبل سورة الصف بناء على أنها مدنية.

وعدد آيها ثمان عشرة. ٢٥٨/٢٨

٢ـ **أغراضُها**: واشتملت هذه السورةُ على التذكير بأن من في السماء ومن في الأرض يسبحون لله، أي ينزهونه عن النقائص تسبيحاً متجدداً.

وأن الملكَ لله وحده؛ فهو الحقيقُ بإفراده بالحمد؛ لأنه خالق الناس كلِّهم، فآمن بوحدانيته ناسٌ، وكفر ناسٌ ولم يشكروا نعمه؛ إذ خلقهم في أحسن صورة، وتحذيرُهم من إنكار رسالة محمدﷺ.

وإنذارُهم على ذلك؛ ليعتبروا بما حل بالأمم الذين كذبوا رسلَهم، وجحدوا بَيِّناتهم؛ تكبراً أن يهتدوا بإرشاد بشرٍ مثلِهم.

والإعلامُ بأن اللهَ عليمٌ بالظاهر والخفي في السماوات والأرض؛ فلا يجري أمر في العالم إلا على ما اقتضته حكمته.

وأنحى عليهم إنكارَ البعث، وبيَّن لهم عدمَ استحالَتِه، وهدَّدهم بأنهم يَلْقَون حين يبعثون جزاءَ أعمالهم، فإن أرادوا النجاة فليؤمنوا بالله وحده، وليصدقوا رسولَهﷺ والكتابَ الذي جاء به، ويؤمنوا بالبعث، فإنهم إن آمنوا كُفِّرت عنهم سيئاتُهم، وإلا فجزاؤهم النار خالدين فيها.

ثم تثبيتُ المؤمنين على ما يلاقونه من ضرِّ أهل الكفر بهم؛ فليتوكلوا على الله في أمورهم.

وتحذيرُ المؤمنين من بعض قرابتهم الذين تغلغل الإشراك في نفوسهم؛ تحذيراً من أن يثبطوهم عن الإيمان والهجرة.

وعَرَّض لهم بالصبر على أموالهم التي صادرها المشركون.

وأمرَهم بإنفاق المال في وجوه الخير التي يُرْضون بها ربَّهم، وبتقوى الله والسمعِ له والطاعة. ٢٥٩/٢٨

٣ـ **والإخبار عن بعض الأزواج والأولاد بأنهم عدو يجوز** أن يحمل على الحقيقة؛ فإن بعضهم قد يضمر عداوة لزوجه وبعضهم لأبويه من جراء المعاملة

بما لا يروق عنده مع خباثة في النفس، وسوء تفكير، فيصير عدواً لمن حقه أن يكون له صديقاً، ويكثر أن تأتي هذه العداوة من اختلاف الدين، ومن الانتماء إلى الأعداء.

ويجوز أن يكون على معنى التشبيه البليغ، أي كالعدو في المعاملة بما هو من شأن معاملة الأعداء كما قيل في المثل: يفعل الجاهل بنفسه ما يفعل العدو لعدوه.

وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه. ٢٨٤/٢٨

سورة الطلاق

١ـ **سورة ﴿ يا أيها النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ ﴾** الخ، شاعت تسميتها في المصاحف وفي كتب التفسير وكتب السنة: سورة الطلاق، ولم ترد تسميتها بهذا في حديث عن رسول الله ﷺ موسوم بالقبول.

وذكر في الإتقان أن عبدالله بن مسعود سماها سورة النساء القصرى أخذاً مما أخرجه البخاري وغيره عن مالك بن عامر قال: كنا عند عبدالله بن مسعود فذكر عنده أن الحامل المتوفى عنها تعتد أقصى الأجلين ـأي أجل وضع الحمل إن كان أكثر من أربعة أشهر وعشر، وأجل الأربعة الأشهر وعشرـ فقال: أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون عليها الرخصة لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى ﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ اهـ.

وفي الإتقان عن الداودي إنكار أن تدعى هذه السورة بالقصرى؛ للتنزه عن وصف القرآن بصفة نقص، ورده ابن حجر بأن القصر أمر نسبي، أي ليس مشعراً بنقص على الإطلاق.

وابن مسعود وصفها بالقصرى؛ احترازاً عن السورة المشهورة باسم سورة النساء التي هي السورة الرابعة في المصحف التي أولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

وأما قوله الطولى فهو صفة لموصوف محذوف أي بعد السورة الطولى يعني سورة البقرة؛ لأنها أطول سور القرآن، ويتعين أن ذلك مراده؛ لأن سورة البقرة هي التي ذُكرت فيها عدة المتوفى عنها.

وقد يتوهم أن سورة البقرة تسمى سورة النساء الطولى من مقابلتها بسورة النساء القصرى في كلام ابن مسعود، وليس كذلك كما تقدم في سورة النساء.

وهي مدنية بالاتفاق.

وعدد آيها اثنتا عشرة آية في عدد الأكثر، وعدها أهل البصرة إحدى عشرة آية.

وهي معدودة السادسة والتسعين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة الإنسان وقبل سورة البينة.

وسبب نزولها ما رواه مسلم عن طريق ابن جريج عن أبي الزبير أنه سمع عبدالرحمن بن أيمن يسأل ابن عمر كيف ترى في الرجل طلَّق امرأته حائضاً؛ فقال طلق ابن عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر رسول الله ﷺ فقال له: ليراجعها، فردها وقال: إذا طهرت، فليطلق أو ليمسك، قال ابن عمر وقرأ النبي: ﴿ يا أيها النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾.

وظاهر قوله: وقرأ النبي ﷺ الخ أنها نزلت عليه ساعة إذ.

ويحتمل أن تكون نزلت قبل هذه الحادثة.

وقال الواحدي عن السدي: أنها نزلت في قضية طلاق ابن عمر، وعن قتادة أنها نزلت بسبب أن النبي ﷺ طلق حفصة ولم يصح.

وجزم أبو بكر بن العربي بأن شيئاً من ذلك لم يصح، وأن الأصح أن الآية نزلت بياناً لشرع مبتدأ. ٢٨/٢٩٢-٢٩٣

٢- أغراضُها: الغرضُ من آيات هذه السورة تحديدُ أحكامِ الطلاق، وما يَعْقُبُه من العِدَّة والإرضاع والإنفاق والإسكان؛ تتميماً للأحكام المذكورة في سورة البقرة.

والإيماءُ إلى حكمةِ شرعِ العِدَّة، والنهيُ عن الإضرار بالمطلقاتِ والتضييق عليهن.

والإشهادُ على التطليقِ، وعلى المراجعة، وإرضاعُ المطلَّقة ابنَها بأجرٍ على الله.

والأمرُ بالائتمار، والتشاور بين الأبوين في شأن أولادهما.

وتخلل ذلك الأمرُ بالمحافظة الوعد بأن الله يؤيد من يتقي الله، ويتبع حدوده، ويجعل له من أمره يسراً، ويُكَفِّر عنه سيئاته.

وأن الله وضع لكل شيء حُكْمَهَ لا يعجزه تنفيذُ أحكامه.

وأعقب ذلك بالموعظة بحال الأمم الذين عتوا عن أمر الله ورسله، وهو حثٌّ للمسلمين على العمل بما أمرهم به الله ورسولهﷺ لئلا يَحِقَّ عليهم وصفُ العتو عن الأمر.

وتشريفُ وحيِ اللهِ -تعالى- بأنه منزلٌ من السماوات وصادرٌ عن علم الله وقدرته -تعالى-. ٢٨/٢٩٣-٢٩٤

٣- **والطلاق مباح** لأنه قد يكون حاجياً لبعض الأزواج؛ فإن الزوجين شخصان اعتشرا اعتشاراً حديثاً في الغالب لم تكن بينهما قبله صلة من نسب ولا جوار، ولا تخلق بخلق متقارب أو متماثل؛ فيكثر أن يحدث بينهما بعد التزوج تخالف في بعض نواحي المعاشرة قد يكون شديداً، ويعسر تذليله، فَيَمَلُّ أحدهما، ولا يوجد سبيل إلى إراحتهما من ذلك إلا التفرقة بينهما؛ فأحله الله؛ لأنه حاجي، ولكنه ما أحله إلا لدفع الضر؛ فلا ينبغي أن يجعل الإذن فيه ذريعة للنكاية من أحد الزوجين بالآخر، أو من ذوي قرابتهما، أو لقصد تبديل المذاق؛ ولذلك قال النبيﷺ: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**». ٢٨/٢٩٥-٢٩٦

سورة التحريم

١ـ سورة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الخ، سميت (سورة التحريم) في كتب السنة وكتب التفسير.

ووقع في رواية أبي ذر الهروي لصحيح البخاري تسميتها باسم (سورة اللِّمَ تُحرّم) بتشديد اللام، وفي الإتقان وتسمى (سورة اللِّم تحرّم) وفي تفسير الكواشي أي بهمزة وصل وتشديد اللام مكسورة وبفتح الميم وضم التاء محققه وتشديد الراء مكسورة بعدها ميم على حكاية جملة: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ وجعلها بمنزلة الاسم وإدخال لام تعريف العهد على ذلك اللفظ وإدغام اللامين.

وتسمى (سورة النبيﷺ) وقال الآلوسي: إن ابن الزبير سماها (سورة النساء) قلت: ولم أقف عليه ولم يذكر صاحب الإتقان هذين في أسمائها.

واتفق أهل العدد على أن عدة آيها اثنتا عشرة.

وهي مدنية.

قال ابن عطية: بإجماع أهل العلم، وتبعه القرطبي، وقال في الإتقان عن قتادة: إن أولها إلى تمام عشر آيات وما بعدها مكي، كما وقعت حكاية كلامه، ولعله أراد إلى عشر آيات، أي أن الآية العاشرة من المكي؛ إذ من البعيد أن تكون الآية العاشرة مدنية والحادية عشر مكية.

وهي معدودة الخامسة بعد المائة في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة الحجرات وقبل سورة الجمعة. ٣٤٣/٢٨

٢ـ **أغراضُ هذه السورةِ**: ما تضمنه سبب نزولها أن أحداً لا يُحَرِّم على نفسه

ما أحل الله له لإرضاء أحد؛ إذ ليس ذلك بمصلحة له ولا للذي يسترضيه؛ فلا ينبغي أن يُجْعل كالنذر؛ إذ لا قُرْبَةَ فيه، وما هو بطلاق؛ لأن التي حرمها جاريةٌ ليست بزوجة؛ فإنما صلاحُ كلِّ جانبٍ فيما يعود بنفع على نفسه أو ينفع به غيره نفعاً مرضياً عند الله، وتنبيهُ نساء النبيﷺ إلى أن غيرة الله على نبيه أعظم من غيرتهن عليه، وأسمى مقصداً.

وأن الله يُطْلِعُه على ما يخصه من الحادثات.

وأنَّ مَنْ حلف على يمين فرأى حِنْثَها خيراً من برِّها أن يُكَفِّر عنها، ويفعل الذي هو خير.

وقد ورد التصريح بذلك في حديث وفد عبد القيس عن رواية أبي موسى الأشعري، وتقدم في سورة براءة.

وتعليمُ الأزواج أن لا يكثرن من مضايقة أزواجهن؛ فإنها ربما أدت إلى الملال، فالكراهية، فالفراق.

وموعظةُ الناس بتربية بعض الأهل بعضاً، ووعظِ بعضِهِمْ بعضاً.

وأتبع ذلك بوصفِ عذابِ الآخرةِ ونعيمِها وما يفضي إلى كليهما من أعمال الناس صالحاتِها وسيئاتِها.

وذيَّل ذلك بضرب مثلين من صالحات النساء، وضدُّهن لما في ذلك من العظمة لنساء المؤمنين ولأمهاتهم. ٣٤٥/٢٨

٣ـ **ومن شروط التوبة** تدارك ما يمكن تداركه مما وقع التفريط فيه مثل المظالم للقادر على ردها.

روي عن عليﷺ يجمع التوبة ستة أشياء: الندامة على الماضي من الذنوب،

وإعادة الفرائض، ورد المظالم، واستحلال الخصوم، وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية، وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصي. ٣٦٨/٢٨

٤ـ **ومن تمام التوبة** تمكين التائب من نفسه أن ينفذ عليها الحدود كالقود والضرب.

قال إمام الحرمين: «هذا التمكين واجب خارج عن حقيقة التوبة؛ لأن التائب إذا ندم ونوى أن لا يعود صحت توبته عند الله وكان منعه من تمكين نفسه معصيةً متجددةً تستدعي توبة».

وهو كلام وجيه؛ إذ التمكين من تنفيذ ذلك يشق على النفوس مشقة عظيمة؛ فلها عذر في الإحجام عن التمكين منه. ٣٦٨/٢٨

٥ـ **وتصح التوبة من ذنب دون ذنب** خلافاً لأبي هاشم الجبائي المعتزلي، وذلك فيما عدا التوبة من الكفر.

وأما التوبة من الكفر بالإيمان فصحيحة في غفران إثم الكفر، ولو بقي متلبساً ببعض الكبائر بإجماع علماء الإسلام.

والذنوب التي تجب منها التوبة هي الكبائر ابتداءً، وكذلك الصغائر، وتمييز الكبائر من الصغائر مسألة أخرى محلها أصول الدين، وأصول الفقه، والفقه.

إلا أن الله تفضل على المسلمين؛ فغفر الصغائر لمن أجتنب الكبائر، أُخِذَ ذلك من قوله ـتعالىـ: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾.

وقد مضى القول فيه في تفسير سورة النجم.

ولو عاد التائب إلى بعض الذنوب أو جميعها ما عدا الكفر اختلف فيه علماء

الأمة؛ فالذي ذهب إليه أهل السنة أن التوبة تنتقض بالعودة إلى بعض الذنوب في خصوص الذنب المَعُود إليه ولا تنتقض فيما سواه، وأن العود معصية تجب التوبة منها.

وقال المعتزلة: تنتقض بالعودة إلى بعض الذنوب؛ فتعود إليه ذنوبه، ووافقهم الباقلاني.

وليس في أدلة الكتاب والسنة ما يشهد لأحد الفريقين[1]. ٣٦٩/٢٨

٦ـ **وامرأة فرعون هذه هي** امرأة فرعون الذي أرسل إليه موسى وهو منفطح الثالث، وليست امرأة فرعون التي تبنت موسى حين التقطته من اليم؛ لأن ذلك وقع في زمن فرعون رعمسيس الثاني، وكان بين الزمنين ثمانون سنة، ولم يكن عندهم علم بدين قبل أي يرسل إليهم موسى.

ولعل امرأة فرعون هذه كانت من بنات إسرائيل تزوجها فرعون؛ فكانت مؤمنة برسالة موسى ـعليه السلامـ.

وقد حكى بعض المفسرين أنها عمة موسى، أو تكون هداها الله إلى الإيمان بموسى كما هدى الرجل المؤمن من آل فرعون الذي تقدم ذكره في سورة غافر.

وسماها النبي ﷺ آسية في قوله: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون**» رواه البخاري. ٣٧٦/٢٨ـ٣٧٧

٧ـ **والظاهر أن قولها: ﴿ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾ مؤذن بأن فرعون وقومه صدوها عن الإيمان به**، وزينوا لها أنها إن آمنت بموسى تضيِّع ملكاً

---

١ ـ الصحيح أن الذي يعود إثمُ الذنب الجديد المستأنف، أما إثم الذنب الماضي فلا يعود. انظر تفصيل ذلك في كتاب التوبة وظيفة العمر. (م)

عظيماً، وقصراً فخيماً، أو أن فرعون وعظها بأنها إن أصرت على ذلك تقتل؛ فلا يكون مدفنها الهرم الذي بناه فرعون لنفسه؛ لدفنه في بادئ الملوك.

ويؤيد هذا ما رواه المفسرون أن بيتها في الجنة من درة واحدة؛ فتكون مشابهة الهرم الذي كان معداً؛ لحفظ جثتها بعد موتها وزوجها.

فقولها ذلك كقول السحرة الذين آمنوا جواباً عن تهديد فرعون: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ الآية في سورة طه. ٣٧٧/٢٨

سورة تبارك

١ـ **سماها النبي ﷺ (سورة تبارك الذي بيده الملك)** في حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أن **سورةً من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غُفِر له وهي: «سورة تبارك الذي بيده الملك»**.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن».

فهذا تسمية للسورة بأول جملة وقعت فيها، فتكون تسمية بجملة كما سمي ثابت بن جابر: تأبط شراً.

ولفظ (سورة) مضاف إلى تلك الجملة المحكية.

وسميت ـأيضاًـ (تبارك الملك) بمجموع الكلمتين في عهد النبيﷺ وبسمعٍ منه فيما رواه الترمذي عن ابن عباس: «أن رجلاً من أصحاب النبيﷺ قال له: ضربت خبائي على قبرٍ وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان ـأي دفين فيهـ يقرأ سورة «تبارك الملك» حتى ختمها، فقال رسول اللهﷺ: « **هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر**» حديث حسن غريب.

فيكون اسم السورة مجموع هذين اللفظين على طريقة عدّ الكلمات في اللفظ دون إضافة إحداهما إلى الأخرى مثل تسمية (لام الف).

ونظيره أسماء السور بالأحرف المقطعة التي في أولها على بعض الأقوال في المراد منها، وعليه فيحكى لفظ (تَبَارَكَ) بصيغة الماضي ويحكى لفظ (الْمُلْكُ) مرفوعاً كما هو في الآية؛ فيكون لفظ (سورة) مضافاً من إضافة المسمى إلى الاسم؛ لأن المقصود تعريف السورة بهاتين الكلمتين على حكاية اللفظين

الواقعين في أولها مع اختصار ما بين الكلمتين، وذلك قصداً للفرق بينها وبين (تبارك الفرقان).

كما قالوا: عبيدالله الرقيات، بإضافة مجموع (عبيدالله) إلى (الرقيات) تمييزاً لعبيدالله بن قيس العامري[١] الشاعر عن غيره ممن يشبه اسمُه اسمَه مثل عبيدالله ابن عبدالله بن عتبة بن مسعود، أو لمجرد اشتهاره بالتشبيب في نساء كان اسم كل واحدة منهن رقية[٢] وهن ثلاث.

ولذلك يجب أن يكون لفظ (تَبَارَكَ) في هذا المركب مفتوح الآخر، ولفظ (الْمُلْكُ) مضموم الكاف، وكذلك وقع ضَبْطُه في نسخة جامع الترمذي وكلتاهما حركةُ حكايةٍ.

والشائع في كتب السنة وكتب التفسير وفي أكثر المصاحف تسمية هذه السورة سورة الملك، وكذلك ترجمها الترمذي: «باب ما جاء في فضل سورة الملك».

وكذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه.

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: «كنا نسميها على عهد رسول الله المانعة».

أي أخذاً من وصف النبيﷺ إياها بأنها المانعة المنجية ـكما في حديث الترمذي المذكور آنفاًـ وليس بالصريح في التسمية.

وفي الإتقان عن تاريخ ابن عساكر من حديث أنس: «أن رسول اللهﷺ

١ـ هو من بني عامر بن لؤي شاعر مجيد من شعراء العصر الأموي.

٢ـ هي رقية بنت عبدالواحد بن أبي سعد من بني عامر بن لؤي، وابنة عم لها يقال لها: رقية، ورقية أخرى امرأة من بني أمية، وكن في عصر واحد.

سماها المنجية».

ولعل ذلك من وصفه إياها بالمنجية في حديث الترمذي وليس -أيضاً- بالصريح في أنه اسم.

وفي الإتقان عن كتاب جمال القراء تسمى -أيضاً- (الواقية) وتسمى (المنَّاعة) بصيغة المبالغة.

وذكر الفخر: أن ابن عباس كان يسميها (المُجادِلة) لأنها تجادل عن قارئها عند سؤال الملكين، ولم أره لغير الفخر.

فهذه ثمانية أسماء سميت بها هذه السورة.

وهي مكية قال ابن عطية والقرطبي: باتفاق الجميع.

وفي الإتقان أخرج جويبر[1] في تفسيره: «عن الضحاك عن ابن عباس نزلت تبارك الملك في أهل مكة إلا ثلاث آيات» اهـ.

فيحتمل أن الضحاك عنى استثناء ثلاث آيات نزلت في المدينة.

وهذا الاحتمال هو الذي يقتضيه إخراج صاحب الإتقان هذا النقل في عداد السور المختلف في بعض آياتها.

ويحتمل أن يريد أن ثلاث آيات منها غير مخاطب بها أهل مكة، وعلى كلا الاحتمالين فهو لم يعين هذه الآيات الثلاث، وليس في آيات السورة ثلاث آيات

١ـ كتب في نسخة مخطوطة جويبر بصيغة تصغير جابر، والذي في المطبوعة جبير بصيغة تصغير جبر ترجمه في طبقات المفسرين في اسم جبير بن غالب يكنى أبا فراس كان فقيهاً شاعراً خطيباً فصيحاً، له كتاب أحكام القرآن، وكتاب السنن والأحكام، والجامع الكبير في الفقه، وله رسالة كتب بها إلى مالك ابن أنس، ذكره ابن النديم، وعدّه من الشّراة من الخوارج.

لا تتعلق بالمشركين خاصة، بل نجد الخمس الآيات الأوائل يجوز أن يكون القصد منها الفريقين من أول السورة إلى قوله: ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

وقال في الإتقان ـأيضاًـ: «فيها قول غريب (لم يعْزه) أن جميع السورة مدني».

وهي السادسة والسبعون في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة المؤمنين وقبل سورة الحاقة.

وآيها في عد أهل الحجاز إحدى وثلاثون وفي عد غيرهم ثلاثون. ٢٩/٥ـ٧

٢ـ **أغراضُ السورة**: والأغراضُ التي في هذه السورة جاريةٌ على سنن الأغراض في السور المكية.

ابتدأت بتعريف المؤمنين معانيَ من العلم بعظمة الله ـتعالىـ وتفرده بالمُلْكِ الحقِّ، والنظرِ في إتقان صنعه الدال على تفرده بالإلهية؛ فبذلك يكون في تلك الآيات حظٌّ لِعِظَةِ المشركين.

ومن ذلك التذكيرُ بأنه أقام نظامَ الموتِ والحياة؛ لتظهر في الحالين مجاريْ أعمالِ العِبَاد في ميادينِ السبق إلى أحسنِ الأعمال ونتائجِ مجاريها، وأنه الذي يجازي عليها.

وانفرادُه بخلق العوالم العليا خلقاً بالغاً غايةَ الإتقان فيما تراد له.

وأتبعه بالأمرِ بالنظر في ذلك، وبالإرشاد إلى دلائله الإجمالية، وتلك دلائل على انفراده بالإلهية مُتَخَلِّصاً من ذلك إلى تحذير الناس من كيد الشياطين، والارتباقِ معهم في ربقة عذاب جهنم، وأن في اتباع الرسولﷺ نجاةً من ذلك، وفي تكذيبه الخسرانَ، وتنبيهُ المعاندين للرسولﷺ إلى علم الله بما يحوكونه

للرسول ظاهراً وخُفْيَةً بأن علمَ اللهِ محيطٌ بمخلوقاته.

والتذكيرُ بِمِنَّةِ خلقِ العالم الأرضي، ودقَّةِ نظامه، وملاءمته لحياة الناس، وفيها سعيُهم ومنها رزقهم.

والموعظةُ بأن اللهَ قادرٌ على إفساد ذلك النظام، فيصبح الناس في كرب وعناء؛ ليتذكروا قيمةَ النعم بتصور زوالها.

وضَربَ لهم مثلاً في لطفه -تعالى- بهم بلطفه بالطير في طيرانها.

وأيَّسهم من التوكل على نصرة الأصنام، أو على أن ترزقهم رزقاً.

وفظَّع لهم حالةَ الضلال التي ورَّطوا أنفسهم فيها.

ثم وبَّخ المشركين على كفرهم نعمةَ اللهِ -تعالى- وعلى وقاحتهم في الاستخفاف بوعيده، وأنه وشيكُ الوقوعِ بهم.

ووبَّخهم على استعجالهم موت النبيﷺ ليستريحوا من دعوته.

وأوعدهم بأنهم سيعلمون ضلالهم حين لا ينفعهم العلم، وأنذرهم بما قد يحل بهم من قحط وغيره.٢٩/٧-٨

٣- **واشتمل التذكير بعجيب خِلْقة الطير** في طيرانها على ضرب من الإطناب؛ لأن الأوصاف الثلاثة المستفادة من قوله: ﴿فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ تصور صورةَ حركاتِ الطيران للسامعين؛ فتنبههم لدقائق ربما أغفلهم عن تدقيق النظر فيها نشأتهم بينها من وقت ذهول الإدراك في زمن الصبا؛ فإن المرء التونسي أو المغربي -مثلاً- إذا سافر إلى بلاد الهند أو إلى بلاد السودان، فرأى الفيلة وهو مكتمل العقل دقيقَ التمييزِ أدرك من دقائق خِلْقَةِ الفيل ما لا يدركه الرجل من أهل الهند الناشئ بين الفيلة.

وكم غفل الناس عن دقائق في المخلوقات من الحيوان والجماد ما لو تتبعوه لتجلى لهم منها ما يملأ وصفُه الصحف. ٢٩/٣٧

٤ـ وقد رأيت بعض من شاهد البحر وهو كبير، ولم يكن شاهده من قبل كيف امتلكه من العجب ما ليس لأحدٍ ممن ألفوه معشاره. ٢٩/٣٨

٥ـ فالآية تشتمل على ثلاث استعارات تمثيلية، فقوله: ﴿يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ﴾ تشبيه لحال المشرك في تقسم أمره بين الآلهة؛ طلباً للذي ينفعه منها، الشاكِّ في انتفاعه بها ـ بحال السائر قاصداً أرضاً معينة ليس لها طريق جادة؛ فهو يتتبع بنيات الطريق الملتوية، وتلتبس عليه، ولا يوقن بالطريقة التي تبلغ إلى مقصده، فيبقى حائراً متوسماً يتعرف آثار أقدام الناس، وأخفاف الإبل؛ فيعلم بها أن الطريق مسلوكةٌ أو متروكةٌ.

وفي ضمن هذه التمثيلية تمثيلية أخرى مبنية عليها بقوله: ﴿مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ﴾ بتشبيه حال المتحير المتطلب للآثار في الأرض بحال المُكِبِّ على وجهه في شدة اقترابه من الأرض.

وقوله: ﴿مَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً﴾ تشبيه لحالِ الذي آمن برب واحد الواثقِ بنصر ربه وتأييده، وبأنه مصادف للحق ـ بحال الماشي في طريق جادةٍ واضحة لا ينظر إلا إلى اتجاه وجهه، فهو مستوٍ في سَيْره.

وقد حصل في الآية إيجاز حذف؛ إذ استُغْني عن وصف الطريق بالالتواء في التمثيل الأول لدلالة مقابلته بالاستقامة في التمثيل الثاني.

والفاء التي في صدر الجملة للتفريع على جميع ما تقدم من الدلائل والعبر من أول السورة إلى هنا، والاستفهام تقريري. ٢٩/ ٤٥ـ٤٦

٦ـ والقصر المستفاد من تعريف المسند إليه والمسند في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ إلى آخره قصر إفراد بتنزيل المخاطبين؛ لشركهم منزلةَ مَنْ يعتقد أن الأصنام شاركت الله في الإنشاء وإعطاء الإحساس والإدراك. ٢٩/٤٧

٧ـ **والاستفهام بقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾** مستعمل في التهكم؛ لأن من عادتهم أن يستهزئوا بذلك، قال ـتعالىـ: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾. ٢٩/٤٩

٨ـ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

ومن النوادر المتعلقة بهذه الآية ما أشار إليه في الكشاف مع ما نقل عنه في بيانه، قال: وعن بعض الشطار ـهو محمد بن زكريا الطبيب كما بينه المصنف فيما نقل عنهـ أنها ـأي هذه الآيةـ تُليت عنده، فقال: تجيء به ـأي الماءـ الفؤوس والمعاول؛ فذهب ماء عينيه.

نعوذ بالله من الجرأة على الله، وعلى آياته، والله أعلم. ٢٩/٥٦

سورة القلم

١ـ **سميت هذه السورة** في معظم التفاسير وفي صحيح البخاري (سورة ن والقلم) على حكاية اللفظين الواقعين في أولها، أي سورة هذا اللفظ.

وترجمها الترمذي في جامعه، وبعض المفسرين سورة (ن) بالاقتصار على الحرف المفرد الذي افتتحت به مثل ما سميت سورة (ص) وسورة (ق).

وفي بعض المصاحف سميت (سورة القلم) وكذلك رأيت تسميتها في مصحف مخطوط بالخط الكوفي في القرن الخامس.

وهي مكية، قال ابن عطية: «لا خلاف في ذلك بين أهل التأويل».

وذكر القرطبي عن الماوردي: أن ابن عباس وقتادة قالا: أولها مكي، إلى قوله: ﴿ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ ومن قوله: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ إلى: ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ مدني، ومن قوله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ مكي، ومن قوله: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ مدني، ومن قوله: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إلى آخر السورة مكي.

وفي الإتقان عن السخاوي: أن المدني منها من قوله: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ إلى: ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ومن قوله: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ فلم يجعل قوله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ مدنياً خلافاً لما نسبه الماوردي إلى ابن عباس.

وهذه السورة عدها جابر بن زيد ثانية السور نزولاً، قال: نزلت بعد سورة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ وبعدها سورة المزمل، ثم سورة المدثر، والأصح حديث

عائشة: «**أن أول ما أنزل سورة اقرأ باسم ربك، ثم فتر الوحي، ثم نزلت سورة المدثر**».

وما في حديث جابر بن عبدالله: «أن سورة المدثر نزلت بعد فترة الوحي» يحمل على أنها نزلت بعد سورة: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ جمعاً بينه وبين حديث عائشة ـرضي الله عنهاـ.

وفي تفسير القرطبي: أن معظم السورة نزل في الوليد بن المغيرة وأبي جهل.

واتفق العادون على عد آيها ثنتين وخمسين. ٢٩/٥٧ـ٥٨

٢ـ أغراضُها: جاء في هذه السورة الإيماءُ بالحرف الذي في أولها إلى تحدي المعاندين بالتعجيز عن الإتيان بمثل سور القرآن وهذا أول التحدي الواقع في القرآن؛ إذ ليس في سورة العلق، ولا في المزمل، ولا في المدثر إشارةٌ إلى التحدي ولا تصريح.

وفيها إشارةٌ إلى التحدي بمعجزة الأمية بقوله ﴿ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾.

وابتدئت بخطاب النبيﷺ تأنيساً له، وتسليةً عما لقيه من أذى المشركين.

وإبطالُ مطاعن المشركين في النبيﷺ.

وإثباتُ كمالاته في الدنيا والآخرة وهديه، وضلال معانديه، وتثبيته.

وأُكِّد ذلك بالقسم بما هو من مظاهر حكمة الله ـتعالىـ في تعليم الإنسان الكتابة؛ فَتَضَمَّن تشريفَ حروفِ الهجاء والكتابة، والعلم؛ لتهيئة الأمة لخلع دثارِ الأمية عنهم، وإقبالِهم على الكتابة والعلم؛ لتكون الكتابةُ والعلمُ سبباً لحفظ القرآن.

ثم أنحى على زعماء المشركين مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة بمذَمَّات كثيرة،

وتوعدهم بعذاب الآخرة، وببلايا في الدنيا بأنْ ضَرَبَ لهم مثلاً بمن غَرَّهُمْ عِزُّهُمْ وثراؤهم؛ فأزال الله ذلك عنهم، وأباد نعمتهم.

وقابل ذلك بحال المؤمنين المتقين، وأن اللهَ اجتباهم بالإسلام، وأن آلهتهم لا يغنون عنهم شيئاً من العذاب في الدنيا ولا في الآخرة.

ووعظهم بأن ما هم فيه من النعمة استدراجٌ وإملاءٌ؛ جزاءَ كيدهم، وأنهم لا معذرة لهم فيما قابلوا به دعوة النبيﷺ من طغيانهم، ولا حرج عليهم في الإنصات إليها.

وأَمَرَ رسولَه ﷺ بالصبر في تبليغ الدعوة، وتلقيْ أذى قومِه، وأن لا يضجر في ذلك ضجراً عاتب الله عليه نبيه يونس ـ عليه السلام ـ.٢٩/٥٨ـ٥٩

٣ـ ﴿ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾.

ومن فوائد هذا القسم أن هذا القرآن كتاب الإسلام، وأنه سيكون مكتوباً مقروءاً بين المسلمين، ولهذا كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بكتابة ما يوحى به إليه.

وتعريف (القلم) تعريف الجنس؛ فالقسم بالقلم لشرفه، بأنه يُكْتَبُ به القرآن، وكتبت به الكتب المقدسة، وتكتب به كتب التربية ومكارم الأخلاق والعلوم وكل ذلك مما له حظ شرف عند الله ـتعالى ـ.

وهذا يرجحه أن الله نَوَّهَ بالقلم في أول سورة نزلت من القرآن بقوله: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾. ٢٩/٦٠

٤ـ **والخلق العظيم**: هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق، وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان؛ لاجتماع مكارم الأخلاق في النبيﷺ فهو حُسْنُ

معامَلَتِهِ الناسَ على اختلاف الأحوال المقتضية لحسن المعاملة؛ **فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخلق الحسن.** ٦٤/٢٩

٥ـ **واعلم أن جماع الخلق العظيم الذي هو أعلى الخلق الحسن هو التدين،** ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل، والصبر على المتاعب، والاعتراف للمحسن، والتواضع، والزهد، والعفة، والعفو، والجمود[1]، والحياء، والشجاعة، وحسن الصمت[2]، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن المعاملة والمعاشرة.

والأخلاق كامنةٌ في النفس، ومظاهرُها تصرفاتٌ صاحِبها في كلامه، وطلاقة وجهه، وثباته، وحُكْمِه، وحركته وسكونه، وطعامه وشرابه، وتأديب أهله ومَنْ لنظره، وما يترتب على ذلك من حرمته عند الناس، وحسن الثناء عليه والسمعة.

وأما مظاهرها في رسول اللهﷺ ففي ذلك كله، وفي سياسيته[3] أُمَّتَهُ، وفيما خص به من فصاحة كلامه، وجوامع كلمه. ٦٥/٢٩

٦ـ قال ـتعالىـ: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنْ الصَّالِحِينَ (٥٠) ﴾.

١ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: الجود. (م)

٢ ـ ولعل الصواب: وحسن السمت، وربما تكون حسن الصمت؛ لأن الصمت في وقته أحسن من الكلام في غير وقته. (م)

٣ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: في سياسته. (م)

والمعنى: لَنَبَذه الحوتُ أو البحرُ بالفضاء الخالي؛ لأن الحوت الذي ابتلعه من النوعِ الذي يرضع فراخه؛ فهو يقترب من السواحل الخالية المترامية الأطراف؛ خوفاً على نفسه وفراخه.

والمعنى: أن الله أنعم عليه بأن أنبت عليه شجرة اليقطين ـكما في سورة الصافاتـ.

وأدمج في ذلك فضل التوبة والضراعة إلى الله، وأنه لولا توبته وضراعته إلى الله، وإنعامُ الله عليه نعمةً بعد نعمة لقذفه الحوت من بطنه ميتاً؛ فأخرجه الموج إلى الشاطئ؛ فلكان مُثْلةً للناظرين، أو حياً منبوذاً بالعراء لا يجد إسعافاً، أو لنجا بعد لأْيٍ، واللهُ غاضب عليه؛ فهو مذموم عند الله مسخوط عليه.

وهي نعم كثيرة عليه؛ إذ أنقذه من هذه الورطات كلها إنقاذاً خارقاً للعادة.

وهذا المعنى طوي طياً بديعاً، وأشير إليه إشارةً بليغةً بجملة: ﴿لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾. ٢٩/١٠٥ـ١٠٦

سورة الحاقة

١ـ **سميت (سورة الحاقة)** في عهد النبي ﷺ وروى أحمد بن حنبل أن عمر ابن الخطاب قال: «خرجت يوماً بمكة أتعرض لرسول الله قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام، فوقفت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن فقلت: هذا والله شاعر ـأي قلت في خاطري ـ فقرأ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾ قلت: كاهن، فقرأ: ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخر السورة، فوقع الإسلام في قلبي كل موقع».

وباسْمِ (الحاقة) عُنْوِنَتْ في المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير.

وقال الفيروزأبادي في بصائر ذوي التمييز: إنها تسمى ـأيضاًـ سورة السلسلة، لقوله: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾ وسماها الجعبري في منظومته في ترتيب نزول السور (الواعية) ولعله أخذه من وقوع قوله: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ ولم أَرَ له سلفاً في هذه التسمية.

ووجه تسميتها (سورة الحاقة) وقوعُ هذه الكلمة في أولها، ولم تقع في غيرها من سور القرآن.

وهي مكية بالاتفاق، ومقتضى الخبر المذكور عن عمر بن الخطاب أنها نزلت في السنة الخامسة قبل الهجرة؛ فإن عمر أسلم بعد هجرة المهاجرين إلى الحبشة، وكانت الهجرة إلى الحبشة سنة خمس قبل الهجرة إلى المدينة.

وقد عدت هذه السورة السابعة والسبعين في عداد ترتيب النزول، نزلت بعد سورة تبارك، وقبل سورة المعارج.

واتفق العادون من أهل الأمصار على عد آيها إحدى وخمسين آية.

١١١-١١٠/٢٩

٢- أغراضُها: اشتملت هذه السورةُ على تهويلِ يومِ القيامةِ، وتهديدِ المكذبين بوقوعه، وتذكيرِهم بما حل بالأمم التي كذبت به من عذاب في الدنيا ثم عذاب الآخرة، وتهديدِ المكذبين لرسل الله -تعالى- بالأمم التي أشركت وكذبت.

وأُدْمج في ذلك أن الله نجى المؤمنين من العذاب، وفي ذلك تذكيرٌ بنعمة الله على البشر؛ إذ أبقى نوعَهم بالإنجاء من الطوفان.

ووصفُ أهوالٍ من الجزاء، وتفاوتُ الناسِ يومئذ فيه، ووصفُ فظاعةِ حالِ العقاب على الكفر، وعلى نبذ شريعة الإسلام، والتنويه بالقرآن.

وتنزيهُ الرسولﷺ وعن أن يكون غير رسول، وتنزيهُ الله -تعالى- عن أن يقر من يَتَقَّول عليه، وتثبيت الرسولﷺ وإنذارُ المشركين بتحقيق الوعيد الذي في القرآن. ١١١/٢٩

٣- وإيتاء الكتاب باليمين، علامة على أنه إيتاء كرامة وتبشير، والعرب يذكرون التناول باليمين كناية عن الاهتمام بالمأخوذ، والاعتزاز به، قال الشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين

١٣٠/٢٩

٤ - والغسلين: بكسر الغين ما يدخل في أفواه أهل النار من المواد السائلة من الأجساد وماء النار ونحو ذلك مما يعلمه الله، فهو علم على ذلك مثل سِجِّين، وسرقين، وعرنين؛ فقيل: إنه فعلين من الغَسل؛ لأنه سال من الأبدان؛ فكأنه غُسل عنها، ولا موجب لبيان اشتقاقه. ١٤٠/٢٩

سورة المعارج

١ـ **سميت هذه السورة** في كتب السنة، وفي صحيح البخاري، وجامع الترمذي، وفي تفسير الطبري، وابن عطية، وابن كثير (سورة سأل سائل).

وكذلك رأيتها في بعض المصاحف المخطوطة بالخط الكوفي بالقيروان في القرن الخامس.

وسميت في معظم المصاحف المشرقية والمغربية، وفي معظم التفاسير (سورة المعارج).

وذكر في الإتقان أنها تسمى (سورة الواقع).

وهذه الأسماء الثلاثة مقتبسة من كلمات وقعت في أولها، وأَخَصُّها بها جملةُ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ لأنها لم يرد مثلها في غيرها من سور القرآن إلا أنها غلب عليها اسم (سورة المعارج) لأنه أخف.

وهي مكية بالاتفاق، وشذ من ذكر أن آية ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ مدنية.

وهي السورة الثامنة والسبعون في عداد نزول سور القرآن عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة الحاقة، وقبل سورة النبأ.

وعد جمهور الأمصار آيها أربعاً وأربعين، وعدها أهل الشام ثلاثاً وأربعين. ١٥٢/٢٩ـ١٥٣

٢ـ **أغراضها**: حوت من الأغراض تهديدَ الكافرين بعذاب يوم القيامة، وإثباتَ ذلك اليوم، ووصفَ أهواله، ووصفَ شيءٍ من جلالِ الله فيه، وتهويلَ دارِ

العذابِ وهي جهنمُ، وذِكْرَ أسبابِ استحقاق عذابها، ومقابلةَ ذلك بأعمال المؤمنين التي أوجبت لهم دارَ الكرامةِ، وهي أضدادُ صفاتِ الكافرين، وتثبيتَ النبيﷺ، وتسليتهُ على ما يلقاه من المشركين، ووصفَ كثيرٍ من خصال المسلمين التي بثها الإسلام فيهم، وتحذيرَ المشركين من استئصالهم وتبديلهم بخير منهم. ١٥٣/٢٩

٣ـ **والذي استخلصته من تتبع استعمالات كلمة الهلع**: أن الهلع قلةُ إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها، أو ما يسرها، أو عند توقع ذلك، والإشفاق منه.

وأما الجزع فمن آثار الهلع، وقد فسر بعض أهل اللغة الهلع بالشَّرَه، وبعضهم بالضَجَر، وبعضهم بالشُّح، وبعضهم بالجوع، وبعضهم بالجبن عند اللقاء.

وما ذكرناه في ضبطه يجمع هذه المعاني، ويريك أنها آثار لصفة الهلع.

ومعنى ﴿خُلِقَ هَلُوعاً﴾: أن الهلع طبيعة كامنة فيه مع خَلْقِه تظهر عند ابتداء شعوره بالنافع والمضار؛ فهو من طباعه المخلوقة كغيرها من طباعه البشرية؛ إذ ليس في تعلق الحال بعاملها دلالة على قصر العامل عليها، ولا في اتصاف صاحب الحال بالحال دلالة على أنه لا صفة له غيرها.

وقد تكون للشيء الحالةُ وضدُّها باختلاف الأزمان والدواعي، وبذلك يستقيم تعلق النهي عن حال مع تحقق تَمَكُّن ضدِّها من المنهي؛ لأن عليه أن يروِّض نفسَه على مقاومة النقائص وإزالتها عنه.

وإذ ذكر الله الهلع هنا عقب مذمة الجمع والإيعاء ـ فقد أشعر بأن الإنسان يستطيع أن يكفَّ عن هلعه إذا تدبر في العواقب؛ فيكون في قوله: ﴿خُلِقَ هَلُوعاً﴾ كناية بالخَلْقِ عن تمكن ذلك الخُلُق منه، وغلبته على نفسه.

والمعنى: أن من مقتضى تركيب الإدراك البشري أن يحدث فيه الهلع.

بيان ذلك أن تركيب المدارك البشرية رُكِّز بحكمة دقيقة تجعلها قادرة على الفعل والكف، وساعيةً إلى الملائم، ومعرضةً عن المنافر.

وجعلت فيها قوى متضادة الآثار يتصرف العقل والإدراك في استخدامها كما يجب في حدود المَقْدِرَة البدنية التي أُعطها النوع والتي أعطيها أفراد النوع، كل ذلك لِيَصْلُحَ الإنسانُ لإعمار هذا العالم الأرضي الذي جعله الله خليفة فيه؛ ليصلحه إصلاحاً يشمله، ويشمل من معه في هذا العالم؛ إعداداً لصلاحيته لإعمار عالم الخلود.

ثم جعل له إدراكاً يميز الفرق بين آثار الموجودات، وآثار أفعالها بين النافع منها والضار والذي لا نفع فيه ولا ضر.

وخلق فيه إلهاماً يحب النافع، ويكره الضار، غير أن اختلاط الوصفين في بعض الأفعال، وبعض الذوات قَدْ يُرِيْهِ الحالَ النافع منها، ولا يريه الحال الضار؛ فيبتغي ما يظنه نافعاً غير شاعر بما في مطاويه من أضرار في العاجل والآجل، أو شاعراً بذلك ولكنَّ شَغَفَه بحصول النفع العاجل يُرَجِّحُ عنده تناوله الآن؛ لعدم صبره على تركه مقدراً معاذيرَ أو حيلاً يقتحم بها ما فيه من ضر آجل.

وإن اختلاط القوى الباطنية مع حركات التفكير قد تَسْتُر عنه ضُرَّ الضار، ونفعَ النافع؛ فلا يهتدي إلى ما ينبغي سلوكُه أو تجنُبه، وقد لا تستر عنه ذلكَ، ولكنها تحدث فيه إيثاراً لاتباع الضار؛ لملائمة فيه ولو في وقت أو عند عارض؛ إعراضاً عن اتباع النافع؛ لكلفة في فعله، أو منافرة لوجدانه، وذلك من اشتمال تركيب قُواهُ الباعثةِ والصارفة وآلاتها التي بها تعمل، وتدفع على شيء من

التعاكس في أعمالها؛ فحدثت من هذا التركيب[1] والبديع صلاَحيةٌ للوفاء بالتدبير الصالح المنوط بعهدة الإنسان، وصلاحية لإفساد ذلك أو بعثرته.

غير أن الله جعل للإنسان عقلاً وحكمةً إنْ هو أحسن استعمالها نَخَلت صفاته، وثقَّفت من قناته، ولم يُخْلِهِ من دعاة إلى الخير يصفون له كيف يَرِيْضُ جامحَ نفسه، وكيف يوفق بين إدراكه وحسه، وهؤلاء هم الرسل والأنبياء والحكماء.

فإذا أخبر عن الإنسان بشدة تَلَبُّسه ببعض النقائص، وجعل ذلك في قالَب أنه جُبِل عليه- فالمقصود من ذلك: إلقاء تبعة ذلك عليه؛ لأنه فَرَّط في إراضة نفسه على ما فيها من جِبِلَّة الخير، وأرخى لها العِنَان إلى غاية الشر، وفرَّط في نصائح الشرائع والحكماء.

وإذا أَسْنَد ما يأتيه الإنسانُ من الخير إلى الله -تعالى- فالمقصود: التنبيه إلى نعمة الله عليه بخلق القوة الجالبة للخير فيه، ونعمة إرشاده وإيقاظه إلى الحق، كما أشار إلى ذلك قوله -تعالى-: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ عقب قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾.

وفي هذا المجال زلت أفهام المعتزلة، وحلكت عليهم الأجواء، ففكروا وقدَّروا، وما استطاعوا مَخْلَصاً وما قَدِروا. ٢٩/١٦٧-١٦٩

١- هكذا في الأصل، ولعل الصواب: من هذا التركيب البديع -أي بدون واو. (م)

سورة نوح

١ـ **بهذا الاسم سميت** هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير، وترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه بترجمة (سورة إنا أرسلنا نوحاً).

ولعل ذلك كان الشائع في كلام السلف، ولم يترجم لها الترمذي في جامعه.

وهي مكية بالاتفاق.

وقد عدت الثالثة والسبعين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد نزول أربعين آية من سورة النحل، وقبل سورة الطور.

وعدَّ العادون بالمدينة ومكة آيها ثلاثين آية، وعدَّها أهلُ البصرة والشام تسعاً وعشرين آية، وعدها أهل الكوفة ثماناً وعشرين آية. ١٨٥/٢٩

٢ـ **أغراضها**: أعظمُ مقاصدِ السورةِ ضَرْبُ المثلِ للمشركين بقوم نوحٍ وهم أول المشركين الذين سلط عليهم عقاب في الدنيا، وهو أعظمُ عقابٍ أعني الطوفان، وفي ذلك تمثيلٌ لحال النبيﷺ مع قومه بحالهم.

وفيها تفصيلٌ كثيرٌ من دعوة نوح ـ عليه السلام ـ إلى توحيد الله ونبذِ عبادة الأصنام، وإنذارِه قومَهُ بعذاب أليم، واستدلالِه لهم ببدائع صنع الله ـتعالىـ وتذكيرِهم بيوم البعث، وتصميمِ قومه على عصيانه، وعلى تصلُّبهم في شركهم، وتسميةِ الأصنامِ التي كانوا يعبدونها، ودعوةِ نوحٍ على قومه بالاستئصال.

وأشارت إلى الطوفانِ، ودعاءِ نوحٍ بالمغفرة له وللمؤمنين، وبالتبار للكافرين كلهم.

وتخلل ذلك إدماجُ وعدِ المطيعين بسعةِ الأرزاق، وإكثارِ النسل، ونعيمِ الجنة. ١٨٦ـ١٨٥/٢٩

سورة الجن

١ـ **سميت** في كتب التفسير وفي المصاحف التي رأيناها ومنها الكوفي المكتوب بالقيروان في القرن الخامس (سورة الجن).

وكذلك ترجمها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه، وترجمها البخاري في كتاب التفسير (سورة قل أوحي إلي).

واشتهرت على ألسنة المُكَتِّبين والمتعلمين في الكتاتيب القرآنية باسم (قل أوحي).

ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور التي لها أكثر من اسم، ووجه التسميتين ظاهر.

وهي مكية بالاتفاق.

ويظهر أنها نزلت في حدود سنة عشر من البعثة؛ ففي الصحيحين وجامع الترمذي من حديث ابن عباس أنه قال: انطلق رسول اللهﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ بنخلة وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، وأنه استمع فريق من الجن إلى قراءته فرجعوا إلى طائفتهم فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾ وأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ﴾.

وذكر ابن إسحاق أن نزول هذه السورة كان بعد سفر رسول اللهﷺ إلى الطائف يطلب النصرة من ثقيف، أي وذلك يكون في سنة عشر بعد البعثة وسنة ثلاث قبل الهجرة.

وقد عُدَّت السورة الأربعين في نزول السور، نزلت بعد الأعراف وقبل يس.

واتفق أهل العدد على عد آيها ثماناً وعشرين. ٢١٦/٢٩ـ٢١٧

٢ـ أغراضها: إثباتُ كرامةٍ للنبيﷺبأنَّ دعوتَه بلغت إلى جنس الجن وإفهامهم فَهْمَ معانٍ من القرآن الذي استمعوا للنبيﷺوفهمَ ما يدعو إليه من التوحيد والهدى، وعلمهم بعظمة الله، وتنزيهه عن الشريك، والصاحبة، والولد.

وإبطالُ عبادةِ ما يُعْبَدُ من الجن، وإبطالُ الكهانة وبلوغِ علم الغيب إلى غير الرسل الذين يُطْلِعُهم اللهُ على ما يشاء.

وإثباتُ أنَّ لله خلقاً يُدْعَون الجنَّ، وأنهم أصنافٌ منهم الصالحون ومنهم دون ذلك بمراتب، وتضليلُ الذين يتقوَّلون على الله ما لم يَقُلْه، والذين يعبدون الجن، والذين ينكرون البعثَ، وأن الجنَّ لا يُفْلِتُون من سلطان الله ـتعالى ـ.

وتَعَجُّبُهم من الإصابة برجوم الشهب المانعة من استراق السمع، وفي المراد من هذا المنعِ، والتخلصُ من ذلك إلى ما أوحى الله إلى رسولهﷺفي شأن[1] القحط الذي أصاب المشركين؛ لشركهم ولمنعهم مساجدَ الله، وإنذارِهم بأنهم سيندمون على تألُّبِهم على النبيﷺومحاولتِهم منه العدولَ عن الطعنِ في دينهم. ٢١٧/٢٩

٣ـ ولعل كيفية حدوث رجم الجن بالشهب كان بطريقة تصريف الوحي إلى الملائكة في مجارٍ تمر على مواقع انقضاض الشهب حتى إذا اتصلت قوى الوحي بموقع أحد الشهب انفصل الشهاب بقوة ما يَغُطُّه من الوحي؛ فسقط مع مجرى الوحي؛ لِيحرسه من اقتراب المسترق حتى يبلغ إلى الملك الُموحى إليه، فلا يجد في طريقه قوة شيطانية أو جنية إلا أحرقها؛ وبخَّرها، فهلكت أو استطيرت، وبذلك بَطَلت الكهانة، وكان ذلك من خصائص الرسالة المحمدية. ٢٣٠/٢٩

---

١ ـ في الأصل: «من في شأن ...» ولعل الصواب: ما أُثبت. (م)

سورة المزمل

١ـ **ليس لهذه السورة إلا اسم** (سورة المزمل) عرفت بالإضافة لهذا اللفظ الواقع في أولها، فيجوز أن يراد حكاية اللفظ، ويجوز أن يراد به النبيﷺ موصوفاً بالحال الذي نودي به في قوله ـتعالىـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾.

قال ابن عطية: هي في **قول الجمهور مكية** إلا قوله ـتعالىـ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْلِ ﴾ إلى نهاية السورة؛ **فذلك مدني**، وحكى القرطبي مثل هذا عن الثعلبي.

وقال في الإتقان: إن استثناء قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْلِ ﴾ إلى آخر السورة يَرُدُّه ما أخرجه الحاكم عن عائشة: «نزل بعد نزول صدر السورة بسنة، وذلك حين فرض قيام الليل في أول الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس» اهـ.

يعني وذلك كلُّه بمكة، أي فتكون السورة كلها مكية؛ فتعيَّن أن قوله: ﴿ قُمْ اللَّيْلَ ﴾ أُمِرَ به في مكة.

والروايات تظاهرت على أن قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ إلى آخر السورة نزل مفصولاً عن نزول ما قبله بمدة مُخْتَلَفٌ في قدرها، فقالت عائشة: «نزل بعد صدر السورة بسنة».

ومثله روى الطبري عن ابن عباس.

وقال الجمهور: نزل صدر السورة بمكة، ونزل: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ ﴾ إلى آخرها بالمدينة، أي بعد نزول أولها بسنين.

فالظاهر أن الأصح أن نزول: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ ﴾ إلى آخر السورة نزل بالمدينة لقوله-تعالى-: ﴿ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ إن لم يكن ذلك إنباء بمغيب على وجه المعجزة.

وروى الطبري عن سعيد بن جبير قال: «لما أنزل الله على نبيهﷺ يا أيها المزمل مكث النبيﷺ على هذا الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمره الله، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه، فأنزل الله بعد عشر سنين: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ إلى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ » اهـ.

أي نزلت الآيات الأخيرة في المدينة؛ بناءً على أن مقام النبيﷺ بمكة كان عشر سنين وهو قول جمٍّ غفير.

والروايات عن عائشة مضطربة بعضُها يقتضي أن السورة كلَّها مكيةٌ، وأن صدرها نزل قبل آخرها بسنة قبل فرض الصلاة، وهو ما رواه الحاكم في نقل صاحب الإتقان، وذلك يقتضي أن أول السورة نزل بمكة.

وبعض الروايات يقول فيها: إنها كانت تَفْرِشُ لرسول اللهﷺ حصيراً، فصلى عليه من الليل، فتسامع الناس، فاجتمعوا، فخرج مغضباً، وخشي أن يكتب عليهم قيام الليل، ونزل: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

فكتبت عليهم بمنزلة الفريضة، ومكثوا على ذلك ثمانية أشهر، ثم وضع الله ذلك عنهم؛ فأنزل: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْلِ ﴾ إلى: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ فردهم إلى الفريضة، ووضع عنهم النافلة.

وهذا ما رواه الطبري بسندين إلى أبي سلمة بن عبدالرحمن عن عائشة.

وهو يقتضي أن السورة كلَّها مدنية؛ لأن النبيﷺ لم يَبْنِ بعائشة إلا في المدينة،

ولأن قولها: «فخرج مغضباً» يقتضي أنه خرج من بيته المفضي إلى مسجده، ويؤيده أخبار تُثبت قيام الليل في مسجده.

ولعل سببَ هذا الاضطرابِ اختلاطٌ في الرواية بين فرض قيام الليل وبين الترغيب فيه.

ونسب القرطبي إلى تفسير الثعلبي قال: قال النخعي في قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾: «كان النبيﷺ متزملاً بقطيفة عائشة، وهي مرَطٌ نِصْفُه عليها وهي نائمة، ونصفه على النبيﷺ وهو يصلي» اهـ.

وإنما بنى النبيﷺ بعائشة في المدينة، فالذي نعتمد عليه أن أول السورة نزل بمكة لا محالة كما سنبينه عند قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ وأن قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ إلى آخر السورة نزل بالمدينة بعد سنين من نزول أول السورة؛ لأن فيه ناسخاً لوجوب قيام الليل، وأنه ناسخ لوجوب قيام الليل على النبيﷺ وأن ما رووه عن عائشة أن أول ما فرض قيام الليل قبل فرض الصلاة غريب.

وحكى القرطبي عن الماوردي: أن ابن عباس وقتادة قالا: إن آيتين وهما ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ نزلتا بالمدينة.

واختلف في عد هذه السورة في ترتيب نزول السور، والأصح التي تضافرت عليه الأخبار الصحيحة: أن أول ما نزل سورة العلق، واختلف فيما نزل بعد سورة العلق، فقيل: سورة ن والقلم، وقيل: نزل بعد العلق سورة المدثر.

ويظهر أنه الأرجح، ثم قيل: نزلت سورة المزمل بعد القلم، فتكون ثالثة.

وهذا قول جابر بن زيد في تعداد نزول السور، وعلى القول بأن المدثر هي

الثانية، يحتمل أن تكون القلم ثالثة، والمزمل رابعة، ويحتمل أن تكون المزمل هي الثالثة، والقلم رابعة، والجمهور على أن المدثر نزلت قبل المزمل، وهو ظاهر حديث عروة بن الزبير عن عائشة في بدء الوحي من صحيح البخاري، وسيأتي عند قوله ـتعالىـ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾.

والأصح أن سبب نزول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ ما في حديث جابر بن عبدالله الآتي عند قوله ـتعالىـ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ الآية.

وعُدَّت آيُها في عد أهل المدينة ثمان عشرة آية، وفي عد أهل البصرة تسع عشرة، وفي عد من عداهم عشرون. **٢٩/٢٥٣ـ٢٥٤**

٢ـ أغراضُها: الإشعارُ بملاطفة الله ـتعالىـ رسولَه ﷺ بندائه بوصفه بصفة تزمُّله.

واشتملت على الأمرِ بقيام النبيﷺ غالبَ الليل، والثناءِ على طائفة من المؤمنين حملوا أنفسهم على قيام الليل.

وعلى تثبيت النبيﷺ بتحَمُّل إبلاغ الوحي.

والأمرُ بإدامةِ إقامة الصلاة، وأداءِ الزكاة، وإعطاءِ الصدقات.

وأمرُه بالتَّمَحُّضِ للقيام بما أمره اللهُ من التبليغِ، وبأن يتوكل عليه.

وأمرُه بالإعراضِ عن تكذيب المشركين.

وتَكَفُّلُ اللهِ له بالنصر عليهم، وأن جزاءَهم بيد الله.

والوعيدُ لهم بعذاب الآخرة.

ووعظُهم مما حل بقوم فرعونَ لما كذبوا رسول الله إليهم.

وذِكْرُ يومِ القيامة، وَوَصْفُ أهواله.

ونسخُ قيَام معظم الليل بالاكتفاء بقيام بعضه؛ رعياً للأعذار الملازمة.

والوعدُ بالجزاءِ العظيم على أفعال الخيرات، والمبادرةُ بالتوبة، وأدمج في ذلك أدبُ قراءةِ القرآنِ وتدبرِه.

وأن أعمالَ النهارِ لا يغني عنها قيامُ الليل.

وفي هذه السورة مواضعُ عويصةٌ، وأساليبُ غامضةٌ؛ فعليك بتدبرها. **٢٩/٢٥٤ـ٢٥٥**

٣ـ وقال: في قوله ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ وهو عود إلى الترغيب في أن تكون مدة القيام أكثر من نصف الليل؛ ولذلك لم يقيد ﴿زِدْ عَلَيْهِ﴾ بمثل ما قيد به ﴿أَوْ انْقُصْ مِنْهُ﴾ لتكون الزيادة على النصف متسعة، وقد ورد في الحديث أن النبيﷺ أخذ بالعزيمة، فقام حتى تورمت قدماه، وقيل له في ذلك: «إن الله غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**». **٢٩/٢٥٩**

٤ـ **وتخصيص الليل بالصلاة فيه؛** لأنه وقت النوم عادة؛ فأمر الرسولﷺ بالقيام فيه زيادة في إشغال أوقاته بالإقبال على مناجاة الله، ولأن الليل وقتُ سكونِ الأصوات، وإشتغال الناس؛ فتكون نفس القائم فيه أقوى استعداداً؛ لتلقي الفيض الرباني. **٢٩/٢٥٩ـ٢٦٠**

٥ـ **ووصفُ الصلاة بالناشئة؛** لأنها أنشأها المصلي؛ فنشأت بعد هدأة الليل؛ فأشبهت السحابة التي تتنشأ من الأفق بعد صحو.

وإذا كانت الصلاة بعد نوم فمعنى النشء فيها أقوى، ولذلك فسرتها عائشة بالقيام بعد النوم، وفسر ابن عباس ﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ بصلاة الليل كلها، واختاره مالك، وعن علي بن الحسين: أنها ما بين المغرب والعشاء، وعن ابن مسعود

وابن عباس وسعيد بن جبير: أن أصل هذا مُعَرَّب عن الحبشة، وقد عدها السبكي في منظومته في معربات القرآن.

وإيثار لفظ ناشئة في هذه الآية دون غيره من نحو: قيام، أو تهجد ـ لأجل ما يحتمله من هذه المعاني؛ ليأخذ الناس فيه بالاجتهاد. ٢٦٢/٢٩

٦ـ **ومن أكبر التبتل إلى الله الانقطاع عن الإشراك**، وهو معنى الحنيفية، ولذلك عقب قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ بقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾.

وخلاصة المعنى: أن النبيﷺ مأمور أن لا تخلو أوقاتُه عن إقبال على عبادة الله ومراقبته، والانقطاع للدعوة لدين الحق، وإذ قد كان النبيﷺ من قبل غير غافل عن هذا الانقطاع بإرشاد من الله كما ألهمه التحنثَ في غار حراء، ثم بما أفاضه عليه من الوحي والرسالة ـ فالأمر في قوله: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ مرادٌ به الدوام على ذلك؛ فإنه قد كان يذكر الله فيما قبل؛ فإن في سورة القلم ـوقد نزلت قبل المزملـ: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ على أن القرآن الذي أنزل أولاً أكثره إرشاد للنبيﷺ إلى طرائق دعوة الرسالة؛ فلذلك كان غالب ما في هذه السور الأُول منه مقتصراً على سن التكاليف الخاصة بالرسولﷺ. ٢٦٦/٢٩

٧ـ **والهجر الجميل**: هو الحسن في نوعه؛ فإن الأحوال والمعاني منها حسن، ومنها قبيح في نوعه، وقد يقال: كريم، وذميم، وخالص، وكدر، ويعرض الوصف للنوع بما من شأنه أن يقترن به من عوارض تناسب حقيقة النوع، فإذا جُرِّدَتِ الحقيقة عن الأعراض التي قد تعتلق بها كان نوعها خالصاً، وإذا ألصق

بالحقيقة ما ليس من خصائصها كان النوع مكدراً قبيحاً، وقد أشار إلى هذا قوله ـتعالى ـ: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾.

وتقدم عند قوله ـتعالى ـ: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ في سورة النمل، ومن هذا المعنى قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ في سورة يوسف، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾ في سورة المعارج.

فالهجر الجميل: هو الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر، وهو ترك المخالطة؛ فلا يقرنها بجفاءٍ آخرَ أو أذىً.

ولما كان الهجر ينشأ عن بغض المهجور، أو كراهية أعماله ـ كان معرضاً لأن يتعلق به أذىً من سبٍّ أو ضرب أو نحو ذلك؛ فأمر الله رسولَه بهجر المشركين هجراً جميلاً، أي أن يهجرهم ولا يزيد على هجرهم سباً أو انتقاماً.

وهذا الهجر: هو إمساك النبيﷺ عن مكافاتهم بمثل ما يقولونه مما أشار إليه قوله ـتعالى ـ: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾.

وليس منسحباً على الدعوة للدين؛ فإنها مستمرة، ولكنها تبليغ عن الله ـتعالى ـ فلا ينسب إلى النبيﷺ.

وقد انتزع فخر الدين من هذه الآية منزعاً خُلُقياً بأن الله جمع ما يحتاج إليه الإنسان في مخالطة الناس في هاتين الكلمتين؛ لأن المرء إما أن يكون مخالطاً؛ فلا بد له من الصبر على أذاهم وإيحاشهم؛ لأنه إن أطمع نفسه بالراحة معهم لم يجدها مستمرة، فيقع في الغموم إن لم يَرُضْ نَفْسَهُ بالصبر على أذاهم، وإن ترك المخالطة فذلك هو الهجر الجميل. ٢٩/٢٦٨ـ٢٦٩

٨ـ **والنَّعمة**: هنا بفتح النون باتفاق القراء، وهي اسم للتَّرَفُّه، وجَمْعُها أَنْعُم

بفتح الهمزة وضم العين.

وأما النِّعمة بكسر النون فاسم للحالة الملائمة لرغبة الإنسان من عافية، وأمن ورزق، ونحو ذلك من الرغائب.

وجَمْعها: نِعَمٌ بكسر النون وفتح العين، وتجمع جمع سلامة على نِعَمات بكسر النون وبفتح العين لجمهور العرب، وتكسر العين في لغة أهل الحجاز كسرة إتباع.

والنُّعمة بضم النون اسم للمسرة؛ فيجوز أن تجمع على نُعْم على أنه اسم جمع، ويجوز أن تجمع على نُعَم بضم ففتح مثل: غرفة وغرف، وهو مطرد في الوزن.

وجعلهم ذوي النعمة المفتوحة النون للإشارة إلى أنه قصارى حظهم في هذه الحياة هي النعمة، أي الانطلاق في العيش بلا ضيق، والاستظلال بالبيوت والجنات، والإقبال على لذيذ الطعوم ولذائذ الانبساط إلى النساء والخمر والميسر، وهم معرضون عن كمالات النفس، ولذة الاهتداء والمعرفة، قال ـتعالىـ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ وتعريف ﴿النَّعْمَةِ﴾ للعهد. ٢٩/٢٧٠

٩ـ **وهذه الآية اقتضت رفع وجوب قيام الليل عن المسلمين** إن كان قد وجب عليهم من قبل على أحد الاحتمالين، أو بيان لم يوجب عليهم وكانوا قد التزموه؛ فبين لهم أن ما التزموه من التأسي بالنبيﷺ في ذلك غير لازم لهم، وعلل عدم وجوبه عليهم بأن الأمة يكثر فيها أصحاب الأعذار التي يشق معها قيام الليل؛ فلم يجعله الله واجباً عليهم أو رفع وجوبه.

ولولا اعتبارُ المظنةِ العامة لأبقي حكمُ القيامِ، ورخَّص لأصحاب العذر في مدة العذر فقط، فتبين أن هذا تعليل الحكم الشرعي بالمظنة والحكم هنا عدمي، أي عدم الإيجاب؛ فهو نظيرُ قصرِ الصلاة في السفر على قول عائشة أم المؤمنين: «إن الصلاةَ فرضت ركعتين ثم زِيْدَ في ثلاث من الصلوات في الحضر، وأبقيت صلاة السفر».

وعلةُ بقاءِ الركعتين هو مظنةُ المشقةِ في السفر.

وأوجب الترخصَ في قيام الليل أنه لم يكن ركناً من أركان الإسلام؛ فلم تكن المصلحة الدينية قوية فيه.

وأما حكم القيام فهو ما دل عليه قوله: ﴿قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وما دلت عليه أدلة التحريض عليه من السنة.

وقد مضى ذلك كله؛ فهذه الآية صالحة لأن تكون أصلاً للتعليل بالمظنة، وصالحة لأن تكون أصلاً تقاس عليه الرخص العامة التي تراعى فيها مشقة غالب الأمة مثل رخصة بيع السَّلم دون الأحوال الفردية والجزئية. ٢٩/٢٨٦-٢٨٧

سورة المدثر

١ـ **تسمى في كتب التفسير (سورة المدثر)** وكذلك سميت في المصاحف التي رأيناها ومنها كتب في القيروان في القرن الخامس.

وأريد بالمدثر النبيﷺ موصوفاً بالحالة التي نُودي بها، كما سميت بعض السور بأسماء الأنبياء الذين ذُكروا فيها.

وإما تسمية باللفظ الذي وقع فيها، ونظيره ما تقدم في تسمية «سورة المزمل»، ومثله ما تقدم في (سورة المجادلة) من احتمال فتح الدال أو كسرها.

وهي مكية حكى الاتفاق على ذلك ابن عطية والقرطبي، ولم يذكرها في الإتقان في السور التي بعضها مدني.

وذكر الآلوسي أن صاحب التحرير (محمد بن النقيب المقدسي المتوفى سنة ٦٩٨ له تفسير) ذكر قول مقاتل أو قوله ـتعالىـ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً﴾ الخ نزل بالمدينة اهـ.

ولم نقف على سنده في ذلك، ولا رأينا ذلك لغيره وسيأتي.

قيل: إنها ثانية السور نزولاً، وإنها لم ينزل قبلها إلا سورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وهو الذي جاء في حديث عائشة في الصحيحين في صفة بدأ الوحي: «أن النبيﷺ جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ثم قالت: ثم فتر الوحي».

فلم تذكر نزول وحي بعد آيات: ﴿اقرأ باسم ربك﴾.

وكذلك حديث جابر بن عبدالله من رواية أبي سلمة بن عبدالرحمن من طرق

كثيرة وبألفاظ يزيد بعضها على بعض.

وحاصل ما يجتمع من طرقه: قال جابر بن عبدالله وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «**إن النبيﷺ قال: فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي، فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئت منه رَعِباً، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني فدثروني**».

زاد غير ابن شهاب من روايته: «**وصبوا علي ماءً بارداً فدثروني وصَبوا علي ماءً بارداً**».

قال النووي: «صب الماء لتسكين الفزع؛ فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إلى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ثم حمي الوحي وتتابع» اهـ.

ووقع في صحيح مسلم عن جابر: «أنها أول القرآن سورة المدثر».

وهو الذي يقول في حديثه أن رسول الله يحدث عن فترة الوحي، وإنما تقع الفترة بين شيئين؛ فتقتضي وحياً نزل قبل سورة المدثر، وهو ما بُيِّن في حديث عائشة.

وقد تقدم في صدر سورة المزمل قول جابر بن زيد: أن سورة القلم نزلت بعد سورة العلق، وأن سورة المزمل ثالثة، وأن سورة المدثر رابعة.

وقال جابر بن زيد: «نزلت بعد المدثر سورة الفاتحة».

ولا شك أن سورة المدثر نزلت قبل المزمل، وأن عناد المشركين كان قد تزايد بعد نزول سورة المدثر، فكان التعرض لهم في سورة المزمل أوسع.

وقد وقع في حديث جابر بن عبدالله في صحيح البخاري، وجامع الترمذي من

طريق ابن شهاب أن نزول هذه السورة كان قبل أن تفرض الصلاة.

والصلاة فرضت بعد فترة الوحي سواء كانت خمساً أو أقل، وسواء كانت واجبة ـ كما هو ظاهر قولهم: فرضت ـ أم كانت مفروضة بمعنى مشروعة.

وفترة الوحي مختلف في مدتها اختلافاً كثيراً فقيل كانت سنتين ونصفاً، وقيل: أربعين يوماً، وقيل: خمسة عشر يوماً، والأصح أنها كانت أربعين يوماً؛ فيظهر أن المدثر نزلت في السنة الأولى من البعثة، وأن الصلاة فرضت عقب ذلك كما يُشْعِرُ به ترتيبُ ابنِ إسحاق في سوق حوادث سيرته.

وعدَّ أهل المدينة في عدهم الأخير الذي أرسوا عليه وأهل الشام آيها خمساً وخمسين، وعدَّها أهل البصرة والكوفة وأهل المدينة في عدهم الأول الذي رجعوا عنه ستاً وخمسين. ٢٩/٢٩١ـ٢٩٣

٢ـ أغراضها: جاء فيها من الأغراض تكريمُ النبيﷺ والأمرُ بإبلاغ دعوة الرسالة، وإعلانُ وحدانيةِ الله بالإلهية، والأمرُ بالتطهر الحسيِّ والمعنوي، ونبذِ الأصنامِ، والإكثارِ من الصدقات، والأمرُ بالصبرِ، وإنذارُ المشركين بهول البعث، وتهديدُ مَنْ تصدى للطعن في القرآن، وزَعَم أنه قول البشر، وكُفْرُ الطاعنِ نعمةَ اللهِ عليه؛ فأقدم على الطعن في آياته مع عِلْمِهِ بأنها حقٌّ.

ووصُف أهوالِ جهنمَ، والردُّ على المشركين الذين استخفوا بها، وزعموا قلةَ عَددِ حَفَظَتِها، وتحدي أهلِ الكتاب بأنهم جهلوا عَدَدَ حفظتِها، وتأييسُهُمْ من التخلص من العذاب، وتمثيلُ ضلالهم في الدنيا، ومقابلةُ حالهم بحال المؤمنين أهل الصلاة والزكاة والتصديق بيوم الجزاء. ٢٩/٢٩٣

سورة القيامة

١ ـ عنونت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة بـ(سورة القيامة) لوقوع القسم بيوم القيامة في أولها، ولم يقسم به فيما نزل قبلها من السور.

وقال الآلوسي: يقال لها: (سورة لا أقسم) ولم يذكرها صاحب الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم.

وهي مكية بالاتفاق.

وعدت الحاديةَ والثلاثين في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة القارعة، وقبل سورة الهمزة.

وعدد آيها عند أهل العدد من معظم الأمصار تسعاً وثلاثين آية، وعدها أهل الكوفة أربعين. ٣٣٦/٢٩

٢ ـ أغراضها: اشتملت على إثباتِ البعثِ، والتذكيرِ بيوم القيامة وذكرِ أشراطه، وإثباتِ الجزاء على الأعمالِ التي عملها الناس في الدنيا، واختلافِ أحوال أهل السعادة وأهل الشقاء وتكريم أهل السعادة، والتذكيرِ بالموت وأنه أولُ مراحلِ الآخرةِ، والزجرِ عن إيثار منافعِ الحياةِ العاجلةِ على ما أعدَّ لأهل الخير من نعيم الآخرة.

وفي تفسيرِ ابنِ عطيةَ عن عمرَ بنِ الخطابِ ولم يسنده: أنه قال: «من سأل عن القيامة، أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها فليقرأ هذه السورة».

وأُدمج فيها آيات ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ إلى ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ لأنها نزلت في أثناء نزول هذه السورة. ٣٣٧/٢٩

سورة الإنسان

١ـ سميت في زمن أصحاب رسول الله ﷺ «سورة هل أتى على الإنسان».

روى البخاري في باب القراءة في الفجر من صحيحه عن أبي هريرة قال: «كان النبيﷺ يقرأ في الفجر بـ (ألم السجدة) و﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ ﴾».

واقتصر صاحب الإتقان على تسمية هذه السورة (سورة الإنسان) عند ذكر السور المكية والمدنية، ولم يذكرها في عداد السور التي لها أكثر من اسم.

وتسمى (سورة الدهر) في كثير من المصاحف.

وقال الخفاجي: تسمى (سورة الأمشاج) لوقوع لفظ الأمشاج فيها، ولم يقع في غيرها من القرآن.

وذكر الطبرسي: أنها تسمى (سورة الأبرار) لأن فيها ذكر نعيم الأبرار، وذكرهم بهذا اللفظ ولم أره لتغيره[١].

فهذه خمسة أسماء لهذه السورة.

واختلف فيها فقيل هي مكية، وقيل مدنية، وقيل بعضها مكي وبعضها مدني. ٣٦٩/٢٩ـ٣٧٠

٢ـ واتفق العادون على عد آيها إحدى وثلاثين. ٣٧٠/٢٩

٣ـ **أغراضها**: التذكيرُ بأن كل إنسان كُوِّن بعد أن لم يكن، فكيف يَقْضي باستحالة إعادة تكوينه بعد عدمه.

وإثباتُ أن الإنسان محقوقٌ بإفراد الله بالعبادة؛ شكراً لخالقه؛ ومُحَذَّرٌ من

١ـ هكذا في الأصل، والصواب: لغيره. (م)

الإشراك به.

وإثباتُ الجزاء على الحالين مع شيء من وصف ذلك الجزاء بحالتيه والإطناب في وصف جزاء الشاكرين.

وأُدمج في خلال ذلك الامتنانُ على الناس بنعمة الإيجاد ونعمة الإدراك، والامتنانُ بما أعطيه الإنسان من التمييز بين الخير والشر، وإرشاده إلى الخير بواسطة الرسل؛ فمن الناس من شكر نعمة الله ومنهم من كفرها، فعبد غيره.

وتثبيتُ النبيﷺ على القيام بأعباء الرسالة، والصبر على ما يلحقه في ذلك، والتحذير من أن يلين للكافرين، والإشارة إلى أن الاصطفاء للرسالة نعمة عظيمة يستحق الله الشكر عليها بالاضطلاع بها[1] اصطفاه له، وبالإقبال على عبادته.

والأمر بالإقبال على ذكر الله والصلاة في أوقات من النهار. ٢٩/٣٧١

٤ـ والكأس: بالهمز الإناء المجعول للخمر؛ فلا يسمى كأساً إلا إذا كان فيه خمر، وقد تسمى الخمر كأساً على وجه المجاز المرسل بهذا الاعتبار. ٢٩/٣٨٠

٥ـ **والمزاج**: بكسر الميم ما يمزج به غيره، أي يُخْلَط، وكانوا يمزجون الخمر بالماء إذا كانت الخمر مُعَتّقة شديدة؛ ليخففوا من حدتها، وقد ورد ذكر مزج الخمر في أشعار العرب كثيراً. ٢٩/٣٨٠

٦ـ **والكافور**: زيت يستخرج من شجرة تشبه الدِّفْلَى تنبت في بلاد الصين وجاوة، يتكون فيها إذا طالت مدتها نحواً من مائتي سنة فيُغلَّى حطبها، ويستخرج منه زيت يسمى الكافور، وهو ثَخِنٌ قد يتصلب، فيصير كالزُّبْد، وإذا يقع حطب شجرة الكافور في الماء صار نبيذاً يتخمر؛ فيصير مُسْكِراً.

١ـكأن في الكلام سِقْطاً، ولعل صوابه: « من اصطفاه ...». (م)

والكافور أبيض اللون، ذكي الرائحة، منعش. ٣٨٠/٢٩

٧ـ **وزنجبيل**: كلمة معربة، وأصلها بالكاف الأعجمية عوض الجيم، قال الجواليقي والثعالبي: هي فارسية، وهو اسم لجذور مثل جذور السُّعْد بضم السين وسكون العين تكون في الأرض، كالجزر الدقيق، واللفت الدقيق لونها إلى البياض لها نبات له زهر، وهي ذات رائحة عطرية طيبة، وطعمها شبيه بطعم الفُلفل، وهو ينبت ببلادِ الصين والسند وعمان والشحر، وهو أصناف أحسنها ما ينبت ببلاد الصين، ويدخل في الأدوية والطبخ كالأفاويه، ورائحته بهارية، وطعمه حريف، وهو مُنَبِّه، ويستعمل منقوعاً في الماء، ومُرَبَّىً بالسُّكَّر.

وقد عرفه العرب، وذكره شعراء العرب في طيب الرائحة.

أي يمزجون الخمر بالماء المنقوع فيه الزنجبيل؛ لطيب رائحته وحسن طعمه. ٣٩٥/٢٩

سورة المرسلات

١ـ لم ترد لها تسمية صريحة عن النبيﷺ بأن يضاف لفظ سورة إلى جملتها الأولى.

وسميت في عهد الصحابة سورة ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً﴾ ففي حديث عبدالله ابن مسعود في الصحيحين: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه سورة والمرسلات عُرفاً؛ فإنه ليتلوها، وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها إذ خرجت علينا حية» الحديث.

وفي الصحيح عن ابن عباس قال: «قرأت سورة والمرسلات عرفاً، فسمعتني أم الفضل ـامرأة العباسـ فبكت وقالت: بُنَيّ أذكرتني بقرائتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب».

وسميت (سورة المرسلات) روى أبو داود عن ابن مسعود: «كان النبيﷺ يقرأ النظائر السورتين في ركعة الرحمن والنجم في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة».

ثم قال: «وعم يتساءلون، والمرسلات في ركعة».

فجعل هذه الألفاظ بدلاً من قوله السورتين، وسماها المرسلات بدون واو القسم؛ لأن الواو التي في كلامه واو العطف مثل أخواتها في كلامه.

واشتهرت في المصاحف باسم (المرسلات) وكذلك في التفاسير وفي صحيح البخاري.

وذكر الخفاجي، وسعد الله الشهير بسعدي في حاشيتيهما على البيضاوي أنها

تسمى (سورة العُرْف).

ولم يسنداه ، ولم يذكرها صاحب الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم.

وفي الإتقان عن كتاب ابن الضريس عن ابن عباس في عدّ السور التي نزلت بمكة ، فذكرها باسم (المرسلات).

وفيه عن دلائل النبوة للبيهقي عن عكرمة والحسن في عدّ السور التي نزلت بمكة ، فذكرها باسم (المرسلات).

وهي مكية عند جمهور المفسرين من السلف، وذلك ظاهر حديث ابن مسعود المذكور آنفاً ، وهو يقتضي أنها من أوائل سور القرآن نزولاً؛ لأنها نزلت والنبيﷺ مختفٍ في غارٍ بمنى مع بعض أصحابه.

وعن ابن عباس وقتادة: أن آية ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ﴾ مدنية نزلت في المنافقين، ومحمل ذلك أنه تأويل ممن رواه عنه نظراً إلى أن الكفار الصرحاء لا يؤمرون بالصلاة، وليس في ذلك حجة؛ لكون الآية مدنية؛ فإن الضمير في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ وارد على طريقة الضمائر قبله ، وكلها عائدة إلى الكفار وهم المشركون.

ومعنى: ﴿قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا﴾ : كناية عن أن يقال لهم أسلموا، ونظيره قوله ـتعالىـ: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ فهي في المشركين وقوله: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿وكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾.

وعن مقاتل نزلت: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ﴾ في شأن وفد ثقيف حين أسلموا بعد غزوة هوازن وأتوا المدينة، فأمرهم النبيﷺ بالصلاة فقالوا: لا نُجَبِّي؛ فإنها مسبة علينا ، فقال لهم: لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود.

وهذا ـأيضاًـ أضعف، وإذا صح ذلك؛ فإنما أراد مقاتل أن النبيﷺ قرأ عليهم الآية.

وهي السورة الثالثة والثلاثون في عداد ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد.

واتفق العادون على عد آيها خمسين. ٤١٧/٢٩ـ٤١٩

٢ـ أغراضها: اشتملت على الاستدلال على وقوع البعث عَقِبَ فناء الدنيا، ووصفِ بعضِ أشراط ذلك، والاستدلالِ على إمكان إعادة الخلق بما سبق من خلق الإنسان وخلق الأرض، ووعيدِ منكريه بعذاب الآخرة، ووصفِ أهواله، والتعريضِ بعذابٍ لهم في الدنيا كما استُؤصلت أممٌ مكذِّبةٌ مِنْ قَبْلُ، ومقابلة ذلك بجزاء الكرامة للمؤمنين، وإعادةِ الدعوة إلى الإسلام والتصديقِ بالقرآن لظهور دلائله. ٤١٩/٢٩

سورة النبأ

١ ـ **سميت هذه السورة** في أكثر المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة (سورة النبأ) لوقوع كلمة (النَّبَأ) في أولها.

وسميت في بعض المصاحف، وفي صحيح البخاري، وفي تفسير ابن عطية، والكشاف (سورة عم يتساءلون).

وفي تفسير القرطبي سماها (سورة عم) أي بدون زيادة (يَتَسَاءَلُونَ) تسمية لها بأول جملة فيها.

وتسمى (سورة التساؤل) لوقوع (يَتَسَاءَلُونَ) في أولها.

وتسمى (سورة المعصرات) لقوله ـتعالىـ فيها: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾.

فهذه خمسة أسماء، واقتصر الإتقان على أربعة أسماء: عم، والنبأ، والتساؤل، والمعصرات.

وهي مكية بالاتفاق، وعدت السورة الثمانين في ترتيب نزول السور عند جابر ابن زيد ، نزلت بعد سورة المعارج، وقبل سورة النازعات.

وفي ما روي عن ابن عباس والحسن ما يقتضي أن هذه السورة نزلت في أول البعث، روي عن ابن عباس: «كانت قريش تجلس لما نزل القرآن، فتتحدث فيما بينها، فمنهم المصدق، ومنهم المكذب به؛ فنزلت: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

وعن الحسن لما بعث النبيﷺ جعلوا يتساءلون بينهم، فأنزل الله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنْ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ يعني الخبر العظيم.

وعدَّ آيَها أصحابُ العدد من أهل المدينة والشام والبصرة أربعين، وعدَّها أهلُ مكة وأهل الكوفة إحدى وأربعين آية. ٥/٣٠

٢ـ **أغراضها**: اشتملت هذه السورة على وصفِ خوضِ المشركين في شأن القرآن وما جاء به مما يخالف معتقداتهم، ومن ذلك إثباتُ البعث، وسؤالُ بعضهم بعضاً عن الرأي في وقوعه مستهزئين بالإخبار عن وقوعه.

وتهدُيدهم على استهزائهم.

وفيها إقامةُ الحجةِ على إمكان البعثِ بخلق المخلوقات التي هي أعظم من خلق الإنسان بعد موته، وبالخلق الأول للإنسان وأحواله.

ووصفُ الأهوالِ الحاصلةِ عند البعث من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين.

وصفةُ يوم الحشر؛ إنذاراً للذين جحدوا به، والإيماءُ إلى أنهم يعاقبون بعذابٍ قريبٍ قبل عذابِ يومِ البعث.

وأدمج في ذلك أن علم الله ـتعالىـ محيطٌ بكل شيء، ومن جملة الأشياء أعمالُ الناس. ٦/٣٠

٣ـ ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنْ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) ﴾.

افتتاح الكلام بالاستفهام عن تساؤل جماعة عن نبأ عظيم ـ افتتاح تشويق، ثم تهويل لما سيذكر بعده، فهو من الفواتح البديعة؛ لما فيها من أسلوب عزيز غير مألوف، ومن تشويق بطريقة الإجمال ثم التفصيل المحصلة لتمكن الخبر الآتي بعده في نفس السامع أكمل تَمَكُّن.

وإذ كان هذا الافتتاح مؤذناً بعظيمِ أمرٍ كان مؤذناً بالتصدي لقولٍ فَصْلٍ فيه.

ولَمَّا كان في ذلك إشعارُ بأهمِّ ما فيه خوضهم يومئذ ـ يُجْعَلُ افتتاحُ الكلام به من براعة الاستهلال. ٦/٣٠

٤ـ **ولفظ ﴿عَمَّ﴾ :** مركب من كلمتين هما حرف (عن) الجار، و(ما) التي هي اسم استفهام بمعنى: أيُّ شيءٍ، ويتعلق ﴿عَمَّ﴾ بفعل ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ فهذا مركب.

وأصل ترتيبه: يتساءلون عن ما، فقدم اسم الاستفهام؛ لأنه لا يقع إلا في صدر الكلام المستفهم به، وإذ قد كان اسم الاستفهام مقترناً بحرف الجر الذي تعدى به الفعل إلى اسم الاستفهام، وكان الحرف لا ينفصل عن مجروره ـ قُدِّما معاً؛ فصار عما يتساءلون.

وقد جرى الاستعمال الفصيح على أن (ما) الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر يحذف الألف المختومة هي به؛ تفرقة بينها وبين (ما) الموصولة. ٧/٣٠

٥ـ **والنبأ**: الخبر، قيل مطلقاً؛ فيكون مرادفاً للفظ الخبر، وهو الذي جرى عليه إطلاق القاموس والصحاح واللسان.

وقال الراغب: «النبأ الخبر ذو الفائدة العظيمة يحصل به علم، أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، ويكون صادقاً» اهـ.

وهذا فرق حسن، ولا أحسب البلغاء جروا إلا على نحو ما قال الراغب؛ فلا يقال للخبر عن الأمور المعتادة نبأ، وذلك ما تدل عليه موارد استعمال لفظ النبأ في كلام البلغاء.

وأحسب أن الذين أطلقوا مرادفة النبأ للخبر راعوا ما يقع في بعض كلام الناس من تسامح بإطلاق النبأ بمعنى مطلق الخبر؛ لضرب من التأويل، أو المجاز المرسل

بالإطلاق والتقييد؛ فكثر ذلك في الكلام كثرة عَسُرَ معها تحديدُ مواقع الكلمتين.

ولكن أبلغ الكلام لا يليق تخريجه إلا على أدقِّ مواقع الاستعمال. ٣٠/٩-١٠

٦- **ووصف ﴿النَّبَإِ﴾ بـ﴿الْعَظِيمِ﴾ هنا** زيادةٌ في التنويه به؛ لأن كونه وارداً من عالم الغيب زاده عِظَم أوصافٍ وأهوال، فوصفُ النبأ بالعظيم باعتبار ما وصف فيه من أحوال البعث في ما نزل من آيات القرآن قبل هذا، ونظيره قوله -تعالى-: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ في سورة ص. ٣٠/١٠

٧- **ومناسبة ذكر الجبال** دعا إليها ذِكْرُ الأرض، وتشبيهها بالمهاد الذي يكون داخل البيت؛ فلما كان البيت من شأنه أن يخطر ببال السامع من ذكر المهاد كانت الأرض مشبهة بالبيت على طريقة المكنية، فشبهت جبال الأرض بأوتاد البيت؛ تخييلاً للأرض مع جبالها بالبيت ومهاده وأوتاده.

وأيضاً فإن كثرة الجبال الناتئة على وجه الأرض قد يخطر في الأذهان أنها لا تناسب جعل الأرض مهاداً؛ فكان تشبيه الجبال بالأوتاد مُسْتَمْلحاً بمنزلة حسن الاعتذار؛ فيجوز أن تكون الجبال مُشَبَّهةً بالأوتاد في مجرد الصورة مع هذا التخييل كقولهم: رأيت أُسوداً غابها الرماح.

ويجوز أن تكون الجبال مشبهة بأوتاد الخيمة في أنها تشد الخيمة من أن تقلعها الرياح، أو تزلزلها بأن يكون في خلق الجبال للأرض حكمةٌ لتعديل سَبْح الأرض في الكرة الهوائية؛ إذ نتوُّ الجبال على الكرة الأرضية يجعلها تَكْسِرُ تيارَ الكرةِ الهوائية المحيطة بالأرض؛ فيعتدل تياره حتى تكون حركة الأرض في كرة الهواء غير سريعة.

على أن غالب سكان الأرض وخاصة العرب لهم منافع جمة في الجبال؛ فمنها

مسايل الأودية، وقرارات المياه في سفوحها، ومراعي أنعامهم، ومستعصمهم في الخوف، ومراقب الطرق المؤدية إلى ديارهم إذا طرقها العدو؛ ولذلك كثر ذكر الجبال مع ذكر الأرض. ١٥/٣٠

٨ـ **والمعنى من جعل الليل لباساً** يحوم حول وصف حالة خاصة بالليل عبر عنها باللباس.

فيجوز أن يكون اللباس محمولاً على معنى الاسم وهو المشهور في إطلاقه، أي ما يلبسه الإنسان من الثياب؛ فيكون وصف الليل به على تقدير كاف التشبيه على طريقة التشبيه البليغ، أي جعلنا الليل للإنسان كاللباس له، فيجوز أن يكون وجه الشبه هو التغشية.

وتحته ثلاثة معان: **أحدها**: أن الليل ساتر للإنسان كما يستره اللباس؛ فالإنسان في الليل يختلي بشؤونه التي لا يرتكبها في النهار؛ لأنه لا يحب أن تراها الأبصار.

وفي ذلك تعريض بإبطال أصل من أصول الدهريين أن الليل ربُّ الظلمة وهو معتقد المجوس، وهم الذين يعتقدون أن المخلوقات كلها مصنوعة من أصلين أي إلهين: إله النور وهو صانع الخير، وإله الظلمة وهو صانع الشر، ويقال لهم: الثنوية؛ لأنهم أثبتوا إلهين اثنين، وهم فرق مختلفة المذاهب في تقرير كيفية حدوث العالم عن ذينك الأصلين، وأشهر هذه الفرق فرقة تسمى المانوية نسبة إلى رجل يقال له (ماني) فارسي قبل الإسلام، وفرقة تسمى مزدكية نسبة إلى رجل يقال له (مزدك) فارسي قبل الإسلام.

وقد أخذ أبو الطيب معنى هذا التعريض في قوله:

وكم لظلام الليل عندك من يد ... تُخَبِّر أن المانويَّةَ تكذب

المعنى الثاني من معنيي وجه الشبه باللباس: أنه المشابهة في الرفق باللابس، والملاءمة لراحته؛ فلما كان الليل راحة للإنسان، وكان محيطاً بجميع حواسه وأعصابه ـ شُبِّه باللباس في ذلك.

ونُسِب مُجْمَلُ هذا المعنى إلى سعيد بن جبير، والسدي، وقتادة؛ إذ فسروا ﴿ سُبَاتاً ﴾ : سكناً.

المعنى الثالث: أن وجه الشبه باللباس هو الوقاية، فالليل يقي الإنسان من الأخطار والاعتداء عليه؛ فكان العرب لا يُغْير بعضهم على بعض في الليل، وإنما تقع الغارة صباحاً؛ ولذلك إذا غِيْرَ عليهم يصرخ الرجل بقومه بقوله: يا صباحاه، ويقال: صَبَّحَهُمُ العدو.

وكانوا إذا أقاموا حرساً على الربى ناظُورة على ما عسى أن يطرقهم من الأعداء يقيمونه نهاراً، فإذا أظلم الليل نزل الحرس، كما قال لبيد يذكر ذلك، ويذكر فرسه:

حتى إذا ألقت يداً في كافر ... وأجن عورات الثغور ظلامها
أسْهَلتُ وانْتَصَبَتْ كجذع منيفة ... جرداء يَحْصَر دونها جُرَّامُها

٣٠/٢٠ـ٢١

٩ـ ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (١١) ﴾.

لما ذكر خلق نظام الليل قوبل بذكر خلق نظام النهار، فالنهار: الزمان الذي يكون فيه ضوء الشمس منتشرا على جزء كبير من الكرة الأرضية.

وفيه عبرة بدقة الصنع وإحكامه؛ إذ جعل نظامان مختلفان منشؤهما سطوع نور الشمس، واحتجابه فوق الأرض، وهما نعمتان للبشر مختلفتان في الأسباب

والآثار؛ فنعمةُ الليل راجعة إلى الراحة والهدوء، ونِعْمَةُ النهار راجعة إلى العمل والسعي؛ لأن النهار يُعْقِبُ الليل؛ فيكون الإنسان قد استجد راحته، واستعاد نشاطه، ويتمكن من مختلف الأعمال بسبب إبصار الشخوص والطرق.

ولما كان معظم العمل في النهار لأجل المعاش أخبر عن النهار بأنه معاش، وقد أشعر ذِكْرُ النهار بعد ذِكْرِ كلٍّ من النوم والليل بملاحظة أن النهار ابتداءُ وقت اليقظة التي هي ضد النوم؛ فصارت مقابلتهما بالنهار في تقدير: وجعلنا النهار واليقظة فيه معاشاً، ففي الكلام اكتفاءً دلت عليه المقابلة، وبذلك حصل بين الجمل الثلاث مطابقتان من المحسنات البديعة لفظاً وضِمْناً. ٢١/٣٠

١٠ـ وقوله: ﴿لا يَرْجُونَ حِسَاباً﴾: نفي لرجائهم وقوع الجزاء.

والرجاء أشْتُهر في ترقب الأمر المحبوب، والحساب ليس خيراً لهم حتى يُجْعَلَ نَفْيُ ترقُّبه من قبيل نفي الرجاء؛ فكان الظاهر أن يعبر عن ترقبه بمادة التوقع الذي هو ترقب الأمر المكروه؛ فيظهر أن وجه العدول عن التعبير بمادة التوقع إلى التعبير بمادة الرجاء ـ أن الله لما أخبر عن جزاء الطاغين وعذابهم، تلقى المسلمون ذلك بالمسرة، وعلموا أنهم ناجون مما سيلقاه الطاغون؛ فكانوا مترقبين يوم الحساب تَرَقُّبَ رجاءٍ، فَنَفْيُ رجاءِ يوم الحساب عن المشركين جامعٌ بصريحه معنى عدم إيمانهم بوقوعه، وبكنايته رجاءَ المؤمنين وُقُوعَه بطريقة الكناية التعريضية؛ تعريضاً بالمسلمين، وهي ـأيضاًـ تلويحية لما في لازم مدلول الكلام من الخفاء.

ومن المفسرين من فسر: ﴿يَرْجُونَ﴾ بمعنى: يخافون، وهو تفسير بحاصل المعنى، وليس تفسيراً للفظ. ٣٩/٣٠

١١ـ **والكواعب**: جمع كاعب، وهي الجارية التي بلغت سن خمس عشرة

سنة ونحوها.

ووصفت بكاعب؛ لأنها تَكَعَّبَ ثدْيُها، أي صار كالكعب، أي استدار ونتأ، يقال: كعبت من باب قعد، ويقال: كعبت بتشديد العين.

ولما كان كاعبٌ وصفاً خاصاً بالمرأة لم تلحقه هاء التأنيث، وجُمِعَ على فواعل.

والأتراب: جمع تِرْب بكسر فسكون: هو المساوي غيره في السن، وأكثر ما يطلق على الإناث.

قيل: هو مشتق من التراب؛ فقيل: لأنه حين يولد يقع على التراب مثل الآخر، أو لأن التِرْب ينشأ مع لِدَته في سن الصبا يلعب بالتراب.

وقيل: مشتق من الترائب؛ تشبيهاً في التساوي بالترائب وهي ضلوع الصدر؛ فإنها متساوية.

وتقدم الأتراب في قوله ـتعالىـ: ﴿عُرُباً أَتْرَاباً﴾ في الواقعة؛ فيجوز أن يكون وصفهن بالأتراب بالنسبة بينهن في تساوي السن لزيادة الحسن، أي لا تفوت واحدة منهن غيرها، أي فلا تكون النفس إلى إحداهن أميل منها إلى الأخرى؛ فتكون بعضهن أقل مسرة في نفس الرجل.

ويجوز أن يكون هذا الوصف بالنسبة بينهن وبين أزواجهن؛ لأن ذلك أحب إلى الرجال في معتاد أهل الدنيا؛ لأنه أوفق بطرح التكلف بين الزوجين، وذلك أحلى المعاشرة. ٣٠/٤٤ـ٤٥

١٢ـ **والكأس**: إناءٌ معدٌّ لشرب الخمر، وهو اسم مؤنث تكون من زجاج ومن فضة ومن ذهب، وربما ذُكِر في كتب اللغة أن الكأس الزجاجة فيها

الشراب، ولم أقف على أن لها شكلاً معيناً يميزها عن القَدَحِ وعن الكوب وعن الكوز، ولم أجد في قواميس اللغة التعريف بالكأس بأنها: إناء الخمر، وأنها الإناء ما دام فيه الشراب.

وهذا يقتضي أنها لا تختص بصنف من الآنية.

وقد يطلقون على الخمر اسم الكأس، وأريد بالكأس الجنس؛ إذ المعنى وأكؤساً.

وعدل عن صيغة الجمع؛ لأن كأساً بالإفراد أخفُّ من أكؤس وكؤوس، ولأن هذا المركب جرى مجرى المثل ـ كما سيأتي ـ.

ودهاق: اسم مصدر دهق من باب جعل، أو اسم مصدر أدهق، ولكونه في الأصل مصدراً لم يقترن بعلامة تأنيث.

والدهق والإدهاق مَلءُ الإناء من كثرة ما صُبَّ فيه.

ووصف الكأس بالدهق من إطلاق المصدر على المفعول كالخَلْق بمعنى المخلوق فإن الكأس مدهقة لا داهقة.

ومركب (كأس دهاق) يجري مجرى المثل، قال عكرمة: قال ابن عباس: «سمعت أبي في الجاهلية يقول: اسقنا كأساً دهاقاً».

ولذلك أفرد ﴿كَأْساً﴾ ومعناه مملوءة خمراً، أي دون تقتير؛ لأن الخمر كانت عزيزة، فلا يكيل الحانُويُّ للشارب إلا بمقدار؛ فإذا كانت الكأس ملأى كان ذلك أسرَّ للشارب. ٣٠/٤٥

١٣ـ وقوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا كِذَّاباً﴾: المقصود منها أن خمر الجنة سليمة مما تسببه خمر الدنيا من آثار العربدة من هذيان، وكذب وسباب.

واللغوُ والكذبُ من العيوب التي تعرض لمن تَدِبُّ الخمرُ في رؤوسهم، أي فأهل الجنة ينعمون بلذة السكر المعروفة في الدنيا قبل تحريم الخمر، ولا تأتي الخمر على كمالاتهم النفسية كما تأتي عليها خمر الدنيا.

وكان العرب يمدحون من يمسك نفسه عن اللغو ونحوه في شرب الخمر، قال عمارة بن الوليد:

ولسنا بَشَربٍ أمَّ عمرو إذا انتشوا ثياب الندامى بينهم كالغنائم

ولكننا يا أمَّ عمرو نديمنا بمنزلة الريان ليس بعائم

وكان قيس بن عاصم المنقري ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية وقال:

فإن الخمر تفضح شاربيها وتجنيهم بها الأمر العظيما

٣٠/٤٥ـ٤٦

١٤ـ **وجملة ﴿وَقَالَ صَوَاباً﴾:** يجوز أن تكون في موضع الحال من اسم الموصول، أي وقد قال المأذون له في الكلام صواباً، أي بإذن الله له في الكلام إذا علم أنه سيتكلم بما يرضي الله.

ويجوز أن تكون عطفاً على جملة ﴿أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ أي وإلا من قال صواباً، فعلم أن من لا يقول الصواب لا يؤذن له.

وفعل ﴿وَقَالَ صَوَاباً﴾ مستعمل في معنى المضارع، أي ويقول صواباً، فعبر عنه بالماضي؛ لإفادة تحقق ذلك، أي في علم الله.

وإطلاق صفة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ على مقام الجلالة إيماء إلى أن إذن الله لمن يتكلم في الكلام أثر من آثار رحمته؛ لأنه أذن فيما يحصل به نفع لأهل المحشر من شفاعة أو استغفار. ٣٠/٥٣

سورة النازعات

١ـ سميت في المصاحف وأكثر التفاسير (سورة النازعات) بإضافة سورة إلى النازعات بدون واو، جعل لفظ (النَّازِعَاتِ) علماً عليها، لأنه لم يذكر في غيرها.

وعنونت في كتاب التفسير من صحيح البخاري وفي كثير من كتب المفسرين بسورة (وَالنَّازِعَاتِ) بإثبات الواو على حكاية أول ألفاظها.

وقال سعد الله الشهير بسعدي والخفاجي: إنها تسمى (سورة الساهرة) لوقوع لفظ (السَّاهِرَةِ) في أثنائها ولم يقع في غيرها من السور.

وقالا: تسمى سورة الطامة ـأي لوقوع لفظ الطامة فيها، ولم يقع في غيرهاـ ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور التي لها أكثر من اسم.

ورأيت في مصحف مكتوب بخط تونسي عنون اسمها (سورة فالمدبرات) وهو غريب؛ لوقوع لفظ المدبرات فيها ولم يقع في غيرها.

وهي مكية بالاتفاق، وهي معدودة الحادية والثمانين في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النبأ وقبل سورة الانفطار.

وعَدَدُ آيها خمسٌ وأربعون عند الجمهور، وعدها أهل الكوفة ستاً وأربعين آية. ٥٩/٣٠

٢ـ أغراضها: اشتملت على إثباتِ البعث والجزاء، وإبطال إحالةِ المشركين وقوعَه، وتهويلِ يومِه، وما يعتري الناس حينئذ من الهول[1] وإبطالِ قول المشركين بتعذر الإحياء بعد انعدام الأجساد.

---

١ ـ في الأصل: الوهل، ولعل الصواب ما أُثبت. (م)

وعَرَّض بأن نُكْرَانَهم إياه مُنْبَعِثٌ عن طغيانهم؛ فكان الطغيان صاداً لهم عن الإصغاء إلى الإنذار بالجزاء، فأصبحوا آمنين في أنفسهم غير مترقبين حياةً بعد هذه الحياة الدنيا بأن جَعَلَ مَثَلَ طغيانِهم كطغيان فرعونَ وإعراضِه عن دعوة موسى ـ عليه السلام ـ وإن لهم في ذلك عبرةً، وتسليةً لرسول الله ﷺ.

وانعطف الكلامُ إلى الاستدلال على إمكان البعث بأنَّ خَلْقَ العوالم، وتدبير نظامه أعظم من إعادة الخلق.

وأُدمج في ذلك إلْفاتٌ إلى ما في خلق السماوات والأرض من دلائل على عظيم قدرة الله ـ تعالى ـ.

وأُدمج فيه امتنانٌ في خلق هذا العالمِ من فوائدَ يَجْتنونها، وأنه إذا حل عالمُ الآخرة، وانقرض عالم الدنيا جاء الجزاءُ على الأعمالِ بالعقاب والثواب.

وكُشِف عن شبهتهم في إحالة البعث باستبطائهم إياه، وجَعْلِهِمْ ذلك أمارةً على انتفائه؛ فلذلك يسألون الرسول ﷺ عن تعيين وقت الساعة سؤالَ تَعَنُّتٍ، وأن شأن الرسول أن يذكِّرهم بها، وليس شأنُه تعيينَ إبَّانها، وأنها يوشك أن تَحلَّ؛ فيعلمونها عياناً، وكأنهم مع طول الزمن لم يلبثوا إلا جزءاً من النهار. ٣٠/٥٩ـ٦٠

٣ـ وجاء في آخر القصة بحوصلة وفَذْلَكَةٌ لما تقدم فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ فهو في معنى البيان لمضمون جملة: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ الآيات.

والإشارة بقوله: ﴿فِي ذَلِكَ﴾ إلى: ﴿حَدِيثُ مُوسَى﴾.

والعبرة: الحالة التي ينتقل الذهن من معرفتها إلى معرفة عاقبتها أو عاقبة أمثالها.

وهي مشتقة من العَبْر، وهو الانتقال من ضفَّة واد أو نهر إلى ضفته الأخرى. والمراد بالعبرة هنا الموعظة. ٨٢/٣٠

٤ـ **وفي القصة كلها تعريض بسادة قريش** من أهل الكفر مثل أبي جهل بتنظيرهم بفرعون، وتنظير الدهماء بالقوم الذين حشرهم فرعون ونادى فيهم بالكفر، وقد علم المسلمون مضرب هذا المثل؛ فكان أبو جهل يوصف عند المسلمين بفرعون هذه الأمة. ٨٢/٣٠

٥ـ **وإضافة (ضحى) إلى ضمير (العشية)** جرى على استعمال عربي شائع في كلامهم، قال الفراء: «أضيف الضحى إلى العشية، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها، وآتيك العشية أو غداتها، وأنشدني بعض بني عقيل:

نحن صبحنا عامراً في دارها — جُرْداً تَعادى طرفي نهارها

عشيةَ الهلال أو سِرارها

أراد عشية الهلال، أو عشية سرار العشية؛ فهو أشد من: «آتيك الغداة أو عشيتها» اهـ.

ومُسوِّغُ الإضافة أن الضحى أسبق من العشية؛ إذ لا تقع عشية إلا بعد مرور ضحىً، فصار ضحى ذلك اليوم يعرف بالإضافة إلى عشية اليوم؛ لأن العشية أقرب إلى علم الناس؛ لأنهم يكونون في العشية بعد أن كانوا في الضحى؛ فالعشية أقرب والضحى أسبق.

وفي هذه الإضافة ـأيضاًـ رعاية على الفواصل التي هي على حرف الهاء المفتوحة من ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾. ٩٨/٣٠ـ٩٩

سورة عبس

١ـ **سميت هذه السورة** في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة (سورة عبس).

وفي أحكام ابن العربي عنونها: (سورة ابن أم مكتوم) ولم أر هذا لغيره.

وقال الخفاجي: تسمى (سورة الصاخة) وقال العيني في شرح صحيح البخاري: تسمى (سورة السفرة) وتسمى سورة (الأعمى).

وكلٌّ ذلك تسميةٌ بألفاظٍ وقعت فيها لم تقع في غيرها من السور، أو بصاحب القصة التي كانت سبب نزولها.

ولم يذكرها صاحبُ الإتقان في السور التي لها أكثر من اسم وهو عبس.

وهي مكية بالاتفاق، وقال في العارضة: «لم يحقق العلماء تعيين النازل بمكة من النازل بالمدينة في الجملة ولا يحقق وقت إسلام ابن أم مكتوم» اهـ.

وهو مخالف لاتفاق أهل التفسير على أنها مكية؛ فلا مُحَصَّل لكلام ابن العربي.

وعدت الرابعة والعشرين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة والنجم، وقبل سورة القدر.

وعدد آيها عند العادين من أهل المدينة وأهل مكة وأهل الكوفة اثنتان وأربعون، وعند أهل البصرة إحدى وأربعون وعند أهل الشام أربعون.

وهي أولى السور من أواسط المفصل.

وسبب نزولها يأتي ذكره عند قوله ـتعالى ـ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾. ١٠١/٣٠

٢ـ **أغراضُها**: تعليمُ رسول الله ﷺ الموازنة بين مراتب المصالح، ووجوب الاستقراء لِخَفِيَّاتها؛ كي لا يُفْيتَ الاهتمامُ بالمهمِّ منها في بادئ الرأي مُهمّاً آخرَ مساوياً في الأهمية أو أرجح؛ ولذلك يقول علماء أصول الفقه: إن على المجتهد أن يبحث عن معارضِ الدليل الذي لاح له.

والإشارةُ إلى اختلافِ الحالِ بين المشركين المعرضين عن هدي الإسلام وبين المسلمين المقبلين على تَتَبُّع مواقعه.

وقُرِنَ ذلك بالتذكير بإكرام المؤمنين، وسموَّ درجتهم عند الله ـتعالى ـ.

والثناءِ على القرآن وتعليمه لمن رغب في علمه.

وانْتُقِل من ذلك إلى وصف شِدَةِ الكفر من صناديد قريش بمكابرة الدعوة التي شغلت النبي ﷺ عن الالتفاتِ إلى رغبة ابن أُمِّ مكتوم.

والاستدلالُ على إثبات البعث وهو مما كان يدعوهم إليه حين حضورِ ابنِ أُمِّ مكتوم، وذلك كان من أعظم ما عُني به القرآن من حيث إن إنكارَ البعثِ هو الأصلُ الأصيلُ في تصميم المشركين على وجوب الإعراضِ عن دعوة القرآن؛ توهماً منهم بأنه يدعو إلى المحال؛ فاسْتَدَلَّ عليهم بالخَلْقِ الذي خلقه الإنسان، واستدل بعده بإخراج النبات والأشجار من أرض ميتة.

وأُعْقِبَ الاستدلالُ بالإنذار بحلول الساعة، والتحذيرِ من أهوالها، وبما يعقبها من ثواب المتقين وعقاب الجاحدين.

والتذكيرُ بنعمة الله على المنكرين عسى أن يشكروه.

والتنويهُ بضعفاء المؤمنين، وعلوِّ قدرهم ووقوع الخير من نفوسهم، والخشية، وأنهم أعظم عند الله من أصحاب الغنى الذين فقدوا طهارة النفس، وأنهم

أحرياء بالتحقير والذم، وأنهم أصحاب الكفر والفجور. ١٠٢/٣٠

٣ـ **وعبّر عن ابن أم مكتوم بـ﴿ الأَعْمَى ﴾** ترقيقاً للنبيﷺ ليكون العتاب ملحوظاً فيه أنه لما كان صاحب ضَرارة؛ فهو أجدر بالعناية به؛ لأن مثله يكون سريعاً إلى انكسار خاطره. ١٠٤/٣٠

٤ـ ويظهر أن النبي ﷺ رجا من ذلك المجلس أن يُسلموا؛ فيسلم بإسلامهم جمهور قريش أو جميعهم؛ فكان دخول ابن أم مكتوم قطعاً لسلك الحديث، وجعل يقول للنبي ﷺ: يا رسول الله استدنني، علمني، أرشدني، ويناديه، ويكثر النداء والإلحاح؛ فظهرت الكراهية في وجه الرسولﷺ لعله لقطعه عليه كلامه، وخشيته أن يفترق النفر المجتمعون، وفي رواية الطبري أنه أستقرأ النبيﷺ آية من القرآن. ١٠٥/٣٠

٥ـ **والحاصل** أن الله ـتعالىـ أعلم رسولهﷺ أن ذلك المشرك الذي مَحَضَهُ نُصْحَه لا يرجى منه صلاح، وأن ذلك المؤمن الذي استبقى العناية به إلى وقت آخر يزداد صلاحاً تفيد المبادرة به؛ لأنه في حالة تلهفه على التلقي من رسول اللهﷺ أشد استعداداً منه في حين آخر.

فهذه الحادثة منوالٌ ينسج عليها الاجتهاد النبوي إذا لم يرد له الوحي؛ ليعلم أن من وراء الظواهر خبايا، وأن القرائن قد تستر الحقائق. ١١١/٣٠

٦ـ **فإن قال قائل**: فلماذا لم يُعلم الله رسولهﷺ من وقت حضور ابن أم مكتوم بما تضمنه هذا التعليم الذي ذكرتم؟

قلنا: لأن العلم الذي يحصل عن تبيُّن غفلة، أو إشعار بخفاء يكون أرسخ في النفس من العلم المسوق عن غير تَعَطُّش؛ ولأن وقوع ذلك بعد حصول سببه أشهر

بين المسلمين، وليحصل للنبيﷺ مَزِيّةُ كِلا المقامين: مقام الاجتهاد، ومقام الإفادة.

وحكمة ذلك كله أن يُعلم الله رسولهﷺ بهذا المهيع من عليِّ الاجتهاد؛ لتكون نفسه غير غافلة عن مثله، وليتأسى به علماء أمته، وحكامها، وولاة أمورها. ١١٢/٣٠

٧ـ هذا ما لاح لي في تفسير هذه الآيات تأصيلاً وتفصيلاً، وهو بناء على أساس ما سبق إليه المفسرون مِنْ جعلهم مناط العتاب مجموع ما في القصة من الإعراض عن إرشاد ابن أم مكتوم، ومن العبوس له، والتولي عنه، ومن التصدي القوي لدعوة المشرك والإقبال عليه.

والأظهر عندي أن مناط العتاب الذي تؤتيه لهجة الآية والذي روي عن النبيﷺ ثبوته من كثرة ما يقول لابن أم مكتوم: «**مرحباً بمن عاتبني ربي لأجله**» إنما هو عتاب على العبوس والتولي، لا على ما حف بذلك من المبادرة بدعوة، وتأخير إرشاد؛ لأن ما سلكه النبيﷺ في هذه الحادثة من سبيل الإرشاد لا يستدعي عتاباً؛ إذ ما سلك إلا سبيل الاجتهاد القويم؛ لأن المقام الذي أقيمت فيه هذه الحادثة تقاضاه إرشادان لا محيص من تقديم أحدهما على الآخر، هما: إرشاد كافر إلى الإسلام عساه أن يسلم، وإرشاد مؤمن إلى شعب الإسلام عساه أن يزداد تزكية.

وليس في حال المؤمن ما يُفِيْتُ إيماناً، وليس في تأخير إرشاده على نية التفرغ إليه بعد حين ما يُنَاكِد زيادة صلاحه؛ فإن زيادة صلاحه مستمرة على ممر الأيام.

ومن القواعد المستقراة من تصاريف الشريعة، والشاهدة بها العقول السليمة تقديم درء المفاسد على جلب المصالح، ونفي الضر الأكبر قبل نفي الضر

الأصغر، فلم يسلك النبيﷺ إلا مسلك الاجتهاد المأمور به فيما لم يوح إليه فيه. ٣٠/١١٢-١١٣

٨- ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧)﴾: وهذه الجملة بلغت نهاية الإيجاز، وأرفع الجزالة بأسلوب غليظ دال على السخط بالغ حد المذمة، جامع للملامة، ولم يسمع مثلها قبلها؛ فهي من جوامع الكلم القرآنية. ٣٠/١٢١

٩- «والأبُّ»: بفتح الهمزة وتشديد الباء: الكلأ الذي ترعاه الأنعام، روي أن أبا بكر الصديق سئل عن الأب: ما هو؟ «فقال أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به».

وروي أن عمر بن الخطاب قرأ يوماً على المنبر: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً﴾ إلى: ﴿وَأَبّاً﴾ فقال: «كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصاً كانت في يده، وقال: هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأَبّ؛ ابتغوا ما بُيّن لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه».

وفي صحيح البخاري عن عمر بعض هذا مختصراً.

والذي يظهر لي في انتفاء علم الصديق والفاروق بمدلول الأب وهما من خُلَّص العرب **لأحد سببين: إما لأن هذا اللفظ كان قد تنوسي من استعمالهم، فأحياه القرآن**؛ لرعاية الفاصلة؛ فإن الكلمة قد تشتهر في بعض القبائل أو في بعض الأزمان، وتنسى في بعضها مثل اسم السِّكين عند الأوس والخزرج، فقد قال أنس بن مالك: «ما كنا نقول إلا المدية حتى سمعت قول رسول اللهﷺ يذكر أن سليمان -عليه السلام- قال: «**ائيتوني بالسكين أقسم الطفل بينهما نصفين**».

وإما أن كلمة الأبّ تطلق على أشياء كثيرة منها النبت الذي ترعاه الأنعام،

ومنها التبن، ومنها يابس الفاكهة؛ فكان إمساك أبي بكر وعمر عن بيان معناه؛ لعدم الجزم بما أراد الله منه على التعيين، وهل الأب مما يرجع إلى قوله: ﴿مَتَاعاً لَكُمْ﴾ أو إلى قوله: ﴿وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ في جمع ما قسم قبله. ١٣٣/٣٠

١٠ـ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾: وكون أقرب الناس للإنسان يفر منهم يقتضي هولَ ذلك اليوم بحيث إذا رأى ما يحل من العذاب بأقرب الناس إليه توهم أن الفرار منه ينجيه من الوقوع في مثله؛ إذ قد علم أنه كان مماثلاً لهم فيما ارتكبوه من الأعمال، فَذُكِرَتْ هنا أصنافُ من القرابة؛ فإن القرابة آصرةٌ تكون لها في النفس معزةٌ وحرصٌ على سلامة صاحبها وكرامته، والإلف يحدث في النفس حرصاً على الملازمة والمقارنة، وكلا هذين الوَجَدَانين يصد صاحبه عن المفارقة؛ فما ظنك بهول يغشى على هذين الوجدانين فلا يترك لهما مجالاً في النفس؟

ورتبت أصناف القرابة في الآية حسب الصعود من الصنف إلى من هو أقوى منه؛ تدرجاً في تهويل ذلك اليوم.

فابتدىء بالأخ؛ لشدة اتصاله بأخيه من زمن الصبا، فينشأ بذلك إلف بينهما يستمر طول الحياة، ثم ارتقي من الأخ إلى الأبوين وهما أشد قرباً لابنيهما، وقدمت الأم في الذكر؛ لأن إلف ابنها بها أقوى منه بأبيه، وللرعي على الفاصلة، وانتقل إلى الزوجة والبنين وهما مجتمع عائلة الإنسان، وأشد الناس قرباً به وملازمة.

وأطنب بتعداد هؤلاء الأقرباء دون أن يقال: يوم يفر المرء من أقرب قرابته مثلاً؛ لإحضار صورة الهول في نفس السامع. ١٣٥/٣٠ـ١٣٦

سورة التكوير

١ـ **لم يثبت عن النبيﷺ أنه سماها تسمية صريحة**، وفي حديث الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول اللهﷺ: «**من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت**».

وليس هذا صريحاً في التسمية؛ لأن صفة يوم القيامة ليست في جميع هذه السورة، بل هو في الآيات الأول منها؛ فتعين أن المعنى: فليقرأ هذه الآيات.

وعُنْوَنَتْ في صحيح البخاري، وفي جامع الترمذي «سورة إذا الشمس كورت» وكذلك عنونها الطبري.

وأكثر التفاسير يسمونها (سورة التكوير) وكذلك تسميتها في المصاحف، وهو اختصار لمدلول (كُوِّرَتْ).

وتسمى (سورة كورت) تسمية بحكاية لفظ وقع فيها.

ولم يعدَّها في الإتقان مع السور التي لها أكثر من اسم.

وهي مكية بالاتفاق.

وهي معدودة السابعة في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة الفاتحة وقبل سورة الأعلى.

وعدد آيها تسع وعشرون. ١٣٩/٣٠

٢ـ **أغراضها**: اشتملت على تحقيقِ الجزاءِ صريحاً، وعلى إثبات البعثِ، وابتُدىء بوصفِ الأهوالِ التي تتقدمه، وانْتُقل إلى وصفِ أهوالٍ تَقَعُ عَقِبَه.

وعلى التنويهِ بشأنِ القرآن الذي كذبوا به؛ لأنه أوعدهم بالبعث زيادةً لتحقيقِ

وقوعِ البحث؛ إذ رموا النبيَّ ﷺ بالجنونِ، والقرآنَ بأنه يأتيه به شيطان. ٣٠/١٣٩ـ١٤٠

٣ـ **وظاهر الآية أن سؤال الموؤدة**، وعقوبة من وأدها أول ما يقضى فيه يوم القيامة كما يقتضي ذلك جعلُ هذا السؤال وقتاً تعلم عنده كل نفس ما أحضرت؛ فهو من أول ما يعلم به حين الجزاء.

والوأد: دفن الطفلة وهي حية: قيل: هو مقلوب آداه، إذا أثقله؛ لأنه إثقال الدفينة بالتراب.

قال في الكشاف: «كان الرجل إذا وُلِدتْ له بنتٌ؛ فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية يقول لأمها: طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئراً في الصحراء؛ فيبلغ بها البئر، فيقول لها: انظري فيها ثم يدفعها من خلفها، ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض.

وقيل: كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة، فتمخضت على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابناً حبسته» اهـ.

وكانوا يفعلون ذلك؛ خشية من إغارة العدو عليهم، فيسبي نساءهم، ولخشية الإملاق في سني الجدب؛ لأن الذكر يحتال للكسب بالغارةِ وغيرها، والأنثى عالةٌ على أهلها، قال ـتعالىـ: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وإذ قد فشى فيهم كراهية ولادة الأنثى فقد نما في نفوسهم بغضها، فتحركت

فيها الخواطر الإجرامية؛ فالرجل يكره أن تولد له أنثى لذلك، وامرأته تكره أن تولد لها أنثى؛ خشيةً من فراق زوجها إياها، وقد يهجر الرجل امرأته إذا ولدت أنثى.

وقد توارثت هذا الجهل أكثرُ الأمم على تفاوت بينهم فيه، ومن كلام بعضهم وقد ماتت ابنته: «نعم الصهر القبر».

ومن آثار هذا الشعور حرمانُ البنات من أموال آباءهن بأنواع من الحيل، مثل: وقف أموالهم على الذكور دون الإناث، وقد قال مالك: «إن ذلك من سنة الجاهلية»، ورأى ذلك الحُبس باطلاً، وكان كثير من أقرباء الميت يلجئون بناته إلى إسقاط حقهن في ميراث أيهن لأخوتهن في فور الأسف على موت أبيهن؛ فلا يمتنعن من ذلك، ويرين الامتناع من ذلك عاراً عليهن؛ فإن لم يفعلن قطعهن أقرباؤهن.

وتعرف هذه المسألة في الفقه بهبة بنات القبائل، وبعضهم يعدها من الإكراه.

ولم يكن الوأد معمولاً به عند جميع القبائل، قيل: أول من وأد البنات من القبائل ربيعة، وكانت كندة تئد البنات، وكان بنو تميم يفعلون ذلك، ووأد قيس ابن عاصم المنقري من بني تميم ثمان بنات له قبل إسلامه.

ولم يكن الوأد في قريش البتة، وكان صعصعة بن ناجية جد الفرزدق من بني تميم يفتدي من يعلم أنه يريد وأد بنته من قومه بناقتين عشراوين وجمل، فقيل: إنه افتدى ثلاثمائة وستين موءودة، وقيل؛ وسبعين، وفي الأغاني: وقيل: أربعمائة.

وفي تفسير القرطبي: فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة، ومثل هذا في

كتاب الشعراء لابن قتيبة وبين العددين بون بعيد؛ فلعل في أحدهما تحريفاً.

وفي توجيه السؤال إلى الموءودة ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ في ذلك الحشر إدخال الروع على مَنْ وأدها، وجعل سؤالها عن تعيين ذنب أوجب قتلها؛ للتعريض بالتوبيخ والتخطئة للذي وأدها، وليكون جوابُها شهادةً على من وأدها؛ فيكون استحقاقُهُ العقابَ أشدَّ وأظهر. ٣٠/١٤٥ـ١٤٦

٤ـ ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِي الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾.

و﴿ الخُنَّس ﴾: جمع خانسة، وهي التي تخنس، أي تختفي، يقال: خنست البقرة والظبية، إذا اختفت في الكناس.

و﴿ الْجَوَارِي ﴾: جمع جارية، وهي التي تجري، أي تسير سيراً حثيثاً.

و﴿ الْكُنَّسِ ﴾: جمع كانسة، يقال: كنس الظبي، إذا دخل كِناسه بكسر الكاف، وهو البيت الذي يتخذه للمبيت.

وهذه الصفات أريد بها صفات مجازية؛ لأن الجمهور على أن المراد بموصوفاتها الكواكب، وصفن بذلك لأنها تكون في النهار مختفية عن الأنظار؛ فشبهت بالوحشية المختفية في شجر ونحوه، فقيل: الخنس وهو من بديع التشبيه؛ لأن الخنوس اختفاء الوحش عن أنظار الصيادين ونحوهم دون السكون في كناس.

وكذلك الكواكب؛ لأنها لا ترى في النهار؛ لغلبة شعاع الشمس على أفقها، وهي مع ذلك موجودة في مطالعها.

وشبه ما يبدو للأنظار من تنقلها في سمت الناظرين للأفق باعتبار اختلاف ما يسامتها من جزء من الكرة الأرضية بخروج الوحش، فشُبِّهت حالةُ بُدُوّها بعد

احتجابها مع كونها كالمتحركة بحالة الوحش تجري خنوسها تشبيه التمثيل، وهو يقتضي أنها صارت مرئية؛ فلذلك عقَّب بعد ذلك بوصفها بالكنس أي عند غروبها؛ تشبيهاً لغروبها بدخول الظبي أو البقرة الوحشية كِناسَها بعد الانتشار والجري.

فشبه طلوع الكوكب بخروج الوحشية من كناسها، وشبه تنقل مرآها للناظر بجري الوحشية عند خروجها من كِناسها صباحاً، قال لبيد:

حتى إذا انحسر الظلام وأسفرت ... بَكَرَتْ تَزِلُّ عن الثرى أزلامُها

وشبه غروبها بعد سيرها بكنوس الوحشية في كناسها، وهو تشبيه بديع؛ فكان قوله: ﴿بِالْخُنَّسِ﴾ استعارة، وكان: ﴿الْجَوَارِي الْكُنَّسِ﴾ ترشيحين للاستعارة.

وقد حصل من مجموع الأوصافِ الثلاثِ ما يُشْبِهُ اللغز يحسب به أن الموصوفات ظباءٌ أو وحوشٌ؛ لأن تلك الصفات حقائقها من أحوال الوحوش، والألغاز طريقةٌ مستملحة عند بلغاء العرب، وهي عزيزة في كلامهم، قال بعض شعرائهم وهو من شواهد العربية:

فقلت أعيراني القَدوم لعلني ... أخُطُّ بها قبرا لأبيض ماجد

أراد أنه يصنع بها غمداً لسيف صقيل مهند.

وعن ابن مسعود، وجابر بن عبدالله، وابن عباس: حَمْلُ هذه الأوصاف على حقائقها المشهورة، وأن الله أقسم بالظباء، وبقر الوحش. ١٥٢/٣٠ـ١٥٣

٥ـ **وعسعس الليل** عَسْعَاساً وعسة، قال مجاهد عن ابن عباس: أقبل بظلامه، وقال مجاهد ـأيضاًـ عن ابن عباس معناه: أدبر ظلامه، وقاله زيد ابن أسلم، وجزم به الفراء، وحكى عليه الإجماع، وقال المبرد والخليل: هو من

الأضداد[1] يقال: عسعس، إذا أقبل ظلامه، وعسعس، إذا أدبر ظلامه، قال ابن عطية: «قال المبرد: أقسم الله بإقبال الليل وإدباره معاً» اهـ. ١٥٤/٣٠

٦ـ **والتنفس**: حقيقته خروج النفس من الحيوان، أستعير لظهور الضياء مع بقايا الظلام على تشبيه خروج الضياء بخروج النفس على طريقة الاستعارة المصرحة، أو لأنه إذا بدا الصباح أقبل معه نسيم فجُعل ذلك كالتنفس له على طريقة المكنية بتشبيه الصبح بذي نفس مع تشبيه النسيم بالأنفاس. ١٥٤/٣٠

---

١ ـ الأضداد، ويقال: التضاد، والمتضاد من مباحث علم فقه اللغة، وهو نوع من المشترك، وهو: دلالة اللفظ الواحد على معنيين متضادين.

أو هو: أن يطلق اللفظ على المعنى وضده، مثل الجون: يطلق على الأبيض والأسود، والحميم على الحار والبارد، ويفهم المراد من خلال السياق.

ومن أعظم الكتب المؤلفة فيه: كتاب الأضداد لأبي بكر بن الأنباري. (م)

سورة الانفطار

١ـ **سميت هذه السورة** (سورة الانفطار) في المصاحف ومعظم التفاسير.

وفي حديث رواه الترمذي عن ابن عمر قال: «**قال رسول الله ﷺ: من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت**» قال الترمذي: حديث حسن غريب.

وقد عرفت ما فيه من الاحتمال في أول سورة التكوير.

وسميت في بعض التفاسير (سورة إذا السماء انفطرت) وبهذا الاسم عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، ولم يعدَّها صاحبُ الإتقان مع السور ذات أكثر من اسم وهو (الانفطار).

ووجه التسمية وقوع جملة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ في أولها؛ فعرفت بها.

وسميت في قليل من التفاسير (سورة انفطرت) وقيل تسمى (سورة المنفطرة) أي السماء المنفطرة.

وهي مكية بالاتفاق.

وهي معدودة الثانية والثمانين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة النازعات، وقبل سورة الانشقاق.

وعدد آيها تسع عشرة آية. ١٦٩/٣٠

٢ـ **أغراضها**: واشتملت هذه السورةُ على: إثباتِ البعث، وذكرِ أهوالٍ تتقدمه.

وإيقاظُ المشركين للنظر في الأمور التي صرفتهم عن الاعتراف بتوحيد الله

ـتعالى ـ وعن النظر في دلائلِ وقوعِ البعث والجزاء.

والإعلام بأن الأعمالَ محصاةٌ، وبيانُ جزاءِ الأعمال خيرِها وشرِّها.

وإنذار الناس بأن لا يحسبوا شيئاً ينجيهم من جزاء الله إياهم على سيِّئ أعمالهم. ٣٠/١٦٩ـ١٧٠

٣ـ **وانفطرت**: مطاوع فَطَر، إذا جعل الشيء مفطوراً، أي مشقوقاً ذا فطور، وتقدم في سورة الملك.

وهذا الانفطار: انفراج يقع فيما يسمى بالسماء، وهو ما يشبه القُبَّة في نظر الرائي يراه تسير فيه الكواكب في أسمات مضبوطة تسمى بالأفلاك تشاهد بالليل، ويعرف سَمْتُها في النهار، ومشاهدتها في صورة متماثلة مع تعاقب القرون تدل على تجانس ما هي مصورة منه؛ فإذا اختل ذلك، وتخللته أجسام أو عناصر غريبة عن أصل نظامه تفككت تلك الطباق، ولاح فيها تشقُّقٌ؛ فكان علامةً على انحلال النظام المتعلق بها كله.

والظاهر أن هذا الانفطار هو المعبر عنه بالانشقاق ـأيضاًـ في سورة الانشقاق، وهو حدث يكون قبل يوم البعث، وأنه من أشراط الساعة؛ لأنه يحصل عند إفساد النظام الذي أقام الله عليه حركات الكواكب، وحركة الأرض، وذلك يقتضيه قَرْنُهُ بانتثار الكواكب، وتفجر البحار، وتبعثر القبور.

وأما الكشط الذي تقدم في سورة التكوير في قوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ فذلك عَرَضٌ آخر يعرض للسماوات يوم الحشر؛ فهو من قبيل قوله ـتعالىـ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾. ٣٠/١٧١

سورة المطففين

١ـ **سميت هذه السورة في كتب السنة**، وفي بعض التفاسير (سورة ويل للمطففين) وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، والترمذي في جامعه.

وسميت في كثير من كتب التفسير والمصاحف (سورة المطففين) اختصاراً.

ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور ذوات أكثر من اسم، وسماها (سورة المطففين) وفيه نظر.

وقد اختلف في كونها مكية أو مدنية، أو بعضها مكي وبعضها مدني؛ فعن ابن مسعود، والضحاك، ومقاتل في رواية عنه: أنها مكية، وعن ابن عباس في الأصح عنه، وعكرمة، والحسن، والسدي، ومقاتل في رواية أخرى عنه: أنها مدنية، قال: وهي أول سورة نزلت بالمدينة، وعن ابن عباس في رواية عنه وقتادة: هي مدنية إلا ثمان آيات من آخرها من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ إلى آخرها.

وقال الكلبي، وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة؛ فهي لذلك مكية؛ لأن العبرة في المدني بما نزل بعد الهجرة على المختار من الأقوال لأهل علم القرآن.

قال ابن عطية: «احتج جماعة من المفسرين على أنها مكية بذكر الأساطير فيها أي قوله: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

والذي نختاره: أنها نزلت قبل الهجرة؛ لأن معظم ما اشتملت عليه التعريض بمنكري البعث».

ومن اللطائف أن تكون نزلت بين مكة والمدينة ، لأن التطفيف كان فاشياً في البلدين ، وقد حصل من اختلافهم أنها : إما آخر ما أنزل بمكة ، وإما أول ما أنزل بالمدينة ، والقول بأنها نزلت بين مكة والمدينة قول حسن ، فقد ذكر الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس قال : «لما قدم النبيﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً؛ فأنزل الله ـتعالىـ : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك» .

وعن القرظي : «كان بالمدينة تجار يطففون الكيل ، وكانت يباعاتهم كسبة القمار ، والملامسة ، والمنابزة ، والمخاصرة؛ فأنزل الله ـتعالىـ هذه الآية؛ فخرج رسول اللهﷺ إلى السوق ، وقرأها ، وكانت عادةٌ فشت فيهم من زمن الشرك؛ فلم يتفطن بعض الذين أسلموا من أهل المدينة؛ لما فيه من أكل مال الناس؛ فأريد إيقاظهم لذلك؛ فكانت مقدمة لإصلاح أحوال المسلمين في المدينة مع تشنيع أحوال المشركين بمكة ويثرب بأنهم الذين سنوا التطفيف» .

وما أنسب هذا المقصد بأن تكون نزلت بين مكة والمدينة؛ لتطهير المدينة من فساد المعاملات التجارية قبل أن يدخل إليها النبيﷺ لئلا يشهد فيها منكراً عاماً؛ فإن الكيل والوزن لا يخلو وقت عن التعامل بهما في الأسواق ، وفي المبادلات.

وهي معدودة السادسة والثمانين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة العنكبوت ، وقبل سورة البقرة.

وعدد آيها ست وثلاثون. ١٨٧/٣٠ـ١٨٨

٢ـ أغراضها : اشتملت على التحذيرِ من التطفيف في الكيل والوزن وتفظيعه بأنه تَحَيُّلٌ على أكلِ مالِ الناس في حال المعاملة أخذاً وإعطاءً.

وأن ذلك مما سيحاسبون عليه يوم القيامة.

وتهويلُ ذلك اليوم بأنه وقوفٌ عند ربهم؛ ليفصل بينهم، وليجازيهم على أعمالهم وأن الأعمال محصاة عند الله.

ووعيدُ الذين يكذبون بيوم الجزاء والذين يكذبون بأن القرآن منزل من عند الله.

وقوبل حالُهم بضدِّه مِنْ حالِ الأبرار أهل الإيمان، ورفعِ درجاتهم وإعلان كرامتهم بين الملائكة والمقربين، وذكر صور من نعيمهم.

وانتقل من ذلك إلى وصف حال الفريقين في هذا العالم الزائل؛ إذ كان المشركون يسخرون من المؤمنين، ويلمزونهم، ويستضعفونهم، وكيف انقلب الحالُ في العالم الأبدي. ٣٠/١٨٨ـ١٨٩

٣ـ والتطفيف: النقص عن حق المقدار في الموزون أو المكيل، وهو مصدر طفَّف إذ بلغ الطفافة، والطُفَاف بضم الطاء وتخفيف الفاء ما قَصُر عن ملء الإناء من شراب أو طعام، ويُقال: الطَفَّ بفتح الطاء دون هاء تأنيث، وتطلق هذه الثلاثة على ما تجاوز حرف المكيال مما يملأ به، وإنما يكون شيئاً قليلاً زائداً على ما ملأ الإناء؛ فمن ثمَّ سُمِّيت طفافة، أي قليل زيادة.

ولا نعرف له فعلاً مجرداً؛ إذ لم ينقل إلا بصيغة التفعيل، وفِعْلُه: طفَّف، كأنهم راعوا في صيغة التفعيل معنى التكلف والمحاولة؛ لأن المطفف يحاول أن ينقص الكيل دون أن يشعر به المكتال، ويقابله الوفاء. ٣٠/١٨٩

٤ـ **وهذه الآية تحذير للمسلمين من التساهل في التطفيف**؛ إذ وجوده[1] فاشياً في المدينة في أول هجرتهم، وذم للمشركين من أهل المدينة وأهل مكة.

وحسبهم أن التطفيفَ يجمع ظلماً، واختلاساً، ولؤماً، والعرب كانوا يتعيرون

١ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: إذ وجدوه. (م)

بكل واحد من هذه الخلال متفرقة، ويتبرؤون منها، ثم يأتونها مجتمعة، وناهيك بذلك أفناً. ١٩٢/٣٠

٥ـ ﴿ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) ﴾.

جملة: ﴿ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ وما عطف عليها ابتدائية، وقد اشتملت الجملة ومعطوفاها على أنواع ثلاثة من الويل وهي الإهانة، والعذاب، والتقريع مع التأييس من الخلاص من العذاب.

فأما الإهانة فَحَجْبُهم عن ربهم، والحجب هو الستر، ويستعمل في المنع من الحضور لدى الملك، ولدى سيد القوم، قال الشاعر الذي لم يُسَمَّ وهو من شواهد الكشاف:

إذا اعتروا باب ذي عُبِّيَّه رجبوا والناس من بين مرجوب ومحجوب

وكلا المعنيين مراد هنا؛ لأن المكذبين بيوم الدين لا يرون الله يوم القيامة حين يراه أهل الإيمان. ٢٠٠/٣٠ـ٢٠١

٦ـ و﴿ يَنظُرُونَ ﴾ في موضع الحال من الأبرار، وحذف مفعول ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ إما لدلالة ما تقدم عليه من قوله في ضدهم: ﴿ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ والتقدير: ينظرون إلى ربهم، وإما لقصد التعميم، أي ينظرون كلَّ ما يبهج نفوسهم، ويسرهم بقرينة مقاعد الوعد والتكريم. ٢٠٥/٣٠

٧ـ **ومرادهم بالضلال**: فساد الرأي؛ لأن المشركين لا يعرفون الضلال الشرعي، أي هؤلاء سيئوا الرأي؛ إذ اتبعوا الإسلام وانسلخوا عن قومهم، وفرَّطوا في نعيم الحياة؛ طمعاً في نعيمٍ بعد الموت، وأقبلوا على الصلاة والتخلق

بالأخلاق التي يراها المشركون أوهاماً وعنتاً؛ لأنهم بمعزل عن مقدرةِ قَدْرِ الكمال النفساني، وما همهم إلا التلذذ الجثماني. ٢١٣/٣٠

٨ـ **ولم يعرج أحد من المفسرين على بيان مفاد جملة:** ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ﴾ مع ما قبلها.

وقال المهايمي في تبصرة الرحمن: وإذا رأوهم يؤثرون الكمالات الحقيقية على الحسية، فقدر مفعولاً محذوفاً لفعل ﴿رَأَوْهُمْ﴾ لإبداء المغايرة بين مضمون هذه الجملة ومضمون الجمل التي قبلها، وقد علمت عدم الاحتياج إليه، ولقد أحسن في التنبيه عليه. ٢١٣/٣٠

سورة الانشقاق

١ـ **سميت في زمن الصحابة (سورة إذا السماء انشقت)** ففي الموطأ عن أبي سلمة: «أن أبا هريرة قرأ بهم إذا السماء انشقت، فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها».

فضمير (فِيهَا) عائد إلى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ بتأويل السورة، وبذلك عنونها البخاري والترمذي، وكذلك سماها في الإتقان.

سماها المفسرون وكُتَّابُ المصاحف (سورة الانشقاق) باعتبار المعنى، كما سميت السورة السابقة (سورة التطفيف) و(سورة انشقت) اختصاراً.

وذكرها الجعبري في نظمه في تعداد المكي والمدني بلفظ (كَدْح) فيحتمل أنه عنى أنه اسم للسورة، ولم أقف على ذلك لغيره.

ولم يذكرها في الإتقان مع السور ذوات الأكثر من اسم.

وهي مكية بالاتفاق.

وقد عدت الثالثة والثمانين في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة الانفطار وقبل سورة الروم.

وعد آيها خمساً وعشرين أهل العدد بالمدينة ومكة والكوفة وعدها أهل البصرة والشام ثلاثاً وعشرين. ٢١٧/٣٠

٢ـ **أغراضها**: ابتدئت بوصفِ أشراطِ الساعةِ، وحلولِ يومِ البعثِ، واختلاف أحوال الخلق يومئذ بين أهل نعيم وأهل شقاء. ٢١٧/٣٠

٣ـ **والانشقاق**: هذا هو الانفطار الذي تقدم في قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ

انفَطَرَتْ ﴾ وهو انشقاق يلوح للناس في جو السماء من جراء اختلال تركيب الكرة الهوائية، أو من ظهور أجرام كوكبية تخرج عن دوائرها المعتادة في الجو الأعلى، فتنشق القبة الهوائية، فهو انشقاق يقع عند اختلال نظام هذا العالم. ٢١٨/٣٠

٤ـ **والأجر غير الممنون**: هو الذي يعطاه صاحبه مع كرامة بحيث لا يعرض له بمنة كما أشار إليه قوله ـتعالى ـ: ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ونحوه مما ذكر فيه مع الجزاء سببه.

والمعنى: أن أجرهم سرور لهم لا تشوبه شائبة كدر؛ فإن المن ينغص الإنعام قال ـتعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى ﴾.

وقال النابغة:

علي لعمرو نعمةٌ بعد نعمةٍ لوالده ليست بذات عقارب

٢٣٥/٣٠

سورة البروج

١ـ **روى أحمد عن أبي هريرة**: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج».

وهذا ظاهر في أنها تسمى (سورة السماء ذات البروج) لأنه لم يحك لفظ القرآن؛ إذ لم يذكر الواو.

وأخرج أحمد ـأيضاًـ عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ في العشاء بالسماوات».

أي السماء ذات البروج، والسماء والطارق؛ فمجمعهما جمع سماء، وهذا يدل على أن اسم السورتين: سورة السماء ذات البروج، سورة السماء والطارق.

وسميت في المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير (سورة البروج).

وهي مكية باتفاق.

ومعدودة السابعة والعشرين في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ وسورة: ﴿التِّينِ﴾.

وآيها اثنتان وعشرون آية. **٢٣٦/٣٠**

٢ـ **من أغراض هذه السورة**: ابتدئت أغراضُ هذه السورةِ بضرب المثل للذين فتنوا المسلمين بمكةَ بأنهم مثلُ قوم فَتَنوا فريقاً ممن آمن بالله؛ فجعلوا أخدوداً من نار؛ لتعذيبهم؛ ليكون المثلُ تثبيتاً للمسلمين، وتصبيراً لهم على أذى المشركين، وتذكيرِهم بما جرى على سلفهم في الإيمان من شدة التعذيب الذي لم ينلهم مثلُه، ولم يصدَّهم ذلك عن دينهم.

وإشعارُ المسلمين بأن قوةَ اللهِ عظيمةٌ؛ فسيلقى المشركون جزاءَ صنيعهم، ويلقى المسلمون النعيم الأبدي والنصر.

والتعريضُ للمسلمين بكرامتهم عند الله ـتعالى ـ.

وضربُ المثلِ بقومِ فرعونَ وثمودَ، وكيف كانت عاقبةُ أمرِهم ما كذبوا الرسل، فحصلت العبرةُ للمشركين في فتنهم المسلمين، وفي تكذيبهم الرسولﷺ والتنويه بشأن القرآن. **٣٠/٢٣٦ـ٢٣٧**

٣ـ **والبروج**: تطلق على علامات من قُبَّةِ الجوِّ يتراءى للناظر أن الشمس تكون في سَمْتِها مدةَ شهر من أشهر السنة الشمسية؛ فالبروج: اسم منقول من اسم البرج بمعنى القصر؛ لأن الشمس تنزله، أو منقول من البرج بمعنى الحصن.

والبرج السماوي يتألف من مجموعة نجوم قريب بعضها من بعض لا تختلف أبعادها أبداً.

وإنما سمي برجاً؛ لأن المصطلحين تخيلوا أن الشمس تَحُلُّ فيه مدةً؛ فهو كالبرج، أي القصر، أو الحصن، ولما وجدوا كل مجموعة منها يخال منها شكل لو أحيط بإطار لخطٍّ مفروض لأشبه محيطها محيط صورة تخيلية لبعض الذوات من حيوان أو نبات أو آلات ـ ميزوا بعض تلك البروج من بعض بإضافته إلى اسم ما تشبهه تلك الصورة تقريباً؛ فقالوا: برج الثور، برج الدلو، برج السنبلة مثلاً.

وهذه البروج هي في التحقيق: سموت تقابلها الشمس في فلكها مدة شهر كامل من أشهر السنة الشمسية يوقتون بها الأشهر والفصول بموقع الشمس نهاراً في المكان الذي تطلع فيه نجوم تلك البروج ليلاً، وقد تقدم عند قوله ـتعالى ـ: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً ﴾ في سورة الفرقان. **٣٠/٢٣٨**

٤ـ **والروايات كلها تقتضي أن المفتونين بالأخدود** قوم اتبعوا النصرانية في بلاد اليمن على أكثر الروايات، أو في بلاد الحبشة على بعض الروايات، وذكرت فيها روايات متقاربة تختلف بالإجمال والتفصيل، والترتيب، والزيادة، والتعيين.

وأصحها ما رواه مسلم والترمذي عن صهيب أن النبيﷺ قص هذه القصة على أصحابه.

وليس فيما روي تصريح بأن النبيﷺ ساقها تفسيراً لهذه الآيةِ، والترمذيُّ ساق حديثها في تفسير سورة البروج.

وعن مقاتل كان الذين اتخذوا الأخاديد في ثلاث من البلاد في نجران، وبالشام، وبفارس.

أما الذين بالشام فـ(انطانيوس) الرومي، وأما الذي بفارق[1] فهو (بختنصر)، والذي بنجران فـ(يوسف ذو نواس).

ولنذكر القصة التي أشار إليها القرآن تؤخذ من سيرة ابن إسحاق على أنها جرت في نجران من بلاد اليمن، وأنه كان ملك وهو ذو نواس له كاهن أو ساحر، وكان للساحر تلميذ اسمه عبدالله بن الثامر، وكان يجد في طريقه إذا مشى إلى الكاهن صومعة فيها راهب كان يعبد الله على دين عيسى ـعليه السلامـ ويقرأ الإنجيل اسمه (فيميون) بفاء، فتحتية، فميم، فتحتية وضبط في الطبعة الأوربية من سيرة ابن إسحاق ـالتي يلوح أن أصلها المطبوعة عليه أصل صحيحـ بفتح فسكون فكسر فضم.

قال السهيلي: ووقع للطبري للقاف عوض الفاء، وقد يحرف، فيقال: ميمون

١ـ هكذا في الأصل، والصواب بـ: فارس. (م).

بميم في أوله وبتحتية واحدة أصله من غسان من الشام، ثم ساح، فاستقر بنجران، وكان منعزلاً عن الناس مختفياً في صومعته، وظهرت لعبدالله في قومه كرامات، وكانت كلما ظهرت له كرامة دعا من ظهرت لهم إلى أن يتبعوا النصرانية؛ فكثر المتنصرون في نجران، وبلغ ذلك الملك ذا نواس وكان يهودياً، وكان أهل نجران مشركين يعبدون نخلة طويلة، فقتل الملك الغلام، وقتل الراهب، وأمر بأخاديد وجمع فيها حطب وأشعلت، وعرض أهل نجران عليها، فمن رجع عن التوحيد تركه، ومن ثبت على الدين الحق قذفه في النار.

فكان أصحاب الأخدود ممن عذب من أهل دين المسيحية في بلاد العرب، وقصص الأخاديد كثيرة في التاريخِ، والتعذيبُ بالحرق طريقةٌ قديمة، ومنها: نار إبراهيم -عليه السلام-.

وأما تحريق عمرو بن هند مائة من بني تميم، وتلقيبه بالمحرِّق - فلا أعرف أن ذلك كان باتخاذ أخدود.

وقال ابن عطية: «رأيت في بعض الكتب أن أصحاب الأخدود هو محرق وآله الذي حرق من بني تميم مائة». **٣٠/٢٤١-٢٤٢**

٥- **والأخدود**: بوزن أفعول وهو صيغة قليلة الدوران غير مقيسة، ومنها قولهم: أفحوص مشتق من فحصت القطاة والدجاجة إذا بحثت في التراب موضعاً تبيض فيه، وقولهم أسلوب اسم لطريقة، ولِسَطْر النخل، وأقنوم اسم لأصل الشيء.

وقد يكون هذا الوزنُ مع هاء تأنيثٍ مثل أكرومة، وأعجوبة، وأطروحة، وأضحوكة. **٣٠/٢٤٢**

٦ـ **والذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات**: هم مشركو قريش، وليس المراد أصحاب الأخدود؛ لأنه لا يلاقي قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ إذ هو تعريض بالترغيب في التوبة، ولا يلاقي دخول الفاء في خبر ﴿إِنَّ﴾ من قوله: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ كما سيأتي.

وقد عُدَّ من الذين فتنوا المؤمنين أبو جهل رأس الفتنة ومُسْعِرُها، وأميةُ ابن خلف، وصفوان بن أمية، والأسود بن عبديغوث، والوليد بن المغيرة، وأم أنمار، ورجل من بني تيم.

والمفتونون: عد منهم بلال بن رباح كان عبداً لأمية بن خلف، فكان يعذبه، وأبو فكيهة كان عبداً لصفوان بن أمية، وخباب بن الأرت كان عبداً لأم أنمار، وعمار بن ياسر، وأبوه ياسر، وأخوه عبدالله كانوا عبيداً لأبي حذيفة بن المغيرة؛ فوكَّل بهم أبا جهل، وعامر بن فهيرة كان عبداً لرجل من بني تيم.

والمؤمنات المفتونات منهن: حمامة أم بلال أمة أمية بن خلف، وزنيرة، وأم عنيس كانت أمة للأسود بن عبديغوث، والنهدية وابنتها كانتا للوليد بن المغيرة، ولطيفة، ولبينة بنت فهيرة كانت لعمر بن الخطاب قبل أن يسلم كان عمر يضربها، وسمية أم عمار بن ياسر كانت لعم أبي جهل.

وفتن ورجع إلى الشرك الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد ابن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن المنبه بن الحجاج.

وعطف ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ للتنويه بشأنهن؛ لئلا يظن أن هذه المزية خاصة بالرجال، ولزيادة تفظيع فعل الفاتنين بأنهم اعتدوا على النساءِ، والشأنُ أن لا يتعرض لهن بالغلظة. ٣٠/٢٤٥ـ٢٤٦

٧ـ **وضرب المثل بفرعون لأبي جهل**، وكان يلقب عند المسلمين بفرعون هذه الأمة، وضرب المثل للمشركين بقوم فرعون؛ لأنهم أكبر أمة تألَّبت على رسول من رسل الله بعثه الله لإعتاق بني إسرائيل من ذل العبودية لفرعون، وناووه؛ لأنه دعا إلى عبادة الرب الحق؛ فغاظ ذلك فرعون الزاعم أنه إله القبط، وابن آلهتهم. ٢٥١/٣٠

سورة الطارق

١ـ روى أحمد بن حنبل عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والطارق» اهـ.

فسماها أبو هريرة (السماء والطارق) لأن الأظهر أن الواو من قوله والسماء والطارق واو العطف، ولذلك لم يذكر لفظ الآية الأولى منها، بل أخذ لها اسماً من لفظ الآية كما قال في (السماء ذات البروج).

وسميت في كتب التفسير، وكتب السنة، وفي المصاحف (سورة الطارق) لوقوع هذا اللفظ في أولها.

وفي تفسير الطبري وأحكام ابن العربي ترجمت سورة (والسماء والطارق).

وهي سبع عشرة آية.

وهي مكية بالاتفاق نزلت قبل سنة عشر من البعثة، أخرج أحمد بن حنبل عن خالد بن أبي جبل العدواني أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، فسمعته يقول: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ حتى ختمها قال: «فوعيتها في الجاهلية ثم قرأتها في الإسلام» الحديث.

وعددها في ترتيب نزول السور السادسة والثلاثين، نزلت بعد سورة: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وقبل سورة: ﴿اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ﴾. **٢٥٧/٣٠**

٢ـ أغراضها: إثباتُ إحصاءِ الأعمال، والجزاءِ على الأعمال.

وإثباتُ إمكانِ البعثِ بنقض ما أحاله المشركون ببيان إمكانِ إعادةِ الأجسام.

وأدمج في ذلك التذكيرُ بدقيق صنعِ الله وحكمتِه في خلق الإنسان.

والتنويهُ بشأن القرآن.

وصدقُ ما ذُكِرَ فيه من البعث؛ لأن إخبارَ القرآنِ به لَّما استبعدوه، وموهوا على الناس بأن ما فيه غير صدق، وتهديد المشركين الذين ناووا المسلمين.

وتثبيتُ النبيﷺ وَوَعْدُه بأن اللهَ منتصرٌ له غير بعيد. ٣٠/٢٥٧ـ٢٥٨

٣ـ **والصُّلب**: العمود العظمي الكائن في وسط الظهر، وهو ذو الفقرات.

والترائب: جمع تريبة، ويقال: تريب، ومحررُ أقوال اللغويين فيها أنها عظام الصدر التي بين الترقوتين والثديين ووسموه بأنه موضع القلادة من المرأة.

والترائب تضاف إلى الرجل وإلى المرأة، ولكن أكثر وقوعها في كلامهم في أوصاف النساء؛ لعدم احتياجهم إلى وصفها في الرجال.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ الضمير عائد إلى: ﴿مَاءٍ دَافِقٍ﴾ وهو المتبادر؛ فتكون جملة يخرج حالاً من ﴿مَاءٍ دَافِقٍ﴾ أي يمر ذلك الماء بعد أن يُفْرَزَ من بين صلب الرجل وترائبه.

وبهذا قال سفيان والحسن، أي أن أصلَ تَكَوُّنِ ذلك الماء وتنقله من بين الصلب والترائب، وليس المعنى أنه يمر بين الصلب والترائب؛ إذ لا يتصور مر بين الصلب والترائب؛ لأن الذي بينهما هو ما يحويه باطن الصدر والضلوع من قلب ورئتين.

فجعل الإنسان مخلوقاً من ماء الرجل؛ لأنه لا يتكون جسم الإنسان في رحم المرأة إلا بعد أن يخالطها ماء الرجل؛ فإذا اختلط ماء الرجل بما يسمى ماء المرأة وهو شيء رطب كالماء يحتوي على بويضات دقيقة يثبت منها ما يتكوَّن منه

الجنين، ويطرح ما عداه.

وهذا مخاطبةٌ للناس بما يعرفون يومئذ بكلامٍ مجملٍ مع التنبيه على أن خلق الإنسان من ماء الرجل وماء المرأة بذكر الترائب؛ لأن الأشهر أنها لا تطلق إلا على ما بين ثديي المرأة.

ولا شك أن النسلَ يتكون من الرجل والمرأة، فيتكون من ماء الرجل وهو سائل فيه أجسام صغيرة تسمى في الطب الحيوانات المنوية، وهي خيوط مستطيلة مؤلفة من طرف مُسَطَّح بيضوي الشكل، وذنب دقيق كخيط، وهذه الخيوط يكون منها تلقيح النسل في رحم المرأة، ومقرها الأنثيان، وهما الخصيتان فيندفع إلى رحم المرأة.

ومن ماء هو للمرأة كالمني للرجل، ويسمى ماء المرأة، وهو بويضات دقيقة كروية الشكل تكون في سائل مقره حويصلة من حويصلات يشتمل عليها مبيضان للمرأة، وهما بمنزلة الأنثيين للرجل؛ فهما غدتان تكونان في جانبي رحم المرأة، وكل مبيض يشتمل على عدد من الحويصلات يتراوح من عشر إلى عشرين.

وخروج البيضة من الحويصلة يكون عند انتهاء نمو الحويصلة، فإذا انتهى نموها انفجرت، فخرجت البيضة في قناة تبلغ بها إلى تجويف الرحم، وإنما يتم بلوغ البيضة النمو وخروجها من الحويصلة في وقت حيض المرأة؛ فلذلك يكثر العلوق إذا باشر الرجل المرأة بقرب انتهاء حيضها.

وأصل مادة كلا الماءين مادة دموية تنفصل عن الدماغ، وتنزل في عرقين خلف الأذنين، فأما في الرجل فيتصل العرقان بالنخاع، وهو الصلب، ثم ينتهي إلى

عرق ما يسمى الحبل المنوي مؤلف من شرايين وأوردة وأعصاب، وينتهي إلى الانثيين، وهما الغدتان اللتان تفرزان المني، فيتكون هنالك بكيفية دهنية، وتبقى منتشرة في الأنثيين إلى أن تفرزها الأنثيان مادة دهنية شحمية، وذلك عند دغدغة ولذع القضيب المتصل بالأنثيين، فيندفق في رحم المرأة.

وأما بالنسبة إلى المرأة فالعرقان اللذان خلف الأذنين يمران بأعلى صدر المرأة وهو الترائب؛ لأن فيه موضع الثديين وهما من الأعضاء المتصلة بالعروق التي يسير فيها دم الحيض الحامل للبويضات التي منها النسل.

والحيض يسيل من فوهات عروق في الرحم، وهي عروق تنفتح عند حلول إبَّان المحيض، وتنقبض عقب الطهر، والرحم يأتيها عصب من الدماغ.

وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن الذي لم يكن علم به للذين نزل بينهم، وهو إشارة مجملة، وقد بينها حديث مسلم عن أم سلمة وعائشة: «أن رسول الله ﷺ سئل عن احتلام المرأة، فقال: تغتسل إذا أبصرت الماء فقيل له: أترى المرأة ذلك فقال: «وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك إذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه». **٣٠/٢٦٣-٢٦٤**

سورة الأعلى

١ـ هذه السورة وردت تسميتها في السنة سورة: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ ففي الصحيحين عن جابر بن عبدالله قال: «قام معاذ فصلى العشاء الآخرة، فطوَّل، فشكاه بعض من صلى خلفه إلى النبيﷺ فقال النبي: «**أفتان أنت يا معاذ أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى، والضحى**» اهـ.

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب قال: «ما جاء رسول اللهﷺ المدينة حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى» في سور مثلها.

وروى الترمذي عن النعمان بن بشير: «أن رسول اللهﷺ كان يقرأ في العيد ويوم الجمعة سبح اسم ربك الأعلى، وهل أتاك حديث الغاشية».

وسمتها عائشة (سبح) روى أبو داود والترمذي عنها: «**كان النبي يقرأ في الوتر في الركعة الأولى سبح**» الحديث.

فهذا ظاهر في أنها أرادت التسمية؛ لأنها لم تأتِ بالجملة القرآنية كاملة، وكذلك سماها البيضاوي وابن كثير؛ لأنها اختصت بالافتتاح بكلمة (سَبِّحْ) بصيغة الأمر.

وسماها أكثر المفسرين، وكتَّابُ المصاحف (سورة الأعلى) لوقوع صفة الأعلى فيها دون غيرها.

وهي مكية في قول الجمهور، وحديث البراء بن عازب الذي ذكرناه آنفاً يدل عليه، وعن ابن عمر وابن عباس أن قوله ـتعالىـ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ نزل في صلاة العيد وصدقة الفطر، أي فهما مدنيتان؛

فتكون السورة بعضها مكي، وبعضها مدني.

وعن الضحاك أن السورة كلها مدنية.

وما اشتملت عليه من المعاني يشهد لكونها مكية، وحسبك بقوله -تعالى-: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى﴾.

وهي معدودة ثامنة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة التكوير، وقبل سورة الليل.

وروي عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن أنها سابعة قالوا: أول ما نزل من القرآن: اقرأ باسم ربك، ثم ن، ثم المزمل، ثم المدثر، ثم تبت، ثم إذا الشمس كورت، ثم سبح اسم ربك.

وأما جابر بن زيد فعد الفاتحة بعد المدثر، ثم عدَّ البقية؛ فهي عنده ثامنة؛ فهي من أوائل السور وقوله -تعالى-: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى﴾ ينادي على ذلك.

وعدد آيها تسع عشرة آية باتفاق أهل العدد. ٢٧١/٣٠-٢٧٢

٢- **أغراضها**: اشتملت على تنزيه الله -تعالى- والإشارةُ إلى وحدانيته؛ لانفراده بخلق الإنسان، وخلقِ ما في الأرض مما فيه بقاؤه.

وعلى تأييد النبيﷺ وتثبيته على تلقي الوحي.

وأن اللهَ معطيه شريعةً سمحةً، وكتاباً يتذكر به أهلُ النفوسِ الزكيةِ الذين يخشون ربَّهم، ويُعْرِضُ عنهم أهلُ الشقاوةِ الذين يؤثرون الحياة الدنيا، ولا يعبأون بالحياة الأبدية.

وأن ما أوحي إليه يصدِّقه ما في كتب الرسل من قبله، وذلك كلُّه تهوين لما يلقاه من إعراض المشركين. ٢٧٢/٣٠

٣ـ ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى ﴾ بعد أن ثبَّت الله رسولهﷺ تكفل له ما أزال فَرَقَهُ من أعباء الرسالة ، وما اطمأنت به نفسه من دفع ما خافه من ضعف عن أدائه الرسالةَ على وجهها ، وتكفَّل له دفْعَ نسيانِ ما يُوحَى إليه إلا ما كان إنساؤه مراداً لله ـتعالى ـ ووعده بأنه وفَّقَهُ وهيَّأه لذلك ، ويسَّره عليه؛ إذ كان الرسولﷺ وهو في مبدأ عهده بالرسالة ـ إذ كانت هذه السورة ثامنة السور ـ لا يعلم ما سيتعهد الله به ، فيخشى أن يقصر عن مراد الله؛ فيلحقه غضب منه أو ملام.

أعقب ذلك بأن أمره بالتذكير، أي التبليغ ، أي بالاستمرار عليه؛ إرهافاً لعزمه ، وشحذاً لنشاطه؛ ليكون إقباله على التذكير بشراشره؛ فإن امتثال الأمر إذا عاضده إقبالُ النفس على فعل المأمور به كان فيه مسرة للمأمور؛ فجمع بين أداء الواجب ، وإرضاء الخاطر. ٣٠/٢٨٣ـ٢٨٤

سورة الغاشية

١ـ **سميت في المصاحف والتفاسير** (سورة الغاشية) وكذلك عنونها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه؛ لوقوع لفظ (الْغَاشِيَةِ) في أولها.

وثبت في السنة تسميتها: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ففي الموطأ أن الضحاك ابن قيس سأل النعمان بن بشير: «بم كان رسول الله يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: هل أتاك حديث الغاشية».

وهذا ظاهر في التسمية؛ لأن السائل سأل عما يقرأ مع سورة الجمعة، فالمسؤول عنه السورة الثانية، وبذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه.

وربما سميت (سورة هل أتاك) بدون كلمة (حديث الغاشية).

وبذلك عنونها ابن عطية في تفسيره وهو اختصار.

وهي مكية بالاتفاق، وهي معدودة السابعة والستين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الذاريات وقبل سورة الكهف.

وآياتها ست وعشرون. **٢٩٣/٣٠**

٢ـ أغراضها: اشتملت هذه السورة على تهويلِ يومِ القيامة، وما فيه من عقاب قوم مشوهةٍ حالتُهم، ومن ثواب قومٍ ناعمةٍ حالتُهم، وعلى وجه الإجمال المرهِّب أو المرغِّب.

والإيماءِ إلى ما يبين ذلك الإجمالَ كلَّه بالإنكار على قوم لم يهتدوا بدلالة مخلوقات من خلق الله ـوهي نُصْبَ أعينهمـ على تفرده بالإلهية؛ فيعلم

السامعون أن الفريق المهدد هم المشركون.

وعلى إمكان إعادته بعض مخلوقاته خلقاً جديداً بعد الموت يوم البعث.

وتثبيت النبيﷺ على الدعوة إلى الإسلام، وأن لا يعبأ بإعراضهم.

وأن وراءهم البعثَ؛ فهم راجعون إلى الله، فهو مجازيهم على كفرهم، وإعراضهم. ٣٠/٢٩٣-٢٩٤

سورة الفجر

١ـ **لم يختلف في تسمية هذه السورة** (سورة الفجر) بدون الواو في المصاحف، والتفاسير، وكتب السنة.

وهي مكية باتفاق سوى ما حكى ابن عطية عن أبي عمرو الداني أنه حكى عن بعض العلماء أنها مدنية.

وقد عُدَّتِ العاشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الليل، وقبل سورة الضحى.

وعدد آيها اثنتان وثلاثون عند أهل العدد بالمدينة، ومكة عدوا قوله: ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ منتهى آية، وقوله: ﴿رِزْقَهُ﴾ منتهى آية.

ولم يعدها غيرهم منتهى آية، وهي ثلاثون عند أهل العدد بالكوفة والشام، وعند أهل البصرة تسع وعشرون.

فأهل الشام عدوا: ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ منتهى آية، وأهل الكوفة عدوا: ﴿فِي عِبَادِي﴾ منتهى آية. ٣١١/٣٠

٢ـ **أغراضها**: حَوَتْ من الأغراضِ ضربَ المثلِ لمشركي أهل مكة في إعراضهم عن قبول رسالة ربهم بمثل عادٍ وثمودَ وقومِ فرعونَ.

وإنذارُهم بعذاب الآخرة، وتثبيتُ النبيﷺ مع وعده باضمحلال أعدائه.

وإبطالُ غرورِ المشركين من أهل مكة؛ إذ يحسبون أن ما هم فيه من النعيم علامةٌ على أن الله أكرمهم، وأن ما فيه المؤمنون من الخصاصة علامةٌ على أن الله أهانهم.

وأنهم أضاعوا شكرَ الله على النعمة؛ فلم يواسوا ببعضها الضعفاء، وما

زادتهم إلا حرصاً على التكثر منها.

وأنهم يندمون يوم القيامة على أن لم يقدموا لأنفسهم من الأعمال ما ينتفعون به يوم لا ينفع نفساً مالُها ولا ينفعها إلا إيمانها، وتصديقها بوعد ربها؛ وذلك ينفع المؤمنين بمصيرهم إلى الجنة. ٣١١/٣٠-٣١٢

٣- ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ﴾.

والمعنى: هذا شأن ربك الجاري على وفق علمه وحكمته.

فأما الإنسان الكافر فيتوهم خلاف ذلك؛ إذ يحسب أن ما يناله من نعمة وسعة في الدنيا تكريماً من الله له، وما يناله من ضيق عيش إهانة أهانه الله بها.

وهذا التوهم يستلزم ظنهم أفعال الله -تعالى- جارية على غير حكمة، قال -تعالى-: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

فأعلم الله رسولهﷺ والمؤمنين بالحقيقة الحق ونبههم لتجنب تخليط الدلائل الدقيقة السامية، وتجنب تحكيم الواهمة والشاهية، وذكرهم بأن الأحوال الدنيوية أعراض زائلة ومتفاوتة الطول والقصر.

وفي ذلك كله إبطال لمعتقد أهل الشرك وضلالهم الذي كان غالباً على أهل الجاهلية؛ ولذلك قال النابغة في آل غسان الذين لم يكونوا مشركين، وكانوا متدينين بالنصرانية:

مجلتهم ذاتُ الإلهِ ودينُهم ... قويمٌ فما يرجون غيرَ العواقب

ولا يحسبون الخيرَ لا شرَّ بعده ولا يحسبون الشرَّ ضربةَ لازبِ

وقد أعقب الله ذلك بالردع والإبطال بقوله: ﴿كَلاَّ﴾ فمناط الردع والإبطال كلا القولين؛ لأنهما صادران عن تأويل باطل، وشبهة ضالة كما ستعرفه عند قوله -تعالى-: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾.

واقتصار الآية على تقتير الرزق في مقابلة النعمة دون غير ذلك من العلل والآفات؛ لأن غالب أحوال المشركين المتحدث عنهم صحة المزاج وقوة الأبدان؛ فلا يهلكون إلا بقتل أو هرم فيهم، وفي ذويهم قال النابغة:

غشى متالف لا ينظرنك الهرما

ولم يعرج أكثر المفسرين على بيان نظم الآية واتصالها بما قبلها عدا الزمخشري وابن عطية.

وقد عرف هذا الاعتقاد الضال من كلام أهل الجاهلية، قال طرفة:

فلو شاء ربي كنت قيس بن عاصم[1] ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

فأصبحت ذا مال كثير وطاف بي بنون كرام سادة لمسود

وجعلوا هذا الغرور مقياساً لمراتب الناس، فجعلوا أصحاب الكمال أهل المظاهر الفاخرة، ووصموا بالنقص أهل الخصاصة وضعفاء الناس؛ لذلك لما أتى الملأ من قريش ومن بني تميم وفزارة للنبيﷺ وعنده عمار، وبلال، وخباب، وسالم مولى أبي حذيفة، وصبيح مولى أسيد، وصهيب، في أناس آخرين من ضعفاء المؤمنين قالوا للنبي: «أطردهم عنك؛ فلعلك إن طردتهم أن نتبعك».

---

١ ـ هكذا في الأصل، والصواب:

.... قيس بن خالد (م)

وقالوا لأبي طالب: «لو أن ابنَ أخيك طرد هؤلاء الأعبدَ والحلفاءَ كان أعظم له في صدورنا، وأدلى لاتباعنا إياه».

وفي ذلك نزل قوله ـتعالىـ: ﴿وَلا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية كما تقدم في سورة الأنعام.

فنبه الله على خطأ اعتقادهم بمناسبة ذكر مماثله مما اعتقده الأمم قبلهم الذي كان موجباً صَبَّ العذاب عليهم، وأعلمهم أن أحوال الدنيا لاتتخذ أصلاً في اعتبار الجزاء على العمل، وأن الجزاء المطَّرد هو جزاء يوم القيامة. ٣٠/٣٢٥ـ٣٢٦

٤ـ واعلم أن من ضلال أهل الشرك، ومن فتنة الشيطان لبعض جهلة المؤمنين أن يخيل إليهم ما يحصل لأحد بجعل الله من ارتباط المسببات بأسبابها، والمعلولات بعللها؛ فيضعوا ما يصادف نفعَ أحدِهم من الحوادث موضعَ كرامةٍ من الله للذي صادفته منافع ذلك؛ تحكيماً للشاهية، ومحبة النفس، ورجماً بالغيب، وافتياتاً على الله.

وإذا صادف أحدهم من الحوادث ما جلب له ضراً تخيَّله بأوهامه انتقاماً من الله قصده به؛ تشاؤماً منهم.

فهؤلاء الذين زعموا ما نالهم من نعمة الله إكراماً من الله لهم ليسوا أهلاً لكرامة الله.

وهؤلاء الذين توهموا ما صادفهم من فتور الرزق إهانة من الله لهم ليسوا بأحط عند الله من الذين زعموا أن الله أكرمهم بما هم فيه من نعمة.

فذلك الاعتقاد أوجب تغلغل أهل الشرك في إشراكهم، وصرف أنظارهم عن التدبر فيما يخالف ذلك، وربما جرت الوساوس الشيطانية فتنة من ذلك لبعض

ضعفاء الإيمان، وقصار الأنظار والجهال بالعقيدة الحق كما أفصح أحمد ابن الراوندي[١] عن تزلزل فهمهم، وقلة علمه بقوله:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأفهام حائرة ... وصيَّر العالم النحرير زنديقا

وذلك ما صرف الضالين عن تطلب الحقائق من دلائلها، وصرفهم عن التدبر فيما ينيل صاحبه رضى الله وما يوقع في غضبه.

وعِلْمُ اللهِ واسعُ، وتصرفاته شتى، وكلها صادرة عن حكمة ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾.

فقد يأتي الضر للعبد من عدة أسباب، وقد يأتي النفع من أخرى، وبعض ذلك جار في الظاهر على المعتاد، ومنه ما فيه سِمَةُ خرقِ العادة، فربما أتت الرزايا من وجوه الفوائد، والموفق يتيقظ للأمارات.

قال ـتعالىـ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ وقال: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

١ـ هو أحمد بن يحيى أبو الحسين ابن الراوندي بواو مفتوحة ثم نون ساكنة نسبة إلى راوند قرية من قرى قاسان بنواحي أصبهان، كان من المعتزلة ثم صار ملحداً توفي سنة خمسين ومائتين، وقيل: سنة خمس وأربعين، وقيل: سنة ثمان وتسعين.

وتصرفات الله متشابهة بعضها يدل على مراده من الناس، وبعضها جارٍ على ما قدره من نظام العالم.

وكل قد قضاه وقدره، وسبق علمه به، وربط مسبباته بأسبابه مباشرة أو بواسطة أو وسائط.

والمتبصر يأخذ بالحيطة لنفسه وقومه، ولا يقول على الله ما يمليه عليه وهْمُهُ، ولم تنهض دلائله، ويفوض ما أشكل عليه إلى علم الله.

وليس مثل هذا المحكي عنهم من شأن المسلمين المهتدين بهدي النبيﷺ والمتبصرين في مجاري التصرفات الربانية.

وقد نجد في بعض العوام ومن يشبههم من الغافلين بقايا من اعتقاد أهل الجاهلية لإيجاد التخيلات التي تمليها على عقولهم؛ فالواجب عليهم أن يتعظوا بموعظة الله في هذه الآية.

لا جرم أن الله قد يعجل جزاء الخير لبعض الصالحين من عباده كما قال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾.

وقد يعجل العقاب لمن يغضب عليه من عباده، وقد حكي عن نوح قوله لقومه: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ وقال ـتعالىـ: ﴿ وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً ﴾.

ولهذه المعاملة علامات أظهرها أن تجري على خلاف المألوف كما نرى في نصر النبيﷺ والخلفاء على الأمم العظيمة القاهرة، وتلك مواعيد من الله يحققها، أو وعيد منه يحيق بمستحقيه. ٣٠/٣٢٧ـ٣٢٨

سورة البلد

١ـ **سميت هذه السورة** في ترجمتها عن صحيح البخاري (سورة لا أقسم) وسميت في المصاحف وكتب التفسير (سورة البلد).

وهو إما على حكاية اللفظ الواقع في أولها، وإما لإرادة البلد المعروف وهو مكة.

وهي مكية، وحكى الزمخشري والقرطبي الاتفاق عليه، واقتصر عليه معظم المفسرين، وحكى ابن عطية عن قوم: أنها مدنية.

ولعل هذا قول مَنْ فسر قوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أن الحلَّ الإذنُ له في القتال يوم الفتح، وحمل ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ على معنى: وأنت الآن حل، وهو يرجع إلى ما روى القرطبي عن السدي وأبي صالح، وعُزِي لابن عباس.

وقد أشار في الكشاف إلى إبطاله بأن السورة نزلت بمكة بالاتفاق، وفي رده بذلك مصادرة؛ فالوجه أن يورد بأن في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ضمائر غيبة يتعين عودها إلى الإنسان في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ وإلا لخلت الضمائر عن معاد.

وحكى في الإتقان قولاً أنها مدنية إلا الآيات الأربع من أولها.

وقد عدت الخامسة والثلاثين في عدد نزول السور، نزلت بعد سورة ق وقبل سورة الطارق.

وعدد آيها عشرون آية. ٣٤٥/٣٠

٢ـ أغراضها: حوتْ من الأغراضِ التنويهَ بمكةَ، وبمُقامِ النبيﷺ بها، وبركتِه

فيها وعلى أهلها.

والتنويهَ بأسلاف النبيﷺ من سكانها الذين كانوا من الأنبياء مثلِ إبراهيم وإسماعيل، أو من أتباع الحنيفية مثل عدنان ومضر.

والتخلصَ إلى ذمِّ سيرةِ أهل الشرك، وإنكارهم البعث، وما كانوا عليه من التفاخرِ المُبَالَغِ فيه، وما أهملوه من شُكْرِ النعمة على الحواس، ونعمةِ النطق، ونعمةِ الفكر، ونعمةِ الإرشاد؛ فلم يشكروا ذلك بالبذل في سبل الخير وما فرطوا فيه من خصال الإيمان وأخلاقه.

ووعيدَ الكافرين، وبشارةُ الموقنين. ٣٠/٣٤٥ـ٣٤٦

٣ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ﴾ تعليل للإنكار والتوبيخ في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أو قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أي هو غافل عن قدرة الله ـتعالى- وعن علمه المحيط بجميع الكائنات الدال عليهما أنه خلق مشاعر الإدراك التي منها العينان، وخلق آلات الإبانة وهي اللسان والشفتان، فكيف يكون مفيض العلم على الناس غير قادر وغير عالم بأحوالهم قال ـتعالى-: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾؟.

والاستفهام يجوز أن يكون تقريرياً، وأن يكون إنكارياً.

والاقتصار على العينين؛ لأنهما أنفع المشاعر، ولأن المعلل إنكار ظنه إن لم يره أحد، وذكر الشفتين مع اللسان؛ لأن الإبانة تحصل بهما معاً؛ فلا ينطق اللسان بدون الشفتين، ولا تنطق الشفتان بدون اللسان.

ومن دقائق القرآن أنه لم يقتصر على اللسان، ولا على الشفتين خلاف عادة كلام العرب أن يقتصروا عليه يقولون: ينطق بلسان فصيح، ويقولون: لم ينطق

بنت شفة، أو لم ينبس ببنت شفة؛ لأن المقام مقام استدلال؛ فجيء فيه بما له مزيد تصوير لخلق آلة النطق.

وأعقب ما به اكتساب العلم، وما به الإبانة عن المعلومات بما يرشد الفكر إلى النظر والبحث، وذلك قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

فاستكمل الكلام أصول التعلم والتعليم؛ فإن الإنسان خلق محباً للمعرفة محباً للتعريف بمشاعر الإدراك، يكتسب المشاهدات، وهي أصول المعلومات اليقينية، وبالنطق يفيد ما يَعْلَمه لغيره، وبالهدي إلى الخير والشر يميز بين معلوماته، ويمحصها. ٣٠/٣٥٣ـ٣٥٤

٤ـ ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠)﴾.

لما نوه بالذين آمنوا أعقب التنويه بالثناء عليهم، وبشارتهم مفتتحاً باسم الإشارة؛ لتميزهم أكمل تمييز لإحضارهم بصفاتهم في ذهن السامع مع ما في اسم الإشارة من إرادة التنويه والتعظيم.

والميمنة جهة اليمين، فهي مفعلة للمكان مأخوذة من فعل يَمَنَهُ (فعلاً ماضياً) إذا كان على يمينه، أي على جهة يده اليمنى، أو مأخوذة من يمنه الله يمناً، إذا باركه.

وإحدى المادتين مأخوذة من الأخرى، قيل: سميت اليد اليمنى يميناً، ويمنى؛ لأنها أعود نفعاً على صاحبها في يسر أعماله؛ ولذلك سمي بلاد اليمن يمناً؛ لأنها عن جهة يمين الواقف مستقبلاً الكعبة من بابها، لأن باب الكعبة شرقي؛ فالجهة التي على يمين الداخل إلى الكعبة هي الجنوب وهي جهة بلاد اليمن، وكانت

بلاد اليمن مشهورة بالخيرات؛ فهي ميمونة، وكان جغرافيو اليونان يصفونها بالعربية السعيدة.

وتفرع على ذلك اعتبارهم ما جاء عن اليمين من الوحش والطير مبشراً بالخير في عقيدة أهل الزجر والعيافة؛ فالأيامن الميمونة، قال المرقش يُفَنِّد ذلك:

فـــإذا الأشـــائم كـــالأيا مـــن والأيـــامن كالأشـــائم

ونشأ على اعتبار عكس ذلك تسمية بلاد الشام شأماً بالهمز مشتقة من الشؤم؛ لأن بلاد الشام من جهة شمال الداخل إلى الكعبة.

وقد أبطل الإسلام ذلك بقول النبيﷺ: «**اللهم بارك لنا في شأمنا وفي يمننا**».

وما تسميتهم ضد اليد اليمنى يساراً إلا لإبطال ما يتوهم من الشؤم فيها.

ولما كانت جهة اليمين جهة مكرمة تعارفوا الجلوس على اليمين في المجامع؛ كرامةً للجالس، وجعلوا ضدهم بعكس ذلك.

وقد أبطله الإسلام، فكان الناس يجلسون حين انتهى بهم المجلس.

وسمي أهل الجنة ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ و﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وسمي أهل النار ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ و﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ في سورة الواقعة، فقوله: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي أصحاب الكرامة عند الله.

وقوله: ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي هم محقَّرون، وذلك كناية مبنية على عرف العرب يومئذ في مجالسهم، ولا ميمنة ولا مشأمة على الحقيقة؛ لأن حقيقة الميمنة والمشأمة تقتضيان حيزاً لمن تنسب إليه الجهة. ٣٠/٣٦٢-٣٦٣

سورة الشمس

١ـ **سميت هذه السورة** في المصاحف وفي معظم كتب التفسير (سورة الشمس) بدون واو، وكذلك عنونها الترمذي في جامعه بدون واو في نسخ صحيحة من جامع الترمذي، ومن عارضة الأحوذي لابن العربي.

وعنونها البخاري سورة (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) بحكاية لفظ الآية، وكذلك سميت في بعض التفاسير وهو أولى أسمائها؛ لئلا تلتبس على القارئ بسورة إذا الشمس كورت المسماة سورة التكوير.

ولم يذكرها في الإتقان مع السور التي لها أكثر من اسم.

وهي مكية بالاتفاق.

وعُدَّت السادسة والعشرين في عدد نزول السور، نزلت بعد سورة القدر، وقبل سورة البروج.

وآياتها خمس عشرة آية في عدد جمهور الأمصار، وعدَّها أهل مكة ست عشرة آية. ٣٦٥/٣٠

٢ـ **أغراضها**: تهديدُ المشركين بأنهم يُوشِكُ أن يصيبهم عذابٌ بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمدﷺ كما أصاب ثمودَ بإشراكهم وعتوِّهم على رسول الله إليهم الذي دعاهم إلى التوحيد.

وقُدِّم لذلك تأكيدُ الخبر بالقسم بأشياءَ معظمةٍ، وذُكِرَ منْ أحوالها ما هو دليل على بديع صنع الله ـتعالىـ الذي لا يشاركه فيه غيرُه؛ فهو دليلٌ على أنه المنفردُ بالإلهية، والذي لا يستحق غيرُه الإلهية.

وخاصةُ أحوالِ النفوسِ ومراتبها في مسالك الهدى والضلال، والسعادة والشقاء. ٣٠/٣٦٥ـ٣٦٦

٣ـ **وفي الآية إشارة إلى أن نور القمر مستفاد من نور الشمس**، أي من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر، وليس نيراً بذاته، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن، وهو مما أشرت إليه في المقدمة العاشرة. ٣٠/٣٦٧

٤ـ **وابتدئ بالشمس**؛ لمناسبة المقام؛ إيماءً للتنويه بالإسلام، لأن هديه كنور الشمس لا يترك للضلال مسلكاً.

وفيه إشارة إلى الوعد بانتشاره في العالم كانتشار نور الشمس في الأفق، واتبع بالقمر؛ لأنه ينير في الظلام كما أنار الإسلام في ابتداء ظهوره في ظلمة الشرك، ثم ذكر النهار والليل معه، لأنهما مَثَلٌ لوضوح الإسلام بعد ضلالة الشرك، وذلك عكس ما في سورة الليل لما يأتي.

ومناسبة استحضارِ السماء عقب ذكر الشمس والقمر، واستحضار الأرض عقب ذكر النهار والليل ـ واضحة، ثم ذكرت النفس الإنسانية؛ لأنها مظهر الهدى والضلال، وهو المقصود. ٣٠/٣٦٧

٥ـ **والإلهام**: مصدر ألهم، وهو فعل متعدٍّ بالهمزة، ولكن المجرد منه مُمَاتٌ[(١)].

والإلهام اسم قليل الورود في كلام العرب، ولم يذكر أهل اللغة شاهداً له من كلام العرب.

ويطلق الإلهام إطلاقاً خاصاً على حدوث علم في النفس بدون تعليم، ولا تجربة، ولا تفكير؛ فهو علم يحصل من غير دليل سواء ما كان منه وجدانياً

---

١ ـ يعني لا يستعمل. (م)

كالانسياق إلى المعلومات الضرورية والوجدانية، وما كان منه عن دليل كالتجريبيات والأمور الفكرية النظرية.

وإيثار هذا الفعل هنا؛ ليشمل جميع علوم الإنسان، قال الراغب: «الإلهام: إيقاع الشيء في الرُّوع، ويختص ذلك بما كان من جهة الله -تعالى- وجهة الملأ الأعلى» اهـ.

ولذلك فهذا اللفظ إن لم يكن من مبتكرات القرآن يكن مما أحياه القرآن؛ لأنه اسم دقيق الدلالة على المعاني النفسية، وقليلٌ رواجُ أمثالِ ذلك في اللغة قبل الإسلام؛ لقلة خُطور مثل تلك المعاني في مخاطبات عامة العرب.

وهو مشتق من اللَّهم وهو البلع دفعة، يقال: لَهَمَ كفرح، وأما إطلاق الإلهام على علم يحصل للنفس بدون مستند فهو إطلاق اصطلاحي للصوفية. ٣٠/٣٦٩-٣٧٠

سورة الليل

١ـ **سميت هذه السورة** في معظم المصاحف وبعض كتب التفسير (سورة الليل) بدون واو ، وسميت في معظم كتب التفسير (سورة والليل) بإثبات الواو ، وعنونها البخاري والترمذي (سورة والليل إذا يغشى).

وهي مكية في قول الجمهور ، واقتصر عليه كثير من المفسرين ، وحكى ابن عطية عن المهدوي أنه قيل : إنها مدنية ، وقيل : بعضها مدني ، وكذلك ذكر الأقوال في الإتقان ، وأشار إلى أن ذلك لما روي من سبب نزول قوله ـتعالىـ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ إذ روي أنها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري في نخلة كان يأكل أيتام من ثمرها ، وكانت لرجل من المنافقين؛ فمنعهم من ثمرها؛ فاشتراها أبو الدحداح بنخيل؛ فجعلها لهم ، وسيأتي.

وعدت التاسعة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الأعلى ، وقبل سورة الفجر.

وعدد آيها عشرون. ٣٠/٣٧٧

٢ـ **أغراضها** : احتوت على بيان شرفِ المؤمنين ، وفضائلِ أعمالِهم ، ومذمةِ المشركين ، ومساويهم ، وجزاء كلٍّ.

وأن اللهَ يهدي الناسَ إلى الخير؛ فهو يجزي المهتدين بخير الحياتين ، والضالين بعكس ذلك.

وأنه أَرَسَل رسولَهﷺ للتذكير بالله وما عنده؛ فينتفع مَنْ يخشى؛ فيفلح ، وَيْصدِفُ عن الذكرى مَنْ كان شقياً؛ فيكون جزاؤه النارَ الكبرى ، وأولئك هم

الذين صدهم عن التذكر إيثارُ حبِّ ما هم فيه في هذه الحياة.

وأدمج في ذلك الإشارةُ إلى دلائل قدرة الله -تعالى- وبديع صنعه. ٣٠/٣٧٧-٣٧٨

٣- **وفي القسم بالليل والنهار** التنبيه على الاعتبار بهما في الاستدلال على حكمة نظام الله في هذا الكون، وبديع قدرته، وخص بالذكر ما في الليل من الدلالة من حالة غشيانه الجانب الذي يغشاه من الأرض، ويغشى فيه من الموجودات؛ فتعمها ظلمته، فلا تبدو للناظرين؛ لأن ذلك أقوى أحواله.

وخص بالذكر من أحوال النهار حالة تجليته عن الموجودات، وظهور على الأرض كذلك. ٣٠/٣٧٨

٤- **وابتدئ في هذه السورة بذكر الليل،** ثم ذكر النهار عكس ما في سورة الشمس؛ لأن هذه السورة نزلت قبل سورة الشمس بمدة، وهي سادسة السور وأيامئذ كان الكفر مخيماً على الناس إلا نفراً قليلاً، وكان الإسلام قد أخذ في التجلي؛ فناسب تلك الحالة بإشارة إلى تمثيلها بحالة الليل حين يعقبه ظهور النهار، ويتضح هذا في جواب القسم بقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾. ٣٠/٣٧٨

سورة الضحى

١ـ **سميت هذه السورة** في أكثر المصاحف وفي كثير من كتب التفسير وفي جامع الترمذي (سورة الضحى) بدون الواو.

وسميت في كثير من التفاسير وفي صحيح البخاري (سورة والضحى) بإثبات الواو.

ولم يبلغنا عن الصحابة خبر صحيح في تسميتها.

وهي مكية بالاتفاق.

وسبب نزولها ما ثبت في الصحيحين يزيد أحدهما على الآخر عن الأسود ابن قيس عن جندب بن سفيان البجلي قال: «دميت إصبع رسول الله ﷺ فاشتكى، فلم يقم ليلتين أو ثلاثة، فجاءت امرأة ـوهي أم جميل بنت حرب زوج أبي لهب كما في رواية عن ابن عباس ذكرها ابن عطية ـ فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أَرَهُ قربك منذ ليلتين أو ثلاث؛ فأنزل الله: ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾.

وروى الترمذي عن ابن عيينة عن الأسود عن جندب البجلي قال: كنت مع النبي ﷺ في غار، فدميت إصبعه فقال: هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت.

قال: فأبطأ عليه جبريل، فقال المشركون: قد وُدِّع محمد؛ فأنزل الله ـتعالى ـ: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ وقال: حديث حسن صحيح.

ويظهر أن قول أم جميل لم يسمعه جندب؛ لأن جندباً كان من صغار

الصحابة، وكان يروي عن أبي بن كعب، وعن حذيفة كما قال ابن عبد البر.

ولعله أسلم بعد الهجرة، فلم يكن قوله: «كنت مع النبيﷺ في غارٍ» مقارناً لقول المشركين: «وقد ودع محمد»، ولعل جندباً روى حديثين جمعهما ابن عيينة، وقيل: إن كلمة: «في غار» تصحيف، وأن أصلها: كنت غازياً، ويتعين حينئذ أن يكون حديثه جمع حديثين.

وعدت هذه السورة حاديةَ عشرةَ في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة الفجر، وقبل سورة الانشراح.

وعدد آيها إحدى عشرة آية.

وهي أول سورة في قصار المفصل. ٣٠/٣٩٣ـ٣٩٤

٢ـ أغراضها: إبطالُ قولِ المشركين؛ إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبيﷺ قد انقطع عنه.

وزاده بشارةً بأن الآخرةَ خيرٌ له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى، وأنه سيعطيه ربُّه ما فيه رضاه، وذلك يغيظ المشركين.

ثم ذكَّره اللهُ بما حفَّه به من ألطافه وعنايته في صباه، وفي فتوته، وفي وقت اكتهاله، وأمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها من نفع لعبيده، وثناء على الله بما هو أهله. ٣٠/٣٩٤

٣ـ ومناسبة القسم بـ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ﴾ أن الضحى وقت انبثاق نور الشمس؛ فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي، وحصول الاهتداء به، وأن الليل وقت قيام النبيﷺ بالقرآن، وهو الوقت الذي كان يسمع فيه المشركون قراءته من بيوتهم القريبة من بيته أو من المسجد الحرام. ٣٠/٣٩٤ـ٣٩٥

٤ـ **والاختلاف في سبب نزول هذه السورة** يدل على عدم وضوحه للرواة؛ فالذي نظنه أن احتباس الوحي في هذه المرة كان لمدة نحو من اثني عشر يوماً، وأنه ما كان إلا للرفق بالنبيﷺ كي تستجم نفسه، وتعتاد قوته تَحَمُّل أعباء الوحي؛ إذ كانت الفترة الأولى أربعين يوماً، ثم كانت الثانية اثنى عشر يوماً أو نحوها، فيكون نزول سورة الضحى هو النزول الثالث، وفي المرة الثالثة يحصل الارتياض في الأمور الشاقة، ولذلك يكثر الأمر بتكرر بعض الأعمال ثلاثاً.

وبهذا الوجه يجمع بين مختلف الأخبار في سبب نزول هذه السورة، وسبب نزول سورة المدثر. ٣٩٦/٣٠

سورة الانشراح

١ـ **سميت في معظم التفاسير** وفي صحيح البخاري، وجامع الترمذي سورة (ألم نشرح)، وسميت في بعض التفاسير سورة الشرح، ومثله في بعض المصاحف المشرقية تسمية بمصدر الفعل الواقع فيها من قوله ـتعالى ـ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وفي بعض التفاسير تسميتها سورة الانشراح .

وهي مكية بالاتفاق.

وقد عدت الثانية عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الضحى بالاتفاق وقبل سورة العصر.

وعن طاووس، وعمر بن عبدالعزيز أنهما كانا يقولان ألم نشرح من سورة الضحى، وكانا يقرءانهما بالركعة الواحدة لا يفصلان بينهما يعني في الصلاة المفروضة.

وهذا شذوذ مخالف لما اتفقت عليه الأمة من تسوير المصحف الإمام.

وعدد آيها ثمان. ٤٠٧/٣٠

٢ـ أغراضها: احتوت على ذكرِ عنايةِ الله ـتعالى ـ لرسولهﷺ بلطف الله له، وإزالةِ الغمّ والحرجِ عنه، وتيسير[١] ما عسر عليه، وتشريفِ قدره؛ لِيُنَفِّسَ عنه؛ فمضمونُها شبيهٌ بأنه حجةٌ على مضمون سورة الضحى؛ تثبيتاً له بتذكيره سالف عنايته به، وإنارة سبيل الحق، وترفيع الدرجة؛ ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما

---

١ ـ في الأصل: وتفسير، ولعل الصواب ما أُثبت. (م)

كان لِيقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماض يعلمه[1] النبيﷺ.

وأتبع ذلك بوعده بأنه كلما عَرَضَ له عُسْرٌ فسيجد من أمره يسراً كدأب الله ـتعالىـ في معاملته؛ فَلْيَتَحَمَّلْ متاعبَ الرسالةِ، ويرغبَ إلى الله عونه. ٣٠/٤٠٧ـ٤٠٨

٣ـ **وجملة: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾** مؤكدة لجملة: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ وفائدة هذا التأكيد تحقيق اطراد هذا الوعد، وتعميمه؛ لأنه خبر عجيب.

ومن المفسرين من جعل اليسر في الجملة الأولى يسر الدنيا وفي الجملة الثانية يسر الآخرة، وأسلوب الكلام العربي لا يساعد عليه؛ لأنه متمحض لكون الثانية تأكيداً.

هذا وقول النبيﷺ: «**لن يغلب عسر يسرين**» قد ارتبط لفظه ومعناه بهذه الآية.

وصرح في بعض رواياته بأنه قرأ هذه الآية حينئذ، وتضافر المفسرون على انتزاع ذلك منها، فوجب التعرض لذلك، وشاع بين أهل العلم أن ذلك مستفاد من تعريف كلمة العسر وإعادتها معرفة، ومن تنكير كلمة (يسر) وإعادتها منكرة، وقالوا: إن اللفظ النكرة إذا أعيد نكرة فالثاني غير الأول، وإذا أعيد اللفظ معرفة فالثاني عين الأول كقوله ـتعالىـ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾.

وبناء كلامهم على قاعدة إعادة النكرة معرفة خطأ، لأن تلك القاعدة في إعادة النكرة معرفة لا في إعادة المعرفة معرفة، وهي خاصة بالتعريف بلام العهد دون

---

١ ـ في الأصل: يعمله، ولعل الصواب ما أُثبت. (م)

لام الجنس.

وهي -أيضاً- في إعادة اللفظ في جملة أخرى، والذي في الآية ليس بإعادة لفظ في كلام ثان بل هي تكرير للجملة الأولى، فلا ينبغي الالتفات إلى هذا المأخذ.

وقد أبطله من قبل أبو على الحسين الجرجاني[1] مسافة في كتاب النظم كما في معالم التنزيل، وأبطله صاحب الكشاف -أيضاً- وجعل ابن هشام في المغني اللبيب تلك القاعدة خطأ.

والذي يظهر في تقرير معنى قوله: «لن يغلب عسر يسرين» أن جملة: ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ تأكيد لجملة: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾.

ومن المقرر أن المقصود من تأكيد الجملة في مثله هو تأكيد الحكم الذي تضمنه الخبر.

ولا شك أن الحكم المستفاد من هذه الجملة هو ثبوت التحاق اليسر بالعسر عند حصوله؛ فكان التأكيد مفيداً ترجيح أثر اليسر على أثر العسر، وذلك الترجيح عُبِّر عنه بصيغة التثنية في قوله يسرين؛ فالتثنية هنا كنايةٌ رمزية عن التغلب والرجحان؛ فإن التثنية قد يكنى بها عن التكرير المراد منه التكثير كما في قوله -تعالى-: ﴿ ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾. أي أرجع البصر كثيراً، لأن البصر لا ينقلب حسيراً من رجعتين.

ومن ذلك قول العرب: لبيك، وسعديك، ودواليك.

١- قال حمزة بن يوسف السهمي المتوفي سنة ٤٢٧ في تاريخ علماء جرجان: «هو أبو علي الحسين ابن يحيى بن نصر الجرجاني، له تصانيف عدة، منها في نظم القرآن مجلدتان، كان من أهل السنة روى عن العباس بن يحيى (أو ابن عيسى) العقيلي» اهـ.

والتكرير يستلزم قوة الشيء المكرر، فكانت القوة لازمُ لازمِ التثنية وإذا تعددت اللوازم كانت الكناية رمزية.

وليس ذلك مستفاداً من تعريف (الْعُسْرِ) باللام ولا من تنكير (اليسر) وإعادته منكراً. ٤١٥/٣٠ـ٤١٦

٤ـ ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) ﴾ تفريع على ما تقرر من التذكير باللطف، والعناية، ووعده وبتيسير ما هو عسير عليه في طاعته التي أعظمها تبليغ الرسالة دون ملل ولا ضجر.

والفراغ: خلو باطن الظرف، أو الإناء؛ لأن شأنه أن يظرف فيه.

وفعل فرغ يفيد أن فاعله كان مملوءاً بشيء، وفراغ الإنسان: مجاز في إتمامه ما شأنه أن يعمله.

ولم يذكر هنا متعلق ﴿فَرَغْتَ﴾ وسياق الكلام يقتضي أنه لازم أعمال يعلمها الرسولﷺ كما أن مساق السورة في تيسير مصاعب الدعوة وما يحف بها؛ فالمعنى إذا أتممت عملاً من مهام الأعمال فأقبل على عمل آخر بحيث يعمر أوقاته كلها بالأعمال العظيمة.

ومن هنا قال رسول اللهﷺ عند قُفوله من إحدى غزواته: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**».

فالمقصود بالأمر هو: ﴿فَانصَبْ﴾.

وأما قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ فتمهيد، وإفادة لإيلاء العمل بعمل آخر في تقرير الدين، ونفع الأمة.

وهذا من صيغ الدلالة على تعاقب الأعمال، ومثله قول القائل: ما تأتيني من

فلان صلة إلا أَعْقَبَتْها أخرى.

واختلفت أقوال المفسرين من السلف في تعيين المفروغ منه، وإنما هو اختلاف في الأمثلة، فحذف المتعلق هنا؛ لقصد العموم، وهو عمومٌ عُرْفي لنوع من الأعمال التي دل عليها السياق؛ ليشمل كلَّ متعلق عمله مما هو مهم كما علمت، وهو أعلم بتقديم بعض الأعمال على بعض إذا لم يمكن اجتماع كثير منها بقدر الإمكان كما أقر الله بأداء الصلاة مع الشغل بالجهاد بقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمْ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ إلى قوله: ﴿كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ في سورة النساء.

وهذا الحكم ينسحب على كل عمل ممكن من أعماله الخاصة به، مثل قيام الليل، والجهاد عند تقوي المسلمين، وتدبير أمور الأمة.

وتقديم: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ على: ﴿فَانصَبْ﴾ للاهتمام بتعليق العمل بوقت الفراغ من غيره؛ لتتعاقب الأعمال.

وهذه الآية من جوامع الكلم القرآنية لما احتوت عليه من كثرة المعاني. ٣٠/٤١٦-٤١٧

سورة التين

١ـ سميت في معظم كتب التفسير ومعظم المصاحف (سورة والتين) بإثبات الواو تسمية بأول كلمة فيها، وسماها بعض المفسرين (سورة التين) بدون الواو؛ لأن فيها لفظ ﴿التِّينِ﴾ كما قالوا (سورة البقرة) وبذلك عنونها الترمذي، وبعض المصاحف.

وهي مكية عند أكثر العلماء، قال ابن عطية: «لا أعرف في ذلك خلافاً بين المفسرين».

ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور المختلف فيها.

وذكر القرطبي عن قتادة أنها مدنية، ونسب ـأيضاًـ إلى ابن عباس، والصحيح عن ابن عباس أنه قال: «هي مكية».

وعدت الثامنة والعشرين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة البروج، وقبل سورة الإيلاف.

وعدد آياتها ثمان. ٤١٩/٣٠

٢ـ أغراضها: احتوت هذه السورةُ على التنبيهِ بأنَّ اللهَ خلق الإنسانَ على الفطرةِ المستقيمة، ليعلموا أن الإسلام هو الفطرةُ كما قال في الآية الأخرى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

وأن ما يخالف أصولَه بالأصالةِ أو بالتحريف فسادٌ وضلالٌ، ومتبعي ما يخالف الإسلام أهلُ ضلالةٍ.

والتعريضُ بالوعيد للمكذبين بالإسلام.

والإشارةُ بالأمور المُقْسَمِ بها إلى أطوار الشرائع الأربعة؛ إيماءً إلى أن الإسلامَ جاء مصدقاً لها، وأنها مشاركةٌ أصولُها لأصول دين الإسلام.

والتنويهُ بحسنِ جزاءِ الذين اتبعوا الإسلامَ في أصوله وفروعه.

وشملت الامتنان على الإنسان بخلقه على أحسن نظام في جثمانه ونفسه. ٣٠/٤١٩ـ٤٢٠

٣ـ **والتين ظاهره**: الثمرة المشهورة بهذا الاسم، وهي ثمرة يشبه شكلها شكل الكُمَّثْرى ذات قشر لونه أزرق إلى السواد، تتفاوت أصنافه في قتومة قشره، سهلة التقشير تحتوي على مثل وعاء أبيض في وسطه عسل طيب الرائحة مخلوط ببزور دقيقة مثل السمسم الصغير، وهي من أحسن الثمار صورةً وطعماً، وسهولة مضغ؛ فحالتها دالة على دقة صنع الله، ومؤذنة بعلمه وقدرته؛ فالقسم بها لأجل دلالتها إلى صفات إلهية كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات، مع الإيذان بالمنة على الناس؛ إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد، والتي هي سهلة النبات لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج.

والزيتون ـأيضاًـ ظاهرُه: الثمرةُ المشهورة ذات الزيت الذي يعصر منها، فيطعمه الناس، ويستصبحون به.

والقسم بها كالقسم بالتين من حيث إنها دالة على صفات الله، مع الإشارة إلى نعمة خلق هذه الثمرة النافعة الصالحة التي تكفي الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم.

وعلى ظاهر الاسمين للتين والزيتون حملهما جمع من المفسرين الأولين ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعكرمة، والنخعي، وعطاء، وجابر بن زيد،

ومقاتل، والكلبي؛ وذلك لما في هاتين الثمرتين من المنافع للناس المقتضية الامتنان عليهم بأن خلقها الله لهم. ٣٠/٤٢٠

٤ـ ولكن مناسبة ذكر هذين مع ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ ومع ﴿الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ تقتضي أن يكون لهما محمل أوفق بالمناسبة؛ فروي عن ابن عباس ـ أيضاً ـ تفسير التين بأنه مسجد نوح الذي بني على الجودي بعد الطوفان.

ولعل تسمية هذا الجبلِ التينَ، لكثرته فيه؛ إذ قد تسمى الأرض باسم ما يكثر فيها من الشجر كقول امرئ القيس:

أمَرْخٌ ديارُهُمُ أم عُشَرْ

وسمي بالتين موضع جاء في شعر النابغة يصف سحابات بقوله:

صهب الظلال أتين التين عن عرض ... يزجين غيماً قليلاً ماؤه شبما

والزيتون: يطلق على الجبل الذي بني عليه المسجد الأقصى؛ لأنه ينبت الزيتون، وروي هذا عن ابن عباس والضحاك، وعبدالرحمن بن زيد، وقتادة وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي.

ويجوز عندي أن يكون القسم بـ﴿التِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ معنياً بهما شجر هاتين الثمرتين، أي اكتسب نوعاهما شرفاً من بين الأشجار يكون كثير منه نابتاً في هذين المكانين المقدسين كما قال جرير:

أتذكر حين تصقل عارضيها ... بفرع بشامة سقي البشام[1]

فدعا لنوع البشام بالسقي؛ لأجل عود بشامة الحبيبة.

وأما ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ فهو الجبل المعروف بـ (طور سينا).

١ـ وفي رواية التبريزي في شرح الحماسة: أتنسى إذ توعدنا سليمى بعود ... الخ ص٥٠ ج ١

والطور: الجبل بلغة النبط، وهم الكنعانيون، وعرف هذا الجبل بـ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ لوقوعه في صحراء (سينين) و(سينين) لغة في سين، وهي صحراء بين مصر وبلاد فلسطين.

وقيل: سينين اسم الأشجار بالنبطية أو بالحبشة، وقيل: معناه الحسن بلغة الحبشة.

وقد جاء تعريبه في العربية على صيغة تشبه صيغة جمع المذكر السالم وليس بجمع؛ مجاز[1] في إعرابه أن يعرب مثل إعراب جمع المذكر بالواو نيابة عن الضمة، أو الياء نيابة عن الفتحة أو الكسرة، وأن يحكى على الياء مع تحريك نونه بحركات الإعراب مثل: صفين ويبرين، وقد تقدم عند قوله -تعالى-: ﴿وَالطُّورِ وكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾.

والبلد الأمين: مكة، سمي الأمين؛ لأن من دخله كان آمناً؛ فالأمين فعيل بمعنى مُفْعِل مثل الداعي السميع في بيت عمرو بن معد يكرب، ويجوز أن يكون بمعنى مفعول على وجه الإسناد المجازي، أي المأمون ساكنوه قال -تعالى-: ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.

والإشارة إليه للتعظيم، ولأن نزول السورة في ذلك البلد؛ فهو حاضر بمرأى ومسمع من المخاطبين نظير قوله: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾. ٣٠/٤٢١-٤٢٢

٥- وعلى ما تقدم ذكره من المحملين الثانيين للتين والزيتون تتم المناسبة بين الأيمان، وتكون إشارة إلى موارد أعظم الشرائع الواردة للبشر؛ **فالتين إيماء إلى رسالة نوح**، وهي أول شريعة لرسول، **والزيتون إيماء إلى شريعة إبراهيم**؛ فإنه

١- هكذا في الأصل، ولعل الصواب: فجاز. (م).

بنى المسجد الأقصى كما ورد في الحديث وقد تقدم في أول الإسراء، و﴿طُورِ سِينِينَ﴾ **إيماء إلى شريعة التوراة**، و﴿الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ **إيماء إلى مهبط شريعة الإسلام**، ولم يقع إيماء إلى شريعة عيسى؛ لأنها تكملة لشريعة التوراة.

وقد يكون الزيتون على تأويله بالمكان، **وبأنه المسجد الأقصى إيماء إلى مكان ظهور شريعة عيسى** -عليه السلام- لأن المسجد الأقصى بناه سليمان -عليه السلام- فلم تنزل فيه شريعة قبل شريعة عيسى.

ويكون قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ **إيماء إلى شريعة إبراهيم، وشريعة الإسلام**، فإن الإسلام جاء على أصول الحنيفية، وبذلك يكون إيماء هذه الآية ما صرح به في قوله -تعالى-: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾.

وبذلك يكون ترتيب الإيماء إلى شرائع نوح، وموسى، وعيسى، ومحمد -عليهم الصلاة والسلام- غير جار على ترتيب ظهورها؛ فتوجيه مخالفة الترتيب الذكري للترتيب الخارجي أنه لمراعاة اقتران الاسمين المنقولين عن اسمي الثمرتين، ومقارنة الاسمين الدالين على نوعين من أماكن الأرض - يتأتّى مُحَسِّنُ مراعاةِ النظير، ومُحَسِّن التورية، وليناسب ﴿سِينِينَ﴾ فواصل السورة.

وفي ابتداء السورة بالقَسَم بما يشمل إرادة مهابط أشهر الأديان الإلهية براعةُ استهلالٍ؛ لغرض السورة، وهو أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي خلقه على الفطرة السليمة مدركاً لأدلة وجود الخالق ووحدانيته.

وفيه إيماء إلى أن ما خالف ذلك من النِّحل والملل قد حاد عن أصول شرائع الله كلها بقطع النظر عن اختلافها في الفروع، ويكفي في تَقَوُّم معنى براعة الاستهلال

ما يلوح في المعنى من احتمال. ٣٠/٤٢٢ـ٤٢٣

٦ـ **والتقويم**: جعل الشيء في قَوام ـبفتح القاف ـ أي عَدْل وتسوية.

وحُسْن التقويم أكملُه، وأليقه بنوع الإنسان، أي أحسن تقويم له، وهذا يقتضي أنه تقويم خاص بالإنسان لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات.

ويتضح ذلك في تعديل القوى الظاهرة والباطنة بحيث لا تكون إحدى قواه موقعة له فيما يفسده، ولا يعوق بعض قواه البعض الآخر عن أداء وظيفته؛ فإن غيره من جنسه كان دونه في التقويم. ٣٠/٤٢٣ـ٤٢٤

٧ـ **فأفادت الآية أن الله كَوَّن الإنسان تكويناً ذاتياً متناسباً ما خلق له** نوعه من الإعداد لنظامه وحضارته، وليس تقويم صورة الإنسان الظاهرة هو المعتبر عند الله ـتعالى ـ ولا جديراً بأن يقسم عليه؛ إذ لا أثر له في إصلاح النفس، وإصلاح الغير، والإصلاح في الأرض، ولأنه لو كان هو المراد لذهبت المناسبة التي في القسم بالتين والزيتون، وطور سنين، والبلد الأمين.

وإنما هو متمم لتقويم النفس قال النبيﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»[1].

فإن العقل أشرف ما خص به نوع الإنسان من بين الأنواع.

فالمرضي عند الله هو تقويم إدراك الإنسان، ونظره العقلي الصحيح؛ لأن ذلك هو الذي تصدر عنه أعمال الجسد؛ إذ الجسم آلة خادمة للعقل، فلذلك كان هو المقصود من قوله ـتعالى ـ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وأما خلق جسد الإنسان في أحسن تقويم فلا ارتباط له بمقصد السورة،

١ـ راوه مسلم، ورواه غيره يزيد بعضهم على بعض.

ويظهر هذا كمال الظهور في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ فإنه لو حمل الرد أسفل سافلين على مصير الإنسان في أرذل العمر إلى نقائص قوته كما فسر به كثير من المفسرين لكان نُبُوُّه عن غرض السورة أشدَّ، وليس ذلك مما يقع فيه تردد السامعين حتى يحتاج إلى تأكيده بالقسم.

ويدل ذلك قوله بعده: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن الإيمان أثرُ التقويم لعقل الإنسان الذي يلهمه السير في أعماله على الطريق الأقوم، ومعاملة بني نوعه السالمين من عدائه معاملة الخير معهم على حسب توافقهم معه في الحق؛ فذلك هو الأصل في تكوين الإنسان إذا سلم من عوارض عائقة من بعض ذلك مما يعرض له وهو جنين؛ إما من عاهة تلحقه لمرض أحد الأبوين، أو لفساد هيكله من سقطة أو صدمة في حمله، وما يعرض له بعد الولادة من داء معضل يعرض له يترك فيه اختلال مزاجه؛ فيحرف شيئاً من فطرته كحماقة السوداويين والسكريين، أو خبال المختبلين، ومما يدخله على نفسه من مساوي العادات كشرب المسكرات، وتناول المخدرات مما يورثه على طول انثلام تعقله، أو خور عزيمته. ٣٠/٤٢٤ـ٤٢٥

٨ـ **والذي نأخذه من هذه الآية أن الإنسان مخلوق على حالة الفطرة الإنسانية التي فطر الله النوع**؛ ليتصف بآثارها، وهي الفطرة الإنسانية الكاملة في إدراكه إدراكاً مستقيماً مما يتأدى من المحسوسات الصادقة، أي الموافقة لحقائق الأشياء الثابتة في نفس الأمر، بسبب سلامة ما تؤديه الحواس السليمة، وما يتلقاه العقل السليم من ذلك ويتصرف فيه بالتحليل والتركيب المنتظمين، بحيث لو جانبته التلقينات الضالة، والعوائد الذميمة، والطبائع المنحرفة، والتفكير الضار، أو لو تسلطت عليه تسلطاً ما فاستطاع دفاعها عنه بدلائل الحق والصواب ـ لجرى في جميع شؤونه على الاستقامة، ولما صدرت منه إلا الأفعال الصالحة.

ولكنه قد يتعثر في ذيول اغتراره، ويرخي العنان لهواه وشهوته؛ فترمي به في الضلالات، أو يتغلب عليه دعاة الضلال بعامل التخويف أو الإطماع؛ فيتابعهم طوعاً أو كرهاً، ثم لا يلبث أن يستحكم فيه ما تقلَّده، فيعتاده، وينسى الصواب والرشد.

ويفسر هذا المعنى قول النبيﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، ثم يكون أبواه هما اللذان يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**» الحديث.

ذلك أن أبويه هما أول من يتولى تأديبه وتثقيفه، وهما أكثر الناس ملازمة له في صباه؛ فهما اللذان يلقيان في نفسه الأفكار الأولى، فإذا سلم من تضليل أبويه فقد سار بفطرته شوطاً، ثم هو بعد ذلك عُرْضَةٌ لعديد من المؤثرات فيه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

واقتصر النبيﷺ على الأبوين؛ لأنهما أقوى أسباب الزج في ضلالتهما، وأشد إلحاحاً على ولدهما.

ولم يعرج المفسرون قديماً وحديثاً على تفسير التقويم بهذا المعنى العظيم، فَقَصَرُوا التقويم على حسن الصورة.

وروي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والكلبي، وإبراهيم، وأبي العالية: أو على استقامة القامة.

وروي عن ابن عباس: أو على الشباب والجلادة، وروي عن عكرمة وابن عباس.

ولا يلائم مقصد السورة إلا أن يتأول بأن ذلك ذكر نعمة على الإنسان عكس الإنسان شكرها؛ فكفر بالمنعم؛ فَرُدَّ أسفل سافلين، سوى ما حكاه ابن عطية عن

الثعلبي عن أبي بكر بن طاهر[1] أنه قال: «تقويم الإنسان عقله، وإدراكه اللذان زَيَّناه بالتمييز».

ولفظه عند القرطبي قريب من هذا مع زيادة يتناول مأكوله بيده.

وما حكاه الفخر عن الأصم[2] أن: ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أكمل عقل وفهم وأدب وعلم وبيان.

وتفيد الآية أن الإنسان مفطور على الخير، وأن في جِبِلَّته جلبَ النفع والصلاح لنفسه، وكراهة ما يظنه باطلاً أو هلاكاً، ومحبة الخير والحسن من الأفعال؛ لذلك تراه يسر بالعدل والإنصاف، وينصح بما يراه مجلبة لخير غيره، ويغيث الملهوف، ويعامل بالحسنى، ويغار على المستضعفين، ويشمئز من الظلم ما دام مجرداً عن روم نفع يجلبه لنفسه، أو إرضاء شهوة يريد قضاءها، أو إشفاء غضب يجيش بصدره.

تلك العوارض التي تحول بينه وبين فطرته زمناً، ويهش إلى كلام الوعاظ والحكماء والصالحين، ويكرمهم، ويعظمهم، ويود طول بقائهم.

فإذا ساورته الشهوةُ السيئةُ، فزينت له ارتكاب المفاسد، ولم يستطع ردها عن نفسه ـ انصرف إلى سوء الأعمال، وَثَقَلَ عليه نصحُ الناصحين، ووعظ الواعظين على مراتب في كراهية ذلك بمقدار تحكم الهوى في عقله.

ولهذا كان الأصل في الناس الخير، والعدالة، والرشد، وحسن النية عند جمهور من الفقهاء والمحدثين. ٣٠/٤٢٥ـ٤٢٧

١ـ لم أقف على تعيينه وليس يبعد أن يكون هو الأصم.

٢ـ الأصم لقب أبي بكر عبدالرحمن بن كيسان من أصحاب هشام الفوطي من المعتزلة، وقال ابن حجر في لسان الميزان: «إنه كان من طبقة أبي الهذيل العلاف المعتزلي».

سورة العلق

١ـ اشتهرت تسمية هذه السورة في عهد الصحابة والتابعين باسم (سورة اقرأ باسم ربك) روي في المستدرك عن عائشة: «أول سورة نزلت من القرآن اقرأ باسم ربك».

فأخبرت عن السورة بـ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾.

وروي ذلك عن أبي سلمة بن عبدالرحمن، وأبي رجاء العطاردي، ومجاهد، والزهري، وبذلك عنونها الترمذي.

وسميت في المصاحف ومعظم التفاسير (سورة العلق) لوقوع لفظ (العلق) في أوائلها، وكذلك سميت في بعض كتب التفسير.

وعنونها البخاري سورة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ).

وتسمى (سورة اقرأ) وسماها الكواشي في التخليص (سورة اقرأ والعلق).

وعنونها ابن عطية، وأبو بكر بن العربي (سورة القلم).

وهذا اسم سميت به (سورة ن والقلم) ولكن الذين جعلوا اسم هذه السورة (سورة القلم) يسمون الأخرى (سورة ن).

ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم.

وهي مكية باتفاق، وهي أول سورة نزلت في القرآن كما ثبت في الأحاديث الصحيحة الواضحة، ونزل أولها بغار حراء على النبيﷺ وهو مجاور فيه في رمضان ليلة سبعة عشرة منه من سنة أربعين بعد الفيل إلى قوله: ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة عن عائشة، وفيه حديث عن أبي موسى الأشعري، وهو الذي قاله أكثر المفسرين من السلف والخلف.

وعن جابر أول سورة المدثر، وتؤول بأن كلامه نص أن سورة المدثر أول سورة نزلت بعد فترة الوحي كما في الإتقان، كما أن سورة الضحى نزلت بعد فترة الوحي الثانية.

وعدد آيها في عد أهل المدينة ومكة عشرون، وفي عد أهل الشام ثمان عشرة، وفي عد أهل الكوفة والبصرة تسع عشرة. **٣٠/٤٣٣ـ٤٣٤**

٢ـ أغراضها: تلقينُ محمدٍ ﷺ الكلام القرآني وتلاوته؛ إذ كان لا يعرف التلاوة من قبل.

والإيماءُ إلى أن عِلْمَهُ بذلك ميسرٌ؛ لأن اللهَ الذي ألهم البشرَ العلمَ بالكتابة قادرٌ على تعليم مَنْ يشاء ابتداءً.

وإيماءٌ إلى أن أمته ستصير إلى معرفةِ القراءةِ والكتابة والعلم.

وتوجيهُه إلى النظر في خلق الله الموجودات، وخاصة خَلْقَهُ الإنسانَ خلقاً عجيباً مستخرجاً من عَلَقَةٍ؛ فذلك مبدأُ النظر.

وتهديدُ مَنْ كذَّب النبيَّ ﷺ وتعرَّضَ؛ ليصده عن الصلاة، والدعوة إلى الهدى والتقوى.

وإعلامُ النبي ﷺ أن اللهَ عالمٌ بأمرِ مَنْ يناوونه، وأنه قامعهم وناصر رسوله.

وتثبيتُ الرسولِ على ما جاءه من الحق، والصلاة، والتقرب إلى الله.

وأنْ لا يعبأَ بقوةِ أعدائه؛ لأن قوةَ اللهِ تقهرهم. **٣٠/٤٣٤**

٣ـ ومن إعجاز القرآن العلمي ذكر العلقة؛ لأن الثابت في العلم الآن أن الإنسان يتخلق من بويضة دقيقة جداً لا ترى إلا بالمرآة المكبرة أضعافاً تكون في

مبدأ ظهورها كُروية الشكل، سابحة في دم حيض المرأة؛ فلا تقبل التخلق حتى تخالطها نطفة الرجل، فتمتزج معها، فتأخذ في التخلق إذا لم يَعُقْها عائق كما قال ـتعالىـ: ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾.

فإذا أخذت في التخلق والنمو امتد تَكَوُّرها قليلاً، فشابهت العلقة التي في الماء مشابهة تامة في دقة الجسم وتلونها بلون الدم الذي هي ساحبة[١] فيه وفي كونها سابحة في سائل كما تسبح العلقة، وقد تقدم هذا في سورة غافر وأشرت إليه في المقدمة العاشرة. ٤٣٨/٣٠

٤ـ ﴿ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ جملة معطوفة على جملة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ فلها حكم الاستئناف، و﴿ رَبُّكَ ﴾ مبتدأ، وخبره إما: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ وإما جملة: ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ وهذا الاستئناف بياني.

فإذا نظرت إلى الآية مستقلة عما تضمنه حديث عائشة في وصف سبب نزولها كان الاستئناف ناشئاً عن سؤال يجيش في خاطر الرسولﷺ أن يقول كيف: أقرأ وأنا لا أحسن القراءة والكتابة؛ فأجيب بأن الذي علم القراءة بواسطة القلم، أي بواسطة الكتابة يعلمك ما لم تعلم.

وإذا قرنت بين الآية وبين الحديث المذكور كان الاستئناف جواباً عن قوله لجبريل: «**ما أنا بقارئ**».

فالمعنى: لا عجب في أن تقرأ وإن لم تكن من قبل عالماً بالقراءة؛ إذ العلم بالقراءة يحصل بوسائل أخرى مثل الإملاء، والتلقين، والإلهام، وقد علم الله

١ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: سابحة. (م).

آدم الأسماء ولم يكن آدم قارئاً.

ومقتضى الظاهر: وعلم بالقلم؛ فعدل عن الإضمار لتأكيد ما يشعر به ربك من العناية المستفادة من قوله: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ وأن هذه القراءة شأنٌ من شؤون الرب اختص بها عبده؛ إتماماً لنعمة الربوبية عليه.

وليجري على لفظ الرب وصف الأكرم.

ووصف ﴿ الأَكْرَمُ ﴾ مصوغ للدلالة على قوة الاتصاف بالكرم، وليس مصوغاً للمفاضلة؛ فهو مسلوب المفاضلة.

والكرم: التفضل بعطاء ما ينفع المعطي، ونعم الله عظيمة لا تحصى ابتداءً من نعمة الإيجاد، وكيفية الخلق، والإمداد.

وقد جمعت هذه الآيات الخمس من أول السورة أصول الصفات الإلهية؛ فوصف الرب يتضمن الوجود والوحدانية، ووصف ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ووصف ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ يقتضيان صفات الأفعال، مع ما فيه من الاستدلال القريب على ثبوت ما أشير إليه من الصفات بما تقتضيه الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر الذي يذكر معها، ووصف ﴿ الأَكْرَمُ ﴾ يتضمن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص. ٣٠/٤٣٩ـ٤٤٠

٥ـ وقد حَصَلَتْ من ذكر التعليم بالقلم والتعليم الأعم إشارةٌ إلى ما يتلقاه الإنسان من التعاليم سواء كان بالدرس، أم بمطالعة الكتب، وأن تحصيل العلوم يعتمد أموراً ثلاثة: **أحدها**: الأخذ عن الغير بالمراجعة والمطالعة، وطريقهما الكتابة وقراءة الكتب؛ فإن بالكتابة أَمْكَنَ للأممِ تدوينَ آراءِ علماءِ البشرِ، ونقلَها إلى الأقطار النائية، وفي الأجيال الجائية.

والثاني: التلقي من الأفواه بالدرس والإملاء.

والثالث: ما تنقدح به العقول من المستنبطات والمخترعات.

وهذان داخلان تحت قوله -تعالى-: ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

وفي ذلك اطمئنان لنفس النبيﷺ بأن عدم معرفته الكتابةَ لا يحول دون قراءته؛ لأن الله علم الإنسان ما لم يعلم؛ فالذي علَّم القراءة لأصحاب المعرفة بالكتابة قادر على أن يعلمك القراءة دون سبق معرفة بالكتابة. ٤٤١/٣٠

٦- **وعلة هذا الخُلُق** أن الاستغناء تحدث صاحبَه نَفْسُه بأنه غير محتاج إلى غيره، وأن غيره محتاج، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقاً؛ حيث لا وازع يزعه من دين أو تفكير صحيح، فيطغى على الناس؛ لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم؛ لأن له ما يدفع به الاعتداء من لامة سلاح، وخدم، وأعوان، وعفاة، ومنتفعين بماله من شركاء، وعمال، وأجراء؛ فهو في عزة عند نفسه.

فقد بينت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس، ونبهت على الحذر من تغلغلها في النفس. ٤٤٤/٣٠-٤٤٥

سورة القدر

١ـ **سميت هذه السورة** في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة (سورة القدر) وسماها ابن عطية في تفسيره وأبو بكر الجصاص في أحكام القرآن (سورة ليلة القدر).

وهي مكية في قول الجمهور، وهو قول جابر بن زيد، ويُروى عن ابن عباس.

وعن ابن عباس ـأيضاًـ والضحاك أنها مدنية، ونسبه القرطبي إلى الأكثر. وقال الواقدي: هي أول سورة نزلت بالمدينة، ويرجحه أن المتبادر أنها تتضمن الترغيب في إحياء ليلة القدر، وإنما كان ذلك بعد فرض رمضان بعد الهجرة.

وقد عدها جابر بن زيد الخامسة والعشرين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة عبس وقبل سورة الشمس، فأما قول من قالوا: إنها مدنية فيقتضي أن تكون نزلت بعد المطففين وقبل البقرة.

وآياتها خمس في العدد المدني والبصري والكوفي، وست في العد المكي والشامي. ٣٠/٤٥٥

٢ـ **أغراضُها**: التنويهُ بفضلِ القرآن وعظمته بإسناد إنزاله إلى الله ـتعالىـ.

والردُّ على الذين جحدوا أن يكون القرآنُ منزلاً من الله ـتعالىـ.

ورَفْعُ شأنِ الوقت الذي أُنزل فيه، ونزولُ الملائكة في ليلة إنزاله.

وتفضيلُ الليلةِ التي توافق ليلةَ إنزالِه من كل عام.

ويستتبع ذلك تحريضُ المسلمين على تحيُّنِ ليلةِ القدر بالقيام والتصدق. ٣٠/٤٥٥ـ٤٥٦

٣ـ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: اشتملت هذه الآية على تنويه عظيم بالقرآن؛ فافتتحت بحرف (إنَّ) وبالإخبار عنها بالجملة الفعلية، وكلاهما من طرق التأكيد والتقوي. ٤٥٦/٣٠

٤ ـ وفي ضمير العظمة وإسناد الإنزال إليه تشريف عظيم للقرآن. ٤٥٦/٣٠

٥ـ ومن تسديد ترتيب المصحف أن وضعت سورة القدر عقب سورة العلق مع أنها أقل عدد آيات من سورة البينة وسور بعدها، كأنه إماء إلى أن الضمير في ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ يعود إلى القرآن الذي ابتدئ نزوله بسورة العلق.

ويجوز أن يكون الضمير عائداً على المقدار الذي أنزل في تلك الليلة، وهو الآيات الخمس من سورة العلق؛ فإن كل جزء من القرآن يسمى قرآناً، وعلى كلا الوجهين فالتعبير بالمضي في فعل ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ لا مجاز فيه، وقيل: أطلق ضمير القرآن على بعضه مجازاً بعلاقة البعضية.

والآية صريحة في أن الآياتِ الأُولَ من القرآن نزلت ليلاً، وهو الذي يقتضيه حديث بدء الوحي في الصحيحين لقول عائشه فيه: «**فكان يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد**».

فكان تعبده ليلاً، ويظهر أن يكون الملك قد نزل عليه إثر فراغه من تعبده.

وأما قول عائشة: «**فرجع بها رسولُ اللهِ يرجف فؤاده**» فمعناه أنه خرج من غار حراء إثر الفجر بعد انقضاء تلقينه الآيات الخمس؛ إذ يكون نزولها عليه في آخر تلك الليلة، وذلك أفضل أوقات الليل كما قال ـتعالىـ: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾. ٤٥٦/٣٠ـ٤٥٧

٦ـ **وليلة القدر**: اسم جعله الله لليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن، ويظهر أن

أول تسميتها بهذا الاسم كان في هذه الآية، ولم تكن معروفة عند المسلمين، وبذلك يكون ذِكْرُها بهذا الاسم؛ تشويقاً لمعرفتها؛ ولذلك عقب بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾.

والقدر: الذي عُرفت الليلة بالإضافة إليه هو بمعنى الشرف والفضل، كما قال ـتعالىـ في سورة الدخان: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾.

أي ليلة القدر والشرف عند الله ـتعالىـ مما أعطاها من البركة؛ فتلك ليلة جعل الله لها شرفاً؛ فجعلها مظهراً لما سبق به علمه؛ فجعلها مبدأ الوحي إلى النبيﷺ. ٤٥٧/٣٠

٧ـ **والمقصود من تشريف** الليلة التي كان ابتداء إنزال القرآن فيها تشريف آخر للقرآن بتشريف زمان ظهوره؛ تنبيهاً على أنه ـتعالىـ اختار لابتداء إنزاله وقتاً شريفاً مباركاً؛ لأن عظم قدر الفعل يقتضي أن يُختار لإيقاعه فَضْل الأوقات والأمكنة؛ فاختيار فضل الأوقات لابتداء إنزاله ينبئ عن علو قدره عند الله ـتعالىـ كقوله: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ على الوجهين في المراد من المطهرين. ٤٥٨/٣٠

٨ـ **وتفضيلها بالخير على ألف شهر**: إنما هو بتضعيف فضل ما يحصل فيها من الأعمال الصالحة، واستجابة الدعاء، ووفرة ثواب الصدقات، والبركة للأمة فيها؛ لأن تفاضل الأيام لا يكون بمقادير أزمنتها، ولا بما يحدث فيها من حر أو برد، أو مطر، ولا بطولها أو بقصرها؛ فإن تلك الأحوال غير معتد بها عند الله ـتعالىـ ولكن الله يعبأ بما يحصل من الصلاح للناس أفراداً وجماعات، وما يعين على الحق والخير ونشر الدين.

وقد قال في فضل الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فكذلك فضل الأزمان إنما يقاس بما يحصل فيها؛ لأنها ظروف للأعمال، وليست لها صفات ذاتية يمكن أن تتفاضل بها كتفاضل الناس؛ ففضلها بما أعده الله لها من التفضيل كتفضيل ثلث الليل الأخير للقربات.

وعَدَدُ الأَلْفِ يظهر أنه مستعمل في وفرة التكثير كقوله: «واحد كألف».

وعليه جاء قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وإنما جعل تمييز عدد الكثرة هنا بالشهر؛ للرعي على الفاصلة التي هي بحرف الراء.

وفي الموطأ: «قال مالك: إنه سمع من يثق به من أهل العلم يقول إن رسول الله ﷺ أري أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك؛ فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثلما بلغ غيرهم في طول العمر؛ فأعطاه الله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾» اهـ. ٤٥٩/٣٠

٩ ـ **ومما ينبغي التنبيه له** ما وقع في جامع الترمذي بسنده إلى القاسم بن الفضل الحداني عن يوسف بن سعد قال: «قام رجل إلى الحسن بن علي بعدما بايع معاوية فقال: سودت وجوه المؤمنين، أو يا مسود وجوه المؤمنين فقال: لا تؤنبني رحمك الله فإن النبي ﷺ أري بني أمية على منبره فساءه ذلك، فنزلت: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ يا محمد يعني نهراً في الجنة، ونزلت: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)﴾ يملكها بنو أمية يا محمد.

قال القاسم: فعددناها فإذا هي ألف شهر لا يزيد يوم ولا ينقص».

قال أبو عيسى الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه،

وقد قيل عن القاسم بن الفضل عن يوسف بن مازن نعرفه، والقاسم بن الفضل ثقة، ويوسف بن سعد رجل مجهول» اهـ.

قال ابن كثير في تفسيره: «ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن كذا قال، وعيسى بن مازن غير معروف، وهذا يقتضي اضطراباً في هذا الحديث، أي لاضطرابهم في الذي يروي عنه القاسم بن الفضل، وعلى كل احتمال فهو مجهول».

وأقول: وأيضاً ليس في سنده ما يفيد أن يوسف بن سعد سمع ذلك من الحسن رضي الله عنه.

وفي تفسير الطبري عن عيسى بن مازن أنه قال: قلت للحسن: يا مسود وجوه المؤمنين إلى آخر الحديث، وعيسى بن مازن غير معروف أصلاً، فإذا فرضنا توثيق يوسف بن سعد فليس في روايته ما يقتضي أنه سمعه، بل يجوز أن يكون أراد ذكر قصة تروى عن الحسن.

واتفق حذاق العلماء على أنه حديث منكر صرَّح بذلك ابن كثير، وذكره عن شيخه المزي، وأقول: هو مختل المعنى، وسمات الوضع لائحة عليه وهو من وضع أهل النحل المخالفة للجماعة؛ فالاحتجاج به لا يليق أن يصدر مثله عن الحسن مع فرط علمه وفطنته، وأَيَّةُ مُلازمةٍ بين ما زعموه من رؤيا رسول الله ﷺ وبين دفع الحسن التأنيب عن نفسه؟.

ولا شك أن هذا الخبر من وضع دعاة العباسيين على أنه مخالف للواقع؛ لأن المدة التي بين تسليم الحسن الخلافة إلى معاوية، وبين بيعة السفاح وهو أول خلفاء العباسية ألف شهر واثنان وتسعون شهراً أو أكثر بشهر أو بشهرين؛ فما

نسب إلى القاسم الحداني من قوله: «فعددناها فوجدناها» الخ كذب لا محالة.

والحاصل أن هذا الخبر الذي أخرجه الترمذي منكر كما قاله المزي. ٤٦١-٤٥٩/٣٠

١٠- **وحكمة إخفاء تعيينها** إرادة أن يكرر المسلمون حسناتهم في ليال كثيرة؛ توخياً لمصادفة ليلة القدر كما أخفيت ساعة الإجابة يوم الجمعة. ٤٦٢/٣٠

١١- **هذا محصل ما أفاده القرآن في فضل ليلة القدر من كل عام**، ولم يبين أنها أية ليلة، ولا من أي شهر، وقد قال -تعالى-: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ فتبين أن ليلة القدر الأولى هي من ليالي شهر رمضان لا محالة؛ فبنا أن نتطلب تعيين ليلة القدر الأولى التي ابتدئ إنزال القرآن فيها؛ لنطلب تعيين ما يماثلها من ليالي رمضان في جميع السنين، وتعيين صفة المماثلة، والمماثلة تكون في صفات مختلفة.

فلا جائز أن تماثلها في اسم يومها نحو الثلاثاء أو الأربعاء، ولا في الفصل من شتاء أو صيف أو نحو ذلك مما ليس من الأحوال المعتبرة في الدين؛ فعلينا أن نتطلب جهة من جهات المماثلة لها في اعتبار الدين وما يرضي الله.

وقد اختلف في تعيين المماثلة اختلافاً كثيراً وأصح ما يعتمد في ذلك: أنها من ليالي شهر رمضان من كل سنة، وأنها من ليالي الوتر كما دل عليه الحديث الصحيح: «**تحروا ليلة القدر في الوتر في العشر الأواخر من رمضان**».

والوتر: أفضل الأعداد عند الله كما دل عليه حديث: «**إن الله وتر يحب الوتر**».

وأنها ليست ليلة معينة مطردة في كل السنين بل هي متنقلة في الأعوام، وأنها في رمضان.

وإلى هذا ذهب مالك، والشافعي، وأحمد، وأكثر أهل العلم، قال ابن رشيد: وهو أصح الأقاويل، وأولاها بالصواب، وعلى أنها متنقلة في الأعوام، فأكثر أهل العلم على أنها لا تخرج عن شهر رمضان.

والجمهور على أنها لا تخرج عن العشر الأواخر منه، وقال جماعة: لا تخرج عن العشر الأواسط، والعشر الأواخر.

وتأولوا ما ورد من الآثار ضبطها على إرادة الغالب أو إرادة عام بعينه.

ولم يرد في تعيينها شيء صريح يروى عن النبيﷺ لأن ما ورد في ذلك من الأخبار محتمل لأنْ يكون أراد به تعيينها في خصوص السنة التي أخبر عنها وذلك مبسوط في كتب السنة؛ فلا نطيل به، وقد أتى ابن كثير منه بكثير. ٣٠/٤٦٢-٤٦٣

سورة البينة

١ـ وردت تسمية هذه السورة في كلام النبيﷺ ﴿ لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾.

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن النبيﷺ قال لأبي بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: وسماني لك؟ قال: نعم، فبكى**».

فقوله: أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ واضح أنه أراد السورة كلها؛ فسماها بأول جملة فيها.

وسميت هذه السورة في معظم كتب التفسير وكتب السنة سورة (لم يكن) بالاقتصار على أول كلمة منها، وهذا الاسم هو المشهور في تونس بين أبناء الكتاتيب.

وسميت في أكثر المصاحف (سورة القيمة) وكذلك في بعض التفاسير، وسميت في بعض المصاحف (سورة البينة).

وذكر في الإتقان أنها سميت في مصحف أُبَيٍّ (سورة أهل الكتاب) أي لقوله ـتعالىـ: ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وسميت سورة (البرية) وسميت (سورة الانفكاك) فهذه ستة أسماء.

واختلف في أنها مكية أو مدنية، قال ابن عطية: الأشهر أنها مكية وهو قول جمهور المفسرين.

وعن ابن الزبير وعطاء بن يسار هي مدنية.

وعكس القرطبي فنسب القول بأنها مدنية إلى الجمهور وابن عباس، والقول

بأنها مكية إلى يحيى بن سلام.

وأخرج ابن كثير عن أحمد بن حنبل بسنده إلى أبي حبة البدري قال: «لما نزلت ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلى آخرها قال جبريل: **يا رسول الله إن الله يأمرك أن تقرئها أبياً**» الحديث.

أي وأبي من أهل المدينة.

وجزم البغوي، وابن كثير بأنها مدنية، وهو الأظهر؛ لكثرة ما فيها من تخطئة أهل الكتاب، ولحديث أبي حبة البدري، وقد عدها جابر بن زيد في عداد السور المدنية، قال ابن عطية: «إن النبيﷺ إنما دفع إلى مناقضة أهل الكتاب بالمدينة».

وقد عدت المائة وإحدى في ترتيب النزول نزلت بعد سورة الطلاق، وقبل سورة الحشر، فتكون نزلت قبل غزوة بني النضير، وكانت غزوة النضير سنة أربع في ربيع الأول؛ فنزول هذه السورة آخر سنة ثلاث أو أول سنة أربع.

وعدد آياتها ثمان عند الجمهور، وعدها أهل البصرة تسع آيات.

٣٠/٤٦٧ـ٤٦٨

٢ـ **أغراضها**: توبيخُ المشركين وأهل الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسولﷺ.

والتعجيبُ من تناقض حالهم؛ إذ هم ينتظرون أن تأتيَهم البينةُ، فلما أتتهم البينةُ كفروا بها.

وتكذيبُهم في ادعائهم أن اللهَ أوجب عليهم التمسكَ بالأديان التي هم عليها.

ووعيدُهم بعذابِ الآخرة، والتسجيلُ عليهم بأنهم شرُّ البرية.

والثناءُ على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وَوَعْدُهُم بالنعيم الأبدي ورضى

اللهِ عنهم، وإعطائه إياهم ما يرضيهم.

وتخلل ذلك تنويهٌ بالقرآن، وفضله على غيره باشتماله على ما في الكتب الإلهية التي جاء بها الرسولﷺ من قبل وما فيه من فضل وزيادة. ٤٦٨/٣٠

٣ـ قال ـتعالى ـ: ﴿ لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) ﴾.

وقد تعددت أقوال المفسرين، فبلغت بضعة عشر قولاً ذكر الآلوسي أكثرها، وذكر القرطبي معظمها غير معزو، وتداخل بعض ما ذكره الآلوسي، وزاد أحدهما ما لم يذكره الآخر.

ومراجع تأويل الآية تؤول إلى خمسة:

الأول: تأويل الجملة بأسرها بأن يؤول الخبر إلى معنى التوبيخ والتعجيب، وإلى هذا ذهب الفراء، ونفطويه، والزمخشري.

الثاني: تأويل معنى ﴿مُنفَكِّينَ﴾ بمعنى الخروج عن إمهال الله إياهم، ومصيرهم إلى مؤاخذتهم، وهو لابن عطية.

الثالث: تأويل متعلق ﴿مُنفَكِّينَ﴾ بأنه عن الكفر وهو لعبدالجبار، أو عن الاتفاق على الكفر وهو للفخر وأبي حيان، أو منفكين عن الشهادة للرسولﷺ بالصدق قبل بعثته وهو لابن كيسان عبدالرحمن الملقب بالأصم، أو منفكين عن الحياة، أي هالكين، وعزي إلى بعض اللغويين.

الرابع: تأويل ﴿حَتَّى﴾ أنها بمعنى (إنْ) الاتصالية، والتقدير: وإن جاءتهم البينة.

الخامس: تأويل ﴿رَسُولٌ﴾ بأنه رسول من الملائكة يتلو عليهم صحفاً من عند الله، فهو في معنى قوله -تعالى-: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنْ السَّمَاءِ﴾.

وعزاه الفخر إلى أبي مسلم، وهو يقتضي صرف الخبر إلى التهكم.

هذا والمراد بـ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أنهم كفروا برسالة محمدﷺ مثل ما في قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

وأنت لا يعوزك إرجاعُ أقوال المفسرين إلى هذه المعاقد، فلا نحتاج إلى التطويل بذكرها؛ فدونك فراجعها إن شئت؛ فبنا أن نهتم بتفسير الآية على الوجه البين.

إن هذه الآيات وردت مَوْرِدَ إقامةِ الحجة على الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب، وعلى المشركين بأنهم متنصلون من الحق، متعللون للإصرار على الكفر عناداً؛ فلنسلك بالخبر مسلك مورد الحجة، لا مسلك إفادة النسبة الخبرية؛ فتعين علينا أن نصرف التركيب عن استعمال ظاهره إلى استعمال مجازي على طريقة المجاز المرسل المركب من قبيل استعمال الخبر في الإنشاء، والاستفهام في التوبيخ، ونحو ذلك الذي قال فيه التفتزاني في المطول: إن بيان أنه من أي أنواع النجاز هو مما لم يَحُمْ أحدٌ حوله، والذي تصدى السيد الشريف لبيانه بما لا يبقي فيه شبهة.

فهذا الكلام مسوق مساق نقل الأقوال المستغربة المضطربة الدالة على عدم ثبات آراء أصحابها؛ فهو من الحكاية لما كانوا يعدون به فهو حكاية بالمعنى كأنه

قيل: كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه حتى تأتينا البينة، وهذا تعريض بالتوبيخ بأسلوب الإخبار المستعمل في إنشاء التعجيب أو الشكاية من صلف المخبر عنه، وهو استعمال عزيز بديع وقريب منه قوله ـتعالى ـ: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ إذ عبر بصيغة يحذر، وهم إنما تظاهروا بالحذر، ولم يكونوا حاذرين حقاً؛ ولذلك قال الله ـتعالى ـ: ﴿ قُلْ اسْتَهْزِئُوا ﴾.

فالخبر موجَّهٌ لكل سامع، ومضمونه قول: «كان صدر من أهل الكتاب، واشتهر عنهم، وعرفوا به وتقرر تعلل المشركين به لأهل الكتاب حين يدعونهم إلى اتباع اليهودية أو النصرانية، فيقولوا: لم يأتنا رسول كما أتاكم قال ـتعالى ـ: ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ ﴾.

وتقرر تعلل أهل الكتاب به حين يدعوهم النبيﷺ للإسلام، قال ـتعالى ـ: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾ الآية.

وشيوعه عن الفريقين قرينة على أن المراد من سياقه دمغهم بالحجة، وبذلك كان التعبير بالمضارع المستقبل في قوله: ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ مصادفاً المَحَزَّ؛ فإنهم كانوا يقولون ذلك قبل مجيء الرسولﷺ.

وقريب منه قوله ـتعالى ـ في أهل الكتاب: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾.

وحاصل المعنى: أنكم كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه من الدين حتى تأتينا البينة، أي العلامة التي وعدنا بها.

وقد جعل ذلك تمهيداً وتوطئة لقوله بعده: ﴿رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ الخ.

وإذ اتضح موقع هذه الآية، وانقشع أشكالها فلننتقل إلى تفسير ألفاظ الآية. ٤٧٢_٤٧٠/٣٠

سورة الزلزلة

١ـ **سميت هذه السورة في كلام الصحابة سورة** ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ روى الواحدي في أسباب النزول عن عبد الله بن عمرو: «نَزَلَتْ إذا زلزلت وأبو بكر قاعد فبكى» الحديث[١].

وفي حديث أنس بن مالك مرفوعاً عند الترمذي ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ تعدل نصف القرآن، وكذلك عنونها البخاري، والترمذي.

وسميت في كثير من المصاحف، ومن كتب التفسير (سورة الزلزال).

وسميت في مصحف بخط كوفي قديم من مصاحف القيروان (زلزلت) وكذلك سماها في الإتقان في السور المختلف في مكان نزولها، وكذلك تسميتها في تفسير ابن عطية، ولم يعدها في الإتقان في عداد السور ذوات أكثر من اسم؛ فكأنه لم ير هذه ألقاباً لها، بل جعلها حكاية بعض ألفاظها، ولكن تسميتها سورة الزلزلة تسمية بالمعنى لا بحكاية بعض كلماتها.

واختلف فيها، فقال ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، وعطاء، والضحاك: هي مكية، وقال قتادة، ومقاتل: مدنية، ونسب إلى ابن عباس ـأيضاًـ.

والأصح أنها مكية، واقتصر عليه البغوي، وابن كثير، ومحمد بن الحسن النيسابوري في تفاسيرهم.

وذكر القرطبي عن جابر أنها مكية، ولعله يعني: جابر بن عبد الله الصحابي؛

١ـ تمامه: فقال له رسول الله ﷺ: «**ما يبكيك يا أبا بكر**»؟ فقال: أبكاني هذه السورة، فقال النبي ﷺ: «**لو أنكم لا تخطئون ولا تذنبون لخلق الله أمة بعدكم يخطئون ويذنبون ويستغفرون فيغفر لهم**».

لأن المعروف عن جابر بن زيد أنها مدنية؛ فإنها معدودة في نزول السور المدنية فيما روي عن جابر بن زيد.

وقال ابن عطية: «آخرها وهو ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه﴾ الآية نزل في رجلين كانا بالمدينة» اهـ.

وستعلم أنه لا دلالة فيه على ذلك.

وقد عدت الرابعة والتسعين في عداد نزول السور فيما روي عن جابر بن زيد، ونظمه الجعبري وهو بناء على أنها مدنية جعلها بعد سورة النساء، وقبل سورة الحديد.

وعدد آيها تسع عند جمهور أهل العدد، وعدها أهل الكوفة ثماني؛ للاختلاف في أن قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ آيتان أو آية واحدة. ٤٨٩/٣٠ـ٤٩٠

٢ـ **أغراضها:** إثباتُ البعثِ، وذكرُ أشراطِه، وما يعتري الناس عند حدوثها من الفزع.

وحضورُ الناس للحشر، وجزائهم على أعمالهم من خير أو شر، وهو تحريضٌ على فعل الخير، واجتناب الشر. ٤٩٠/٣٠

٣ـ **والتعريف في ﴿الإِنسَانُ﴾**: تعريف الجنس المفيد للاستغراق، أي وقال الناس: ما لها، أي الناس الذين هم أحياء، ففزعوا، وقال بعضهم لبعض، أو قال كل أحد في نفسه حتى استوى في ذلك الجبان والشجاع، والطائش والحكيم؛ لأنه زلزال تجاوز الحد الذي يصبر على مثله الصبور. ٤٩١/٣٠

٤ ـ قال ـتعالى ـ: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

شَرّاً يَرَه (٨) ﴾.

وهذه الآية معدودة من جوامع الكلم، وقد وصفها النبيﷺ بالجامعة الفاذة ففي الموطأ أن النبيﷺ قال: «**الخيل لثلاثة**» الحديث، فسئل عن الحمر فقال: «**لم ينزل علي فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة**: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه ﴾.

وعن عبدالله بن مسعود أنه قال: «**هذه أحكم آية في القرآن**».

وقال الحسن: قدم صعصعة بن ناجية جد الفرزدق على النبيﷺ يستقرئ النبي القرآن، فقرأ عليه هذه الآية فقال صعصعة: «حسبي؛ فقد انتهت الموعظة لا أبالي أن لا أسمع من القرآن غيرها».

وقال كعب الأحبار لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه ﴾.

وإذ قد كان الكلام مسوقاً للترغيب والترهيب معاً أُوثِرَ جانب الترغيب بالتقديم في التقسيم؛ تنويهاً بأهل الخير. ٣٠/٤٩٥

سورة العاديات

١ـ **سميت في المصاحف القيروانية العتيقة والتونسية والمشرقية** (سورة العاديات) بدون واو، وكذلك في بعض التفاسير؛ فهي تسمية لما ذكر فيها دون حكاية لفظه.

وسميت في بعض كتب التفسير (سورة والعاديات) بإثبات الواو.

واختلف فيها، فقال ابن مسعود، وجابر بن زيد، وعطاء، والحسن، وعكرمة: هي مكية، وقال أنس بن مالك، وابن عباس، وقتادة: هي مدنية.

وعدت الرابعة عشرة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد بناءً على أنها مكية نزلت بعد سورة العصر، وقبل سورة الكوثر.

وآيها إحدى عشرة.

ذكر الواحدي في أسباب النزول عن مقاتل وعن غيره أن رسول الله ﷺ بعث خيلاً سرية إلى بني كنانة، وأمر عليها المنذر بن عمرو الأنصاري؛ فأسهبت ـ أي أمعنت في سهب، وهي الأرض الواسعة ـ شهراً وتأخر خيرهم[1] فأرجف المنافقون وقالوا: قتلوا جميعاً، فأخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ الآيات؛ إعلاماً بأن خيلهم قد فعلت جميع ما في تلك الآيات.

وهذا الحديث قال في الإتقان: «رواه الحاكم وغيره».

وقال ابن كثير: «روى أبو بكر البزار هنا حديثاً غريباً جداً» وساق الحديث قريباً مما للواحدي.

١ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: خبرهم. (م).

وأقول غرابة الحديث لا تناكد قبوله، وهو مروي عن ثقات إلا أن في سنده حفص بن جميع وهو ضعيف؛ فالراجح أن السورة مدنية. ٤٩٧/٣٠

٢ـ **أغراضها**: ذمُّ خصالٍ تُفضي بأصحابها إلى الخسران في الآخرة، وهي خصالٌ غالية على المشركين والمنافقين، ويراد تحذير المسلمين منها.

ووعظُ الناسِ بأن وراءهم حساباً على أعمالهم بعد الموت؛ ليتذكره المؤمن، ويُهَدَّد به الجاحد.

وأُكِّد ذلك كلُّه بأن اُفتُتِحَ بالقسم، وأُدْمِج في القسم التنويهُ بخيل الغزاة، أو رواحل الحجيج. ٤٩٨/٣٠

٣ـ **والضبح**: اضطراب النفس المتردد في الحنجرة دون أن يخرج من الفم، وهو من أصوات الخيل والسباع.

وعن عطاء: سمعت ابن عباس يصف الضبح أح أح.

وعن ابن عباس: «ليس شيء من الدواب يضبح غير الفرس، والكلب، والثعلب».

وهذا قول أهل اللغة، واقتصر عليه في القاموس.

روى ابن جرير بسنده إلى ابن عباس قال: «بينما أنا جالس في الحجر جاءني رجل فسألني عن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم، فانفتل عني فذهب إلى علي بن أبي طالب وهو تحت سقاية زمزم فسأله عنها، فقال: سألت عنها أحد قبلي؟ قال: نعم، سألت ابن عباس فقال: الخيل تغزو في سبيل الله، قال اذهب فادعه لي، فلما وقفت عند رأسه، قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله

لكانت أول غزوة في الإسلام لبدر، وما كان معنا إلا فرسان: فرسٌ للزبير، وفرسٌ للمقداد؛ فكيف تكون العاديات ضبحاً؟ إنما العاديات ضبحاً الإبل من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى يعني بذلك أن السورة مكية قبل ابتداء الغزو الذي أوله غزوة بدر، قال ابن عباس: فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال علي».

وليس في قول علي رضي الله عنه تصريح بأنها مكية ولا مدنية، وبمثل ما قال علي، قال ابن مسعود، وإبراهيم، ومجاهد، وعبيد بن عمير. **٣٠/٤٩٨ـ٤٩٩**

٤ـ **والضبح** لا يطلق على صوت الإبل في قول أهل اللغة؛ فإذا حمل ﴿الْعَادِيَاتِ﴾ على أنها الإبل، فقال المبرد وبعض أهل اللغة: «من جعلها للإبل جعل ﴿ضَبْحاً﴾ بمعنى ضبعاً، يقال: ضبحت الناقة في سيرها وضبعت، إذا مدت ضبعيها في السير».

وقال أبو عبيدة: «ضبحت الخيل وضبعت إذا عدت، وهو أن يمد الفرس ضبعيه إذا عدا» أي فالضبح لغة في الضبع وهو من قلب العين حاء.

قال في الكشاف «وليس بثبت».

ولكن صاحب القاموس اعتمده وعلى تفسير (العاديات) بأنها الإبل يكون الضبح استعير لصوت الإبل، أي من شدة العدو قويت الأصوات المترددة في حناجرها حتى أشبهت ضبح الخيل، أو أريد بالضبح الضبع على لغة الإبدال. ٣٠/٤٩٩

٥ـ وإذا فسر ﴿الْمُغِيرَاتِ﴾ بالإبل المسرعات في السير، فالمراد: دفعها من مزدلفة إلى منى صباح يوم النحر وكانوا يدفعون بكرة عندما تشرق الشمس على

ثبير، ومن أقوالهم في ذلك: «أشْرِقْ ثَبير كيما نغير».

و﴿ أَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾: أصعدن الغبار من الأرض من شدة عدوهن، والإثارة: الإهاجة، والنقع: الغبار. ٥٠٠/٣٠ـ٥٠١

٦ـ **ومن بديع النظم وإعجازه إيثار كلمات «العاديات وضبحاً، والموريات وقدحاً، والمغيرات وصبحاً، ووسطن وجمعاً»** دون غيرها؛ لأنها برشقاتها[1] تتحمل أن يكون المقسم به خيل الغزو، ورواحل الحج. ٥٠١/٣٠

٧ـ **والكنود**: وصف من أمثلة المبالغة من كند، ولغات العرب مختلفة في معناه؛ فهو في لغة مضر وربيعة: الكفور بالنعمة، وبلغة كنانة: البخيل، وفي لغة كندة وحضرموت: العاصي، والمعنى: الشديد الكفران لله.

والتعريف في ﴿ الإِنسَانَ ﴾ تعريف الجنس وهو يفيد الاستغراق غالباً، أي أن في طبع الإنسان الكنود لربه، أي كفران نعمته، وهذا عارض يعرض لكل إنسان على تفاوت فيه، ولا يسلم منه إلا الأنبياء، وكُمَّلُ أهل الصلاح؛ لأنه عارض ينشأ عن إيثار المرء نفسه، وهو أمر في الجبلة لا تدفعه إلا المراقبة النفسية، وتذكُّرُ حقِّ غيره.

وبذلك قد يذهل أو ينسى حق الله، والإنسان يحس بذلك من نفسه في خطراته، ويتوانى أو يغفل عن مقاومته؛ لأنه يشتغل بإرضاء داعية نفسه، والأنفس متفاوتة في تمكن هذا الخلق منها، والعزائم متفاوتة في استطاعة مغالبته. ٥٠٢/٣٠ـ٥٠٣

١ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: برشاقتها. (م).

سورة القارعة

١ ـ اتفقت المصاحف، وكتب التفسير، وكتب السنة على تسمية هذه السورة (سورة القارعة) ولم يُرْوَ شيء في تسميتها من كلام الصحابة والتابعين.

واتفق على أنها مكية.

وعدت الثلاثين في عداد نزول السور نزلت بعد سورة قريش وقبل سورة القيامة.

وآيها عشر في عد أهل المدينة وأهل مكة، وثمان في عد أهل الشام والبصرة، وإحدى عشرة في عد أهل الكوفة. ٥٠٩/٣٠

٢ـ أغراضُها: ذُكِرَ فيها إثباتُ وقوعِ البعث، وما يسبق ذلك من الأهوال.

وإثباتُ الجزاءِ على الأعمال، وأن أهلَ الأعمالِ الصالحة المعتبرةِ عند الله في نعيم، وأهلَ الأعمالِ السيئةِ التي لا وزن لها عند الله في قعر الجحيم. ٥٠٩/٣٠

٣ـ في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥)﴾.

والمقصود بهذا التوقيت زيادةُ التهويل بما أضيف إليه ﴿يَوْمَ﴾ من الجملتين المفيدتين أحوالاً هائلة، إلا أن شأن التوقيت أن يكون بزمان معلوم، وإذ قد كان هذا الحال الموقت بزمانه غير معلوم مداه ـ كان التوقيت له إطماعاً في تعيين وقت حصوله؛ إذ كانوا يسألون متى هذا الوعد، ثم توقيته بما هو مجهول لهم إبهاماً آخر للتهويل والتحذير من مفاجأته، وأُبْرِزَ في صورة التوقيت للتشويق إلى البحث عن تقديره، فإذا باءَ الباحث بالعجز عن أخذٍ بحيطة الاستعداد؛ لحلوله

بما ينجيه من مصائبه التي قرعت به الأسماع في آي كثيرة.

فحصل في هذه الآية تهويلٌ شديدٌ بثمانية طرق: وهي الابتداء باسم القارعة المؤذن بأمر عظيم، والاستفهام المستعمل في التهويل، والإظهار في مقام الإضمار أول مرة، والاستفهام عما ينبئ بِكُنْه القارعة، وتوجيه الخطاب إلى غير معين، والإظهار في مقال الإضمار ثاني مرة، والتوقيت بزمان مجهول حصوله وتعريف ذلك الوقت بأحوال مهولة. ٣٠/٥١١-٥١٢

٤ـ وقوله: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾: إخبار عنه بالشقاء وسوء الحال، فالأم هنا يجوز أن تكون مستعملة في حقيقتها.

وهاوية: هالكة، والكلام تمثيل لحال من خفت موازينه يومئذ بحال الهالك في الدنيا؛ لأن العرب يكنون عن حال المرء بحال أمه في الخير والشر؛ لشدة محبتها ابنَها؛ فهي أشد سروراً بسروره، وأشد حزناً بما يحزنه.

صلى أعرابي وراء إمام فقرأ الإمام: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ فقال الأعرابي: «لقد قرَّت عين أم إبراهيم».

ومنه قول ابن زيابة حين تهدده الحارث بن همام الشيباني:

يا لهف زيابة للحارث الصا ... بح فالغانم فالآيب

ويقولون في الشر: هوت أمه، أي أصابه ما تهلك به أمه، وهذا كقولهم: ثكلته أمه، في الدعاء، ومنه ما يستعمل في التعجب وأصله الدعاء كقول كعب ابن سعد الغنوي في رثاء أخيه أبي المغوار:

هوت أمه ما يبعث الصبح غادياً ... وماذا يرد الليل حين يؤوب

أي ماذا يبعث الصبح منه غادياً، وما يرد الليل حين يؤوب غانماً، وحذف منه

في الموضعين؛ اعتماداً على قرينة رفع الصبح والليل وذكر: غادياً ويؤوب و(من) المقدرة تجريدية، فالكلام على التجريد مثل: لقيت منه أسداً.

فاستعمل المركب الذي يقال عند حال الهلاك وسوء المصير في الحالة المشبهة بحال الهلاك، ورمز إلى التشبيه بذلك المركب، كما تضرب الأمثال السائرة.

ويجوز أن يكون ﴿أُمُّهُ﴾ مستعاراً لمقره ومآله؛ لأنه يأوي إليه كما يأوي الطفل إلى أمه.

و﴿هَاوِيَةٌ﴾ المكان المنخفض بين الجبلين الذي إذا سقط فيه إنسان أو دابة هلك يقال: سقط في الهاوية.

وأريد بها جهنم، وقيل: هي اسم لجهنم، أي فمأواه جهنم.

ويجوز أن يكون ﴿أُمُّهُ﴾ على حذف مضاف، أي أم رأسه وهي أعلى الدماغ، وهاوية: ساقطة من قولهم: سقط على أم رأسه، أي هلك. ٣٠/٥١٤-٥١٥

سورة التكاثر

١ ـ قال الآلوسي أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمونها (المقبرة)» اهـ.

وسميت في معظم المصاحف ومعظم التفاسير (سورة التكاثر) وكذلك عنونها الترمذي في جامعه، وهي كذلك معنونة في بعض المصاحف العتيقة بالقيروان.

وسميت في بعض المصاحف: (سورة ألهاكم) وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه.

وهي مكية عند الجمهور قال ابن عطية: «هي مكية لا أعلم فيها خلافاً».

وعن ابن عباس والكلبي ومقاتل: أنها نزلت في مفاخرة جرت بين بني عبدمناف وبني سهم في الإسلام ـكما يأتي قريباًـ وكانوا من بطون قريش بمكة، ولأن قبور أسلافهم بمكة.

وفي الإتقان: المختار أنها مدنية، قال: ويَدَلُّ له ما أخرجه ابن أبي حاتم أنها نزلت في قبيلتين من الأنصار تفاخروا، وما أخرجه البخاري عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**».

قال أُبيٌّ: «كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾» اهـ.

يريد المستدل بهذا أن أبياً أنصاريٌّ، وأن ظاهرَ قوله: «حتى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾» أنها نزلت بعد أن كانوا يعدون «**لو أن لابن آدم وادياً من ذهب الخ من القرآن**».

وليس في كلام أُبيٍّ دليل ناهض؛ إذ يجوز أن يريد بضمير (كنا) المسلمين، أي كان من سبق منهم يعد ذلك من القرآن حتى نزلت سورة التكاثر وبين لهم النبيﷺ أن ما كانوا يقولونه ليس بقرآن.

والذي يظهر من معاني السورة، وغلظةِ وعيدها أنها مكية، وأن المخاطب بها فريق من المشركين؛ لأن ما ذكر فيها لا يليق بالمسلمين أيامئذ.

وسبب نزولها ـفيما قاله الواحدي والبغوي عن مقاتل والكلبي والقرطبي عنهما وعن ابن عباسـ: أن بني عبدمناف وبني سهم من قريش تفاخروا، فتعادّوا السادة والأشراف من أيهم أكثر عدداً؛ فكثر بنو عبدمناف بني سهم ثم قالوا نعد موتانا حتى زاروا القبور؛ فعدوا القبور؛ فَكَثَرَهم بنو سهم بثلاثة أبيات؛ لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بريدة الجرمي قال: نزلت في قبيلتين من الأنصار بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا بالأحياء ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور؛ فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان، تشير إلى القبر، ومثل فلان، وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾.

وقد عدت السادسة عشرة في ترتيب نزول السور، ونزلت بعد سورة الكوثر، وقبل سورة الماعون؛ بناءً على أنها مكية.

وعدد آياتها ثمان. ٣٠/٥١٧ـ٥١٨

٢ـ أغراضها: اشتملت على التوبيخِ على اللهو عن النظرِ في دلائل القرآن، ودعوة الإسلامِ بإيثار المال، والتكاثر به، والتفاخر بالأسلاف، وعدمِ الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا في القبور كما صار مَنْ كان قبلَهم، وعلى الوعيد على ذلك.

وحثهم على التدبر فيما يُنْجِيهم من الجحيم.

وأنهم مبعوثون ومسؤولون عن إهمال شكر المنعم العظيم. ٥١٨/٣٠

٣ـ في قوله: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ غاية؛ فيحتمل أن يكون غاية لفعل ﴿أَلْهَاكُمْ﴾ كما في قوله ـتعالىـ: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ أي دام إلهاء التكاثر إلى أن زرتم المقابر، أي استمر بكم طول حياتكم؛ فالغاية مستعملة في الإحاطة بأزمان المُغَيَّا لا في تنهيته، وحصول ضده؛ لأنهم إذا صاروا إلى المقابر انقطعت أعمالهم كلها.

ولكون زيارة المقابر على هذا الوجه عبارة عن الحلول فيها، أي قبور المقابر ـوحقيقة الزيارة الحلول في المكان حلولاً غير مستمرـ فأطلق فعل الزيارة هنا؛ تعريضاً بهم بأن حلولهم في المقابر يعقبهم خروجٌ منها.

والتعبير بالفعل الماضي في ﴿زُرْتُمْ﴾ لتنزيل المستقبل منزلة الماضي؛ لأنه محقق وقوعه مثل قوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾.

ويحتمل أن تكون الغاية للمتكاثر به الدال عليه التكاثر، أي بكل شيء حتى بالقبور تعدونها.

وهذا يجري على ما روى مقاتل والكلبي أن بني عبدمناف وبني سهم تفاخروا بكثرة السادة منهم، كما تقدم في سبب نزولها آنفاً، فتكون الزيارة مستعملة في معناها الحقيقي، أي زرتم المقابر؛ لتعدوا القبور، والعرب يكنون بالقبر عن صاحبه، قال النابغة:

لئن كان للقبرين قبر بجلق ... وقبر بصيداء الذي عند حاربِ

وقال عصام بن عبيد الزماني، أو همام الرَّقَاشي:

لـو عـدَّ قـبر وقـبر كنـت أقـربهـم قـبراً وأبعـدهم مـن منـزل الـذام

أي كنت أقربهم منك قبراً ، أي صاحب قبر.

والمقابر جمع مقبرة بفتح الموحدة وبضمها ، والمقبرة الأرض التي فيها قبور كثيرة. ٣٠/٥٢٠ـ٥٢١

سورة العصر

١ـ ذكر ابن كثير أن الطبراني روى بسنده عن عبيدالله بن حصين قال: «كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر» الخ ما سيأتي.

وكذلك تسميتها في مصاحف كثيرة، وفي معظم كتب التفسير، وكذلك هي في مصحف عتيق بالخط الكوفي من المصاحف القيروانية في القرن الخامس.

وسميت في بعض كتب التفسير، وفي صحيح البخاري (سورة العصر) بإثبات الواو على حكاية أول كلمة فيها، أي سورة هذه الكلمة.

وهي مكية في قول الجمهور، وإطلاق جمهور المفسرين، وعن قتادة ومجاهد ومقاتل أنها مدنية، وروي عن ابن عباس، ولم يذكرها صاحب الإتقان في عداد السور المختلف فيها.

وقد عدت الثالثة عشرة في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الانشراح، وقبل سورة العاديات.

وآيها ثلاث آيات.

وهي إحدى سور ثلاث هن أقصر السور عدد آيات: هي، والكوثر، وسورة النصر.٥٢٧/٣٠

٢ـ **أغراضها**: واشتملت على إثباتِ الخسرانِ الشديدِ لأهل الشرك، ومَنْ كان مِثلَهم مِنْ أهلِ الكفر بالإسلام بعد أن بلغت دعوتُه، وكذلك مَنْ تقلَّد أعمالَ الباطلِ التي حذر الإسلامُ المسلمين منها.

وعلى إثبات نجاةِ وفوزِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والداعين منهم إلى الحق.

وعلى فضيلةِ الصبرِ على تزكية النفس ودعوةِ الحق.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ اتخذوها شعاراً لهم في ملتقاهم، روى الطبراني بسنده إلى عبيدالله بن عبدالله بن الحصين الأنصاري -من التابعين- أنه قال: «كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر -أي سلام التفرق- وهو سنة -أيضاً- مثل سلام القدوم».

وعن الشافعي: «لو تدبَّرَ الناسُ هذه السورةَ لَوَسعتهم».

وفي رواية عنه: «لو لم ينزلْ إلى الناس إلا هي لكفتهم».

وقال غيره: «إنها شملت جميع علوم القرآن» وسيأتي بيانه. **٣٠/٥٢٧-٥٢٨**

٣- **وللعصر معانٍ** يتعين أن يكون المراد منها لا يعدو أن يكون حالة دالة على صفة من صفات الأفعال الربانية، يتعين إما بإضافته إلى ما يقدر، أو بالقرينة، أو بالعهد.

وأَيّاً مَا كان المراد منه هنا فإن القسم به باعتبار أنه زمن يذكر بعظيم قدرة الله -تعالى- في خلق العالم وأحواله، وبأمور عظيمة مباركةٍ مثل الصلاة المخصوصة، أو عصر معين مبارك.

وأشهر إطلاق لفظ العصر أنه علم بالغلبة لوقت ما بين آخر وقت الظهر وبين اصفرار الشمس؛ فمبدؤه إذا صار ظل الجسم مثله بعد القدر الذي كان عليه عند

زوال الشمس، ويمتد إلى أن يصير ظل الجسم مِثْلَيْ قَدْرِهِ بعد الظل الذي كان له عند زوال الشمس، وذلك وقت اصفرار الشمس، والعصر مبدأ العشي، ويعقبه الأصيل والاحمرار وهو ما قبل غروب الشمس قال الحارث بن حلزة:

آنست نبأة وأفزعها القنـ ـاص عصراً وقد دنا الإمساء

فذلك وقت يؤذن بقرب انتهاء النهار، ويذكر بخلقة الشمس والأرض، ونظام حركة الأرض حول الشمس، وهي الحركة التي يتكون منها الليل والنهار كل يوم، وهو من هذا الوجه كالقسم بالضحى، وبالليل، والنهار، وبالفجر، من الأحوال الجوية المتغيرة بتغير توجه شعاع الشمس نحو الكرة الأرضية.

وفي ذلك الوقت يتهيأ الناس للانقطاع عن أعمالهم في النهار كالقيام على حقولهم وجناتهم، وتجاراتهم في أسواقهم، فيذكِّر بحكمة نظام المجتمع الإنساني، وما ألهم الله في غريزته من دأب على العمل، ونظام لابتدائه وانقطاعه، وفيه يتحفز الناس للإقبال على بيوتهم؛ لمبيتهم والتأنس بأهليهم وأولادهم؛ وهو من النعمة أو من النعيم، وفيه إيماء إلى التذكير بمثل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب والاكتهال والهرم.

وتعريفه باللام على هذه الوجوه تعريف العهد الذهني أي كل عصر.

ويطلق العصر على الصلاة الموقتة بوقت العصر؛ وهي صلاةٌ معظمة.

قيل: هي المراد بالوسطى في قوله ـتعالى ـ: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾.

وجاء في الحديث: «**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**».

وورد في الحديث الصحيح: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة**» فذكر «**ورجلٌ**

حلف يميناً فاجرة بعد العصر على سلعة لقد أعطي بها ما لم يعط» .

وتعريفه على هذا تعريف العهد، وصار علماً بالغلبة كما هو شأن كثير من أسماء الأجناس المعرفة باللام مثل العقبة.

ويطلق العصر على مدة معلومة لوجود جيل من الناس، أو ملك، أو نبي، أو دين، ويعين بالإضافة، فيقال: عصر الفطحل، وعصر إبراهيم، وعصر الإسكندر، وعصر الجاهلية؛ فيجوز أن يكون مراد هذا الإطلاق هنا، ويكون المعني به عصر النبيﷺ والتعريف فيه تعريف العهد الحضوري مثل التعريف في (اليوم) من قولك: فعلت اليوم كذا؛ فالقسم به كالقسم بحياته في قوله ـتعالىـ: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ قال الفخر: «فهو ـتعالىـ أقسم بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله ـتعالىـ: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، وبعمره في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾» . اهـ.

ويجوز أن يراد عصر الإسلام كله، وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالم، وقد مثل النبيﷺ عصر الأمة الإسلامية بالنسبة إلى عصر اليهود وعصر النصارى بما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس بقوله: «**مثل المسلمين، واليهود، والنصارى كمثل رجل استأجر أجراء يعملون له يوماً إلى الليل، فعملت اليهود إلى نصف النهار ثم قالوا لا حاجة لنا إلى أجرك وما عملنا باطل، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا، واستأجر قوماً أن يعملوا بقية يومهم، فعملوا حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليهما فأنتم هم**» .

فلعل ذلك التمثيل النبوي له اتصال بالرمز إلى عصر الإسلام في هذه الآية.

ويجوز أن يفسر العصر في هذه الآية بالزمان كله، فقال ابن عطية: «قال أبي ابن كعب: سألت رسول الله ﷺ عن العصر فقال: «**أقسم ربكم بآخر النهار**».

وهذه المعاني لا يفي باحتمالها غير لفظ العصر.

ومناسبة القسم بالعصر لغرض السورة على إرادة عصر الإسلام ظاهرة؛ فإنها بينت حال الناس في عصر الإسلام بين من كفر به، ومن آمن واستوفى حظه من الأعمال التي جاء بها الإسلام، ويعرف منه حال من أسلموا وكان في أعمالهم تقصير متفاوت.

أما أحوال الأمم التي كانت قبل الإسلام فكانت مختلفة بحسب مجيء الرسل إلى بعض الأمم، وبقاء بعضِ الأمم بدون شرائع متمسكة بغير دين الإسلام من الشرك، أو بدين جاء الإسلام بنسخه، مثل: اليهودية، والنصرانية.

قال ـتعالى ـ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ في سورة آل عمران. ٣٠/٥٢٨ـ٥٣٠

٤ـ ومن أكبر الأعمال الصالحات التوبة من الذنوب لمقترفيها؛ فمن تحقق فيه وصف الإيمان، ولم يعمل السيئات أو عملها وتاب منها فقد تحقق له ضد الخسران وهو الربح المجازي، أي حسن عاقبة أمره، وأما من لم يعمل الصالحات، ولم يتب من سيئاته فقد تحقق فيه حكم المستثنى منه وهو الخسران.

وهذا الخسر متفاوت؛ فأعظمه وخالده الخسر الْمُنجَرُّ عن انتفاء الإيمان بوحدانية الله وصدق الرسول ﷺ ودون ذلك تكون مراتب الخسر متفاوتة بحسب كثرة الأعمال السيئة ظاهرها وباطنها، وما حدده الإسلام لذلك من مراتب الأعمال وغفران بعض اللمم إذا ترك صاحبه الكبائر والفواحش وهو ما فسر به

قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾. ٥٣٢-٥٣١/٣٠

٥- **وتنكير ﴿خُسْرٍ﴾** يجوز أن يكون للتنويع، ويجوز أن يكون مفيداً للتعظيم والتعميم في مقام التهويل وفي سياق القسم. ٥٣٢/٣٠

٦- **وعُطف على عمل الصالحات التواصي بالحق والتواصي بالصبر** وإن كان ذلك من عمل الصالحات، عطف الخاص على العام للاهتمام به؛ لأنه قد يُغْفَلُ عنه يُظَنُّ أن العمل الصالح هو ما أثره عمل المرء في خاصته؛ فوقع التنبيه على أن من العمل المأمور به إرشاد المسلم غيره، ودعوته إلى الحق؛ فالتواصي بالحق يشمل تعليم حقائق الهدي وعقائد الصواب، وإراضة النفس على فهمها بفعل المعروف وترك المنكر.

والتواصي بالصبر عطف على التواصي بالحق عطف الخاص على العام -أيضاً- وإن كان خصوصه خصوصاً من وجه؛ لأن الصبر تحمل مشقة إقامة الحق وما يعترض المسلم من أذى في نفسه في إقامة بعض الحق. ٥٣٣-٥٣٢/٣٠

٧- **ومن الصبرِ الصبرُ على** ما يلاقيه المسلم إذا أمر بالمعروف من امتعاض بعض المأمورين به، أو من أذاهم بالقول كمن يقول لآمره: هلا نظرت في أمر نفسك، أو نحو ذلك.

وأما تحمل مشقة فعل المنكرات كالصبر على تجشم السهر في اللهو والمعاصي، والصبر على بشاعة طعم الخمر لشاربها - فليس من الصبر؛ لأن ذلك التحمل منبعث عن رجحان اشتهاء تلك المشقة على كراهية المشقة التي تعترضه في تركها. ٥٣٣/٣٠

٨- **والتخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها**، فإن الارتياض بالأخلاق

الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة؛ ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها، كما قال عمرو بن العاص:

إذا المرء لم يترك طعاماً يحبه ... ولم يَنْهَ قلباً غاوياً حيث يمما

فيوشك أن تلفى له الدهر سبةٌ ... إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

وكذلك الأعمال الصالحة كلها لا تخلو من إكراه النفس على ترك ما يميل إليه، وفي الحديث: «**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**».

وعن علي بن أبي طالب: «الصبر مطية لا تكبو». ٣٠/٥٣٣ـ٥٣٤

٩ـ **وأفادت صيغة التواصي بالحق وبالصبر** أن يكون شأن حياة المؤمنين قائماً على شيوع التآمر بهما ديدناً لهم، وذلك يقتضي اتصاف المؤمنين بإقامة الحق وصبرهم على المكاره في مصالح الإسلام وأمته؛ لما يقتضيه عرف الناس من أن أحداً لا يوصي غيره بملازمة أمر إلا وهو يرى ذلك الأمر خليقاً بالملازمة؛ إذ قل أن يقدم أحد على أمر بحق هو لا يفعله، أو أمر بصبر وهو ذو جزع، وقد قال ـتعالىـ توبيخاً لبني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

وقد تقدم هذا المعنى عند قوله ـتعالىـ: ﴿وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ في سورة الفجر. ٣٠/٥٣٤

سورة الهمزة

١ـ **سميت** هذه السورة في المصاحف، ومعظم التفاسير (سورة الهمزة) بلام التعريف، وعنونها في صحيح البخاري وبعض التفاسير (سورة ويل لكل همزة) وذكر الفيروز آبادي في بصائر ذوي التمييز أنها تسمى (سورة الحطمة) لوقوع هذه الكلمة فيها.

وهي مكية بالاتفاق.

وعدت الثانية والثلاثين في عداد نزول السور نزلت بعد سورة القيامة، وقبل سورة المرسلات.

وآيها تسع بالاتفاق.

روي أنها نزلت في جماعة من المشركين كانوا أقاموا أنفسهم للمز المسلمين، وسبهم، واختلاق الأحدوثات السيئة عنهم.

وسمي من هؤلاء المشركين: الوليد بن المغيرة المخزومي، وأمية بن خلف، وأبي بن خلف، وجميل بن معمر بن بني جمح ـوهذا أسلم يوم الفتح وشهد حنيناًـ والعاص بن وائل من بني سهم.

وكلهم من سادة قريش، وسمي الأسود بن عبد يغوث، والأخنس بن شريق الثقفيان من سادة ثقيف أهل الطائف.

وكل هؤلاء من أهل الثراء في الجاهلية، والازدهاء بثرائهم وسؤددهم.

وجاءت آية السورة عامة؛ فعم حُكْمُها المسمَّيْنَ ومن كان على شاكلتهم من المشركين، ولم تذكر أسماءهم. ٣٠/٥٣٥

٢ـ **أغراضها**: فَغَرَضُ هذه السورةِ وعيدُ جماعةٍ من المشركين جعلوا هَمْزَ المسلمين ولَمْزَهُمْ ضرباً من ضروب أذاهم؛ طمعاً في أن يلجئهم المللُ من أصناف الأذى إلى الانصراف عن الإسلام، والرجوع إلى الشرك. ٣٠/٥٣٥ـ٥٣٦

٣ـ **وهُمَزَة**: وصف مشتق من الهمز، وهو أن يعيب أحدٌ أحداً بالإشارة بالعين، أو بالشدق، أو بالرأس بحضرته، أو عند توليه، ويقال: هامز وهماز، وصيغة فُعَلَة يدل على تمكن الوصف من الموصوف. ٣٠/٥٣٧

٤ـ **ولمزة**: وصف مشتق من اللمز وهو المواجهة بالعيب، وصيغته دالة على أن ذلك الوصف ملكة لصاحبه كما في هُمزة.

وهذان الوصفان من معاملة أهل الشرك للمؤمنين يومئذ، ومن عامل من المسلمين أحداً من أهل دينه بمثل ذلك كان له نصيب من هذا الوعيد.

فمن اتصف بشيء من هذا الخلق الذميم من المسلمين مع أهل دينه فإنها خصلة من خصال أهل الشرك.

وهي ذميمة تدخل في أذى المسلم، وله مراتب كثيرة بحسب قوة الأذى وتكرره، ولم يعد من الكبائر إلا ضرب المسلم، وسب الصحابة ـرضي الله عنهمـ وإدمان هذا الأذى بأن يتخذه ديدناً؛ فهو راجع إلى إدمان الصغائر، وهو معدود من الكبائر. ٣٠/٥٣٧

٥ـ **ومعنى إيصادها عليهم**: ملازمة العذاب، واليأس من الإفلات منه كحال المساجين الذين أغلق عليهم باب السجن تمثيلُ تقريبٍ؛ لشدة العذاب بما هو متعارف في أحوال الناس، وحالُ عذابِ جهنمَ أشدُّ مما يبلغه تصور العقول المعتاد. ٣٠/٥٤١

٦ـ **وقوله: ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾** حال: إما من ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي في حال كونهم في عمد، أي موثوقين في عمد كما يوثق المسجون المغلظ عليه من رجليه في فلقة ذات ثقب يدخل في رجله، أو في عنقه كالقرام، وإما حال من ضمير ﴿إِنَّهَا﴾ أي أن النار الموقدة في عمد، أي متوسطة عمداً كما تكون نار الشواء؛ إذ توضع عمد، وتجعل النار تحتها؛ تمثيلاً لأهلها بالشواء. ٣٠/٥٤١ـ٥٤٢

سورة الفيل

١ـ **وردت تسميتها** في كلام بعض السلف سورة (أَلَمْ تَرَ) روى القرطبي في تفسير (سورة قريش) عن عمرو بن ميمون قال: صليت المغرب خلف عمر ابن الخطاب فقرأ في الركعة الثانية (أَلَمْ تَرَ) و(لإِيلافِ قُرَيْشٍ).

وكذلك عنونها البخاري، وسميت في جميع المصاحف وكتب التفسير (سورة الفيل).

وهي مكية بالاتفاق.

وقد عدت التاسعة عشرة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وقبل (سورة الفلق).

وقيل: قبل (سورة قريش) لقول الأخفش إن قوله ـتعالىـ: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ ولأن أبي بن كعب جعلها وسورة قريش سورة واحدة في مصحفه، ولم يفصل بينهما بالبسملة، ولخبر عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب المذكور آنفاً روى أن عمر بن الخطاب قرأ مرة في المغرب في الركعة الثانية سورة الفيل وسورة قريش، أي ولم يكن الصحابة يقرأون في الركعة من صلاة الفرض سورتين؛ لأن السنة قراءة الفاتحة وسورة؛ فدل أنهما عنده سورة واحدة.

ويجوز أن تكون سورة قريش نزلت بعد سورة الفلق، وألحقت بسورة الفيل، فلا يتم الاحتجاج بما في مصحف أبي بن كعب، ولا بما رواه عمرو بن ميمون.

وآيها خمس. ٥٤٣/٣٠

٢ـ **أغراضها**: وقد تضمنت التذكيرَ بأن الكعبةَ حرمُ الله، وأن اللهَ حَمَاه ممن

أرادوا به سوءاً أو أظهر غَضَبَهُ عليهم، فعذبهم؛ لأنهم ظلموا بطمعهم في هدم مسجد إبراهيمَ، وهو عندهم في كتابهم، وذلك ما سماه الله كيداً، وليكون ما حل بهم تذكرةً لقريش بأن فاعلَ ذلك هو ربُّ ذلك البيتِ، وأنْ لا حظَّ فيه للأصنام التي نصبوها حوله.

وتنبيهَ قريشٍ، أو تذكيرَهُمْ بما ظهر من كرامةِ النبيﷺ عند الله؛ إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته.

ومن وراء ذلك تثبيتُ النبيﷺ بأن اللهَ يَدْفَعُ عنه كيدَ المشركين، فإن الذي دَفَعَ كيدَ مَنْ يكيد لبيته لأَحَقُّ بأن يدفع كيدَ مَنْ يكيد لرسولهﷺ ودينه، ويشعر بهذا قوله ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾.

ومن وراء ذلك كلِّه التذكيرُ بأن اللهَ غالبٌ على أمره، وأن لا تغرَّ المشركين قُوَّتُهم، وَوَفْرَةُ عددهم، ولا يوهنَ النبيﷺ تَأَلُّبَ قبائِلهم عليه؛ فقد أهلك الله من هو أشدُّ منهم قوةً وأكثرُ جمعاً.

ولم يتكرر في القرآن ذِكْر إهلاكِ أصحاب الفيل خلافاً لقصص غيرهم من الأمم لوجهين: **أحدهما:** أن إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسولٍ من الله.

وثانيهما: أن لا يَتَّخِذَ منه المشركون غروراً بمكانةٍ لهم عند الله كغرورهم بقولهم المحكي في قوله ـتعالىـ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآيةَ، وقوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾. ٣٠/٥٤٣ـ٥٤٤

سورة قريش

١ـ **سميت هذه السورة** في عهد السلف (سورة لإيلاف قريش) قال عمرو ابن ميمون الأودي: «صلى عمر بن الخطاب المغرب فقرأ في الركعة الثانية (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ) و(لإِيلافِ قُرَيْشٍ)».

وهذا ظاهر في إرادة التسمية، ولم يعدها في الإتقان في السور التي لها أكثر من اسم.

وسميت في المصاحف وكتب التفسير (سورة قريش) لوقوع اسم قريش فيها، ولم يقع في غيرها، وبذلك عنونها البخاري في صحيحه.

والسورة مكية عند جماهير العلماء، وقال ابن عطية: بلا خلاف، وفي القرطبي عن الكلبي والضحاك أنها مدنية، ولم يذكرها في الإتقان مع السور المختلف فيها.

وقد عدت التاسعة والعشرين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة التين وقبل سورة القارعة.

وهي سورة مستقلة بإجماع المسلمين على أنها سورة خاصة.

وجعلها أبي بن كعب مع سورة الفيل سورة واحدة، ولم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة التي كانوا يجعلونها علامة فصل بين السور، وهو ظاهر خبر عمرو بن ميمون عن قراءة عمر بن الخطاب.

والإجماع الواقع بعد ذلك نقض ذلك.

وعدد آياتها أربع عند جمهور العادين، وعدها أهل مكة والمدينة خمس آيات.

ورأيت في مصحف عتيق من المصاحف المكتوبة في القيروان عددها أربع آيات مع أن قراءة أهل القيروان قراءة أهل المدينة. ٥٥٣/٣٠

٢ـ **أغراضها**: أَمْرُ قريشٍ بتوحيد الله ـتعالى- بالربوبية؛ تذكيراً لهم بنعمةِ أن اللهَ مكَّن لهم السَير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف لا يخشون عادياً يعدو عليهم.

وبأنه أَمَّنهم من المجاعات، وأمنَّهم من المخاوف؛ لما وقر في نفوس العرب من حرمتهم؛ لأنهم سكان الحرم وعمار الكعبة.

وبما أَلْهَمَ الناسَ من جلب المِيْرَةِ إليهم من الآفاق المجاورة كبلاد الحبشة.

ورد القبائل، فلا يغير على بلدهم أحد قال ـتعالى-: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ فأكسبهم ذلك مهابةً في نفوس الناس وعطفاً منهم. ٥٥٤/٣٠

٣ـ **افتتاح مبدع؛** إذ كان بمجرور بلام التعليل وليس بإثره بالقرب ما يصلح للتعليق به؛ ففيه تشويق إلى متعلق هذا المجرور، وزاده الطول تشويقاً؛ إذ فصل بينه وبين متعلَّقه ـبالفتحـ بخمس كلمات، فيتعلق ﴿لإِيلافِ﴾ بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾.

وتقديم هذا المجرور للاهتمام به؛ إذ هو من أسباب أمرهم بعبادة الله التي أعرضوا عنها بعبادة الأصنام والمجرور متعلق بفعل (ليعبدوا).

وأصل نظم الكلام: (لتعبد قريش رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف؛ لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف».

فلما اقتضى قصد الاهتمام بالمعمول تقديمه على عامله تولَّد من تقديمه معنى جعله شرطاً لعامله، فاقترن عامله بالفاء التي هي من شأن جواب الشرط؛ فالفاء

الداخلة في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ مؤذنة بأن ما قبلها في قوة الشرط، أي مؤذنة بأن تقديم المعمول مقصود به اهتمام خاص، وعناية قوية هي عناية المشترط بشرطه، وتعليق بقية كلامه عليه لما ينتظره من جوابه، وهذا أسلوب من الإيجاز بديع. ٣٠/٥٥٤-٥٥٥

٤- **وقريش**: لقب الجد الذي يجمع بطوناً كثيرةً وهو فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة.

هذا قول جمهور النسابين وما فوق فهر فهم من كنانة، ولُقِّب فهر بلقب قريش بصيغة التصغير، وهو على الصحيح تصغير قَرْش -بفتح القاف، وسكون الراء، وشين معجمة- اسم نوع من الحوت قوي يعدو على الحيتان، وعلى السفن.

وقال بعض النسابين: إن قريشاً لقب النضر بن كنانة، وروي عن النبي ﷺ: «أنه سئل من قريش؟ فقال: «**من ولد النضر**».

وفي رواية أنه قال: «**إنا ولد النضر بن كنانة لا نقفوا أُمَّنَا ولا ننتفي من أبينا**».

فجميع أهل مكة هم قريش وفيهم كانت مناصب أهل مكة في الجاهلية موزعة بينهم، وكانت بنو كنانة بخَيْف منى، ولهم مناصب في أعمال الحج خاصة منها النسيء. ٣٠/٥٥٦

٥- **والسَّنَةُ بالتحقيق أربعة فصول**: الصيف: ثلاثة أشهر، وهو الذي يسميه أهل العراق وخراسان الربيع، ويليه القيظ ثلاثة أشهر، وهو شدة الحر، ويليه الخريف ثلاثة أشهر، ويليه الشتاء ثلاثة أشهر.

وهذه الآية صالحة للاصطلاحين.

واصطلاح علماء الميقات تقسيم السنة إلى ربيع، وصيف، وخريف، وشتاء، ومبدأ السنة الربيع هو دخول الشمس في برج الحمل، وهاتان الرحلتان هما رحلة تجارة وميرة كانت قريش تجهزهما في هذين الفصلين من السنة إحداهما في الشتاء إلى بلاد الحبشة، ثم اليمن يبلغون بها بلاد حمير، والأخرى في الصيف إلى الشام يبلغون بها مدينة بصرى من بلاد الشام. ٣٠/٥٥٨

٦ ـ **ومعنى الآية تذكير قريش بنعمة الله عليهم**؛ إذ يسر لهم ما لم يتأتَّ لغيرهم من العرب من الأمن من عدوان المعتدين، وغارات المغيرين في السنة كلها بما يسر لهم من بناء الكعبة، وشرعة الحج وأن جعلهم عُمَّار المسجد الحرام، وجعل لهم مهابةً وحرمةً في نفوس العرب كلهم في الأشهر الحرم وفي غيرها.

وعند القبائل التي تحرم الأشهر الحرم والقبائل التي لا تحرمها مثل طيء وقضاعة وخثعم، فتيسرت لهم الأسفار في بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها، ولاذ بهم أصحاب الحاجات يسافرون معهم، وأصحاب التجارات يحمِّلونهم سلعهم، وصارت مكة وسطاً تجلب إليها السلع من جميع البلاد العربية، فتوزع إلى طالبيها في بقية البلاد، فاستغنى أهل مكة بالتجارة؛ إذ لم يكونوا أهل زرع ولا ضرع؛ إذ كانوا بواد غير ذي زرع، وكانوا يجلبون أقواتهم، فيجلبون من بلاد اليمن الحبوب من بر، وشعير، وذرة، وزبيب، وأديم، وثياب، والسيوف اليمانية، ومن بلاد الشام الحبوب، والتمر، والزيت، والزبيب، والثياب، والسيوف المشرفية، زيادة على ما جعل لهم مع معظم العرب من الأشهر الحرم، وما أقيم لهم من مواسم الحج وأسواقه كما يشير إليه قوله ـتعالىـ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.

فذلك وجه تعليل الأمر بتوحيدهم الله بخصوص نعمة هذا الإيلاف مع أن لله عليهم نعماً كثيرة؛ لأن هذا الإيلاف كان سبباً جامعاً لأهم النعم التي بها قوام بقائهم. ٥٦٠/٣٠

٧ـ **والعبادة التي أمروا بها عبادة الله وحده دون إشراك** الشركاء معه في العبادة؛ لأن إشراك مَنْ لا يستحق العبادة مع الله الذي هو الحقيق بها ليس بعبادة، أو لأنهم شغلوا بعبادة الأصنام عن عبادة الله؛ فلا يذكرون الله إلا في أيام الحج في التلبية على أنهم قد زاد بعضهم فيها بعد قولهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. ٥٦٠/٣٠

سورة الماعون

١ـ **سميت هذه السورة** في كثير من المصاحف وكتب التفسير (سورة الماعون) لورود لفظ الماعون فيها دون غيرها.

وسميت في بعض التفاسير (سورة أرأيت) وكذلك في مصحف من مصاحف القيروان في القرن الخامس، وكذلك عنونها في صحيح البخاري.

وعنونها ابن عطية بـ(سورة أرأيت الذي) وقال الكواشي في التلخيص: (سورة الماعون والدِّين وأرأيت) وفي الإتقان: وتسمى (سورة الدين) وفي حاشيتي الخفاجي وسعدي تسمى (سورة التكذيب) وقال البقاعي في نظم الدرر: تسمى (سورة اليتيم) وهذه ستة أسماء.

وهي مكية في قول الأكثر، وروي عن ابن عباس، وقال القرطبي عن قتادة: هي مدنية، وروي عن ابن عباس ـأيضاًـ وفي الإتقان: قيل: نزل ثلاثٌ أولها بمكة أي إلى قوله: ﴿الْمِسْكِينِ﴾ وبقيتها نزلت بالمدينة، أي بناء على أن قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ إلى آخر السورة أريد بها المنافقون، وهو مروي عن ابن عباس، وقاله هبة الله الضرير[1] وهو الأظهر.

وعدت السابعة عشرة في عداد نزول السور، بناءً على أنها مكية، نزلت بعد سورة التكاثر وقبل سورة الكافرون.

وعدت آياتها ستاً عند معظم العادين: وحكى الآلوسي: أن الذين عدوا

١ـ هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي أبو القاسم الضرير البغدادي المفسر له كتاب الناسخ والمنسوخ كانت له حلقة في جامع المنصور توفي سنة ٤١٠ (تاريخ بغداد ونكت الهميان).

آياتها ستاً أهل العراق -أي البصرة والكوفة- وقال الشيخ علي النوري الصفاقسي في غيث النفع: «وآيها سبع حمصي -أي شامي- وست في الباقي». وهذا يخالف ما قاله الآلوسي. ٣٠/٥٦٣-٥٦٤

٢- **أغراضها**: من مقاصدِها التعجيبُ مِنْ حالِ مَنْ كذَّبوا بالبعث، وتفظيع أعمالهم من الاعتداءِ على الضعيف واحتقارِه، والإمساكِ عن إطعام المسكين، والإعراضِ عن قواعد الإسلام من الصلاة والزكاة؛ لأنه لا يخطر بباله أن يكون في فعله ذلك ما يجلب له غضبُ اللهِ وعقابه. ٣٠/٥٦٤

٣- وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ صفة للمصلين مقيدة لحكم الموصوف؛ فإن الويل للمصلي الساهي عن صلاته لا للمصلي على الإطلاق.

فيكون قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ترشيحاً للتهكم الواقع في إطلاق وصف المصلين عليهم.

وعُدي ﴿سَاهُونَ﴾ بحرف ﴿عَنْ﴾ لإفادة أنهم تجاوزوا إقامة صلاتهم، وتركوها، ولا علاقة لهذه الآية بأحكام السهو في الصلاة.

وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يجوز أن يكون معناه الذين لا يؤدون الصلاة إلا رياءً، فإذا خلوا تركوا الصلاة.

ويجوز أن يكون معناه: الذين يصلون دون نية وإخلاص؛ فهم في حالة الصلاة بمنزلة الساهي عما يفعل، فيكون إطلاق ﴿سَاهُونَ﴾ تهكماً كما قال -تعالى-: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ في المنافقين في سورة النساء.

ويراءون يقصدون أن يرى الناس أنهم على حال حسن وهم بخلافه؛ ليتحدث الناس لهم بمحاسن ما هم بموصوفين بها، ولذلك كثر أن تعطف السمعة على

الرياء فيقال: رياء وسمعة. ٣٠/٥٦٧ـ٥٦٨

٤ـ **والماعون**: يطلق على الإعانة بالمال، فالمعنى: يمنعون فضلهم، أو يمنعون الصدقة على الفقراء؛ فقد كانت الصدقة واجبة في صدر الإسلام بغير تعيين قبل مشروعية الزكاة.

وقال سعيد بن المسيب وابن شهاب: الماعون المال بلسان قريش.

وروى أشهب عن مالك: الماعون الزكاة: ويشهد له قول الراعي:

قوم على الإسلام لما يمنعوا ماعونهم ويضيعوا التهليلا

لأنه أراد بالتهليل الصلاة؛ فجمع بينها وبين الزكاة.

ويطلق على ما يستعان به على عمل البيت من آنية، وآلات طبخ، وشد، وحفر، ونحو ذلك مما لا خسارة على صاحبه في إعارته وإعطاءه.

وعن عائشة: «الماعون الماء والنار والملح».

وهذا ذم لهم بمنتهى البخل، وهو الشح بما لا يزرئهم. ٣٠/٥٦٨

٥ـ واعلم أنه إذا أراد الله إنزال شيء من القرآن ملحقاً بشيء قبله جعل نظم الملحق مناسباً لما هو متصل به؛ فتكون الفاء للتفريع.

وهذه نكتة لم يسبق لنا إظهارها؛ فعليك بملاحظتها في كل ما ثبت أنه نزل من القرآن ملحقاً بشيء نزل قبله منه. ٣٠/٥٦٩

سورة الكوثر

١ـ **سميت هذه السورة** في جميع المصاحف التي رأيناها في جميع التفاسير ـأيضاًـ (سورة الكوثر) وكذلك عنونها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه، وعنونها البخاري في صحيحه سورة ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ولم يعدها في الإتقان مع السور التي لها أكثر من اسم.

ونقل سعد الله الشهير بسعدي في حاشيته على تفسير البيضاوي عن البقاعي أنها تسمى (سورة النحر).

وهل هي مكية أو مدنية؟ تعارضت الأقوال والآثار في أنها مكية أو مدنية تعارضاً شديداً، فهي مكية عند الجمهور، واقتصر عليه أكثر المفسرين، ونقل الخفاجي عن كتاب النشر قال: أجمع من نعرفه على أنها مكية، قال الخفاجي: «وفيه نظر مع وجود الاختلاف فيها».

وعن الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة: هي مدنية، ويشهد لهم ما في صحيح مسلم عن أنس بن مالك: «بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه، وقال: **أنزلت علي آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾.

ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا الله ورسوله أعلم، **قال: فإنه نهر وعَدَنِيْهُ ربي ـ عز وجل ـ عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة**» الحديث.

وأنس أسلم في صدر الهجرة، فإذا كان لفظ (آنفاً) في كلام النبي ﷺ مستعملاً في ظاهر معناه وهو الزمن القريب ـ فالسورة نزلت منذ وقت قريب من حصول

تلك الرؤيا.

ومقتضى ما يروى في تفسير قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ أن تكون السورة مكية، ومقتضى ظاهر تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَانْحَرْ﴾ من أن النحر في الحج، أو يوم الأضحى تكون السورة مدنية، ويبعث على أن قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ ليس رداً على كلام العاصي بن وائل كما سنبين ذلك.

والأظهر أن هذه السورة مدنية وعلى هذا سنعتمد في تفسير آياتها.

وعلى القول **بأنها مكية عدوها الخامسة عشرة في عداد نزول السور،** نزلت بعد سورة العاديات وقبل سورة التكاثر، وعلى القول بأنها مدنية فقد قيل: إنها نزلت في الحديبية.

وعدد آيها ثلاث بالاتفاق.

وهي أقصر سور القرآن عدد كلمات وعدد حروف، وأما في عدد الآيات فسورة العصر وسورة النصر مثلها، ولكن كلماتها أكثر. **٣٠/٥٧١-٥٧٢**

٢- أغراضها: اشتملت على بشارةِ النبيﷺ بأنه أعطي الخيرَ الكثيرَ في الدنيا والآخرة.

وأَمْرُهُ بأن يشكرَ اللهَ على ذلك بالإقبال على العبادة.

وأن ذلك هو الكمالُ الحقُّ لا ما يتطاول به المشركون على المسلمين بالثروة والنعمة، وهم مغضوبٌ عليهم من الله -تعالى- لأنهم أبغضوا رسولَه، وغضبُ الله بَتْرٌ لهم إذا كانوا بمحل السخط من الله.

وأن انقطاع الولد الذكر فليس بتراً؛ لأن ذلك لا أثر له في كمال الإنسان. ٣٠/٥٧٢

٣ـ **والكوثر**: اسم في اللغة للخير الكثير صيغ على زنة فوعل، وهي من صيغ الأسماء الجامدة غالباً نحو الكوكب، والجورب، والحوشب والدوسر[١] ولا تدل في الجوامد على غير مسماها، ولما وقع هنا فيها مادة الكَثْر كانت صيغته مفيدة شدة ما اشتقت منه بناء على أن زيادة المبنى تؤذن بزيادة المعنى، ولذلك فسره الزمخشري بالمفرط في الكثرة، وهو أحسن ما فسر به وأضبطه، ونضيره: جوهر، بمعنى الشجاع كأنه يجاهر عدوه، والصومعة؛ لاشتقاقها من وصف أصمع وهو دقيق الأعضاء؛ لأن الصومعة دقيقة؛ لأن طولها أَفْرُط من غِلَظِها.

ويوصف الرجل صاحب الخير الكثير بكوثر من باب الوصف بالمصدر كما في قول لبيد في رثاء عوف بن الأحوص الأسدي:

وصاحبُ ملحوبٍ فُجِعنا بفقده ... وعند الرداع بيت آخر كوثر

(ملحوب والرداع) كلاهما ماء لبني أسد بن خزيمة، فوصف البيت بالكوثر، ولاحظ الكميت هذا في قوله في مدح عبدالملك بن مروان:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب ... وكان أبوك ابن العقايل كوثرا

وسمي نهر الجنة كوثراً كما في حديث مسلم عن أنس بن مالك المتقدم آنفاً.

وقد فسر السلف الكوثر في هذه الآية بتفاسير أعمها أنه الخير الكثير، وروي عن ابن عباس قال سعيد بن جبير: «فقلت لابن عباس: إن ناساً يقولون هو نهر في الجنة، فقال: هو من الخير الكثير».

وعن عكرمة: الكوثر هنا: النبوءة والكتاب، وعن الحسن: هو القرآن، وعن

١ـ الجوارب: ثوب يجعل في صورة خف وتلف فيه الرجل؛ والحوشب: المنتفخ الجنبين وعظم في باطن الحافر، واسم للأرنب الذكر، والثعلب الذكر، والدوسر: الضخم الشديد.

المغيرة: أنه الإسلام، وعن أبي بكر بن عياش: هو كثرة الأمة، وحكى الماوردي: أنه رفعة الذكر، وأنه نور القلب، وأنه الشفاعة.

وكلام النبي ﷺ المروي في حديث أنس لا يقتضي حصر معاني اللفظ فيما ذكره. ٣٠/٥٧٢ـ٥٧٣

٤ـ وأريد من هذا الخبر بشارة النبي ﷺ وإزالة ما عسى أن يكون في خاطره من قول من قال فيه: هو أبتر، فقوبل معنى الأبتر بمعنى الكوثر؛ إبطالاً لقولهم.

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ اعتراض، والفاء للتفريع على هذه البشارة بأن يشكر ربه عليها؛ فإن الصلاة أفعال وأقوال دالة على تعظيم الله والثناء عليه وذلك شكر لنعمته.

وناسب أن يكون الشكر بالازدياد مما عاداه عليه المشركون وغيرهم ممن قالوا مقالتهم الشنعاء: إنه أبتر؛ فإن الصلاة لله شكر له، وإغاظة للذين ينهونه عن الصلاة كما قال ـتعالىـ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾ لأنهم إنما نهوه عن الصلاة التي هي لوجه الله دون العبادة لأصنامهم، وكذلك النحر لله. ٣٠/٥٧٣ـ٥٧٤

سورة الكافرون

١ـ **عنونت هذه السورة** في المصاحف التي بأيدينا قديمها وحديثها، وفي معظم التفاسير (سورة الكافرون) بإضافة (سورة) إلى (الكافرون) وثبوت واو الرفع في (الْكَافِرُونَ) على حكاية لفظ القرآن الواقع في أولها.

ووقع في الكشاف، وتفسير ابن عطية، وحرز الأماني (سورة الكافرين) بياء الخفض في لفظ (الكافرين) بإضافة (سورة) إليه أن المراد سورة ذكر الكافرين، أو نداء الكافرين، وعنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه سورة ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾.

قال في الكشاف والإتقان: وتسمى هي وسورة (قل هو الله أحد) بالمقشقشتين؛ لأنهما تُقشقشان من الشرك أي تبرئان منه يقال: قشقش، إذا أزال المرض.

وتسمى ـأيضاًـ سورة الإخلاص؛ فيكون هذان الاسمان مشتركين بينها وبين سورة قل هو الله أحد.

وقد ذكر في سورة براءة أن سورة براءة تسمى المقشقشة؛ لأنها تقشقش، أي تبرئ من النفاق فيكون هذا مشتركاً بين السور الثلاث؛ فيحتاج إلى التمييز.

وقال سعد الله ـالمعروف بسعديـ عن جمال القراء: أنها تسمى (سورة العبادة) وفي بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي تسمى (سورة الدين).

وهي مكية بالاتفاق في حكاية ابن عطية وابن كثير، وروي عن ابن الزبير أنها مدنية.

وقد عدت الثامنة عشرة في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الماعون، وقبل

سورة الفيل.

وعدد آياتها ست. ٣٠/٥٧٩ـ٥٨٠

٢ـ **أغراضها**: وسبب نزولها ـ فيما حكاه الواحدي في أسباب النزول وابن إسحاق في السيرة ـ أن رسول الله ﷺ كان يطوف في الكعبة، فاعترضه الأسودُ ابن المطلب بنِ أسد، والوليدُ بنُ المغيرةِ، وأميةُ بنُ خلف، والعاصُ بنُ وائلٍ، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقالوا: يا محمد: هلم فلنعبد ما تعبد سنة، وتعبد ما نعبد سنة، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظه منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فقال: «**معاذ الله أن أشرك به غيره**».

فأنزل الله فيهم ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ السورة كلها، فغدا رسولُ اللهِ ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه الملأُ من قريشٍ، فقرأها عليهم، فيئسوا منه عند ذلك، وإنما عَرضوا عليه ذلك؛ لأنهم رأوا حِرْصَه على أن يؤمنوا؛ فطمعوا أن يستنزلوه إلى الاعتراف بإلهية أصنامهم.

وعن ابن عباس: «فيئسوا منه، وآذوه، وآذوا أصحابه».

وبهذا يُعْلَمُ الغرضُ الذي اشتملت عليه، وأنه تأييسهم من أن يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال، وأن دينَ الإسلام لا يخالط شيئاً من دين الشرك. ٣٠/٥٨٠

٣ـ **والسور المفتتحة بالأمر بالقول خمس سور:** قل أوحي، وسورة الكافرون، وسورة الإخلاص، والمعوذتان؛ فالثلاث الأول لقول يبلِّغه، والمعوذتان لقول يقوله لتعويذ نفسه. ٣٠/٥٨١

سورة النصر

١ـ سميت هذه السورة في كلام السلف (سورة إذا جاء نصر الله والفتح).

روى البخاري: «**أن عائشة قالت: لما نزلت سورة إذا جاء نصر الله والفتح**» الحديث.

وسميت في المصاحف وفي معظم التفاسير (سورة النصر) لذكر نصر الله فيها، فسميت بالنصر المعهود عهداً ذِكْرياً.

وهي معنونة في جامع الترمذي (سورة الفتح) لوقوع هذا اللفظ فيها، فيكون هذا الاسم مشتركاً بينها وبين سورة ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾.

وعن ابن مسعود أنها تسمى (سورة التوديع) في الإتقان، لما فيها من الإيماء إلى وداعهﷺ اهـ.

يعني من الإشارة إلى اقتراب لحاقه بالرفيق الأعلى ـ كما سيأتي عن عائشة ـ.

وهي مدنية بالاتفاق. ٣٠/٥٨٧

٢ـ ولم يختلف أهل التأويل أن المراد بالفتح في الآية هو فتح مكة وعليه فالفتح مستقبل، ودخول الناس في الدين أفواجاً مستقبل ـأيضاًـ وهو الأليق باستعمال (إِذَا) ويحمل قول النبيﷺ جاء نصر الله والفتح على أنه استعمال الماضي في معنى المضارع؛ لتحقق وقوعه، أو لأن النصر في خيبر كان بادرة لفتح مكة. ٣٠/٥٨٧ـ٥٨٨

٣ـ وقد تظافرت الأخبار رواية وتأويلاً أن هذه السورة تشتمل على إيماء إلى اقتراب أجل رسول اللهﷺ وليس في ذلك ما يرجح أحد الأقوال في وقت نزولها؛

إذ لا خلاف في أن هذا الإيماء يشير إلى توقيت مجيء النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجاً، فإذا حصل ذلك حان الأجل الشريف. ٥٨٨/٣٠

٤ـ **وعدد آياتها ثلاث** وهي مساوية لسورة الكوثر في عدد الآيات إلا أنها أطول من سورة الكوثر عدة كلمات، وأقصر من سورة العصر.

وهاته الثلاث متساوية في عدد الآيات، وفي حديث ابن أبي شيبة عن أبي إسحاق السبعي[1] في حديث: «طُعن عمر بن الخطاب ﷺ فصلى عبدالرحمن ابن عوف صلاة خفيفة بأقصر سورتين في القرآن ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. ٥٨٩/٣٠

٥ـ **أغراضها**: والغرضُ منها الوعدُ بنصرٍ كاملٍ من عند الله أو بفتح مكة، والبشارةُ بدخول خلائقَ كثيرةٍ في الإسلام بفتحٍ، وبدونه إن كان نزولها عند مُنْصَرَفِ النبيِّ ﷺ من خيبر ـكما قال ابن عباس في أحد قوليهـ.

والإيماءُ إلى أنه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقالُ رسولِ الله ﷺ إلى الآخرة.

ووعدُه بأن الله غَفَرَ له مغفرةً تامةً لا مؤاخذةَ عليه بعدها في شيء مما يختلج في نفسِه الخوف أن يكون منه تقصيرٌ يقتضيه تحديدُ القوةِ الإنسانية الحدّ الذي لا يفي بما تطلبه هِمَّتُه الملكيةُ بحيث يكون قد ساوى الحدَّ الملكي الذي وصفه الله ـتعالىـ في الملائكة بقوله ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾. ٥٨٩/٣٠

٦ـ **وقرن التسبيح بالحمد** بباء المصاحبة المقتضية أن التسبيح لاحق للحمد؛ لأن باء المصاحبة بمعنى (مع) فهي مثل (مع) في أنها تدخل على المتبوع فكان حمد الله على حصول النصر والفتح ودخول الناس في الإسلام شيئاً مفروغاً منه

١ـ هكذا في الأصل، والصواب: السبيعي. (م).

لا يحتاج إلى الأمر بإيقاعه، لأن شأن الرسولﷺ أنه قد فعله، وإنما يحتاج إلى تذكيره بتسبيح خاص لم يحصل من قبل في تسبيحاته، وباستغفار خاص لم يحصل من قبل في استغفاره.

ويجوز أن يكون التسبيح المأمور به تسبيح ابتهاج وتعجب من تيسير الله ـتعالىـ له ما لا يخطر ببال أحد أن يتم له ذلك؛ فإن سبحان الله ونحوه يستعمل في التعجب كقول الأعشى:

قد قلتُ لما جاءني فخرُه سبحان مَنْ علقمةَ الفاخِرِ

٥٩٤ـ٥٩٣/٣٠

٧ـ **وفي تقديم الأمر بالتسبيح والحمد على الأمر بالاستغفار تمهيدٌ** لإجابة استغفاره على عادة العرب في تقديم الثناء قبل سؤال الحاجة كما قال ابن أبي الصلت:

إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه عن تعرضه الثناء

فإن رسول اللهﷺ لم يكن يخلو عن تسبيح الله، فأريد تسبيح يقارن الحمد على ما أعطيه من النصر والفتح، ودخول الأمة في الإسلام. ٥٩٤/٣٠

٨ـ والكلام من قبيل الكناية الرمزية، وهي لا تنافي إرادة المعنى الصريح بأن يحمل الأمر بالتسبيح والاستغفار على معنى الإكثار من قول ذلك.

وقد دل ذوقُ الكلام بعضَ ذوي الأفهام النافذة من الصحابة على هذا المعنى، وغاصت عليه مثل أبي بكر، وعمر، والعباس، وابنه عبدالله، وابن مسعود؛ فعن مقاتل: «لما نزلت قرأها النبيﷺ على أصحابه، ففرحوا، واستبشروا، وبكى العباس فقال له النبيﷺ: **ما يبكيك يا عم؟**

قال: نعيت إليك نفسك، فقال: **إنه لكما تقول**».

وفي رواية نزلت في منى فبكى عمر، والعباس؛ فقيل لهما، فقالا: فيه نعي رسول الله فقال النبيﷺ: «**صدقتما نعيت إلي نفسي**».

وفي صحيح البخاري وغيره عن ابن عباس: «كان عمر يأذن لأهل بدر ويأذن لي معهم، فوجد بعضهم من ذلك، فقال لهم عمر: إنه من قد علمتم، قال: فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فقالوا: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه.

فقال: ما تقول يابن عباس؟ قلت: ليس كذلك، ولكن أخبر الله نبيه حضور أجله فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة موتك؟ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول» فهذا فهم عمر، والعباس، وعبدالله ابنه.

وقال في الكشاف: روي أنه لما نزلت خطب رسول اللهﷺ فقال: «**إن عبداً خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله عز وجل**».

فعلم أبو بكر فقال: «فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا» اهـ.

قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: «الحديث متفق عليه إلا صدره دون أوله من كونه كان عند نزول السورة» اهـ.

ويحتمل أن يكون بكاء أبي بكر تكرر مرتين: أولاهما عند نزول سورة النصر ـكما في رواية الكشافـ والثانية عند خطبة النبيﷺ في مرضه.

وعن ابن مسعود أن هذه السورة (تسمى سورة التوديع) أي لأنهم علموا أنها إيذان بقرب وفاة الرسولﷺ. ٣٠/٥٩٤ـ٥٩٥

سورة المسد

١ـ **سميت هذه السورة** في أكثر المصاحف (سورة تبت) وكذلك عنونها الترمذي في جامعه، وفي أكثر كتب التفسير، تسمية لها بأول كلمة فيها.

وسميت في بعض المصاحف وفي بعض التفاسير (سورة المسد) واقتصر في الإتقان على هذين.

وسماها جمع من المفسرين (سورة أبي لهب) على تقدير: سورة ذكر أبي لهب، وعنونها أبو حيان في تفسيره (سورة اللهب) ولم أره لغيره.

وعنونها ابن العربي في أحكام القرآن (سورة ما كان من أبي لهب) وهو عنوان، وليس باسم.

وهي مكية بالاتفاق.

وعدت السادسة من السور نزولاً، نزلت بعد سورة الفاتحة، وقبل سورة التكوير.

وعدد آيها خمس.

روي أن نزولها كان في السنة الرابعة من البعثة، وسبب نزولها على ما في الصحيحين عن ابن عباس قال: «صعد رسول الله ﷺ ذات يوم على الصفا، فنادى يا «**صباحاه**» ـكلمة ينادى بها للإنذار من عدو يصبح القوم ـ فاجتمعت إليه قريش، فقال: **إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد أرأيتم لو أني أخبرتكم أن العدو ممسيكم أو مصبحكم أكنتم تصدقوني؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً،** فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت تبت يدا أبي لهب».

ووقع في الصحيحين من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا» إلى آخر الحديث المتقدم.

ومعلوم أن آية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ من سورة الشعراء، وهي متأخرة النزول عن سورة تبت، وتأويل ذلك أن آية تشبه آية سورة الشعراء نزلت قبل سورة أبي لهب؛ لما رواه أبو أسامة يبلغ ابن عباس لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين وقومك منهم المخلصين﴾ (ولم يقل من سورة الشعراء) خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا؛ فتعين أن آية سورة الشعراء تشبه صدر الآية التي نزلت قبل نزول سورة أبي لهب. ٣٠/٥٩٩-٦٠٠

٢- **أغراضها**: زجرُ أبي لهبٍ على قوله: «تباً لك ألهذا جمعتنا؟» ووعيدُه على ذلك، ووعيد امرأته على انتصارها لزوجها، وبغضِها النبي ﷺ. ٣٠/٦٠٠

٣- **وكانت أم جميل هذه تحمل حطب العضاه والشوك؛** فتضعه في الليل في طريق النبي ﷺ الذي يسلك منه إلى بيته؛ ليعقر قدميه.

فلما حصل لأبي لهب وعيد مقتبس من كنيته جعل لامرأته وعيد مقتبس لفظه من فعلها وهو حمل الحطب في الدنيا، فأُنذرت بأنها تحمل الحطب في جهنم؛ ليوقد به على زوجها، وذلك خزي لها ولزوجها؛ إذ جعل شدة عذابه على يد أحب الناس إليه، وجعلها سبباً لعذاب أعز الناس عليها. ٣٠/٦٠٥

سورة الإخلاص

١ـ المشهور في تسميتها في عهد النبيﷺ وفيما جرى من لفظه وفي أكثر ما روي عن الصحابة تسميتها (سورة قل هو الله أحد).

روى الترمذي عن أبي هريرة، وروى أحمد عن أبي مسعود الأنصاري، وعن أم كلثوم بنت عقبة أن رسول اللهﷺ قال: «**قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن**».

وهو ظاهر في أنه أراد تسميتها بتلك الجملة؛ لأجل تأنيث الضمير من قوله تعدل فإنه على تأويلها بمعنى السورة.

وقد روي عن جمع من الصحابة ما فيه تسميتها بذلك، فذلك هو الاسم الوارد في السنة.

ويؤخذ من حديث البخاري عن إبراهيم عن أبي سعيد الخدري ما يدل على أن رسول الله ﷺ قال: «**الله الواحد الصمد**» ثلث القرآن؛ فذكر ألفاظاً تخالف ما تقرأ به، ومحمله على إرادة التسمية.

وذكر القرطبي أن رجلاً لم يُسَمِّه قرأ كذلك، والناس يستمعون، وادعى أن ما قرأ به هو الصواب، وقد ذمه القرطبي وسبه.

وسميت في أكثر المصاحف، وفي معظم التفاسير، وفي جامع الترمذي (سورة الإخلاص) واشتهر هذا الاسم؛ لاختصاره وجمعه معاني هذه السورة؛ لأن فيها تعليمَ الناس إخلاصَ العبادة لله ـتعالىـ أي سلامة الاعتقاد من الإشراك بالله غيره في الإلهية.

وسميت في بعض المصاحف التونسية سورة التوحيد؛ لأنها تشتمل على إثبات أنه ـتعالى ـ واحد.

وفي الإتقان أنها تسمى سورة الأساس، لاشتمالها على توحيد الله، وهو أساس الإسلام.

وفي الكشاف: «روى أُبي، وأنس عن النبيﷺ :«أُسَّتْ السماوات السبع والأرضون السبع على ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»[١].

يعني ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله ومعرفة صفاته.

وذكر في الكشاف: أنها وسورة الكافرون **تسميان المقشقشتين**، أي المبرئتين من الشرك ومن النفاق، وسماها البقاعي في نظم الدرر (سورة الصمد) وهو من الأسماء التي جمعها الفخر. ٦٠٩/٣٠ـ٦١٠

٢ـ وهي مكية في قول الجمهور، وقال قتادة، والضحاك، والسدي، وأبو العالية، والقرظي: هي مدنية، ونسب كلا القولين إلى ابن عباس. ٦١١/٣٠

٣ـ وعلى الأصح من أنها مكية، عدت السورة الثانية والعشرون في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الناس، وقبل سورة النجم.

وآياتها عند أهل العدد بالمدينة، والكوفة، والبصرة أربع، وعند أهل مكة، والشام خمس باعتبار ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ آية ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ آية. ٦١١/٣٠ـ٦١٢

٤ـ أغراضها: إثباتُ وحدانية الله ـتعالى ـ.

وأنه لا يُقْصَدُ في الحوائجِ غيرُه، وتنزيهُه عن سماتِ المحدثاتِ، وإبطالُ أن يكونَ له ابنٌ.

١ـ يقال أسَّ البناءَ إذا أقامه، وفي نسخة أُسست، وهذا الحديث ضعيف.

وإبطالُ أن يكونَ المولودُ إلهاً مثل عيسى ـ عليه السلام ـ.

والأحاديثُ في فضائلها كثيرةٌ وقد صح أنها تعدل ثُلُثَ القرآنِ، وتأويلُ هذا الحديثِ مذكورٌ في شرح الموطأ والصحيحين. ٦١٢/٣٠

٥ـ في قوله ـتعالى ـ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعنى: أن الله منفرد بالإلهية لا يشاركه فيها شيء من الموجودات، وهذا إبطال للشرك الذي يدين به أهل الشرك، وللتثليث الذي أحدثه النصارى الملكانية، وللثانوية عند المجوس، وللعدد الذي لا يحصى عند البراهمة.

فقوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ نظير قوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

وهذا هو المعنى الذي يدركه المخاطبون بهذه الآية السائلون عن نسبة الله، أي حقيقته؛ فابتدئ لهم بأنه واحد؛ ليعلموا أن الأصنام ليست من الإلهية في شيء.

ثم أن الأحدية تقتضي الوجود لا محالة، فبطل قول المعطلة والدهريين. ٦١٥/٣٠ـ٦١٦

٦ـ **فالصمد من الأسماء التسعة والتسعين** في حديث أبي هريرة عند الترمذي، ومعناه: المفتقر إليه كل ما عداه؛ فالمعدوم مفتقر وجوده إليه، والموجود مفتقر في شؤونه إليه.

وقد كثرت عبارات المفسرين من السلف في معنى الصمد، وكلها مندرجة تحت هذا المعنى الجامع، وقد أنهاها فخر الدين إلى ثمانية عشر قولاً.

ويشمل هذا الاسم صفات الله المعنوية الإضافية وهي كونه ـتعالى ـ حياً، عالماً، مريداً، قادراً، متكلماً، سميعاً، بصيراً؛ لأنه لو انتفى عنه أحد هذه الصفات لم يكن مصموداً إليه. ٦١٧/٣٠

٧ـ وقد وردت في فضل هذه السورة أخبار صحيحة وحسنة استوفاها المفسرون، وثبت في الحديث الصحيح في الموطأ والصحيحين من طرق عدة: أن رسول الله ﷺ قال: «**قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن**».

واختلفت التأويلات التي تأول بها أصحاب معاني الآثار بهذا الحديث، ويجمعها أربع تأويلات:

الأول: أنها تعدل ثلث القرآن في ثواب القراءة، أي تعدل ثلث القرآن إذا قرئ بدونها حتى لو كررها القارئ ثلاث مرات كان له ثواب من قرأ القرآن كله.

الثاني: أنها تعدل ثلث القرآن إذا قرأها من لا يحسن غيرها من سور القرآن.

الثالث: أنها تعدل ثلث معاني القرآن باعتبار أجناس المعاني؛ لأن معاني القرآن أحكام وأخبار وتوحيد، وقد انفردت هذه السورة بجمعها أصول العقيدة الإسلامية ما لم يجمعه غيرها.

وأقول: إن ذلك كان قبل نزول آيات مثلها مثل آية الكرسي، أو لأنه لا توجد سورة واحدة جامعة لما في سورة الإخلاص.

التأويل الرابع: أنها تعدل ثلث القرآن في الثواب مثل التأويل الأول، ولكن لا يكون تكريرها ثلاث مرات بمنزلة قراءة ختمة كاملة.

قال ابن رشد في البيان والتحصيل[1]: «أجمع العلماء على أن من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات لا يساوي في الأجر من أحيا بالقرآن كله» اهـ.

فيكون هذا التأويل قيداً للتأويل الأول، ولكن في حكايته الإجماع على أن ذلك هو المراد نظر؛ فإن في بعض الأحاديث ما هو صريح في أن تكريرها ثلاث

١ـ في سماع ابن القاسم عن مالك من كتاب الصلاة الثاني.

مرات يعدل قراءة ختمة كاملة.

قال ابن رشد: «واختلافهم في تأويل الحديث لا يرتفع بشيء منه عن الحديث الإشكال، ولا يتخلص عن أن يكون فيه اعتراض».

وقال أبو عمر بن عبدالبر: «السكوت على هذه المسألة أفضل من الكلام فيها». ٣٠/٦٢٠_٦٢١

سورة الفلق

١ ـ سمى النبيﷺ هذه السورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

روى النسائي عن عقبة بن عامر قال: «اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدمه فقلت: أقرئني يا رسول الله سورة هود، وسورة يوسف، فقال: «**لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من «قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس**».

وهذا ظاهر في أنه أراد سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ لأنه كان جواباً على قول عقبة: أقرئني سورة هود الخ، ولأنه عطف على قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ولم يتم سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

عنونها البخاري في صحيحه (سورة قل أعوذ برب الفلق) بإضافة سورة إلى أول جملة منها.

وجاء في كلام بعض الصحابة تسميتها مع سورة الناس (المعوذتين) روى أبو داود، والترمذي، وأحمد عن عقبة بن عامر قال: «أمرني رسول اللهﷺ أن أقرأ بالمعِّوذات ـ بكسر الواو المشددة، وبصيغة الجمع بتأويل الآيات المعوذات، أي آيات السورتين ـ وفي رواية «بالمعوذتين في دبر كل صلاة».

ولم يذكر أحد من المفسرين أن الواحدة منهما تسمى المعوذة بالإفراد.

وقد سماها ابن عطية سورة المعوذة الأولى؛ فإضافة (سورة) إلى (المعوذة) من إضافة المسمى إلى الاسم، ووصف السورة بذلك مجاز يجعلها كالذي يدل الخائف

على المكان الذي يعصمه من مخيفه، أو كالذي يدخله المعاذ.

وسميت في أكثر المصاحف ومعظم كتب التفسير (سورة الفلق).

وفي الإتقان: «أنها وسورة الناس تسميان (المشقشقتين) ـبتقديم الشينين على القافين ـ من قولهم خطيب مشقشق» اهـ.

أي مسترسل القول، تشبيهاً له بالفحل الكريم من الإبل يهدر بشقشقة، وهي كاللحم يبرز من فيه إذا غضب، ولم أحقق وجه وصف المعوذتين بذلك.

وفي تفسير القرطبي، والكشاف أنها وسورة الناس تسميان (المقشقشتين) ـبتقديم القاف على الشينين ـ.

زاد القرطبي: «أي تبرئان من النفاق».

وكذلك قال الطيبي؛ فيكون اسم المقشقشة مشتركاً بين أربع سور هذه، وسورة الناس، وسورة براءة، وسورة الكافرون. ٣٠/٦٢٣ـ٦٢٤

٢ـ **والأصح أنها مكية**؛ لأن رواية كريب عن ابن عباس مقبولة بخلاف رواية أبي صالح عن ابن عباس، ففيها متكلم. ٣٠/٦٢٤

٣ـ **وقال الواحدي**: قال المفسرون: «إنها نزلت بسبب أن لبيد بن الأعصم سحر النبيﷺ».

وليس في الصحاح أنها نزلت بهذا السبب، وبنى صاحب الإتقان عليه ترجيح أن السورة مدنية، وسنتكلم على قصة لبيد بن الأعصم عند قوله ـتعالىـ: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾.

وقد قيل: إن سبب نزولها والسورة بعدها: أن قريشاً ندبوا، أي ندبوا من اشتهر بينهم أنه يصيب النبيﷺ بعينه؛ فأنزل الله المعوذتين، ليتعوذ منهم بهما،

ذكره الفخر عن سعيد بن المسيب، ولم يسنده.

وعدت العشرين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الفيل، وقبل سورة الناس.

وعدد آياتها خمس بالاتفاق.

واشتهر عن عبدالله بن مسعود في الصحيح أنه كان ينكر أن تكون (المعوذتان) من القرآن ويقول: إنما أمر رسول الله أن يتعوذ بهما، أي ولم يؤمر بأنهما من القرآن، وقد أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على القراءة بهما في الصلاة وكتبتا في مصاحفهم، وصح أن النبي ﷺ قرأ بهما في صلاته. **٣٠/٦٢٤ـ٦٢٥**

٤ـ **أغراضها**: والغرضُ منها تعليمُ النبيِّ ﷺ كلماتٍ للتعوذ بالله من شر ما يُتَّقَى شرُّه من المخلوقات الشريرة، والأوقاتِ التي يكثر فيها حدوثُ الشر، والأحوالِ التي يستر أفعال الشر من ورائها؛ لئلا يرمى فَاعِلوها بِتَبِعاتها؛ فعلَّم الله نبيه هذه المعوذة؛ ليتعوذ بها، وقد ثبت أن النبيَّ ﷺ كان يتعوذُ بهذه السورةِ وأختِها، ويأمر أصحابَه بالتعوذ بهما؛ فكان التعوذُ بهما مِنْ سُنَّةِ المسلمين. **٣٠/٦٢٥**

٥ـ **والفلق**: الصبح، وهو فَعَلَ بمعنى مفعول مثل الصَّمَد؛ لأن الليل شبه بشيء مُغْلَقُ ينفلق عن الصبح، وحقيقة الفلق: الانشقاق عن باطن شيء، واستعير لظهور الصبح بعد ظلمة الليل. **٣٠/٦٢٦**

٦ـ **ورب الفلق**: هو الله؛ لأنه الذي خلق أسباب ظهور الصبح.

وتخصيصُ وصفِ الله بأنه رب الفلق دون وصف آخر؛ لأن شراً كثيراً يحدث في الليل من لصوص، وسباع، وذوات سموم، وتعذرِ السير، وعسرِ النجدة،

وبعدِ الاستغاثة، واشتداد آلام المرضى، حتى ظن بعض أهل الضلالة الليل إله الشر.

والمعنى: أعوذ بفالق الصبح منجاةً من شرور الليل؛ فإنه قادر على أن ينجيني في الليل من الشر كما أنجي أهل الأرض كلهم بأن خلق لهم الصبح؛ فوصف الله بالصفة التي فيها تمهيد للإجابة. ٦٢٦/٣٠

٧ـ **والغاسق**: وصف الليل إذا اشتدت ظلمته يقال: غسق الليل يغسق، إذا أظلم قال ـتعالى ـ: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ فالغاسق صفة لموصوف محذوف لظهوره من معنى وصفه مثل الجواري في قوله ـتعالى ـ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ﴾ وتنكير ﴿غَاسِقٍ﴾ للجنس؛ لأن المراد جنس الليل.

وتنكير ﴿غَاسِقٍ﴾ في مقام الدعاء يراد به العموم؛ لأن مقام الدعاء يناسب التعميم. ٦٢٧/٣٠

٨ـ وتقييد ذلك بظرف ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي إذا اشتد ظلمته؛ لأن ذلك وقت يتحيَّنه الشُّطار، وأصحاب الدعارة والعيث؛ لتحقق غلبة الغفلة والنوم على الناس فيه، يقال: أغدر الليل؛ لأنه إذا اشتد ظلامه كثر الغدر فيه، فعبر عن ذلك بأنه أغدر، أي صار ذا غدر على طريق المجاز العقلي. ٦٢٧/٣٠

٩ـ **فالمراد بـ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾**: النساء الساحرات، وإنما جيء بصفة المؤنث؛ لأن الغالب عند العرب أن يتعاطى السحر النساء؛ لأن نساءهم لا شغل لهن بعد تهيئة لوازم الطعام، والماء، والنظافة؛ فلذلك يكثر انكبابهن على مثل هاته السفاسف من السحر والتكهن، ونحو ذلك؛ فالأوهام الباطلة تتفشى بينهن. ٦٢٨/٣٠

١٠ـ **والعقد**: جمع عقدة وهي ربط في خيط، أو وتر يزعم السحرة أنه سحر المسحور يستمر ما دامت تلك العقدة معقودة، ولذلك يخافون من حلها؛ فيدفنونها أو يخبئونها في محل لا يُهتدى إليه.

أمر الله رسولهﷺ بالاستعاذة من شر السحرة؛ لأنه ضمن له أن لا يلحقه شر السحرة، وذلك إبطال لقول المشركين في أكاذيبهم إنه مسحور، قال ـتعالىـ: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾. ٦٢٨/٣٠

١١ـ **والحسد**: إحساس نفساني مركب من استحسان نعمة في الغير مع تمني زوالها عنه؛ لأجل غيره على اختصاص الغير بتلك الحالة أو على مشاركته الحاسد فيها.

وقد يطلق اسم الحسد على الغبطة مجازاً.

والغبطة: تمني المرء أن يكون له من الخير مثل ما لمن يروق حاله في نظره، وهو محمل الحديث الصحيح: «**لا حسد إلا في اثنتين**» أي لا غبطة، أي لا تحقق الغبطة إلا في تينك الخصلتين.

وقد بين شهاب الدين القرافي الفرق بين الحسد والغبطة في الفرق الثامن والخمسين والمائتين.

وقد يغلب الحسد صبر الحاسد وأناته؛ فيحمله على إيصال الأذى للمحسود بإتلاف أسباب نعمته أو إهلاكه رأساً.

وقد كان الحسد أول أسباب الجنايات في الدنيا، إذ حسد أحد ابني آدم أخاه على أن قبل قربانه ولم يقبل قربان الآخر، كما قصه الله ـتعالىـ في سورة العقود. ٦٢٩/٣٠ـ٦٣٠

سورة النـاس

١ـ تقدم عند تفسير أول سورة الفلق أن النبيﷺ سمى سورة الناس (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ).

وتقدم في سورة الفلق أنها وسورة الناس تسميان (المعوذتين) و(المشقشقتين) بتقديم الشينين على القافين، وتقدم ـأيضاًـ أن الزمخشري والقرطبي ذكرا أنهما تسميان (المقشقشتين) بتقديم القافين على الشينين، وعنونها ابن عطية في المحرر الوجيز (سورة المعوذة الثانية) بإضافة (سورة) إلى (المعوذة) من إضافة الموصوف إلى الصفة.

وعنونهما الترمذي (المعوذتين) وعنونها البخاري في صحيحه (سورة قل أعوذ برب الناس).

وفي مصاحفنا القديمة، والحديثة المغربية والمشرقية تسمية هذه السورة (سورة الناس) وكذلك أكثر كتب التفسير.

وهي مكية في قول الذين قالوا في سورة الفلق: إنها مكية، ومدنية في قول الذين قالوا في سورة الفلق إنها مدنية.

والصحيح أنهما نزلتا متعاقبتين؛ فالخلاف في إحداهما كالخلاف في الأخرى.

وقال في الإتقان: أن سبب نزولها قصة سحر لبيد بن الأعصم، وأنها نزلت مع (سورة الفلق) وقد سبقه إلى ذلك القرطبي والواحدي، وقد علمت تزييفه في سورة الفلق.

وعلى الصحيح من أنها مكية فقد عدت الحادية والعشرين من السور، نزلت

عقب سورة الفلق وقبل سورة الإخلاص.

وعدد آيها ست آيات، وذكر في الإتقان قولاً: إنها سبع آيات وليس معزواً لأهل العدد. ٣٠/٦٣١ـ٦٣٢

٢ـ **أغراضها**: إرشادُ النبيِّ ﷺ لأن يَتَعَوَّذَ بالله ربِّه من شرِّ الوسواس الذي يحاول إفسادَ عملِ النبي ﷺ وإفسادَ إرشادِه الناسَ، ويلقي في نفوس الناسِ الإعراضَ عن دعوته.

وفي هذا الأمرِ إيماءٌ إلى أن الله ـتعالى ـ معيذُه من ذلك، فعَاصِمُه في نفسه من تسلط وسوسة الوسواس عليه، ومتمم دعوته حتى تعمَّ في الناس.

ويتبع ذلك تعليمُ المسلمين التعوذَ بذلك؛ فيكون لهم من هذا التعوذ ما هو حظُّهم من قابلية التعرضِ إلى الوسواس، ومن السلامة منه بمقدار مراتبهم في الزلفى. ٣٠/٦٣٢

٣ـ **شابهت فاتحتها فاتحة سورة الفلق** إلا أن سورة الفلق تعوذ من شرور المخلوقات من حيوان وناس، وسورة الناس تعوذ من شرور مخلوقات خفية وهي الشياطين. ٣٠/٦٣٢

٤ـ **والخناس**: الشديد الخنس، والكثيرة، والمراد أنه صار عادة له، والخنس والخنوس: الاختفاء.

والشيطان يلقب بـ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ لأنه يتصل بعقل الإنسان وعزمه من غير شعور منه، فكأنه خنس فيه، وأهل المكر والكيد والتختل خناسون؛ لأنهم يتحينون غفلات الناس، ويتسترون بأنواع الحيل، لكيلا يشعر الناس بهم. ٣٠/٦٣٤

٥ـ **وأما تكريره المرة الرابعة بقوله:** ﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ فلأنه بيان لأحد صنفي الذي يوسوس في صدور الناس، وذلك غير ما صَدَق كلمة ﴿النَّاسِ﴾ في المرّات السابقة.

والله يكفينا شر الفريقين، وينفعنا بصالح الثقلين.

تم تفسير (سورة الناس) وبه تم تفسير القرآن العظيم.

يقول محمد الطاهر ابن عاشور: قد وفيت بما نويت، وحقق الله ما ارتجيت، فجئت بما سمح به الجهد من بيان معاني القرآن، ودقائق نظامه، وخصائص بلاغته، مما اقتبس الذهن من أقوال الأئمة، واقتدح من زند لإنارة الفكر وإلهاب الهمة، وقد جئت بما أرجو أن أكون وفقت فيه للإبانة عن حقائق مغفول عنها، ودقائق ربما جلت وجوهاً ولم تَجْلُ كُنْهاً؛ فإن هذا منال لا يبلغ العقل البشري إلى تمامه، ومن رام ذلك فقد رام والجوزاء دون مرامه[1].

وإن كلام رب الناس، حقيق بأن يخدم سعياً على الرأس، وما أدى هذا الحق إلا قلم المفسر يسعى على القرطاس، وإن قلمي طالما استن بشوط فسيح، وكم زجر عند الكَلاَلِ والإعياء زَجْر المَنيح، وإذ قد أتى على التمام فقد حَقَّ له أن يستريح.

وكان تمام هذا التفسير عصر يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب عام ثمانين وثلاثمائة وألف، فكانت مدة تأليفه تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر، وهي حِقْبَةٌ لم تَخْلُ من أشغال صارفة، ومؤلفات أخرى أفنانها وارفة، ومنازعَ بقريحة شاربة

١ـ تضمين لمصراع بيت المعرى:

برومك والجوزاء دون مرامه   عدوٌّ بعيب البدر عند تمامه

طوراً وطوراً غارفة، وما خلا ذلك من تشتت بال، وتطور أحوال، مما لم تَخلُ عن الشكاية منه الأجيال، ولا كفران لله، فإن نعمه أوفى، ومكاييل فضله علي لا تطفَّفُ ولا تُكْفا.

وأرجو منه ـتعالىـ لهذا التفسير أن ينجد ويغور، وأن ينفع به الخاصة والجمهور، ويجعلني به من الذين يرجون تجارة لن تبور.

وكان تمامه بمنزلي ببلد المرسى شرقي مدينة تونس، وكتب محمد الطاهر ابن عاشور. ٣٠/٦٣٦ـ٦٣٧

فهرس الجزء الثاني

الفهرس